

عبد الرحمن البرنوقى

الذخائر والعقريات مُعْجَمٌ مُتَقَنٌ فِي جَمِيعِ

الجزء الثانى

مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ ش بورسعيد - الظاهر
القاهرة/ ت: ٩٣٦٢٧٧ - ٩٢٢٦٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

ومن سبانه نسمد العود والتوفيق

فهو المسدد إلى سواء الطريق

« وبعد ، فإننا نَفْتَحُ هذا الجزء الثاني من « الذخائر والعقريات » بصَدِّ
من عقرياتهم في أكثر المعاني التي أوردنا ما أوردنا من عقرياتهم فيها ، في
أبواب الجزء الأول ، وكان المُتَوَقَّعُ أَنْ نَفْتَحَ هذا الجزء بسائر عقرياتهم
في التعازي ، وفي المرض ، يَبْدُو أَنَا قد استحسنَّا أَنْ نُصَدِّرَ هذا الجزء الثاني
بطائفة من عقرياتهم في معاني شتى تَنْدَرِجُ في الأبواب السابقة ، وذلك
لأمرين : أما أولهما فلأن في هذا الصنيع مَبَادِرَةً بِاسْتِذْكَارِكِ ما قد كان يصح
إيراده هناك ، وأما الآخر : فذلك لأننا لم نَسْتَحْسِنُ أَنْ نَفْجَأَ المتصفح لهذا
الجزء بما عسى أَنْ يُفْرِغَهُ وَيَنْفِرَ مِنْهُ ، وَتَنْقَبِضَ نَفْسُهُ عَنْهُ ، على أَنْ هذه
العقريات وإن جاءت في البَيِّنِ وَتَصَلَّتْ بين عقريات الباب الثالث غير
أنها جاءت كالدُّرَّةِ الفريدة تَفْصِلُ بين ذَهَبِ القِلَادَةِ ؛ إلى ما في ذلك من
استراحة للقارئ وتَنَقُّلُ به من معاني قد تكثُرنا منها إلى معاني أخرى قد
يستريح إلى جِدَّتْهَا ؛ وبعد أَنْ نَفْرُغَ من هذه العقريات نَعِطِفُ على عقرياتهم
في التعازي ، وفي المرض ، وقانا الله جميعاً بِحُجَّتِهِ ، وَخَفَّفَ - إِذَا هُوَ قُدِّرَ
علينا - و طأَّتْهُ .

غـبـقـريـات شـتـى

تندرج في الأبواب السابقة

سمو أخلاق الخلفاء الراشدين

ومما يُؤثر في باب حسن الخلق ما حدّث به العُتْبِيُّ ^(١) في إسناده ذكره قال: دعا طَلْحَةُ بْنُ عُيَيْدٍ اللهَ أبا بكر وعمر وعثمانَ رَحْمَةً الله عليهم، فأبطأ الغلام - الخادم - عنه بشيءٍ أرادَه، فقال طلحةُ: يا غلام، فقال الغلام: كَيْيَك، فقال طلحةُ: لا لِيَيْكَ؛ فقال أبو بكر: ما يُسرني أني قُلْتُها وأن لي الدنيا وما فيها، وقال عمر: ما يسرني أني قُلْتُها وأن لي نصف الدنيا، وقال عثمان: ما يسرني أني قُلْتُها وأن لي حُمْر النّعم ^(٢)؛ قال العُتْبِيُّ: وصمّت عليها أبو محمد - هو طلحة - فلما خرّجوا من عنده باع ضميعةً بخمسة عشر ألف درهم، فتصدّق بِشَمَنِها ... فهل رأيت أو سمعت بمثل هذا الأدب العلويّ الرّبّانيّ! وأنت إذا نظرت إلى هذا الحديث من أيّ أقطاره رأيت أدباً باسِقاً وخُلُقاً سامياً! فهذا الصّدّيقُ رضى الله عنه يُنكر في كِيّاسَة وأدب قولة

(١) هو أبو عبد الرحمن محمد بن عبيد الله ... بن عتبة بن أبي سفيان: شاعر أديب راوية للأخبار والأدب ... تنابعت عليه مصائب في أولاده الذكور الستة في الطاعون الذي كان بالبصرة سنة ٢٢٩ هـ فرثهم بمراث كثيرة منها قوله:

كَلَّ لسانِي عن وصف ما أجد وذقتُ نُكْلاً ما ذاقه أحد
ما عالج الحزنَ والحِراةَ في الاحشاء من لم يمت له ولد
وله من الآيات السائرة:

قالت عهدتك مجنوناً فقلت لها إن الشباب جنون برؤيه الكبر

(٢) النعم: الإبل خاصة والعرب تقول: خير الإبل حرها وصمها؛ لأن الحرأصبر على المواجر، والصمأ أحسن حين ينظر إليها

أبي محمد لعلامه : لا ليك ، ثم يحيى بعده عمر فيسكر هو الآخر إنكاراً لا حظ فيه التأدب مع الخليفة أبي بكر ، وكذلك فعل عثمان مع عمر ، وأخيراً يكفر أبو محمد عن هذه البادرة بخمسة عشر ألف درهم ... لا جرم لقد أدبهم المصطفى صلوات الله عليه ، الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه .

طلحة بن عبيد الله

وهذا طلحة بن عبيد الله هو الصحابي الجليل أحد العشرة المبشرين بالجنة^(١) وأحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام ، وأحد الخمسة الذين أسلوا على يد أبي بكر ، وأحد الستة أصحاب الشورى^(٢) وأحد أغنياء الصحابة ، وأحد أجواد قريش ، بل كان نبي الجود ، إن كان للجود نبي ... وقد كان يقال له : طلحة الفياض ، وطلحة الجود ، وطلحة الخير ، يقال إنه فرق في يوم سبعمائة ألف ، باع أرضاً له من عثمان بن عفان بسبعمائة فحملها إليه ، فبات ورأسه تختلف بها في سكك المدينة حتى أسحر^(٣) وما عنده منها درهم ! ويروى أنه وصل أعرابياً من أقاربه بشماتة ألف درهم ؛ وكان لا يدع أحداً من بني تميم عائلاً إلا كفاه ، ووثقه عياله وزوج أيامهم^(٤) وأخدم عائلهم وقضى دين غارهم ، وكان يرسل إلى السيدة عائشة إذا جاءت غلته كل

(١) وقال له سيدنا رسول الله يوم أحد : إنه قد أوجب : أي أتى بما أوجب له الجنة .

(٢) أي الذين عهد إليهم الفاروق رضي الله عنه أن يتشاوروا ويختاروا من بينهم خليفة بعده .

(٣) أسحر : صار في السحر ، والسحر : ما قبل انصداع الفجر

(٤) الأياح جمع أيم والاييم من النساء : التي لازوج لها بكر أو ثبياً ومن الرجال : الذي لا امرأة له

سنة بعشرة آلاف ... إلى آخر أنباء جوده وكرمه ؛ ولما انقضى يومُ
الجل (١) خرج عليُّ بن أبي طالب في ليلة ذلك اليوم ومعه قَسْبَرٌ (٢) ، وفي
يده مَشْعَلَةٌ من نار يَتَصَفَّحُ القَتْلَى ، حتى وقف على طاححة فقال : أَعَزُّ عَلَى
أبا محمد أن أراك مُعَفَّرًا (٣) تحت نجوم السماء وفي بطون الأودية : شَفِيتُ
نَفْسِي وَقَتَلْتُ مَعْشَرِي ! إلى الله أَشْكُو عُجْرِي وَبُجْرِي (٤) ثم تمثل (٥)
قَتَّى كَانَ يُدْنِيهِ الْغَنَى من صديقه إذا ما هو اسْتَعْنَى وَيُبْعِدُهُ الْفَقْرُ
قَتَّى لَا يَبْعُدُ الْمَالَ رَبًّا وَلَا تُرَى به جَفْوَةٌ إِنْ نَالَ مَالًا وَلَا كِبَرُ
قَتَّى كَانَ يُعْطَى السِّيفُ فِي الرُّوْعِ حَقَّهُ

إِذَا تَوَبَّ الدَّاعِي وَتَشَقَّى بِهِ الْجُزُرُ (٦)

وَهَوْنٌ وَجِدِي أَنِّي سَوْفَ أُغْتَدِي عَلَى إِثْرِهِ يَوْمًا وَإِنْ نَفَسَ الْعُمُرُ

و قوله قَتَّى كَانَ يُدْنِيهِ الْغَنَى من صديقه ... ألبيت : هو معنى جميل مطروق

وفيه بقول إبراهيم بن العباس الضولي في محمد بن عبد الملك الزيات :

(١) هو تلك الواقعة التي نشبت بين علي وبين عائشة ومن معها ، وكانت عائشة تمتطي جملاً فسمى ذلك اليوم يوم الجملة

(٢) هو خادم علي

(٣) معفراً : أى ملصق الوجه بالتراب ويقال للتراب : العفر . والعفر

(٤) أى ما ظهر من أمرى وما بطن ، وأصل العجر : العروق المنعقدة في الظهر والبحر : العروق المنعقدة في البطن ، وقال الأصمى : هو قول سائر في أمثال العرب يقال : لقي فلان فلانا فأبته عجره وبجره

(٥) هذه الأبيات لسلسلة بن يزيد بن مشجعة الجهمي أحد الصحابة يرثى أخاه لأمه

(٦) توب الداعي ، فالشوب : التلويع بالشوب مع صوت فيه استغاثة وقال عمرو ابن العلاء : الشوب : الترجيع من ناب يشوب إذا رجع يريد : إذا رجع الداعي دعاء بعد دعاء ، يصفه بإجابة الصريخ وقوله : وتشقى به الجزر ، يصفه بكرم الضيافة

أَسَدٌ ضَارٍ إِذَا مَا نَعْتَهُ وَأَبٌ بَرٌّ إِذَا مَا قَدَرَا
يَعْرِفُ الْآبَعْدَ إِنْ أَثَرَى وَلَا
يَعْرِفُ الْآدَنَى إِذَا مَا اقْتَرَا

ويقول الأديب أبو بكر الخوارزمي :

رَأَيْتُكَ إِنْ أَيْسَّرْتَ خَيْمَتَ عِنْدَنَا لَزَامًا وَإِنْ أَعَسَّرْتَ زُرْتَ لِمَامَا
فَمَا أَنْتَ إِلَّا الْبَدْرُ إِنْ قَلَّ ضَوْؤُهُ أَغْبَ وَإِنْ زَادَ الضِّيَاءُ أَقَامَا
وقد تقدمت أبيات لعبد الله بن الزبير الأسدي في هذا المعنى ؛ وما أبرع
أبياتا لابن المعتز يقول فيها :

إِذَا مَا أَرَادَ الْحَاسِدُونَ أَنْهَدَامَهُ بَنَاهُ إِلَهُ غَالِبُ الْعِزِّ قَاهِرُهُ
وَمَاذَا يَرِيدُ الْحَاسِدُونَ مِنْ أَمْرِي تَزِينُهُمْ أَخْلَافُهُ وَمَا ثَرُهُ
إِذَا مَا هُوَ اسْتَغْنَى اهْتَدَى لَافْتِقَارِهِمْ

ولا تهتدى يوماً إليهم مفاقرُهُ (١)

وكانوا كزرايم كوكباً يبصافه قُرْدٌ عليهم وَبُلُهُ وَمَوَاطِرُهُ (٢)

حادث تلاقى فيه الكرم بالشجاعة والمروءة

والحياء والنبل

تَحَدَّثَ رَجُلٌ مِنَ الْأَعْرَابِ قَالَ : نَزَلْتُ بِرَجُلٍ مِنْ طَيْيٍّ ، فَتَحَرَّ لِي نَاقَةٌ

(١) المفاقر : وجوه الفقر ، أو جمع فقر على غير قياس كالملاح والمشابه

(٢) هذا البيت كما قال بعض العرب :

رَمَانِي بِأَمْرِ كُنْتُ مِنْهُ وَوَالِدِي بَرِيثًا وَمِنْ جَالِ الطَّوِيِّ رَمَانِي
و الجال والجول : الناحية ، والطوى : البئر ، يريد : رماني بما عاد عليه ،

فَأَكَلْتُ مِنْهَا ، فَلَمَّا كَانَ الْعَدُوُّ نَحَرَ أُخْرَى فَقُلْتُ : إِنَّ عِنْدَكَ مِنَ اللَّحْمِ مَا يُغْنِي ^{عَنْ} وَيَكْفِي ! فَقَالَ : إِنْ وَاللَّهِ لَا أُطْعِمُ ضَيْفِي إِلَّا لَحْمًا عَبِيْطًا ! قَالَ : وَفَعَلَ ذَلِكَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ ، وَفِي كُلِّ ذَلِكَ أَكَلْتُ شَيْئًا وَيَأْكُلُ الطَّائِفُ أَكْلَ جَمَاعَةٍ ، ثُمَّ نُوتِي بِاللَّبَنِ فَأَشْرَبُ شَيْئًا وَيَشْرَبُ عَامَّةُ الْوُطْبِ ! فَلَمَّا كَانَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ ارْتَقَبْتُ غَفْلَتَهُ ، فَاضْطَجَعْتُ ، فَلَمَّا امْتَلَأْتُ نَوْمًا اسْتَقْتُ قَطِيعًا مِنْ إِبِلِهِ ، فَأَقْبَلْتُهُ الْفَجَّ ، فَانْتَبَهَ ، وَاخْتَصَرَ عَلَيَّ الطَّرِيقَ حَتَّى وَقَفَ لِي فِي مَضِيقٍ مِنْهُ ، فَأَلْقَمَ وَتَرَهُ فَوْقَ سَهْمِهِ ، ثُمَّ نَادَى بِي : لَتَطْبُ نَفْسُكَ عَنْهَا ، قُلْتُ : أَرِنِي آيَةً ، فَقَالَ : انْظُرْ إِلَى ذَلِكَ الضَّبِّ ، فَإِنِّي وَاضِعٌ سَهْمِي فِي مَغْرَزِ ذَنْبِهِ ، فَرَمَاهُ ، فَأَنْدَرُ ذَنْبَهُ ، فَقُلْتُ : زِدْنِي ، فَقَالَ : انْظُرْ إِلَى أَعْلَى فَقَارِهِ ، فَرَمَاهُ ، فَأَثْبَتَ سَهْمَهُ فِي الْمَوْضِعِ ، ثُمَّ قَالَ لِي : الثَّالِثَةُ وَاللَّهُ فِي كَيْدِكَ ! فَقُلْتُ : شَأْنُكَ بِإِبِلِكَ ! فَقَالَ : كَلَّا ، حَتَّى تَسُوْقَهَا إِلَى حَيْثُ كَانَتْ ! قَالَ : فَلَمَّا انْتَهَيْتُ بِهَا قَالَ : فَكَّرْتُ فِيكَ فَلَمْ أَجِدْ لِي عِنْدَكَ رِزَّةً تُطَالِبُنِي بِهَا ، وَمَا أَحْسِبُ الَّذِي حَمَلَكَ عَلَى اخْتِذِ إِيْلِي إِلَّا الْحَاجَةُ ! قَالَ : قُلْتُ : هُوَ وَاللَّهُ ذَاكَ ، قَالَ : فَأَعِزُّدْ إِلَى عَشْرِينَ مِنْ خِيَارِهَا فَخُذْهَا ! فَقُلْتُ : إِذَنْ وَاللَّهُ لَا أَفْقَلُ حَتَّى تَسْمَعَ مَدْحَكَ ، وَاللَّهُ مَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَكْرَمَ ضِيَاةً وَلَا أَهْدَى لِسِيلٍ وَلَا أَرْمَى كَفَا وَلَا أَوْسَعَ صَدْرًا وَلَا أَرْغَبَ جَوْفًا وَلَا أَكْرَمَ عَفْوًا ، مِنْكَ ! قَالَ : فَاسْتَحْيَا فَصَرَفَ وَجْهَهُ عَنِّي ، ثُمَّ قَالَ : أَنْصِرْفِ بِالْقَطِيعِ مُبَارَكًا لَكَ فِيهِ ...

• قَوْلُهُ : عَبِيْطًا : يُقَالُ : عَبِطَ فُلَانٌ نَاقَتَهُ : إِذَا نَحَرَهَا مِنْ غَيْرِ دَاءٍ وَلَا كَسِرٍ وَهِيَ شَابَةٌ سَمِيَّةٌ ، وَالْعَبِيْطُ أَيْضًا : اللَّحْمُ الطَّرِيقِيُّ غَيْرِ النَّضِيْجِ ، وَالْوُطْبُ : سِقَاءُ اللَّبَنِ خَاصَّةً مِنْ جِلْدٍ ، وَالْفَجَّ : الطَّرِيقَ الْوَاسِعَ بَيْنَ جَبَلَيْنِ ، وَالْجَمْعُ : جُلُجُجٌ ؛ وَاخْتَصَرَ الطَّرِيقَ : سَلَكَ أَقْرَبَهُ ، وَفَوْقَ السَّهْمِ : مَشَقُّ رَأْسِهِ حَيْثُ

يقع الوتر ، وقوله : فَأَنْدَرَ ذَنْبَهُ : أى أَسْقَطَهُ ، وقد نَدَرَ الشئُ يَنْدُرُ نَدُورًا : سقط أو سقط من جوفِ شئ أو من بين أشياء فظهر ، ومنه نوادرُ الكلام وهى ما شذت وخرجت عن جمهوره فظهرت . وقوله : ولا أَرغب جوفًا : من الرُغب وهو : سعة البطن وكثرة الأكل ،

حلم وأدب وسمو خلق

رَوَى المُبرِّدُ : أَنَّ رجلاً من أهل الشام قال : دخلتُ المدينة ، فرأيتُ رجلاً رَاكِبًا على بغلة لم أَر أَحسنَ وجهًا ولا سَمْتًا ولا ثوبًا ولا دَابَّةً ، منه ا فسالَ قلبى إليه ، فسألت عنه فقيل لى : هذا الحسن بنُ على بن أبى طالب ، فامتلأ قلبى له بُغضًا ^(١) وَحَسَدْتُ عاىا أن يكون له ابنٌ مثله ا فُصِرْتُ إليه ^(٢) ، فقلت له : أأنت ابن أبى طالب ؟ فقال : أنا ابنُ ابنة ، فقلت : فبك وبأبيك أُسُبُّهما ، فلما انقضى كلامى قال لى : أَحَسِبُكَ غريبًا ا قلت : أَجَلُ قال : فإِن بِنَا فَإِن احتججتَ إلى منزلِ أنزلناك ، أو إلى مالِ آسيناك ، أو إلى حاجةِ عاوناك ، قال : فانصرفتُ عنه ووالله ما على الأرضِ أحدٌ أَحَبُّ إلىّ منه ... وقال رجل لرجلٍ من قريش : لِمَ مَرَرْتُ بقومٍ من قريش يشتمونك شتمًا رَحِمْتُكَ منه ا قال القرشى : أَفَسَمِعْتَنِ أَقول إلا خيرا ؟ قال : لا ، قال : إِيَّاهم فآرحم ... وقال ابن مسعود : إن الرجلَ لَيَظْلِمُنِي فَأَرْحُمُهُ ا وقال رجلٌ للشَّعْبِيِّ كلامًا أَقْدَحَ له فيه ، فقال له الشَّعْبِيُّ : إن كنتَ صادقًا فغفر الله لى ، وإن كنتَ كاذبًا فغفر الله لك ... وَيُرَوَّى أَنَّهُ أتى مَسْجِدًا ، فصادَفَ فيه قوما يغتابُونَهُ ، فَأَخَذَ بَعْضَادَتِي البابَ ثم تمثل بقول كثير عزة :

(١) لأن الرجل من أشياخ معارية بن أبى سفيان رضى الله عنه (٢) توجهت إليه

هَنِيئًا مَرِيئًا غَيْرَ دَائٍ مُخَامِرٍ لِعَزَّةٍ مِنْ أَعْرَاضِنَا مَا اسْتَحَلَّتْ
وقال محمود الوراق :

إِنِّي شَكَرْتُ لِظَالِمِي ظُلْمِي وَغَفَرْتُ ذَاكَ لَهُ عَلَى عِلْمِي
وَرَأَيْتُهُ أَسَدَى إِلَى يَدَا لَمَّا أَبَانَ بِجَهْلِهِ حِلْمِي
رَجَعْتُ إِسَاءَتُهُ عَلَيْهِ وَلِإِحْسَانِي فَعَادَ مُضَاعَفَ الْجُرْمِ
وَعَدَوْتُ ذَا أَجْرٍ وَمَحْمَدَةٍ وَعَدَا بِكَسْبِ الظُّلْمِ وَالْإِثْمِ
فَكَأَنَّمَا الْإِحْسَانُ كَانَ لَهُ وَأَنَا الْمُسِيءُ إِلَيْهِ فِي الْحُكْمِ
مَازَالَ يَظْلِمُنِي وَأَرْحُمُهُ حَتَّى بَكَيْتُ لَهُ مِنَ الظُّلْمِ

خير ما يرزقه العبد

قال بعض الملوك لبعض وزرائه - وأراد محنته - : ما خير ما يرزقه
العبد ؟ قال : عقلٌ يعيش به ، قال : فإن عديمه ؟ قال : فادبٌ يتجلى به ،
قال : فإن عديمه ؟ قال : فمالٌ يسُتره ، قال : فإن عديمه ؟ قال : فصاعقةٌ تريح
منه العباد والبلاد ...

لاتزال العرب عربا

ما حافظت على زيبها

كان الأحنف بن قيس يقول : لاتزال العربُ عرباً ما لبست العمام ،
وتقلدت السيوف ، ولم تعدد الحِلْمَ ذُلاً ، ولا التَّوَاهُبَ فيما بينها ضعة ...
« قوله : ما لبست العمام ، يريد : ما حافظت على زيبها ، وقوله : وتقلدت
السيوف ، يريد : الامتناع من الضيم ، وقوله : ولم تعدد الحِلْمَ ذُلاً ، يقول :
ما عرفت موضع الحِلْم ، وذلك أن الرجل إذا أغضى للسلطان ، أو أغضى

عن الجواب وهو ما سوره لم يُقَلْ: حَلَمَ ، وإنما يقال : حَلُمَ ، إذا ترك أن يقول الشيء لصاحبه مُتَعَصِّراً ولا يخاف عاقبةً يَكْرَهُهَا . فهذا الحِلْمُ المحض ، فإذا لم يفعل ذلك ورأى أن تركه الحِلْمُ ذُلٌّ فهو خطأً وسَفَهٌ ؛ وقوله : ولم ترك النواهب بينها ضَعْفٌ ، نحو من هذا ، وهو : أن يَهَبَ الرجل من حَقِّه مالا يُسْتَكْرَه عليه ... وكان يقال : أحيوا المعروف بإماتته ، ومعنى ذلك : أن الرجل إذا امتنَّ بمعرفه كدَّرَه ؛ وقيل : المِنَّةُ تَهْدِمُ الصَّنِيعَةَ ، وقد قال قيس بن عاصم المِنْقَرِي : يا بني تميم ، اصْحَبُوا مَنْ يَذْكُرُ إِحْسَانَكُمْ إِلَيْهِ وَيَلْسَى أَيْادِيَهُ إِلَيْكُمْ ...»

توقير العالم والشريف والكبير

والترفع عن الوضع

كان زياد بن أبيه يقول : أوصيكم بثلاثة : بالعالم ، والشريف - يعنى العظيم القدر - والشيخ - يريد : الذى تقدمت به السن - فوالله لأوثق بوضع سب شريفا ، أو شابٍ وَثَبَ بشيخ ، أو جاهلٍ اِمْتَهَنَ عالما ، إلا عاقبتُ وبالفُتُ ... وقال عُمارة بن عَقِيل بن بلال بن جرير لبني أسد ابن خزيمة :

يا أيها السائل عمداً لاُخْبِرَه بذاتِ نفسى وأيدى الله فوق يدي
إن تستقيم أسدُ ترشدو وإن شغبَت فلا يَلُمُ لائِمٌ إلا بني أسد
إني رأيتمُ يُعَصَى كُبيركم وتكنعون إلى ذى الفَجْرةِ النَّكِدِ^(١)

(١) تكنعون : تخضعون ، من كنع يكنع - بالفتح فهما - كنوعا : خضع ، والفجرة اسم لكل قبيح ، من فجر الرجل يفرج فجرا وفجورا : انبعث في المعاصى ، والنكيد : اللئيم ، من النكد - بالتحريك - وهو الشوم واللؤم

فَبَاعِدَ اللَّهُ كُلَّ الْبُعْدِ دَارَكُمْ وَلَا شَفَاكُم مِنَ الْأَضْغَانِ وَالْحَسَدِ
 فَرَأَى عَصِيَانَهُمَ الْكَبِيرَ مِنْ أَفْجَحِ الْعَيْبِ وَأَدَّلَهُ عَلَى ضِغْنِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ
 وَحَسَدِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا ، وَالْوَضِيعَ يَنْقَلِبُ إِلَى الشَّرِيفِ لِأَنَّهُ يَرَى مُقَاوَلَتَهُ غَفْرًا ،
 وَالْأَجْرَاءَ عَلَيْهِ رَجَاءً ، كَمَا أَنَّ مُقَاوَلَةَ الشَّرِيفِ لِلتَّيْمِ ذُلٌّ وَضَعَةٌ قَالَ الشَّاعِرُ :
 إِذَا أَنْتَ قَاوَلْتَ التَّيْمَ فَإِنَّمَا يَكُونُ عَلَيْكَ الْعَتَبُ حِينَ تُقَاوَلُهُ
 وَلَسْتَ كَمَنْ يَرْضَى بِمَا غَيْرُهُ الرِّضَا وَيَمْسَحُ رَأْسَ الذَّنْبِ وَالذَّنْبُ آكَلُهُ
 قَالَ الْمُبَرِّدُ : وَفِي هَذَا الشَّعْرَ يَتَنَانُ يَقْدَمَانِ فِي بَابِ الْفَتَكِ - وَفِي بَابِ الْغَرَمِ
 وَالشَّجَاعَةِ وَالْإِقْدَامِ - وَهَمَا :

فَلَا تَقْرِنَنَّ أَمْرَ الصَّرِيمَةِ بِأَمْرِي إِذَا رَامَ أَمْرًا عَوَّقَتْهُ عَوَاذِلُهُ (١)
 وَقُلْ لِلْقَوَادِ إِنَّ نَزَابَكَ نَزْوَةٌ مِنَ الرُّوعِ : أَفْرِخْ أَكْثَرَ الرُّوعِ بِاطِلُهُ (٢)
 قَالَ الْمُبَرِّدُ : وَقَدْ امْتَنَعَ قَوْمٌ مِنَ الْجَوَابِ - أَيْ مِنْ مُقَاوَلَةِ التَّيْمِ - تَبَلَا
 - يَرِيدُ تَرْفَعًا - وَوَاضِعُهُمْ تُنْبِئُ عَنْ ذَلِكَ - أَيْ أَنَّ مَرَاكِزَهُمْ تَدُلُّ عَلَى
 أَنَّ امْتِنَاعَهُمْ تَرْفَعٌ - وَامْتَنَعَ قَوْمٌ عِيًّا بِلَا ائْتِلَالٍ - يَرِيدُ دُونَ أَنْ يَبْدُوا عِلَّةً لِهَذَا
 الْإِعْرَاضِ عَنِ الثَّامِ - وَامْتَنَعَ قَوْمٌ عَجَزُوا وَاعْتَلُّوا بِكَرَاهَةِ السَّفْهِ ، وَبَعْضُهُمْ
 مَعْتَلٌّ بِرَفْعَةِ نَفْسِهِ عَنْ خَصْمِهِ ، وَبَعْضُهُمْ كَانَ يُسَبُّهُ الرَّجُلُ الرِّكِيكُ مِنَ
 الْعَشِيرَةِ ، فَيُعْرِضُ وَيُسَبُّ سَيِّدَ قَوْمِهِ ، وَكَانَتِ الْجَاهِلِيَّةُ رَجْمًا فَعَلَّتْهُ فِي الذُّحُولِ

(١) فَلَا تَقْرِنَنَّ : مِنْ قَرَنَ الشَّيْءَ بِالشَّيْءِ : شَدَّهُ إِلَيْهِ ، وَكَذَلِكَ قَرَنَهُ إِلَيْهِ ،
 وَالصَّرِيمَةُ : الْعَزِيمَةُ

(٢) إِنَّ نَزَابَكَ نَزْوَةٌ : فَالنَزْوَةُ : الْمَرَّةُ مِنَ النَّزْوِ وَهُوَ الْوُثْبُ إِلَى فَوْقَ ، يَرِيدُ :
 إِنَّ تَسْلُطَ عَلَيْهِ الْقَرْعُ وَالرَّعْبُ فَاضْطَرَبَ ، وَأَفْرِخُ يَرِيدُ : أَفْرِخُ رَوْعَكَ ، وَمَعْنَاهُ : لِيُخْرِجَ
 عَنْكَ رَعْبَكَ وَيَذْهَبَ فَرْعُكَ كَمَا تَفْرِخُ الْبَيْضَةُ إِذَا انْفَلَقَتْ عَنِ الْفَرْخِ فَخَرَجَ مِنْهَا وَقَوْلُهُ :
 أَكْثَرَ الرُّوعِ بِاطِلُهُ ، يَرِيدُ : لَيْسَ الْأَمْرُ عَلَى مَا تَحَاذَرُ

- جمع دُحُل وهو: الثَّار - قال الراجز:

إِن بَجِلاَ كُلما هَجَانِي مِلْتُ عَلَى الْأَغْطِشِ أَوْ أَبَانِ
أَوْ طَلَحَةِ الْخَيْرِ قَتَى الْفَتِيَانِ أَوْلَاكَ قَوْمٌ شَأْنُهُمْ كَشَانِ
مَا نِلْتُ مِنْ أَعْرَاضِهِمْ كَفَانِي وَإِنْ سَكَتُ عَرَفُوا إِحْسَانِي
وقال أحد المحدثين :

إِنِّي إِذَا هَرَّ كُلُّ الْحَيِّ قَلْتُ لَهُ إِسْلَمْ وَرَبُّكَ مَخْنُوقٌ عَلَى الْجِرَرِ ^(١)
وفي مثل اختيار النِّبِيل لنتكافأ الأعراض قول الأخطل :

شَقَى النَّفْسَ قَتَلَى مِنْ سُلَيْمٍ وَعَاسِرٍ وَلَمْ يَشْفِهَا قَتَلَى غَتَى وَلَا جَسِرٍ
وَلَا جُشَمٍ شَرَّ الْقَبَائِلِ لَهَا كَيْبِضُ الْقَطَا لَيْسُوا بِسُودٍ وَلَا حُمْرٍ
وَلَوْ بَنَى ذِيانَهُ بُلْتُ رِمَاحُنَا لَقَرَّتْ بِهِمْ عَيْنِي وَبَاءَ بِهِمْ وَتَرَى
وقال رجل من المحدثين وهو حمدان بن أبان اللاحقي :

أَلَيْسَ مِنَ الْكَبَائِرِ أَنْ وَغْدًا لَّالٍ مُعَذَّلٍ يَهْجُو سَدُوسًا
هَجَا عِرْضًا لَهُمْ غَضًّا جَدِيدًا وَأَهْدَفَ عِرْضَ وَالِدِهِ اللَّيْسَا ^(٢)
وقال آخر :

اللُّؤْمُ أَكْرَمُ مِنْ وَبَرٍ وَوَالِدِهِ وَاللُّؤْمُ أَكْرَمُ مِنْ وَبَرٍ وَمَا وَلَدَا
قَوْمٌ إِذَا جَرَّ جَانِي قَوْمَهُمْ أَمِنُوا مِنْ أَوْمٍ أَحْسَا بِهِمْ أَنْ يُقْتَلُوا قَوْدَا
اللُّؤْمُ دَاءٌ لَوَبَرٍ يُقْتَلُونَ بِهِ لَا يُقْتَلُونَ بِدَاءٍ غَيْرِهِ أَبَدَا
وقال أحد المحدثين هو - دَعْبِل بن علي الخزاعي - :

(١) الجرر : جمع جرّة وهي : الجذب كالجر والاجترار

(٢) يريد . جعله هدفًا يرمى ، والليّس : مستعار من قولهم ثوب لبيس إذا كثر لبيسه فأخلق

أما الهجاءُ فَدَقَّ عِرْضُكَ دُونَهُ والمدْحُ غَنَكَ كما عَلِمْتَ جَلِيلُ
فَاذْهَبْ فَإِنَّ عَتِيقُ عِرْضِكَ إِنَّهُ عِرْضُ عَزَزْتَ بِهِ وَأَنْتَ ذَلِيلُ
وقال آخر :

نُبِّئْتُ كَلْبًا هَابَ رَمِي لَهُ يَبْخُنِي مِنْ مَوْضِعِ نَائِي ^(١)
لو كُنْتُ مِنْ شَيْءٍ هَجُونَاكَ أَوْ لَوْ بَدَتْ لِلسَّامِعِ وَالرَّائِي ^(٢)
فَعَدَّ عَنْ شَتْمِي فَإِنِّي أَمْرُؤُ حَلَمْنِي قَلَّةٌ أَكْفَائِي
وقال دعبل أيضاً :

فلو أَنِّي بُلِيتُ بِهَاسِمْي خُولْتُهُ بَنُو عَبْدِ الْمَدَانِ
صَبَرْتُ عَلَى عَدَاوَتِهِ وَلَكِنْ تَعَالَى فَأَنْظُرِي بَيْنَ ابْتِلَانِي
وَوَقَفَ رَجُلٌ عَلَيْهِ مُقَطَّعَاتٌ عَلَى الْإِخْفِ بْنِ قَيْسٍ يُسَبُّهُ ، وَكَانَ عَمْرُو
ابْنُ الْأَثَمِ جَعَلَ لَهُ أَلْفَ دِرْهَمٍ عَلَى أَنْ يُسَفِّهُ الْإِخْفَ ، فَجَعَلَ لَا يَأْلُو أَنْ
يُسَبَّهُ سَبًّا يُغْضِبُ ، وَالْإِخْفُ مُطَرِّقٌ صَامِتٌ ، فَلَمَّا رَأَاهُ لَا يُكَلِّمُهُ أَقْبَلَ
الرَّجُلُ يَعْصُ إِبْهَامِيهِ وَيَقُولُ : يَا سَوْآتَاهُ ، وَاللَّهِ مَا يَمْنَعُهُ مِنْ جَوَابِي إِلَّا هَوَانِي
عَلَيْهِ ... وَفَعَلَ ذَلِكَ آخَرُ فَأَمْسَكَ عَنْهُ الْإِخْفُ ، فَأَكْثَرَ الرَّجُلُ ، إِلَى أَنْ
أَرَادَ الْإِخْفُ الْقِيَامَ لِلْغَدَاءِ فَأَقْبَلَ عَلَى الرَّجُلِ فَقَالَ : يَا هَذَا ، إِنَّ غَدَاءَنَا قَدْ
حَضَرَ فَانْهَضْ بِنَا إِلَيْهِ إِنَّ شَتَّ فَإِنَّكَ مَذَّ الْيَوْمَ تَحْدُو بِجَمَلٍ نَقَالَ. ^(٣)

عَبْرَةٌ

قال المنصورُ لعمرُو بنِ عُبَيْدٍ : عِظْنِي قَالَ : بِمَا رَأَيْتُ أَوْ بِمَا سَمِعْتُ ؟

(١) يَبْخُنِي : يريد تلحقني شتائمه على سبيل المجاز

(٢) يريد : لو أحسن بك الأعمى والبصير

(٣) الثقال من الإبل : البطيء الثقيل الذي لا يكاد ينهض ...

قال : بما رأيت ، قال : مات عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَخَلَّفَ أَحَدَ عَشَرَ ابْنًا وَبَلَغَتْ تَرِكَتُهُ سَبْعَةَ عَشَرَ دِينَارًا ، كُفِّنَ مِنْهَا بِخَمْسَةِ ، وَاشْتَرَى مَوْضِعًا لِقَبْرِهِ بِدِينَارَيْنِ ، وَأَصَابَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ أَوْلَادِهِ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ قِيرَاطًا مِنْ دِينَارٍ ... وَمَاتَ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ تَخَلَّفَ أَحَدَ عَشَرَ ابْنًا أَصَابَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ أَوْلَادِهِ أَلْفَ أَلْفٍ دِينَارٍ ، فَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أَوْلَادِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَدْ حَمَلَ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ عَلَى مِائَةِ فَرَسٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أَوْلَادِ هِشَامٍ عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيقِ يَسْأَلُ الصَّدَقَةَ ...

لا تشكُ إلى غير الله

حَدَّثَ بَعْضُهُمْ قَالَ : سَمِعْتُ شُرَيْحَ الْقَاضِي وَأَنَا أَشْكُو بَعْضَ حَالِي إِلَى صَدِيقٍ لِي ، فَأَخَذَ يَدِي وَقَالَ : يَا ابْنَ أَخِي ، إِيَّاكَ وَالشَّكْوَى إِلَى غَيْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، الصَّدِيقُ يُخْزِنُهُ ، وَالْعَدُوُّ تُشْمِتُهُ ؛ انْظُرْ إِلَى عَيْنِي هَذِهِ - وَأَشَارَ إِلَى أَحَدِي عَيْنَيْهِ - وَقَالَ : وَاللَّهِ ، مَا أَبْصَرْتُ بِهَا شَخْصًا وَلَا طَرِيقًا مُنْذُ خَمْسِ عَشْرَةِ سَنَةٍ ، وَمَا أَخْبَرْتُ بِهَا أَحَدًا إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ سِوَاكَ ...

نبالة ومروءة

حَدَّثَ الْعَسْجَدِيُّ قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى أَبِي إِسْمَاعِيلَ الْكِسَائِيِّ لَيْلًا فَقَالَ : مَا جَاءَ بِكَ ؟ قَالَ : رَكِبْتُ دَيْنُ ، فَقَالَ : كَمْ هُوَ ؟ قَالَ : أَرْبَعُمِائَةِ دِرْهَمٍ ، فَأَخْرَجَ كَيْسًا فَأَعْطَاهُ ، فَلَمَّا رَجَعَ عَنْهُ بَكَى ، فَقَالَ لَهُ أَهْلُهُ : مَا يَكِيكَ ؟ فَقَالَ : بُكَائِي أَنِّي لَمْ أَبْحَثْ عَنْ حَالِهِ وَأُلْجَأْتُهُ إِلَى الذَّلِّ ...

دعوة الله

قال أعرابي :

وَإِنِّي لَأُغْضِي مُقَلَّتِي عَلَى الْقَذَى وَالْبُسِ تَوْبَ الصَّبْرِ أَيْضَ أَبْلَجَا
وَإِنِّي لَادْعُو اللَّهَ وَالْأَمْرَ ضَيْقُ عَلَى فَمَا يَنْفَكُ أَنْ يَتَفَرَّجَا
وَكَمْ مِنْ قَتَى ضَاقَتْ عَلَيْهِ وَجُوهُهُ أَصَابَ لَهَا فِي دَعْوَةِ اللَّهِ تَخَرَّجَا

كلمات في السؤال

قال الأصمعي : سمعت أعرابيا يقول : فَوْتُ الْحَاجَةِ خَيْرٌ مِنْ طَلِبِهَا مِنْ
غَيْرِ أَهْلِهَا ... قال : وسمعت آخر يقول : عِزُّ النَّزَاهَةِ أَشْرَفُ مِنْ سُرُورِ الْعَائِدَةِ
قال : وسمعت آخر يقول : حَمْلُ الْمَنِّ أَثْقَلُ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى الْقَدَمِ ... وفي
الحديث الشريف : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ ثُمَّ يَغْدُو إِلَى
الْجَبَلِ فَيَحْتَطِبُ فَيَبِيعُ فَيَأْكُلُ وَيَتَصَدَّقُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ أَحَدًا فَيُعْطِيهِ
أَوْ يَمْنَعَهُ .

كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ الْمُلُوكَ لَا يُسْتَحَى مِنْ مَسْأَلَتِهِمْ

ولمناسبة السؤال نورد عليك مايلي : كان كبيد بن ربيعة الشاعر المخضرم
شريفاً في الجاهلية والاسلام ، وكان نَذَرُ أَنْ لَا تَهْبُ الصَّبَا ^(١) إِلَّا نَحَرَ
وَأَطْعَمَ حَتَّى تَنْقَضِيَ ، فَهَبَّتْ بِالْإِسْلَامِ وَهُوَ بِالْكُوفَةِ ^(٢) مُقِرٌّ مُتْلِقٌ ،

(١) الصبا : الريح التي تهب من مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار وتسمى
القبول لأنها تستقبل الكعبة

(٢) يقال : إنه أقام بالكوفة في عهد عمر بن الخطاب ولم يزل بها حتى مات في
آخر خلافة معاوية عن خمس وأربعين ومائة سنة ، رحمه الله

فَعَلِمَ بِذَلِكَ الْوَلِيدُ بْنُ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ - وَكَانَ وَالِيَهَا لِعُمَيْانَ بْنِ عَفَّانَ - وَكَانَ أَخَاهُ لِأُمِّهِ - نَخِطَبُ النَّاسَ وَقَالَ : إِنَّكُمْ قَدْ عَرَفْتُمْ نَذْرَ أَبِي عَقِيلٍ وَمَا وَكَّدَ عَلَى نَفْسِهِ ، فَأَعِينُوا أَخَاكُمْ ، ثُمَّ نَزَلَ ، فَبِعِثَ إِلَيْهِ بِمِائَةِ نَاقَةٍ وَأَيَّاتٍ يَقُولُ فِيهَا :

أَرَى الْجَزَارَ بِشَحْدٍ شَفَرَتَيْهِ إِذَا هَبَّتْ رِيَّاحُ أَبِي عَقِيلٍ ^(١)

أَشْمُ الْأَنْفِ أَصِيدُ عَامِرِي طَوِيلُ الْبَاعِ كَالسَّيْفِ الصَّقِيلِ ^(٢)

وَقَى ابْنُ الْجَعْفَرِيِّ بِمَا نَوَاهُ عَلَى الْعِلَّاتِ وَالْمَالِ الْقَلِيلِ ^(٣)

بِنَجْرِ السَّكُومِ إِذْ سُحِبَتْ عَلَيْهِ ذُبُولُ صَبَاً تَجَاوَبُ بِالْأَصِيلِ ^(٤)

فَلَمَّا أَتَتْهُ قَالَ : جَزَى اللَّهُ الْأَمِيرَ خَيْرًا ، قَدْ عَرَفَ الْأَمِيرَ أَنِّي لَا أَقُولُ شِعْرًا ^(٥) وَلَكِنْ أَخْرَجِي يَا بِلَيْتِي ، فَخَرَجَتْ خُمَاسِيَّةً ^(٦) فَقَالَ لَهَا : أَجِيبِي الْأَمِيرَ ، فَأَقْبَلَتْ وَأَذْبَرَتْ ، وَبِعِثَ النَّاسُ ، فَقَضَى نَذْرَهُ ، فَبَيَّنَ ذَلِكَ تَقُولُ أَبْنَةُ لَيْدٍ :

إِذَا هَبَّتْ رِيَّاحُ أَبِي عَقِيلٍ دَعَوْنَا عِنْدَ هَبَّتِهَا الْوَلِيدَا

طَوِيلَ الْبَاعِ أَيْضَ عَبْشَمِيًّا أَعَانَ عَلَى مُرُوءَتِهِ لَيْدَا ^(٧)

(١) الشفرة: السكين ، والشجد: التحديد بالمشجد بكسر الميم ، وهو المسنن

(٢) الاصيد: الذي يرفع رأسه كبرا لا يلتفت يمينا ولا شمالا

(٣) على العلات: على كل حال أو على ما فيه من الحالات والشئون

(٤) الكوم: العظام الاسنة واحدها كوما

(٥) لانه حزم على نفسه قول الشعر منذ أسلم

(٦) خماسية: طولها خمسة أشبار ، وكذلك غلام خماسي ولا يقال إذا بلغ ستة

أشبار أو سبعة: سداسي ولا سباعي

(٧) أبيض: إذا قالت العرب: فلان أبيض فالمعنى: نقاء العرض من الدنس والعيوب

لا يريدون بياض اللون وهذا كثير في شعرهم. وعبشمي: من بني عبد شمس بن عبد مناف

بأمثال الهضاب ، كأن ركباً عليها من بني حارم فعوداً ^(١)
 أبا وهب جزاك الله خيراً نحرناها وأطعمنا النريد
 فعد إن الكريم له معاد وظنى بآبن أروى أن يعودا
 فقال لها ليبد : أحسنت يا بليتى لولا أنك سألت ! فقالت : إن الملوك
 لا يستحي من مسألتهم ! ولو كان سرقة لم أفعل ... فقال لها : وأنت في
 هذا أشعر !

مثل في الرياء

عن وهب بن منبه قال : نصب رجل من بني إسرائيل خفياً ، فجاءت
 عصفورة فنزلت عليه ، فقالت : مالى أراك منحياً ؟ قال : لكثرة صلاتى
 انخبت ! قالت : فمالى أراك بادية عظامك ؟ قال : لكثرة صيامى بدت
 عظامى ! قالت : فمالى أرى هذا الصوف عليك ؟ قال : لزهادى فى الدنيا ليست
 الصوف ! قالت : فما هذه العصا عندك ؟ قال : أتوكأ عليها وأفضى حوائجى ،
 قالت : فما هذه الحبة فى يدك ؟ قال : قربان إن سرتى مسكين ناوئته
 إياه ، قالت : فإنى مسكينة ! قال : فخذها ، فدنت فقبضت على الحبة ،
 فإذا الفخ فى عنقها ، فجملت تقول : قعى قعى ! تفسيره : لأغررنى ناسكك وراء
 بعدك أبدا ...

(١) بأمثال الهضاب : جمع هضبة بسكون الضاد وهو كل جبل خلق من صخرة واحدة أو هي كل صخرة ضخمة ، تصف ضخامة الإبل ، وقولها : كأن ركباً الخ تصف اسنمتها السود ، وحام : أحد أولاد نبي الله نوح عليه السلام وهو فيما زعموا أبو السردان

الهم نصف الهرم

من كلمة سيدنا علي بن أبي طالب : والهم نصف الهرم ، وقال حكيم :
الهم يُشِيدُ القلب ، ويُعَمِّمُ العقل ، فلا يتولد معه رأى ، ولا تصدُقُ معه
روية ، وقال أبو تمام :

شَابَ رَأْيِي وَمَا رَأَيْتُ مَشِيبَ الرَّأْيِ إِلَّا مِنْ فَضْلِ شَيْبِ الْفَوَادِ
وَكَذَلِكَ الْقُلُوبُ فِي كُلِّ بُؤْسٍ وَنَعَمٍ طَلَائِعُ الْأَجْسَادِ
وقال أبو نواس :

وَمَا إِنْ شَبْتُ مِنْ كَبَرٍ وَلَكِنْ لَقِيتُ مِنَ الْحَوَادِثِ مَا أَشَابَا
وقد تقدم قول المتنبي :

والهم يخترم الجسم نحافةً ويُشيبُ ناصيةَ الصَّبِيِّ وَيُهْرِمُ

مثل الدنيا وآفاتِها

والخوف من نهايتها

جاء في كتاب كَلِيلَةِ وَدِمْنَةِ : وَجَدْتُ مَثَلَ الدُّنْيَا وَالْمَغْرُورِ بِهَا ، مَعَ امْتِلَاحٍ
بِالْآفَاتِ ، مَثَلَ رَجُلٍ أَلْجَأَهُ خَوْفُ فَيْسَلٍ هَاجِمٍ إِلَى بئرٍ ، فَتَدَلَّى فِيهَا وَتَعَلَّقَ
بِفُصْنَيْنِ نَابِتَيْنِ عَلَى شَفِيرِ الْبئرِ ، فَوَقَّعَتْ رَجُلَاهُ عَلَى شَيْءٍ فِي طَيِّ الْبئرِ ، فَظَلَّ
فَإِذَا بِحَيَّاتٍ أَرْبَعٍ قَدْ أَطْلَعْنَ رُؤُوسَهُنَّ مِنْ جُحُورِهِنَّ ، وَنَظَرَ إِلَى أَسْفَلِ
الْبئرِ فَإِذَا بِثَدْنَيْنِ ^(١) فَاغْرِفَاهُ نَحْوَهُ ، مُلْتَظِرٍ لَهُ لِيَتَقَعَ فَيَأْخُذَهُ ، فَرَفَعَ بَصَرَهُ

(١) الثنين : ضرب من الحيات

إلى الغُصْنَيْنِ فإذا في أصلهما جُرْدَانُ أَسْوَدُ وَأَبْيَضُ ، وهما يَقْرِضَانِ الغُصْنَيْنِ
دَائِبَيْنِ لَا يَفُتْرَانِ ، فبينما هو في النظرِ لأمره والاهتمام لنفسه ، إذ أَبْصَرَ
قريباً منه كَوَارَةَ فيها عسلٌ نُحْلٍ ^(١) ؛ فذاق العسل ؛ فَشَعَلَتْهُ حلاوته وَأَلْهَتْهُ
لَذَّتُهُ عن الفِكرَةِ في شيءٍ من أمرِهِ ، وأن يَلْتَمِسَ الخلاصَ لنفسِهِ ؛ ولم
يَذْكُرْ أَنَّ رَجُلِيه على حَيَاتٍ أَرْبَعٍ لَا يَدْرِي متى يَقَعُ عليهنَّ ، ولم يَذْكُرْ
أَنَّ الجُرْدَيْنِ دَائِبَانِ في قطعِ الغُصْنَيْنِ ؛ ومتى انْقَطَعَ رَقَعَ على التَّنَيْنِ . فلم يَزَلْ لَاهِيًا
غَافِلًا مشغولاً بتلك الحلاوة حتى سَقَطَ في فَمِ التَّنَيْنِ فَهَلَكَ . فَشَبَّهْتُ
بالبئرِ الدُّنْيَا المملوءةَ آفَاتٍ وَشُرُورًا ، وَخَافَاتٍ وَعَآمَاتٍ ، وَشَبَّهْتُ بالحَيَاتِ
الأربعِ الأَخْلَاطَ الأربعةَ الَّتِي فِي البَدَنِ : فَإِنَّمَا متى هَاجَتْ أَوْ أَحْدَهَا كَانَتْ
كُحْمَةً ^(٢) الْإِفَاعِي وَالسَّمَّ الْمُمِيتِ ، وَشَبَّهْتُ بالغُصْنَيْنِ الأَجَلَ الَّذِي لَا بُدَّ
مَنْ انْقِطَاعِهِ ؛ وَشَبَّهْتُ بالجُرْدَيْنِ الأَسْوَدِ وَالْأَبْيَضِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارَ اللَّذَيْنِ هُمَا
دَائِبَانِ فِي إِفْنَاءِ الأَجَلِ ؛ وَشَبَّهْتُ بالتَّنَيْنِ المَصِيرَ الَّذِي لَا بُدَّ مِنْهُ ؛ وَشَبَّهْتُ
بالعسلِ هَذِهِ الحلاوةَ القليلةَةَ الَّتِي يَنَالُ مِنْهَا الْإِنْسَانُ فَيَطْعَمُ وَيَسْمَعُ وَيَشْمُ
وَيَلْمَسُ ، وَيَتَشَاغَلُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَيَلْهُو عَنْ شَأْنِهِ ، وَيُضَدُّ عَنْ سَبِيلِ قَصْدِهِ ...

عمرو بن العاص يصف حاله في احتضاره

قال عبد الله بن عباس : دخلتُ على عمرو بن العاص وقد احتَضِرُ ،
فدخل عليه ابنُه عبد الله فقال له : يا عبدَ الله ، خُذْ ذَلِكَ الصُّدُوقَ ، فَقَالَ :
لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ ، قَالَ : إِنَّهُ مَمْلُوءٌ مَالًا ، قَالَ : لَا حَاجَةَ لِي بِهِ ، فَقَالَ عمرو :

(١) الكَوَارَةُ : خَلِيَّةُ النَحْلِ

(٢) الحَمَةُ : أَمْرَةُ النَحْلَةِ وَنَحْوُهَا

كَيْتَهُ مَمْلُوءٌ بَعْرًا ۱ قال ابن عباس : فقلت : يا أبا عبد الله ، إنك كنت تقول :
أَشْتَمِي أَنْ أَرَى عَاقِلًا يَمُوتُ حَتَّى أَسْأَلَهُ : كَيْفَ يَجِدُ ، فَكَيْفَ تَجِدُكَ ؟
قال : أَجِدُ السَّمَاءَ كَأَنَّهَا مُطَبَّقَةٌ عَلَى الْأَرْضِ وَأَنَا بَيْنَهُمَا ، وَأَرَانِي كَأَنَّمَا أُنْتَفَسُ
مِنْ خَرْتِ إِبْرَةِ ۱ ثُمَّ قَالَ : اللَّهُمَّ ، خُذْ مِنِّي حَتَّى تَرْضَى ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ :
اللَّهُمَّ ، أَمَرْتُ فَعَصَيْتَا ، وَنَهَيْتُ فَرَكِبْنَا ، فَلَا بَرِيءٌ فَأَعْتَذِرُ وَلَا قَوِيٌّ فَأَتَصَرُّ
وَلَكِنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ - ثَلَاثًا - ثُمَّ فَاظَ ... ۱ وقوله : مِنْ خَرْتِ إِبْرَةِ يَعْنِي :
مِنْ ثَقْبِ إِبْرَةِ ، وَقَوْلُهُ : فَاظَ : أَيْ مَاتَ ،

ماذا قال عبد الله بن الزبير

حين أتاه خبر مقتل أخيه المصعب ^(١)

لَمَّا أَتَى عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ خَبْرُ قَتْلِ الْمُصْعَبِ بْنِ الزُّبَيْرِ خَطَبَ النَّاسَ
فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ : إِنَّهُ أَتَانَا خَبْرُ قَتْلِ الْمُصْعَبِ فُسِّرْنَا بِهِ وَاكْتَأْنَا
لَهُ ، فَأَمَّا السُّرُورُ : فَلَبَّأَ قُدِّرَ لَهُ مِنَ الشَّهَادَةِ وَحِيزَ لَهُ مِنَ الثَّوَابِ ، وَأَمَّا الْكَأَبُ
فَلَوْعَةُ يَجِدُهَا الْحَمِيمُ عِنْدَ فِرَاقِ حَمِيمِهِ ، وَإِنَّا وَاللَّهِ مَانُوتٌ حَبَجًا كَيْتَةَ آلِ
أَبِي الْعَاصِي ، إِنَّمَا نَمُوتُ وَاللَّهُ قَتْلًا بِالرَّمَاكِ وَقَعْصًا تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ ، فَإِنْ
يَهْلِكُ الْمُصْعَبُ فَإِنَّ فِي آلِ الزُّبَيْرِ مِنْهُ خَلْفًا ... ۱ الْحَبِجُ : أَنْ يَأْكُلَ الْبَعِيرُ
لِحَاءَ الْعَرَفَجِ فَيَتَكَبَّبُ فِي بَطْنِهِ وَيَضِيقُ مَبْعَرُهُ عَنْهُ فَلَا يَخْرُجُ مِنْ جَوْفِهِ
فَيَهْلِكُ ، يُعْرِضُ بَيْنَ مِرْوَانَ وَبَنِي عَلَيْهِمْ كَثْرَةُ أَكْلِهِمْ وَإِسْرَافُهُمْ فِي مَلَاذِ
الشَّهَوَاتِ وَأَنْهُمْ يَمُوتُونَ بِالْثُّخْمَةِ . وَاللَّوْعَةُ : الْحَرَقَةُ ، وَالْقَعْصُ : الْقَتْلُ الْمَعْجَلُ
وَقَدْ قَعْصَهُ : إِذَا ضَرَبَهُ أَوْ رَمَاهُ فَمَاتَ مَكَانَهُ ، وَأَقْعَصَهُ كَذَلِكَ وَالْمَقْعَصُ : الْمَقْتُولُ ،

(١) عبد الله بن الزبير بن العوام هو خليفة الحجاز ومصعب أخوه

إذا ضيق شئنا ضاق جدا

وما يؤثر في باب الصبر قول الشاعر :

إذا ضيقت شئنا ضاق جدا وإن هونت ما قد عز هانا
فلا تملك لشيء فات ياسا فكم أمر تصعب ثم لانا
سأصبر عن رقيق إن جفاني على كل الأذى إلا الهوانا
فإن المرء يجزع في خلاء وإن حضر الجماعة أن يهانا
ياسا مردود إلى قوله تملك يقول : لاتهلك ياسا . وقوله : فإن المرء ...
البيت يقول : إن المرء يجزع أن يهان كان وحده أو في جماعة ،

لا تلهفن على ما فاتك

ونورد هنا هذا المثل البديع وإن كانت شهرته قد كادت تبذله ... رَوَى
الشَّعْبِيُّ : أَنَّ رجلا من بني إسرائيل صَادَ قُبْرَةً ، فَقَالَتْ : مَا تُرِيدُ أَنْ تُصْنَعَ
بِي ؟ قَالَ : أَذْبَحُكَ فَأَكُلُكَ ! قَالَتْ : وَاللَّهِ مَا أَشْفِي مِنْ قَرَمٍ وَلَا أُغْنِي مِنْ
مِنْ جُوعٍ ، أَعْلَمُكَ ثَلَاثَ خِصَالٍ هِيَ خَيْرُكَ مِنْ أَكْلِي : أَمَا الْوَاحِدَةُ فَأَعْلَمُكُمْهَا
وَأَنَا فِي يَدِكَ ، وَالثَّانِيَةِ إِذَا صَرْتُ عَلَى هَذِهِ الشَّجَرَةِ ، وَالثَّلَاثَةَ إِذَا صَرْتُ عَلَى الْجَبَلِ ،
فَقَالَ : هَاتِي ! قَالَتْ : لَا تَلْهَفَنَّ عَلَى مَا فَاتَكَ ، تَغْلِي عَنْهَا ، فَلَمَّا صَارَتْ فَوْقَ الشَّجَرَةِ
قَالَ : هَاتِي الثَّانِيَةَ ، قَالَتْ : لَا تُصَدِّقْ بِمَا لَا يَكُونُ أَنَّهُ يَكُونُ ، ثُمَّ طَارَتْ فَصَارَتْ
عَلَى الْجَبَلِ ، فَقَالَتْ : يَا شَقِيئِي ! لَوْ ذَبَحْتَنِي لَأَخْرَجْتَ مِنْ حَوْصَلَتِي دُرَّةً فِيهَا زَنْهُ
عَشْرِينَ مِثْقَالًا ! قَالَ : فَمَضَّ عَلَى شَفَتَيْهِ وَتَلَهَّفَ ؛ ثُمَّ قَالَ : هَاتِي الثَّلَاثَةَ ،
قَالَتْ لَهُ : أَنْتَ قَدْ نَسِيتَ الْآثَتَيْنِ ، فَكَيْفَ أَعْلَمُكَ الثَّلَاثَةَ ! أَلَمْ أَقُلْ لَكَ
لَا تَلْهَفَنَّ عَلَى مَا فَاتَكَ ؟ فَقَدْ تَلَهَّفْتَ عَلَى إِذْ فُتِكَ ، وَقُلْتُ لَكَ لَا تُصَدِّقَنَّ بِمَا

لا يكون أنه يكون ! فصدقت ! أنا وعظمي وريشي لأزِنُ عشرين مثقالا ،
فكيف يكون في حوصَلَتِي ما يزنها !

ومن قولهم في الحث على التعزى

وبما قيل في الحث على الصبر والتعزى قولُ صالح بن عبد القدوس^(١)
إن يكن ما أصبْتُ به جليلا فذهابُ العزاء فيه أجلُّ
كلُّ آتٍ لا شكَّ آتٍ وذو الجَهِّ لِمُعْنَى والغَمِّ والحزنُ فضلُ^(٢)
وقال عبدُ الله بن محمد بن أبي عُيَيْنَةَ بن المهلب بن أبي صُفْرة لطاهر
ابن الحسين: ^(٣)

لَمَّا رَأَيْتُكَ قَاعِدًا مُسْتَقْبِلًا أَتَيْتُكَ أَنْتَ لِلْهَمُومِ قَرِينُ
فَارْفُضْ بِهَا وَتَعَرَّ مِنْ أَثْوَابِهَا إِنْ كَانَ عِنْدَكَ لِلْقَضَاءِ يَقِينُ^(٤)
مَا لَا يَكُونُ فَلَا يَكُونُ بِحِمْلَةٍ أَبَدًا وَمَا هُوَ كَأَنْ سَيَكُونُ
يَسْعَى الذُّكْيُ فَلَا يَنَالُ بِسَعْيِهِ حَظًّا وَيَحْظَى عَاجِزٌ وَمَهِينُ
وَكَانَ ابْنُ شُبْرَمَةَ^(٥) إِذَا نَزَلَتْ بِهِ نَازِلَةٌ يَقُولُ : سَجَابَةٌ ثُمَّ تَنْقَشُ^(٦) وَكَانَ

(١) كان متهمًا بالزندقة ومن ثم قتله المهدي الخليفة العباسي إذ ضربه بالسيف
فقداه نصفين وعلقه ببغداد

(٢) فضل يريد : زيادة ، أى لا يليق بالعاقل ، إذ لا جدوى من ورائه

(٣) أكبر أعوان المأمون بن الرشيد على أخيه الأمين

(٤) فرفض بها : من رفض الشيء يرفضه (بالكسر والضم) رفضا : تركه ،

والباء زائدة

(٥) هو عبد الله بن شبرمة بن الطفيل بن المنذر من بني سعد بن ضبة بن أذ ، ولى

القضاء لطارق بن زياد خليفة خالد بن عبد الله القسري لما أقام بواسط

(٦) تنقش : تتجلى

يقال : أربعٌ من كنوز الجنة : كتمانُ المصيبةِ ، وكتمانُ الصدقةِ ، وكتمانُ الفاقةِ ، وكتمانُ الوجعِ ...

لكل غد طعام

قال أوس بن حجر :

ولستُ بخابيٍّ أبداً طعاماً حذارَ غدٍ لكلِّ غدٍ طعامٌ
وقبل هذا البيت :

وليس بطارقِ الجيرانِ مني ذبابٌ لا يُنمِ ولا ينامُ ^(١)
ولستُ بأطلَسِ الثوبينِ يُصْبِي حليته إذا هَذَا النِّيامُ ^(٢)

ومن كلام سيدنا علي : يا ابن آدم ، لا تحملْ هَمَّ يَوْمِكَ الذي لم يأتِ على يَوْمِكَ الذي أنت فيه ، فإنه إن يُعلم أنه من أجلك يأت فيه رزقك ، واعلم أنك لا تكسبُ من المالِ شيئاً فوق قُوَّتِكَ إلا كنتَ خازناً لغيرك فيه ... والأصل المقدم في هذا المعنى قول سيدنا رسول الله : من كان آمناً في سِرْبِهِ ^(٣) ، مُعافى في بدنِهِ ، عنده قوتُ يَوْمِهِ ، كان كمن حيزت له الدنيا بحذافيرها ... وقد تقدم

(١) كنى بالذباب عن الشر والأذى

(٢) حليته : لا يريد امرأته ولكن أراد جارته التي تحال له في جلته ، وكنى بأطلس الثوبين عن رمية بالقبيح من قولهم : رجل أطلَس الثوب : وسخه ، والطلسة : الغبرة تميل إلى السواد

(٣) المراد بالسرب دهننا : مما للرجل من أهل وولد ومال

اللثام مَوْلَعُونَ

بأيذاء الكرام

من أحسن ما قيل في شقاء الكرام باللثام والاختيار بالأشرار قول
الشاعر الطرِّمَاح بن حَكِيم - شاعر إسلامي ، قال بعض العلماء :
لو تقدمت أيامه قليلاً لَفُضِّلَ على الفرزدق وجريز - انظر ترجمته في
الأغانى - قال :

لقد زادني حُباً لنفسى أنى بغيض إلى كلِّ امرئٍ غير طائل
وأنى شقيَّ باللثام ولا ترى شقياً بهم إلا كريمَ الشَّمايلِ
إذا ما آنى قَطَعَ الطَّرْفَ بينه وبينى ففعلَ العارفِ المتجاهلِ
ملأتُ عليه الأرض حتى كأنها من الضيق في عَيْنِهِ كِفَّةُ حابلِ
أكلُّ امرئٍ أنى أباه مُقَصِّراً مُعَادٍ لأهلِ المَكْرَماتِ الأوائلِ
إذا ذُكِرَتْ مَسْعاةُ والده اضْطَنى ولا يضْطَنى من شَمِّ أهلِ الفضائلِ

« قوله : لقد زادني ... ألبيت يقول : لقد زادني أنى بغيض إلى كل
رجل لا فَضْلَ فيه ولا خير عنده حُباً لنفسى ، لأن التمايز بينى وبينه هو
الذى أدَّاهُ إلى بُغْضِي ، ولو كان بيننا تشاكلٌ لما كان كذلك ، فازددتُ
بذلك حُباً لنفسى ، لأنى لو كنت مثله لأَحْبَبَنِي ؛ وغير طائل قال الخليل بن
أحمد : يقال للشئء الدون : هذا غيرُ طائل ... وقوله : وأنى شقيَّ باللثام ...
ألبيت يقول : وزادني حُباً لنفسى أيضاً شِقْوَتِي باللثام حتى تنقُصونى وأصغُوا
إنانى واعتابونى ؛ ثم قال : ولا ترى أحداً يَشْقَى بهم إلا وهو كريمُ الأخلاق
وقوله : إذا ما آنى ... ألبيت يقول : إذا أبصرنى آرتد طرفه عني وقطع

نظرو ، فَمَلَّ من يعرف الشيء ويتكلف جهله ؛ ويقال : ملأت عليه الأرض إذا ضيقَتْها عليه ، أما إذا قلت : ملأتُ منه الأرض فمعناه : أنك قتت وقعدت بِذِكْرِهِ ؛ والحابل : ناصبُ الحِبَالَةِ وهى التى يُصادُ بها ، وكَفَّةُ الحابل : حِبَالَتُهُ التى بها يصيد ، وكل ما استدار فهو كَفَّةٌ : يقول فى هذا البيت : قد ضاقت به الأرض من عداوتى فكأننى مَلَأْتُها عليه ، ويجوز أن يكون المراد : أنه يخافنى فى كل مسلك يسلكه ... وفى معنى هذا البيت قول القائل :
كَانَ يَجَاجِ الأَرْضَ وَهِيَ عَرِيضَةٌ

على الخائف المطلوبِ كَفَّةُ حَابِلٍ
وقوله : إذا ذُكِرْتَ ... ألبيت فالمسعاة : السَّغْيُ ، وهو العملُ ، واضطنى :
اقتل من الضنى ، يقال : ضنى يَضْنى : إذا دَقَّ وصغرَ جسمه ، ومن ثم سَمِيَ
المرض ضنًى ، لما يُورِثُ من الهزال ، يقول : إنه يَضْنى إذا ذُكِرَ صَنِيعُ
والده ، لُقْبُجِهِ ، ومع هذا يَشْتُمُ أهلَ الفضائل ولا يَضْنى من ذلك ، بصفه
بالقحة .

أبيات فى الصبر والشجاعة والكرم

قال عبدالعزيز بن زرارَةَ السكبي - وقد كان فى الجيش الذى بعثه معاوية بن
أبى سفيان لغزو بلاد الروم سنة ٤٩ هـ فارغولوا فيها حتى بلغوا القسطنطينية ،
فاقتل المسلمون والروم قتالا شديدا ، ولم يزل عبدالعزيز هذا يتعرض للشهادة
وهو يقول هذه الأبيات ، ثم حَمَلَ على من بلبه تقتل خلقاً كثيراً وانفدس
بينهم فشجرهُ الروم برءا حهم فقتلوه ؛ والأبيات :

قَدِ عَشْتُ فى الدهرِ أَلواناً على طُرُقِ شَتَّى وقاسيتُ فيها اللينَ والفظما

كَلَّا بَلَوْتُ فَلَا النِّعَاءُ يُبْطِرُنِي وَلَا تَخَشَّعْتُ مِنْ لَأَوَائِهَا جَزَعًا
 لَا يَمْلَأُ الْهَوْلُ صَدْرِي قَبْلَ مَوْقِعِهِ وَلَا أَضِيقُ بِهِ ذَرْعًا إِذَا وَقَعَا
 «على طرق يروى: على خاق، والفظع: مصدر فُظِع الأمر فظاعة: اشتد
 وشُئِع وجاوز المقدار، وقبطني: تَحَمَّلْنِي على البطار، وهو: الطغيان في
 النعمة، والألواء: الشدة والمشقة وضيق العيش، وقوله: لا يملأ الهول...
 ألبيت: من أحسن ما قيل في الشجاعة، وقال الخطيئة من أبيات يمدح بها بعض
 الأجراد:

فَتَى غَيْرُ مِفْرَاحٍ إِذَا الْخَيْرُ مَسَّهُ وَمِنْ نَائِبَاتِ الدَّهْرِ غَيْرُ جَزَعٍ
 وَذَلِكَ فَتَى إِنْ تَأْتَتْ فِي صَنِيعَةٍ إِلَى مَالِهِ لَا تَأْتِيهِ بِشَفِيعٍ
 «الصنيع: اسم لكل ما تُسديه من إحسان يد وصلة معروف،
 وأنشدوا: ^(١)

إِذَا اشْتَمَلَتْ عَلَى الْيَأْسِ الْقُلُوبُ وَضَاقَ بِمَا بِهِ الصَّدْرُ الرَّحِيبُ
 وَأَوْطَنْتِ الْمَسْكَارُهُ وَاطْمَأْنَتِ وَأُرْسَتْ فِي مَكَانِهَا الْخَطُوبُ
 وَلَمْ تَرَ لَانْكَشَافِ الضَّرِّ وَجْهًا وَلَا أَغْنَى بِحِيلَتِهِ الْآرِيبُ
 أَنَاكَ عَلَى قُنُوطٍ مِنْكَ غَوْثٌ يَمُنُّ بِهِ اللَّطِيفُ الْمُسْتَجِيبُ
 وَكُلَّ الْحَادِثَاتِ وَإِنْ تَنَاهَتْ فَفَقُرُونُ بِهَا الْفَرَجُ الْقَرِيبُ

أبيات حكيمة

وإليك أبياتاً حكيمةً لشاعر جاهلي قديم يسمى: الأضبط بن قريع بن
 عوف بن كعب بن سعد، رهط الزبرقان بن بدر، وهو الذي أساء قومه

(١) رواها أبو بكر بن دريد عن أبي حاتم راوية الأصمعي

مُجَاوَرَتِهِ ، فانتقل عنهم إلى آخرين ففعلوا مثل ذلك ، فقال : « إِنَّمَا أَوْجُهُ أَنْتَ سَعْدًا » ^(١) وقال : « بِكُلِّ وَادٍ بَنُو سَعْدٍ ، وَإِلَيْكَ هَذِهِ الْآيَاتُ :

لِكُلِّ ضَيْقٍ مِنَ الْهَمومِ سَعَةٌ وَالْمُسَى وَالصَّبِيحُ لَافْلَاحٌ مَعَهُ
مَابَالُ مَنْ غَنِيَهُ مُصِيبُكَ لَوْ يَمْلِكُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِهِ وَزَعَهُ
أَذُودٌ عَنْ حَوْضِهِ وَيَدْفَعُنِي يَأْقُومُ مَنْ عَاذِرِي مِنَ الْخُدَعَةِ
حَتَّى إِذَا مَا انْجَلَتْ عَمَائَتُهُ أَتَبَلَّ يَلْحَى وَغِيَهُ فَجَعَهُ
قَدْ يَرْفَعُ الثَّوْبَ غَيْرُ لَابِسِهِ وَيَلْبَسُ الثَّوْبَ غَيْرُ مَنْ رَفَعَهُ
فَأَقْبَلَ مِنَ الدَّهْرِ مَا أَتَاكَ بِهِ مَنْ قَرَّ عَيْنًا بِعَيْشِهِ نَفَعَهُ
وَصَلَ جِبَالُ الْبَعِيدِ إِنْ وَصَلَ الْحَدَّ بَلْ وَأَقْصَى الْقَرِيبِ إِنْ قَطَعَهُ
وَلَا تُهَيِّنِ الْفَقِيرَ عَلَيْكَ أَنْ تَرْكَعَ يَوْمًا وَالدَّهْرُ قَدْ رَفَعَهُ

« الْمُسَى : اسم من الإسماء ، والصَّبِيح : اسم من الإصباح ، والفلاح هنا : البقاء والعيش قال عبيد بن الأبرص :

أَفْلَحَ بِمَا شِئْتُ فَقَدْ يُدْ رَكُّ بِالضَّعْفِ وَقَدْ يُخَدِّعُ الْأَرِيبُ

يقول : لا بقاء مع كراهة الليل والنهار . والفلاح أيضا : الفوز ومنه قولهم في الأذان : حَيٌّ عَلَى الْفَلَاحِ ، والغنى : الخيبة والحرمان قال المرقش الأكبر :

فَمَنْ يَلْقَ خَيْرًا يَحْمَدُ النَّاسَ أَمْرَهُ وَمَنْ يَغْوِلَا يَعْدَمُ عَلَى الْغَنَى لَاثِمًا

وجملة : لَوْ يَمْلِكُ ؛ حَالِيَّةٌ ، ووزعه : منعه وكفه ، يقول : مَابَالُ مَنْ تَتَأَلَّمُ لَخَيْبَتِهِ وَسُوءَ حَالِهِ فَإِذَا وَجَدَ شَيْئًا مِنَ الْخَيْرِ كَفَّهُ عَنْكَ ، ويروى هذا البيت على وجه آخر ، وقوله أَذُودٌ عَنْ حَوْضِهِ : هو مثل للحماية ودفع المكروه عنه ، والخدعة : قوم من بني سعد بن زيد مناة بن تميم

(١) يربد : أقر من الأذى إلى مثله

والعناية : الشدة التي تلتبس منها الأمور ، يقال : عَمِيَ عليه الأمر : إذا التبس ، وأقبل : شرع ، ويلجى : يلوم ، وغيه : ضلاله ، وجمعه : أصابه بمكروه وصل جبال البعيد ... ألبيت يعنى : تقرب إلى البعيد للنسب إذا طلب قربك واجهر القريب النسب إذا هجرك ، أخذه الأعشى فقال :

وَلَا تُدْنِ وَضَلًّا مِنْ أَخٍ مُتَبَاعِدٍ وَلَا تَنْتَأْ عَنْ ذِي بَغْضَةٍ إِنْ تَقَرَّبَا
فَإِنَّ الْقَرِيبَ مَنْ يُقَرِّبُ نَفْسَهُ لَعَمْرُ أَبِيكَ الْخَيْرَ لَا مَنْ تَلَسَّبَا
وقوله ولا تهين الفقير الخ فالإهانة : الإيقاع فى الهون (بضم الهاء) والهوان وهما بمعنى الذل والحقارة ، وعلّ : لغة فى لعل وهى هنا بمعنى عسى ، والركوع : أراد به الانحطاط فى المرتبة والسقوط فى المنزلة ، ومثل هذا البيت فى المعنى قول القائل :

عسى سائلٌ ذو حاجةٍ إنْ مَنَعْتَهُ فى اليومِ سُؤلاً أنْ يكونَ له غدٌ
وهذا البيت يستشهد به النحاة على أن نون التوكيد الخفيفة تحذف لالتقاء الساكنين والأصل تُهَيِّنَنَّ بالنون الخفيفة ، وىروى : ولا تعاد ، وىروى لا تحقرن الفقير فلا شاهد فيه ؛ وفى معنى هذا البيت أيضا يقول عباد بن عَبَّاد بن حبيب ن المهلب :

إِذَا خَلَّةٌ نَابَتْ صَدِيقَكَ فَأَعْتَزِّنْ مَرَمَتْهَا فَالْدَهْرُ بِالنَّاسِ قُلُبُ
وَبَادِرْ بِمَعْرُوفٍ إِذَا كُنْتَ قَادِرًا زَوَالَ اقْتِدَارٍ أَوْ غَنَى عَنْكَ يُعْقِبُ
« الخلة : الحاجة والفقرو فى المثل « الخلة تدعو إلى السَّلةِ ، والسَّلة : الدرفة ومرمتها : إصلاح ما فسد منها ، وفاب : كثير التقلب من حال إلى حال ، وزوال : مفعول لبادر ، وعنك : متعلق بزوال ، ويعقب : صفة له ، يقول :
يأتى الزوال عقب الاقتدار والغنى ، ويقول تميم بن مقبل :

فَأَخْلَفَ وَأَتْلَفَ إِنَّمَا الْمَالُ عَارَةٌ فَكَلَّهُ مَعَ الدَّهْرِ الَّذِي هُوَ آكَلُهُ
فَأَهْوَنُ مَفْقُودٍ وَأَيْسَرُ هَالِكٍ عَلَى الْحَيِّ مَنْ لَمْ يَبْلُغْ الْحَيَّ نَائِلُهُ
«وأخلف: يريد استغنى خلف ما أتلفت، وقد أخلف فلان لنفسه: إذا ذهب
له شيء فجعل مكانه آخر، وعارة: معار، والعارة والعارية: ما يتداول بين
الناس، ويقول جرير:

وإني لَأَسْتَحْيِي أَخِي أَنْ أَرَى لَهُ عَلَى مَنْ الْحَقُّ الَّذِي لَا يَرَى لِيَا
«يقول جرير: إني لأستحيي أخى أن يكون له على فضل ولا يكون لي عليه فضل
ومنى إليه مكافأة، فأستحيي أن أرى له على حقاً لما فعل إلى ولا أفعل إليه ما يكون
لي به عليه حق، قال المبرد: وهذا من مذاهب الكرام ومما تأخذ به أنفسها»

أبيات من لم يروها فلا مروءة له

وهذه أبيات كانوا يقولون: إنه من لم يروها فلا مروءة له. وهى لشاعر
يسمى أيمن بن حُرَيْم بن فَاتِك الأسدى، شاعر شريف فارس، وكان
يتشيع، وأبوه خريم له حجة، وهو ممن اعتزل الجبل وصفين وما بعدهما من
الاحداث، وقيل: إن هذه الأبيات للأقيشر، وهو شاعر إسلامي، قال:

وَصَهْبَاءُ جُرْجَانِيَّةٍ لَمْ يَطْفُ بِهَا	خَنِيفٌ وَلَمْ تَنْفَرْ بِهَا سَاعَةً قَدَرُ
وَلَمْ يَحْضِرِ الْقَسَّ الْمُهَيِّمُ نَارَهَا	طُرُوقًا وَلَمْ يَشْهَدْ عَلَى طَبِخِهَا حَبْرُ
أَتَانِي بِهَا يَحْيَى وَقَدْ نَمَتْ نَوْمَةً	وَقَدْ غَابَتِ الشَّعْرَى وَقَدْ طَلَعَ النَّسْرُ
فَقُلْتُ: آغْتَبِقُهَا أَوْ لَغَيْرِي فَاسْتَقِهَا	فَمَا أَنَا بَعْدَ الشَّيْبِ وَبَيْتِكَ وَالْخُرُ
تَعَفَّقْتُ عَنْهَا فِي الْعُصُورِ الَّتِي خَلَتْ	فَكَيْفَ التَّصَابِي بَعْدَ مَا كَلَأَ الْغَمْرُ
إِذَا الْمَرْءُ وَفَى الْأَرْبَعِينَ وَلَمْ يَكُنْ	لَهُ دُونَ مَا يَأْتِي حَيَاءٌ وَلَا سِتْرُ

فدَعَهُ وَلَا تَنْفَسْ عَلَيْهِ الَّذِي ارْتَأَى وَإِنْ جَرَّ أَسْبَابَ الْحَيَاةِ لَهُ الدَّهْرُ
 «الصهباء: الخمر، سميت بذلك لونها - والذهب من الألوان: الشقرة - قيل:
 الصهباء هي الخمر التي عُصِرَتْ مِنْ عِنَبٍ أبيض، وقيل: هي التي تكون من
 العنب ومن غيره إذا ضُرِبَتْ إِلَى البياض، وقال أبو حنيفة الدِّينَوْرِيُّ: الصهباء
 اسم للخمر كاللحم. وجرجانية: نسبة إلى جرجان، وكانت مشهورة بنوع من الخمر
 والحنيف: المسلم، ونفرت القدر: غلت، والمهيم: الذي يقرأ بصوت خفي غير
 بين لا يفهم، والطروق: الحضور ليلاً، والخبر واحد الأحبار: رئيس من
 رؤساء الدين المسيحي، ورئيس الكهنة عند اليهود، وقوله: وقد غابت الشعرى...
 قال البكري شارح الأمالى: هذه الرواية الصحيحة، أما رواية: وقد غابت الشعرى
 وقد جَنَحَ النسر، فهي خطأ، قال: لأن الشعرى العبور إذا كانت في أفق
 المغرب كان النسر الواقع طالماً من أفق المشرق على نحو سبع درجات، وكان النسر
 الطائر لم يَطْلُع، وإذا كانت الشعرى الغميصاء في أفق المغرب كان النسر الواقع
 حينئذ غير مُكَبَّد - كَبَدَ النجم السماء: توسطها - فكيف أن يكون جانحاً؟
 وكان النسر الطائر حينئذ في أفق المشرق طالماً على نحو سبع درجات أيضاً
 قال الشاعر:

وَإِنِّي وَعِبَدَ اللَّهِ بَعْدَ اجْتِمَاعِنَا لَكَالنَّسْرُ وَالشَّعْرَى بِشَرْقٍ وَمَغْرَبٍ
 يُلُوحُ - إِذَا غَابَتْ مِنَ الشَّرْقِ - شَخْصُهُ وَإِنْ تَلَحَّحَ الشَّعْرَى لَهُ يَتَغَيَّبُ
 وقال أبو نواس:

وَحَمَارَةٌ نَبَّهَتْهَا بَعْدَ هَجْعَةٍ وَقَدْ لَاحَتْ الْجُوزَاءُ وَأَنْفَمَسَ النَّسْرُ
 فَقَالَتْ: مَنِ الطَّرَاقُ؟ قُلْتُ: عَصَابَةٌ خِفَافُ الْإِدَاوَى يُبْتَغَى لَهُمُ الْخَمْرُ
 وَالشَّعْرَى سَابِقَةٌ فِي الطَّلُوعِ لِلْجُوزَاءِ وَلِذَلِكَ سَمِيَتْ كَلْبَ الْجَبَّارِ، وَالْجَبَّارُ

اسم للجوزاء... والاعتباق : شُرْب العشي ، وويلك : ويلك ، وكلاً : انتهى
إلى آخره وأقصاه ، ويقال : بلغ الله بك أكلأ العمر : أى آخره ، ولا تنفس :
لا تحسد ، وارتأى : افعل من رأى . وفي هذا المعنى يقول الأعور الشنئى :
إذا ما المرء - قصر ثم مرّت عليه الأربعون - من الرجال
ولم يلحق بصالحهم فدّعه فليس بلاحيّ أخرى الليالى

حكم ومواعظ

قال عبد الله بن عباس : كتب إلى علي بن أبي طالب رضى الله عنه
بموعظة مأسررت بموعظة سرورى بها ! أما بعد ، فإن المرء يسره درك
مالم يكن ليفوته ، ويسوءه فوت مالم يكن ليدركه ، فما نالك من دنيك
فلا تكسره به فرحاً ، وما فالك منها فلا تنمعه أسفاً ، فليكن سرورك
بما قدّمت ، وأسفك على ما خلقت ، وهمك فيما بعد الموت ... « يقول
على : إن كلّ شيء يُصيب الإنسان فى الدنيا من نفع وصّر فيقضاء من الله
تعالى وقدره ، غير أن الناس لا ينظرون حقّ النظر فى ذلك ، فيسرّ الواحد
منهم بما يُصيبه من النفع ، ويساء بفوت ما يفوته منه ، غير عالم بأن ذلك
النفع الذى أصابه كان لا بدّ أن يُصيبه ، وأن ما فاتته منه كان لا بدّ أن
يفوته ، ولو عرّف ذلك حق المعرفة لم يفرح ولم يحزن ، وإنما الأخلق
بالعاقل أن يأسف على ما فاتته ويسرّ بما قدّمه ، من الخير والعمل الصالح
الذى يُجدى عليه فى العالم الباقي - الآخرة »

ومن كلمة للحسن البصرى : تلقى أحدهم أبيض بضاً يملأ فى الباطل
ملئاً ، ينفض مذرّوبه ، ويضرب أصدريه ، يقول : ها أنا ذا فاعرفنى !
قد عرّفك الله ومقتك الصالحون ... « قوله : أبيض بضاً

فالبُضُّ : الرقيقُ اللون الصافي الذي يُؤثر فيه كلُّ شيء ، ويروون : أن معاوية بن سفيان قدّم على عُمر بن الخطاب رضى الله عنه من الشام وهو أبض الناس - أرثهم لونا وأحسنهم بشرة - فضرب عمر يده على عضده ، وقال : هذا ، والله ، لتشاغلِكَ بالحمامات وذوو الحاجات تُقطعُ أنفسهم حشراتٍ على بابك... وقوله : يملخ في الباطل ملخا : أى يكثر تردده في الباطل ، أو يمر فيه مرآ سهلا ، وقوله : ينفض مذرويه ويضرب أصدريه فينفض ويضرب : يحرك ، ومذرواه : جانباه ، وقيل : فرعا الآليتين ، وقيل : طرفا كل شيء ، وأراد الحسن : فرعى المنسكبين . ولا واحد لهما ، وهو الصحيح ، والأصدران : عرقان يضربان تحت الصدغين ، لا يفرد لهما واحد كذلك ، ويريد الحسن : منكيه أيضا ، والعرب تقول : جاء فلان يضرب أصدريه وينفض مذرويه يريدون : جاء مختالا ، وقد يريدون : جاء باغيا يتهدد كما قال عنتره :

أَحُولِي تَنْفُضُ اسْتُكَ وَمَذْرَوِيهَا لَتَقْتُلَنِي فَهَا أَنَا ذَا عُمَارَا
« عمارا يريد : يا عماره »

وقال بعضهم : شهدت الحسن البصري في جنازة أوجاء العطاردي وهو على بغلة والفرزدق يسيره على نجيب ، وكنت على حمار لي ، فذنوتُ منهما ، فسمعت الفرزدق يقول للحسن : يا أبا سعيد ، أتدري ما يقول أهل الجنازة ؟ قال : وما يقولون ؟ قال : يقولون : هذا خيرُ شيخ بالبصرة ، وهذا شرُ شيخ بالبصرة ، قال : إذن يكذبوا يا أبا فراس أربَّ شيخ بالبصرة ، مُشرك بالله ، فذلك شرُّ من أبي فراس ، وربَّ شيخ بالبصرة ذى طمرين لا يؤبه

له لوأَقْسَمَ على الله لأَبْرَهُ ^(١) ، فذلك خير من الحسن ياأبا فراس ...
ولهذا الحديث تمة ولكننا نتجراً بهذا الشطر منه لتكون المعانى متصلة
بعضها ببعض .

ونختتم هذا المعنى بأبيات مشهورة ولكنها لا تزال جديدة لأنها بعيدة
النور موفية على الغاية فى الصدق والسداد ، وهى أبيات اختارها أبو تمام
فى حماسته ونسبها لعباس بن مرداس الصحابى الشاعر ، وقال أبو رياش : إنها
لمعاوية بن مالك بن جعفر بن كلاب مُعوّد الحكماء ^(٢) وهذه هى الأبيات كما
رواها أبو على القالى فى الأمالى :

تَرَى الرَّجْلَ النَّحِيفَ فَتَزْدَرِيهِ وَفِي أَثْوَابِهِ أَسَدٌ هَـصُورٌ ^(٣)
وَيُعْجِبُكَ الطَّرِيرُ فَتَبْتَلِيهِ فَيُخْلِفُ ظَنَّاكَ الرَّجُلَ الطَّرِيرَ ^(٤)
بُغَاثُ الطَّيْرِ أَطْوَلُهَا رِقَابًا وَلَمْ أَطُلْ السُّبْرَةَ وَلَا الصُّقُورَ ^(٥)

(١) الطمر : الثوب الخلق البالى . وهذه كلمة الحسن من الحديث : رب ذى طمرين
لا يؤبه له لوأَقْسَمَ على الله لأَبْرَهُ ، يقول : رب ذى خلقين أطاع الله حتى لو سأل
الله تعالى أجابه

(٢) سعى معوّد الحكماء بقوله :

سَأَعْقِلُهَا وَتَحْمِلُهَا غَنِيٌّ وَأُورِثُ بِحُجْدِهَا أَبَدًا كِلَابًا
أُعَوِّدُ مِثْلَهَا الْحُكَمَاءَ بَعْدِي إِذَا مَا عُضِلُ الْخَدَّائِ نَابًا

(٣) هصور يروى : مزير ، والحصور : الاسد الشديد الذى يفترس ويكسر
والمزير : الشديد القلب القوى النافذ ومن معانيه : العاقل الحازم

(٤) الطرير : ذو الرواء والمنظر والجمال والهيئة الحسنة

(٥) البغات بفتح الباء رضىها : كل طير ليس من جوارح الطير ، أى لا يصيد ، ويضرب
بها المثل فى اللزم والشّر ، وفى الضمف ، قالوا : إن البغات بأرضنا يستنسر ، يضرب
مثلا للثيم يرتفع أمره

خَشَّاشُ الطَّيْرِ أَكْثَرُهَا فِرَاحًا وَأُمُّ الصَّقْرِ مَقْلَاتُ نَزْوَرُ^(١)
 ضِعَافُ الْأُسْدِ أَكْثَرُهَا زَمِيرًا وَأَصْرَمُهَا اللَّوَاتِي لَا تَزِيرُ
 وَقَدْ عَظَّمَ الْبَعِيرُ بَغِيرُ آبٍ فَلَمْ يَسْتَعْنِ بِالْعِظَمِ الْبَعِيرُ
 يُنَوِّخُ ثُمَّ يُضْرَبُ بِالْهَرَاوِي فَلَا عُرْفٌ لَهُ وَلَا نَكِيرُ^(٢)
 يُقَوِّدُهُ الصَّبِيُّ بِكُلِّ أَرْضٍ وَيَنْحَرُهُ عَلَى الثَّرْبِ الصَّغِيرِ
 فَمَا عَظَّمَ الرِّجَالِ لَهُمْ بَزِينَ وَلَكِنْ زَيْنُهُمْ كَرَمٌ وَخَيْرُ^(٣)

في الموت

قال المتنبي في الموت :

وَمَا الْمَوْتُ إِلَّا سَارِقٌ دَقَّ شَخْصُهُ يَصُولُ بِلَا كَيْفٍ وَيُسْعَى بِلَا رَجَلٍ
 وَمِنْ غَرِيبٍ مَا قِيلَ فِي مَدْحِ الْمَوْتِ قَوْلُ ابْنِ الرَّومِيِّ :

قَدْ قُلْتُ إِذْ مَدَحُوا الْحَيَاةَ فَأَكْثَرُوا لِلْمَوْتِ أَلْفَ فَضِيلَةٍ لَا يَعْرِفُ
 فِيهَا أَمَانٌ لِقَائِهِ بِلِقَائِهِ وَفِرَاقُ كُلِّ مُعَاشِرٍ لَا يَنْصُبُ
 أَقُولُ : لَعَلَّ ابْنَ الرَّومِيِّ يَرِيدُ أَنْ يَقُولَ : إِنَّ لِلْمَوْتِ مَزَايَا لَا تَحْصَى ،
 وَقُلَّ مَنْ يَعْرِفُهَا ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا إِلَّا أَنَّا بِلِقَاءِ الْمَوْتِ نَظُنُّرُ بِلِقَاءِ
 الْمَرْتِي - وَنَاهِيكَ بِفَضَائِلِهِ - وَبِفِرَاقِ غَيْرِهِ مِنَ الْمَعَاشِرِينَ الْقَلِيلِ الْإِنْصَافِ لَكَانَ
 فِي ذَلِكَ الْفَضْلُ كُلُّهُ لِلْمَوْتِ ، وَقَالَ الْمَتْنَبِيُّ :

- (١) خَشَّاشُ الطَّيْرِ : شَرَارُهَا وَمَا لَا يَصِيدُ مِنْهَا ، كَالْبَغَاثِ ، وَالْمَقْلَاتُ : الَّتِي تَلِدُ
 وَاحِدًا ثُمَّ لَا تَلِدُ بَعْدَ ذَلِكَ وَقِيلَ : الَّتِي لَا يَعْشِشُ لَهَا وَلَدٌ ، وَالْقُلْتُ : الْهَلَاكُ قَوْلُ
 أَقْلَتِ الْمَرْأَةَ : إِذَا هَلَكَ وَلَدُهَا ، وَالنَّزْوَرُ : الْقَلِيلَةُ الْأَوْلَادِ
 (٢) يُنَوِّخُ : يَبْرُكُ ، نَوَخَ الْجَمَلُ وَأَنَاخَهُ : فَاسْتَنَاحَ : أَبْرَكَهُ فَبْرَكَ
 (٣) الْخَيْرُ : الْكَرَمُ ، وَهُوَ أَيْضًا : الشَّرَفُ

وقد فارقَ الناسَ الأحبَّةَ قبلنا وأعيا دواءُ الموت كلَّ طبيب
سُبِقْنَا إلى الدنيا فلو عاش أهلها مُنِعْنَا بها من جِنَّةٍ ودُوب
تَمَلَّكَهَا الآتِي تَمَلَّكَ سَالِبٍ وفارقَهَا الماضِي فِرَاقٍ سَلِيب
ولا فَضْلَ فيها للشُّجَاعَةِ والتَّدَيِّ وَصَبْرٍ الفَتَى لولا إلقاءُ شُعُوب

« يقول في البيت الرابع : لولا الموت لما كان لهذه المعاني فَضْل ، وذلك
أن الناس لو أَمِنُوا الموت لما كان للشُّجَاعِ فَضْل على الجَبَّان ، لأنه قد أيقن
بالخلود ، وكذلك لو أَمِنُوا الموت لاستوى الكريم والبخيل والصابر والجازع ،
وكذلك كلُّ الأشياء ، وقال أيضاً :

إلْفُ هذا الهواءِ أَوْقَعَ في الآثُ سِ أنَ الحِمَامَ مُرَّ المَذَاقِ
والآتِي قَبْلَ فُرْقَةِ الرُّوحِ عَجْزُ والاسى لا يَكُونُ بَعْدَ الفِرَاقِ
قال أبو العلاء المَعَرِّي : إن هذين البيتين يَفْضُلان كَتَبَ الفلاسفةُ لأنهما
متناهيان في الصدق وَحُسْنِ النظام ، ولولم يَقُلْ شاعرُهُما سِواهما لكان له
شرفٌ مِنْهُما وَجَمالٌ ...

يقول المتنبي : إن خَوْفَ الموت من أكاذيب النفس ، ومن إلْفنا هذا
الهواء ، وإلا فقد عُلِمَ أن الحُزْنَ على فِرَاقِ الرُّوحِ قَبْلَ فِرَاقِهِ عَجْزٌ ، وعُلِمَ
أيضاً أن الحُزْنَ على المَفارِقَةِ لا يَكُونُ بَعْدَ الموت ، فلماذا يحزن الإنسان ؟

طائفة من عبقرياتهم في التعازي

ولنمطف الآن على الباب الثالث « عبقرياتهم في الصبر والدنيا والموت والمرض » فلنسير فيه ولنورد عليك سائر عبقرياتهم في التعازي ثم نختم الباب بعبقرياتهم في المرض وما يتصل به .

التسليية بعد وقوع المحذور

قالوا: كل شيء يبدو صغيراً ثم يَعْظُم ، إلا المصيبة ، فإنها تبدو عظيمة ثم تصَغُرُ واشتكى ابنُ لُعمَرَ بن عبد العزيز رضى الله عنه فجَزِعَ عليه ، ثم مات ، فَرَوَى مُتَسَلِّياً ، فقيل له في ذلك ؟ فقال : إنما كان جَزَعِي رِقَّةً له ورحمةً ، فلما وقع المصائبُ زال المحذور ... ومَرِضَ ابنُ لبعض السلف فجَزِعَ ، ثم مات فلم يَجَزِعْ ، فقيل له ! فقال : أما بعد وقوع الأمر فلم يبق إلا الرضا والتسليم ... وقال البحترى :

صُعُوبَةُ الرِّزْقِ تُنَلِّقِي فِي تَوَقُّعِهِ مُسْتَقْبَلًا وَانْقِضَاءُ الرِّزْقِ أَنْ يَقَعَا
وَقَبْلَهُ قَالَ أَوْسُ بْنُ حَجَرٍ :

أَتَيْتُهَا النَّفْسُ أَجْلِي جَزَعًا إِنَّ الَّذِي تَحْذَرُ قَدْ وَقَعَا

ومما يتصل بهذا المعنى قول أبي نواس يرفي المأمون :

وَكُنْتُ عَلَيْهِ أَحْذَرُ الْمَوْتِ وَحَدَهْ فَلَمْ يَبْقَ لِي شَيْءٌ عَلَيْهِ أَحْذَرُ

وقال بعضهم : نَزَلَتْ بِامْرَأَةٍ ذَاتِ أَوْلَادٍ وَثَرَةٍ ، فَلَمَّا أَرَدَتْ الْإِرْتِحَالَ

قَالَتْ : لَا تُخْلِنِي إِذَا وَرَدَتْ هَذَا الصُّقْعُ ، ثُمَّ أَتَيْتُهَا بَعْدَ أَعْوَامٍ ، فَوَجَدْتُهَا

قَدْ أَتَفَقَّرَتْ وَتَشَكَّلَتْ أَوْلَادُهَا ، وَهِيَ ضَاحِكَةٌ مُسْرُورَةٌ ، فَسَأَلْتُهَا ؟ فَقَالَتْ :

لَمَّا كُنْتُ ذَاتَ ثَرَةٍ وَجَاهٍ ، وَكَانَتْ لِي أَحْزَانٌ ، فَفَعَلْتُ أَنْ ذَلِكَ لِقَلَّةِ الشُّكْرِ ،

وأنا اليوم بهذه الحالة أَضْحَكُ شُكْرًا لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى مَا أَعْطَانِي مِنَ الصَّبْرِ ...
وقيل : إذا استأثر الله بشيء فآله عنه « آله عنه : أتركه وأتسل »

من دواعي التسلي قرب اللحوق بالميت

كُتِبَ بعضهم : فيم الجزع ونحن على مَدْرَجَةِ المُتَوَفَّى ! « المدرجة : الطريق
والمسلك ، دخل أحدهم على آخر وقد توفى له أخٌ فاشتدَّ جزعه عليه ،
فقال : اذكر مصيبتك في نفسك تُنْسِكُ فَقَدْ غَيْرَكَ ، واذكر قول الله تعالى :
إِنَّكَ مَيِّتٌ وَلَهُمْ مَيِّتُونَ ، وَخُذْ بقول الشاعر :

وَهَوْنٌ مَا لَقِيَ مِنَ الْمَوْتِ أَنْ مَا أَصَابَكَ مِنْهُ يَا بُنَيَّ مُصِيبِي
وقال إبراهيم بن المهدي :

وإني وإن قُدِّمْتُ قَبْلِي لَعَالَمْ بَأْنِي وَإِنْ أَبْطَأْتُ عَنْكَ قَرِيبُ
وقال آخر :

وَهَوْنٌ وَجَدِي أَنِّي سَوْفَ أَغْتَدِي عَلَى لُثْرِهِ يَوْمًا وَإِنْ نَفَسَ الْعَمْرُ

من تعازي الملوك

وتسليهم بأن الناس جميعا مُصَابُونَ

لَمَّا حَضَرَتِ الإسْكَندَرَ المَقْدُونِيَّ الوفاةُ كُتِبَ إِلَى أُمِّهِ : أَنْ اصْنَعِي
طَعَامًا يَحْضُرُهُ النَّاسُ ، ثُمَّ تَقْدَمِي إِلَيْهِمْ : أَنْ لَا يَأْكُلَ مِنْهُ مَحْزُونٌ ، ففعلت ،
فَلَمْ يَبْسُطْ أَحَدٌ إِلَيْهِ يَدَهُ ، فقالت : مَا لَكُمْ لَا تَأْكُلُونَ ؟ فقالوا : إِنَّكَ تَقْدَمْتِ
إِلَيْنَا أَنْ لَا يَأْكُلَ مِنْهُ مَحْزُونٌ ، وَلَيْسَ مِنَّا إِلَّا مَنْ قَدْ أَصِيبَ بِجَمْعٍ أَوْ قَرِيبٍ
فقالت : مات - والله - ابْنِي أَوْ مَا أَوْصَى إِلَيَّ بِهَذَا إِلَّا لِيُعْزِّئَنِي بِهِ ...

التسلي بأنه معزى

لا معزى به

قال أبو فراس الحمداني في أبيات يُعزى بها سيف الدولة بأخته :
 هيهات ما في الناس من خالد لا بُدَّ من فُقْدٍ ومن فائِدٍ
 كُنِ المَعزَى لا المعزَى به إذ كان لا بُدَّ من الواحدِ
 وقال المتنبي من أبيات يمدح سيف الدولة ويرثي ابن عمه أبا وائل :
 مَهْمَا يُعزَى الفَتَى الأميرَ به . فلا يافداه ولا الجود^(١)
 وَمِنْ مُنَانَا بَقَاؤُهُ أَبداً حتى يُعزَى بكلِّ مولود^(٢)

التسلي عمن مضى بمن بقي

قيلَ لرجل ماتت امرأته نُفْسَاء^(٣) : عَظَّمَ اللهُ أَجْرَكَ فيما أباد وبارَكَ
 فيما أفاد ... وقال المتنبي في مرثية يعزى سيف الدولة بأخته الصغرى
 ويسلِّيه بالكبرى :

قاسمتك المَنُونُ شَخْصِينَ جَوْرًا جَمَلَ الْقِسْمَ نَفْسَهُ فَيْكَ عَدَلًا^(٤)

(١) يقول : إذا عزاه معز بهذا الميت فلا عزاء بجوده ولا شجاعته ، أى لا عدهما
 (٢) يقول : أمنتنا التي تمنأها هي بقاؤه أبداً حتى يعزى بكل من ولد ، يتقدمونه
 ويبيق هو فيعزى بهم

(٣) النفاس : ولادة المرأة إذا وضعت ، والوالدة نفساء

(٤) يقول : قاسمتك الموت شخصين فذهب بإحداهما وترك الأخرى ، فكانت
 هذه المقاسمة جوراً لأنه كان من حَقِّك أن يتركهما ولكن هذا الجور عدل فيك
 حيث تركك حياً وكانت المقاسمة في الاختين ، يعني : إذا كنت أنت الباقي فالجور
 عدل ؛ وهذا إذا نصبت القسم وجعلت الفعل للجور ، أما من رفع القسم فيكون
 المعنى : أن القسم جمل نفسه عدلاً في الجور لأنه وإن أخذ الصغرى فقد أبى الكبرى

فَإِذَا قَسَتْ مَا أَخَذْتَ بِمَا أَغَى دَرْنَ سَرَى عَنْ الْفَوَادِ وَسَلَّى^(١)
وَلَمَّا مَاتَ الْأَخْتُ الْكُبْرَى بَعْدَ ذَلِكَ رَثَاهَا فَقَالَ :

قَدْ كَانَ قَاسَمَكَ الشَّخْصِينَ دَهْرُهُمَا وَعَاشَ دُرُّهُمَا الْمَقْدِيَّ بِالذَّهَبِ^(٢)
وَعَادَ فِي طَلَبِ الْمَتْرُوكِ تَارِكُهُ إِنَّا لَنَغْفُلُ وَالْأَيَّامُ فِي الطَّلَبِ
مَا كَانَ أَقْصَرَ وَقَتَا كَانَ بَيْنَهُمَا كَأَنَّهُ الْوَقْتُ بَيْنَ الْوَرْدِ وَالْقَرَبِ^(٣)

وَفِي هَذِهِ الْمَرْثِيَةِ الثَّانِيَةِ هَذَانِ الْبَيْتَانِ الْبَدِيْعَانِ :
طَوَى الْجَزِيرَةَ حَتَّى جَاءَنِي خَبْرٌ فَرِغْتُ فِيهِ بِأَمَالِي إِلَى الْكَذِبِ
حَتَّى إِذَا لَمْ يَدْعُ لِي صِدْقُهُ أَمَلًا شَرِقتُ بِالْدمْعِ حَتَّى كَادَ يَشْرِقُ بِي

من تسلي بماله من الثواب

وبعض تعازيهم

دَخَلَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَلَى ابْنِهِ عَبْدِ الْمَلِكِ - وَكَانَ قَدْ أَصَابَهُ الطَّاعُونُ -
فَقَالَ : دَعْنِي أَمْسَ قَرَحَتِكَ ، - وَكَانَ يُقَالُ : إِذَا كَانَ الْقَرَحُ لَيْنًا يُرْجَى ،
وَإِنْ كَانَ خَشِنًا لَا يُرْجَى - فَأَمْتَنَعَ عَبْدُ الْمَلِكِ مِنْ أَنْ يَمْسَهَا ، فَعَمِلَ عُمَرُ لَمْ
مَتَّعَهُ ! فَقَالَ : دَعْنِي أَمْسَهَا ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ أُقَدِّمَكَ فَتَكُونَ فِي مِيزَانِي أَحَبُّ إِلَيَّ
مِنْ أَنْ أَكُونَ فِي مِيزَانِكَ ! فَقَالَ : وَاللَّهِ ، لَأَنْ يَكُونَ مَا تُرِيدُ أَحَبُّ إِلَيَّ

(١) أَغْدَرُون : مَثَلُ غَادِرِنِ أَيْ تَرَكْنِ وَأَبْقَيْنِ ، وَسَرَى : أَذْهَبَ ، وَسَلَى : عَزَى وَهَذَا
الْبَيْتُ يُؤَيِّدُ رِوَايَةَ رَفْعِ الْقَسَمِ

(٢) يُرِيدُ بِالشَّخْصِينَ : أُخْتَيْهِ الْكُبْرَى وَالصَّغْرَى وَجَعَلَ الْكُبْرَى كَالدَّرِ لِنَفَاسَتِهِ
وَجَعَلَ الصَّغْرَى ذَهَبًا ، وَجَعَلَ الْكُبْرَى كَدْرَ فَنَدَى بِالذَّهَبِ

(٣) مِنْ عَادَةِ الْقَوْمِ أَنَّهُمْ يَرْعَوْنَ الْإِبِلَ وَهَمٌّ فِي ذَلِكَ يَسِيرُونَ نَحْوَ الْمَاءِ فَإِذَا بَقِيَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ
الْمَاءِ عَشِيَّةٌ فَتَلِكُ اللَّيْلَةُ لَيْلَةُ الْقَرَبِ يَقُولُ : مَا كَانَ أَقْصَرَ مَا كَانَ بَيْنَهُمَا مِنَ الزَّمَانِ فَكَأَنَّهُ
مَا بَيْنَ الْقَرَبِ إِلَى الْوَرْدِ ، وَهُوَ لَيْلَةُ

من أن يكون مأريد ! فَلََمَسَهَا ، فقال : يا عبدَ الملك ، الحقُّ من ربِّك فلا
تَكُونَنَّ من المُستَترين ... فقال : سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ من الصَّابرين ...
ولما مات عبد الملك عَزَّى أباه الحسنُ البَصْرِي بهذا البيت :
وَعُوْضَتْ أَجْرًا مِنْ فَقِيرٍ فَلَا يَكُنْ فَمَقِيدُكَ لَا يَأْتِي وَأَجْرُكَ يَذْهَبُ
وروى : أن رجلا جزع على ابن له ، فشكى ذلك إلى الحسن ، فقال له :
هل كان ابنك يغيب عنك ؟ فقال : نعم ، كان مَغِيْبَةً عَنِّي أَكْثَرَ مِنْ حُضُورِهِ
قال : فاتركهُ غائبا ، فإنه لم يَغِبْ عَنْكَ غِيْبَةً الْأَجْرُ لَكَ فِيهَا أَعْظَمُ مِنْ هَذِهِ
الغِيْبَةِ ... وقال أعرابي : وقد مات له ثلاثة بنين في يوم واحد ، فدفعهم
وعاد إلى مجلسه ، فجعل يتحدث كأن لم يَفْقِدْ واحدا ، فليَمَ على ذلك ، فقال :
ايمسوا في الموتِ بِيَدِمْ ، ولا أنا في المصيبةِ بأوحد ، ولا جدوى للجزع ،
فعلَّامَ تلوُمُونَنِي !

من مات له كثير من أهله

فَصِيرَ

نظر رجل بالبصرة إلى امرأة فقال : ما رأيتُ مثلَ هذه النَّصَارَةِ ! وما ذاك
إلا من قِلةِ الحزن ! فقالت : مأحُزنٌ كُفْنِي ! ذَبَحَ زَوْجِي شاةً ، وَلِي صَبِيَّانِ
يَلْعَبَانِ ، فقال أحدهما للآخر : تعالَ أُرِيكَ كَيْفَ ذَبَحَ أَبُو الشاةِ ، فذبحه ،
ثم خاف فهُرَبَ إلى الجبلِ ، فَرَهَقَهُ ذَنْبٌ ، فافْتَرَسَهُ ، وخرج زوجي في
طَائِفَةٍ ، فاشتد عاياه الحرُّ فمات عطشا ! فقبل لها : كيف صَبِرْتِ ؟ فقالت :
لو وجدتُ في الحزنِ دَرَكَما ماخِزْتُ عَلَيْهِ ... « رَهَقَهُ : غَشِيَهُ ، وَدَرَكَا :
تريد مداركة لما فات ، »

ومن أدعيتهم لذوى المصيبة

ومن قولهم فى الدعاء لذوى المصيبة : وَهَبَ اللَّهُ لَكَ عُمْرًا طَوِيلًا وَأَجْرًا جَزِيلًا وَصَبْرًا جَمِيلًا ؛ لَقَاكَ اللَّهُ الصَّبْرَ وَوَقَاكَ مَا يُحْبِطُ الْأَجْرَ . وقال رجل لابن عمر : عَظَّمَ اللَّهُ أَجْرَكَ ، فقال : بل جعل الله لى العافية ... « وذلك أن تعظيم الأجر فى تعظيم ما يؤجرُ عليه من المصيبة ، وقالوا : التعزية بعد ثلاث تجيدُ للمصيبة ، والتهنئة بعد ثلاث استخفافٌ بالمؤدَّة ... »



« وبعد ، فأما عقرياتهم فى المرائى فإن لها موضعا آخر فى هذا الكتاب كما أن عقرياتهم فى المدح والثناء تراها فى باب قد أفردناه لها .

عقرياتهم فى الطب والمرض وعيادة المرضى

معنى الطب

كلُّ حَازِقٍ بَعْمَلِهِ : طَبِيبٌ عِنْدَ الْعَرَبِ ، وَرَجُلٌ طَبَّ بِكَذَا : أَى عَالِمٌ بِهِ ثُمَّ صَارَ الطَّبِيبُ اسْمًا لِلْعَالِمِ بِمَدَاوِةِ أَبْدَانِ النَّاسِ ، وَقَالُوا : حَدُّ الطَّبِّ : مَعْرِفَةُ الدَّاءِ وَتَقْيِيهِ بِالْإِدْوَاءِ ، أَوْ هُوَ : اسْتِدَامَةُ الصَّحَّةِ وَمَرَمَةُ السَّقَمِ .

وصف طبيب حاذق

قال السَّريُّ الرَّفَاءُ فى طَبِيبٍ حَازِقٍ :

أَوْضَحَ نَهْجَ الطَّبِّ فى مَعْتَمِرٍ مَازَالَ فِيهِمْ دَارِسَ الرَّسْمِ^(١)

كَأَنَّهُ مِنْ لُطْفِ أَفْكَارِهِ يَحْـوُلُ بَيْنَ الدَّمِّ وَاللَّحْمِ

(١) الرسم : الأثر ، ودرس الرسم : عفا

لَوْ غَضِبْتَ رُوحٌ عَلَى جِسْمِهَا أَصْلَحَ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجِسْمِ
وقال أيضاً :

يَبْدُو لَهُ الدَّاءُ الْخَفِيُّ كَمَا بَدَأَ لِلَّذِينَ رَضِرَاضُ الْغَدِيرِ الصَّافِي ^(١)

الطبيب الجاهل

رأى فيلسوف طبيياً جاهلاً فقال : هذا مُسْتَحِثُّ الموت ... وقال الشاعر
المعروف بالخبز أُرْزِي ^(٢) في طبيب اسمه نُعْمَانُ :

أَقُولُ لِنُعْمَانَ وَقَدْ سَاقَ طِبُّهُ نَفُوساً نَفِيسَاتٍ عَلَى سَاكِئِي الْأَرْضِ
« أَبَا مُنْذِرٍ أَفْنَيْتَ فَاسْتَبَقِي بَعْضُنَا حَنَاتِيكَ بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ »
« أَقُولُ : إِنَّ الْبَيْتَ الثَّانِي لَطَرَفَةَ بْنِ الْعَبْدِ » صَمَّيْتَهُ الْخَبْزُ أُرْزِي شِعْرَهُ »
وقال آخر في طبيب :

لَمْ يَأْتِ فِي الْأَرْبَعَا عَلِيلاً إِلَّا دَفَنَاهُ فِي الْخَنَيسِ
وكان رجل يحترف التصوير ثم تركه وتطبيب ، ف قيل له في ذلك ؟ فقال :
الخطأ في التصوير تُدْرِكُهُ الْعْيُونُ ، وَخَطَأُ الطَّبِيبِ تُوَارِيهِ الْقُبُورُ ...

مدح الحمية وذمها

قال قائل للحارث بن كَلْدَةَ - وكان طبيب العرب - : مَا الطَّبُّ فَقَالَ :
هُوَ الْأَزَمُ ... وَمَرَادُهُ بِالْأَزَمِ : الْحِمِيَّةُ وَالْإِمْسَاكُ عَنِ الْإِسْتِكْثَارِ مِنَ
الطَّعَامِ ... وَقِيلَ لِلْجَالِيئُوسِ أَوْ لَا بُقْرَاطَ : إِنَّكَ تُقِلُّ مِنَ الطَّعَامِ ! قَالَ :
غَرَضِي مِنَ الطَّعَامِ أَنْ أَكُلَ لِأَحْيَا ، وَغَرَضُ غَيْرِي مِنَ الطَّعَامِ أَنْ يَحْيَا

(١) الرضراض : مَادِقٌ مِنَ الْحَصَى

(٢) اسمه نصر وكان شاعراً أُمياً وكان يخبز خبزا الارز ، ترجم له ابن خلكان وياقوت

لِأَكْلِ ... وقالوا: لَا تَأْكُلْ مَا تَشْتَهِي فَيُصِيرُكَ إِلَى مَا لَا تَشْتَهِي ... وفي الحديث: لَا تُتَكَبَّرْهُوَ مَرْضَاكُمْ عَلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ فَإِنَّ اللَّهَ يُطْعِمُهُمْ وَيَسْقِيهِمْ ... وقالوا: الْحِمْيَةُ لِلصَّحِيحِ ضَارَّةٌ ، كَمَا أَنَّهَا لِلْعَلِيلِ نَافِعَةٌ ... وقال الرشيد للفضل: مَا أَطِيبُ مَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ؟ فَقَالَ : رَفُضَ الْحِشْمَةِ وَتَرَكُ عِلْمَ الطَّبِّ ، فَلَا عَيْشَ لِمُحْتَشِمٍ وَلَا لَذَّةَ لِمُحْتَمٍ ... وقالوا : مَنْ عَرَفَ مَا يُضُرُّهُ مِمَّا يَنْفَعُهُ فَهُوَ مَرِيضٌ ... وقال أفلاطون : الموت موتان : طَبِيعِي وَإِرَادِي : فَالطَّبِيعِيُّ مَفَارِقَةُ الرُّوحِ لِلْبَدَنِ ، وَالْإِرَادِيُّ مُنْعُ الْإِبْدَانِ مِنَ الشَّهَوَاتِ ... وقالوا : الْإِبْدَانُ الَّتِي اعْتَادَتْ الْحِمْيَةُ آفَتُهَا التَّخْلِيطُ ، وَالْإِبْدَانُ الَّتِي اعْتَادَتْ التَّخْلِيطُ آفَتُهَا الْحِمْيَةُ ...

شرب الدواء

قال سيدنا رسول الله : مَنْ اسْتَقْلَ بَدَانَهُ فَلَا يَتَدَاوَنَ ، فَإِنَّهُ رُبَّ دَوَاءٍ يُورِثُ الدَّاءَ ... وكانت الحكماء تقول : إِيَّاكَ وَشُرْبَ الدَّوَاءِ مَا حَمَلَتْ صِحَّتُكَ دَاءَكَ ... وقالوا : مَثَلُ شُرْبِ الدَّوَاءِ مَثَلُ الصَّابُونِ لِلشُّوبِ ، يُنْقِيه وَلَكِنْ يُخْلِقُهُ وَيُبْلِيهِ ... وقال أبقراط : الدَّوَاءُ مِنْ فَوْقَ ، وَالدَّوَاءُ مِنْ تَحْتِ ، وَالدَّوَاءُ لَا فَوْقَ وَلَا تَحْتِ ، وَفَسَّرَ ذَلِكَ مُفَسَّرُوهُ فَقَالُوا : مَنْ كَانَ دَاوَاهُ فِي بَطْنِهِ فَوْقَ سُرَّتِهِ سُقِيَ الدَّوَاءُ ، وَمَنْ كَانَ دَاوَاهُ تَحْتَ سُرَّتِهِ حُقِّنَ ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ دَاءٌ لَمْ يَكُنْ فَوْقَ وَلَا مِنْ تَحْتِ لَمْ يُسَقَ الدَّوَاءُ ، فَإِنَّ الدَّوَاءَ إِذَا لَمْ يَجِدْ دَاءً يَعْمَلُ فِيهِ وَجَدَ الصَّحَّةَ فَعَمِلَ فِيهَا ...

سياسة الأبدان

بما يصلحها من الطعام وغيره

قال الحجاج بن يوسف الثقفي لِيَتَذَوَّقَ مُتَطَبِّئِهِ ^(١) : صِفْ لِي صِفَةً آخَذُهَا
 وَلَا أُعْدُوها ، قَالَ يَتَذَوَّقُ : لَا تَتَزَوَّجُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا شَابَةً ، وَلَا تَأْكُلُ مِنَ
 اللَّحْمِ إِلَّا فَتِيًّا ، وَلَا تَأْكُلْهُ حَتَّى يُنْعَمَ طَبْعُهُ ، وَلَا تُشْرِبَنَّ دِرَاءً إِلَّا مِنْ
 عِلَّةٍ ، وَلَا تَأْكُلْ مِنَ الْفَاكِهِةِ إِلَّا تَضِيحُهَا ، وَلَا تَأْكُلْ طَعَامًا إِلَّا أُجِدَّتْ
 مَضْغُهُ ، وَكُلْ مَا أَحْبَبْتَ مِنَ الطَّعَامِ وَاشْرَبْ عَلَيْهِ ، وَإِذَا شَرِبْتَ فَلَا تَأْكُلْ
 عَلَيْهِ شَيْئًا ، وَلَا تَحْبِسِ الْغَائِطَ وَالْبَوْلَ ، وَإِذَا أَكَلْتَ بِالنَّهَارِ فَنَمْ ، وَإِذَا أَكَلْتَ
 بِاللَّيْلِ فَتَمَشَّ وَلَوْ خَمْسِينَ خُطْوَةً ... فَقَالَ لَهُ بَعْضُ مَنْ حَضَرَ : إِذَا كَانَ الْأَمْرُ
 كَمَا تَقُولُ فَيَلَمْ هَلَكَ أَتَبْرَاطُ وَلَمْ هَلَكْ جَالِينُوسُ وَغَيْرُهُمَا وَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ
 مِنْهُمْ ؟ قَالَ : يَا بُنَيَّ ، قَدْ احْتَجَجْتَ فَاسْتَمِعْ : إِنْ الْقَوْمَ دَبَّرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا
 يَمْلِكُونَ ، وَغَلَبَهُمْ مَا لَا يَمْلِكُونَ - يَعْنِي الْمَوْتَ وَمَا يَرُدُّ مِنْ خَارِجٍ ، كَالْحَرِّ
 وَالْبَرْدِ وَالْوَقُوعِ وَالْفَرَقِ وَالْغَمِّ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ - ... وَقَالَ يَتَذَوَّقُ أَيْضًا
 لِلْحَجَّاجِ : أَرْبَعَةٌ تَهْدِمُ الْعَمَرَ وَرُبَّمَا قَتَلْنَ : دُخُولُ الْحَمَامِ عَلَى بَطْنَةٍ ، وَالْمَجَامَعَةُ
 عَلَى الْإِمْتِلَاءِ ؛ وَأَكْلُ الْقَدِيدِ الْجَافِ ^(٢) ، وَشُرْبُ الْمَاءِ الْبَارِدِ عَلَى الرَّيْقِ ؛
 وَمَا بِمَجَامَعَةِ الْعَجُوزِ بِبَعِيدَةٍ مِنْهُنَّ ... وَوَجَدَ الْحَجَّاجُ فِي رَأْسِهِ صُدَاعًا فَبَعَثَ
 إِلَى يَتَذَوَّقٍ وَأَحْضَرَهُ ، فَقَالَ : آغْسِلْ رِجْلَيْكَ بِمَاءٍ حَارٍّ وَادْهَنْهُمَا ، وَخَصِّ
 لِلْحَجَّاجِ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِهِ ، فَقَالَ الْخَصِيُّ : وَاللَّهِ ، مَا رَأَيْتُ طَبِيبًا أَقَلَّ مَعْرِفَةً

(١) ترجم له ابن أبي أصيبعة في طبقات الاطباء

(٢) القديد : اللحم المجفف

بالبط منك ! شكى الأمير الصداع في رأسه فتصيف له دواءً في رجله !
فقال له : أما إن علامة ماثلتُ فيك بيئته ! قال الحصى : وما هي ؟ قال :
نزعت حُصيتاك فذهب شعرك لحيتك ! فضحك الحجاجُ ومن حضر ...

وقال عبد الملك بن مروان لأعرابي : إنك حسن الكدنة ! قال : إني
أذني رجلى في الشتاء ، وأغفل غاشية الغم ، وآكلُ عند الشهوة ...
ويقال : ثلاثة أشياء تُورث الهزال : شرب الماء على الرِّيق ، والنوم على
غير وطاء ، وكثرة الكلام برفع الصوت ... وقالوا : الدواء الذي لاداء معه :
أن تجلس على الطعام وأنت تشتهيهِ وتقوم عنه وأنت تشتهيهِ .

وقال أرسطوطاليس : المَطْعَمُ والمشرب إذا كثرا على المعدة أظفأ
نارها تجرت الأغذية في البدن غير نضيجة ، فصار ذلك نقصانا للبدن يورث
الفترة ^(١) ، كالشجرة ، إذا كثُر ماؤها عَفِنَتْ وإن قلَّ جَفَّت ، وكالتراج ، إذا
قلَّ دهنه أو كثُر انظفأ ... وقال بعضهم : مَنْ تَغَدَّى وتَعَشَّى ولم يأكل
فيما بينهما ، سَلِمَ من الأوجاع ، لقول الله عز وجل : ولهم رزقهم فيها بُكْرة
وعشيًا ... وقال بعض الأطباء : أحبُّ الناس إلينا : الرغيب البطن ، لكثرة
حاجاتهم إلينا ... وأخيرَ بعض الأمراء بشيخ قد أتت عليه مائة وخمسون
سنة في اعتدال جسمه ونضارة لونه ، فاستدعاه وسأله فقال : إن كان لما ترى
من هذه الموهبة الجميلة سببٌ بعد تقدير الله تعالى فما أصفه : ما احتملتُ مهمًّا
تَبْعُدُ عليَّ مدافعتُهُ ، ولا رأيتُ من زوجة مكروها ، ولا اجتمع في بطني
طمانان ، وإذا شربتُ شرابا تناولته رقيقاً طيباً لا أتمل منه ^(٢) ، ولا أستدعي

(١) الفترة : الضعف والانكسار (٢) تمل بشمل : أخذ منه الشراب والسكر

الطبيعة من غير عارض ، وما استدعيت للباه^(١) حركة إلا أن يهيج بالطبيعة على القلب ، وإذا فعلت ذلك أقلمت الحركة بقية يومى ... وقالوا : أضر الأشياء للبدن : الفكرُ والسهر ، وأنك الأشياء للبدن : الخوف . وقال المأمون : قد أصبت دواء يمرئ ولا يؤكل ولا يشرب ا فقيل : ماهو ؟ قال : النوم إثر الغداء ... وقالوا : إذا أكلت فاضطجع على جنبك الأيسر ، فإن الكبد يقع على المعدة فيضج الطعام فيهضمه ... وقالوا : غشيان المرأة المولية يضعف القوة ويسقم البدن ، لأنها كالشن البالى^(٢) ، ماوها سم قاتل ، تأخذ منك ولا تعطيك ...

من تناول طعاما

وتحقق تولد علة منه

اجتاز رجلٌ بصديق له محموم فسأله عن سبب عيلته ؟ فقال : أكلتُ فى هذا الصيف فراخا وعسلا وشربتُ خمرأ صلبا - شديدة - ونمتُ فى الشمس ! فقال له : على كلِّ يمينٍ ، لو كانت الحمى من حملة الشمس ورأتك بهذه الحالة اتركتُ عملها وواقفك ... ونظر طبيبٌ إلى دهقان^(٣) يغرسُ شجرة مشمش فقال له : ما تصنع ؟ قال : أعملُ لى ولك ا . يعنى أن الطبيب ينتفع بالمشمش ، لسوء أثره على آكله ، وحاجتهم إلى الطبيب ، لما يتولد فيهم من الادواء لا كل الطرى منه ، وفى هذا المعنى يقول ابن الرومى :

إدما رأيت الدهر بُستانَ مشمش فأيقن بحقِّ أنه إيطيب
يُغِلُّ له مالا يُغِلُّ لربه يُغِلُّ مريضا حَمْلُ كلِّ قُضيبٍ

(٢) الشن : القرية الخلق

(١) الباه والباهة والباء والباءة : الجماع

(٣) رئيس القرية

« يُغَلَّ له : أى يعطى الطيب من الغلة - وهى الدَّخْل - مالا يُعطيه لصاحبه ،
وذلك أن تحمّل الغصن الواحد من كل شجرة مشمش من أشجار ذلك البستان
إذا أكله إنسان فإنه ينقلب مريضاً فيلجأ إلى الطبيب ،

الحمى

قال المتنبى :

وزائرتى كأن بها حياةً فليس تزورُ إلا فى الظلام
بذلتُ لها المطارفَ والحشايا فعاقبتها وباتتْ فى عظامى
يضيقُ الجلدُ عن نفسى وعنها فتوسَّعهُ بأنواع السَّقام
إذا ما فارقتنى غسَلتْنى كأننا عاكفانِ على حَرَامٍ
كأنَّ الصُّبحَ يطردُها فتَجْرى مداً معها بأربعةِ سِجَامٍ
أراقِبُ وقتها من غيرِ شوق مُرافبةَ المَشوقِ المُستَهَامِ
ويصدقُ وعدها والصدقُ شرٌّ إذا ألقاك فى الكَرْبِ العِظَامِ

« وقوله : وزائرتى ... البيت يقول : إن الحمى التى كانت تأتية ليلاً ،
كأنها حَيَّةٌ فليست تزور إلا فى الليل ... والمطارف فى البيت الثانى : جمع
مُطَرَف وهى : أُرْدِيَةٌ مُرَبَّعَةٌ مِنْ خَزٍّ فى جنبها عِلْبَانٌ ، والحشايا
جمع حَشِيَّة : مأحشى من الفرش مما يُجلَس عليه ، يقول . إن هذه الزائرة
- الحمى - لا تبيت فى الفراش وإما تبيت فى عظامى . وقوله : يضيق الجلد .
البيت يقول : يضيق جلده فلا يَسْمَعُها ولا يَسْمَعُ أنفاسى التى أتنفَّسُها ، وهى
مع ذلك تذهب بلحمى فتوسَّع جلدى بما تورد عليه من ضروب السقم ،
وقوله : إذا ما فارقتنى غسَلتْنى ... يقول : إنه يَعرِّقُ عند فراقها ، فكأنه

تغسله لُكُوفهما على ما يوجب الغُسل ، وإنما خَصَّ الحرام لأنه جعلها
 زائرة غريبة ولم يجعلها زوجةً ولا مملوكة ... وقوله : كأن الصبح ... البيت
 يقول : إنها تفارقه عند الصبح فكان الصُّبح يطْرُدُها ، وأنها إذا فارقتَه
 تجري مدامعُها من أربعة سِجّام ، يريد : كثرة العرق - عَرَقَ الحُمَّى - فكانتْها
 تبسكي عند فراقه إحبَّها إياه ، وأراد بالاربعة : اللَّحَاطِينَ والمُوقِنِينَ للعَيْنِينَ .
 وقوله : أراقب وقتها الخ يقول : أنتظر وقت تجيئها كما ينتظر المَشُوق مجيئ
 حبيبته ، وذلك أن المريض يحزن لورود الحمى ، فهو يراقب وقتها خوفاً
 لا شوقاً . ثم قال : ويصدق وعدُّها ، يقول : إنها صادقة الوعد في الورد
 وذلك الصدق شرٌّ من الكذب ، لأنه صدق بضُرٍّ ولا ينفع كمن أوعده ثم صدق
 في وعده ... »

وقال المتنبي أيضاً :

ومنازلُ الحمى الجسومُ فَقُلْ لَنَا ما عُدُّها في تركِها خيرَاتها
 أعجبتُها شرفاً فطال وقوفُها لتَأْمُلِ الأَعْضاءِ لا لآذَانِها
 « يقول المتنبي لهذا الممدوح - وكان مُصاباً بالحمى - إِنَّ جِسْمَكَ خَيْرُ
 الأجسام فلا عُدَّ للحمى في تركِها ، لأن محلَّها الأجسام اثم قال : إن الحمى
 لما رأتك في المحل الأرفع من الشرف والكرم والنبل أعجبتُها فأقانت
 في بدنك لتأْمُلِ أعضائك التي اشتملت على تلك المحامد ، لأنها تريد أن
 تُؤذِيكَ ... » وقال الشاعر أبو الفتح كُشاجم ^(١) في علي بن سليمان الأخفش :
 ولفد أخطأ قومٌ زعموا أنها من فضلِ برْدٍ في العصب

(١) هو محمود بن الحسين بن السندی بن شامك ، وشاعك أمه

هو ذاك الذَّهْنُ أَذْكَى نَارُهُ وَالْمِزَاجُ الْمُفْرِطُ الْحَرَّ النَّهَبُ
 ودخل بَخْتِيشُوعُ^(١) عَلَى يَحْيَى بْنِ خَالِدِ بْنِ بَرْمَكٍ بِعَقِبِ حُمَى فَقَالَ
 لَهُ : تَوَقَّ فَإِنَّ حُمَى لَيْلَةٌ يَبْقَى فِي الْبَدَنِ تَأْثِيرُهَا سَنَةً ١ — وَعِنْدَهُ وَكَيْعٌ فَقَالَ :
 صَدَقَ ، فَقَالَ يَحْيَى : مَا أَقْرَبَ تَصْدِيقَكَ إِيَّاهُ ١ قَالَ : لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَالَ . حُمَى لَيْلَةٌ كَفَّازَةٌ سَنَةً ، فَعَمِلْتُ أَنْ هَذَا مِنْ ذَلِكَ ...

الرمد

مِمَّا يُسْتَحْسَنُ فِي عَيْنِ مَحْبُوبٍ رَمْدَاءُ قَوْلُ ابْنِ الْمُعْتَزِّ :
 قَالُوا : اشْتَكَيْتَ عَيْنَهُ نَقَاتَ لَمْ : مِنْ شِدَّةِ الْفَنَكِ نَالَهَا الْوَصَبُ^(٢)
 حُمَرُهَا مِنْ دِمَاءٍ مَن تَمَلَّتْ وَالدَّمُ فِي النَّصْلِ شَاهِدٌ عَجَبُ^(٣)
 وَفِي مَعْنَى هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ :
 قَالُوا : الْحَبِيبُ شَكَاهُ جُعِلَتْ فِدَاهُ رَمْدًا أَضْرَّ بَعِينَهُ كَالْعَنْدَمِ^(٤)
 فَأَجَبْتُهُمْ : مَا زَالَ يَفْتِكُ لَحْظُهُ فِي مُهْجَتِي حَتَّى تَلْطَخَ بِالْدَمِ

(١) بَخْتِيشُوعُ بْنُ جُورْجَسَ هُوَ طَيْبُ يُونَانِي الْأَصْلِ ، اتَّصَلَ بِهَرُونَ الرَّشِيدِ
 وَخَدَمَهُ وَكَانَتْ لَهُ مَنَزَلَةٌ عِنْدَهُ ، وَكَانَ أَبُوهُ جُورْجَسَ طَيْبٌ أَبِي جَعْفَرِ الْمَصُورِ ،
 وَابْنُهُ يَدْعَى جَبْرَائِيلَ بْنَ بَخْتِيشُوعَ ؛ كَانَ مِنْ أَمَهِرِ الْأَطْبَاءِ اتَّخَذَهُ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى الْبُرْمَكِيُّ
 طَبِيبَهُ الْخَاصَّ وَحَظِيَ عِنْدَ الْخُلَفَاءِ وَنَالَ مِنْهُمْ أَمْوَالًا مِثْلَ مَا يَنَالُهَا أَحَدٌ غَيْرُهُ مِنْهُمْ
 (٢) الْفَنَكُ يَرُودُ : الْقَتْلُ ، وَالْفَنَكُ أَحْسَنُ ، وَالْوَصَبُ : الْمَرَضُ وَالْوَجَعُ الدَّائِمُ
 وَقَدْ بَطُلَ عَلَى التَّب

(٣) النَّصْلُ : نَصْلُ السِّمِّ وَالسِّيفِ وَالرَّحِمِ وَقَدْ يَسْعَى السِّيفُ نَصْلًا

(٤) الْعَنْدَمُ : صَبَغَ أَحْمَرَ يَخْتَضِبُ بِهِ

(٥) النقرس

كان أبو الفضل بن العميد يكثر برجله النقرس ، فقيل له : لا تغتم فإن ذلك يؤذن بطول العمر ! فقال : طول العمر هو أن من به النقرس يسهر ، فيصير ليلته نهاراً ، فكأنما يتضاءل عمره ... وقال المبرد : ذكر أعرابي رجلاً قد أترى فقال : تنقرس ! كأنه سمع أن النقرس يكون مع النعمة ... ومنه قول الأعرابي :

ألا فاعجبوا من مفلسٍ حلفٍ بنقرسٍ أما بنقرسٍ في مفلسٍ بعجيبٍ
« فلان حلف كذا أي : حليفه وملازمه »

عودٌ إلى عبقرياتهم في التداوى والأدوية

قيل لأبقراط : ما بال الإنسان يكون أثورَ ما يكون بدناً إذا شرب الدواء ؟ فقال : مثل البيت تراه أكثر ما يكون غباراً إذا كُدس ... ومن قولهم : مثل الدواء مثل عدوٍ إلى جانبه صديق ، ترمى العدو فلا تأمن أن تُصيب الصديق ... وقالوا : لا تُستعمل الأدوية فيما تنفع فيه الأغذية .

وفي الحديث الشريف : تداووا فإن الله ما أنزل داءً إلا أنزل له دواء ، إلا الهرم ...

وقالوا : حق الطيب أن يتأني في المداواة فعثرته لا تقال ... وقالوا المتأني في علاج الداء بعد معرفة الدواء كالمُتأني في إطفاء النار وقد أخذت بحواشي ثيابه

(٥) النقرس : داء معروف يأخذ في الرجل وهو ورم يحدث في مفاصل القدم وفي

إبهامها أكثر

شهوة المريض إلى الطعام

قال أثقراط : المريض الذي يَشْتَهِي أَرْجِي عِنْدِي مِنَ الصَّحِيحِ الَّذِي لَا يَشْتَهِي ... وقال المتنبي :

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمِ مَرِيضٍ يَجِدُ مُرًّا بِهِ الْمَاءَ الزُّلَالَا
وَقِيلَ لِلْخَلِيلِ بْنِ أَحْمَدَ فِي عِلَّتِهِ . أَشْتَهَى شَيْئًا ؟ قَالَ : لَا ! وَبُرْدَى
أَنْ أَشْتَهَى . وَقِيلَ ذَلِكَ لِآخِرِ فَقَالَ : أَشْتَهَى أَنْ لَا أَمُوتَ .

شكوى العلة

وَكَانَ مِنْهُمْ مَنْ لَا يَرَى بَأْسًا فِي شَكْوَى عِلَّتِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُنْكِرُ ذَلِكَ
فَمِنْ شَكََا عِلَّتَهُ أَبُو نَوَاسٍ إِذْ يَقُولُ :

دَبَّ فِي السَّقَامِ سُفْلًا وَعُلُوًّا وَأَرَانِي أَمُوتُ عِضْوًا فَعِضْوًا
لَيْسَ يَمُضِي مِنْ سَاعَةٍ بِي إِلَّا تَقْصُصْنِي بِمَرَّهَا بِي جُزْوًا
لَهْفَ نَفْسِي عَلَى لَيَالٍ وَأَيَّامٍ تَمْتَعْنَهُنَّ لَعِبًا وَلَهْوًا
وَقَالُوا : هـ وَلَا بَدَّ مِنْ شَكْوَى إِذَا لَمْ يَكُنْ صَبْرُ هـ

وَلَمَّا مَرَضَ بَعْضُ الصَّالِحِينَ وَعَادَهُ النَّاسُ قَالُوا لَهُ : كَيْفَ تَجِدُكَ ؟
قَالَ : بِشَرِّ ، قَالُوا : هَذَا كَلَامٌ مِثْلَ ذَلِكَ ! قَالَ : أَجَلٌ ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ :
« وَنَبِّئُوهُمْ بِالْبَشَرِ وَالْخَيْرِ فَتَنَةً » فَالْخَيْرِ الصَّحَّةُ ، وَالْبَشَرُ الْمَرَضُ
وَقَالُوا : الشَّكْوَى تُخَفِّفُ الْهَمَّ وَتُزِيلُ الْآلَمَ ...

وَلَمَّا وَجَّهَ الْمُتَوَكِّلُ فِي السَّنَةِ الَّتِي قُتِلَ فِيهَا أَنْ يُحْمَلَ إِلَيْهِ الْجَاحِظُ مِنَ
الْبَصْرَةِ قَالَ لِمَنْ أَرَادَ حَمْلَهُ : وَمَا يَصْنَعُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَمْرِي لَيْسَ بِطَائِلٍ ،
ذِي شَيْءٍ مَائِلٍ ، وَلُعَابِ سَائِلٍ ، وَفَرْجِ بَائِلٍ ، وَعَقْلِ حَائِلٍ ! « حَائِلٌ : مُتَغَيِّرٌ ،

وحدث المُبرّد قال : دخلت على الجاحظ في آخر أيامه فقلت له : كيف أنت ؟ فقال : كيف يكون من نصفه مفلوج لو حَزَّ بالمناشير ما شعر به ، ونصفه الآخر مُنْقَرَسٌ^(١) أو طار الذباب بقُربِه لآلِه ، وأشدُّ من ذلك ستُّ وتسعون سنة أنا فيها ، ثم أنشدنا :

أترجو أن تكون وأنت شيخٌ كما قد كنتَ أيامَ الشبابِ
لقد كذبتك نفسك ، ليس ثوبٌ دَريسٌ كالجديد من الثياب
« دريس : بال »

وقيل لآخر : ما تشكو ؟ فقال : تمامُ العِدَّة وانقضاء المُدَّة ... وقال بعضهم لمن يشكو : أتشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك ؟ وقيل لسعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص وهو مريض : إن المريض يتفرجُ إلى الأنين وإلى أن يصف ما به إلى الطبيب ، فقال : أما الأنين فوالله إنه لجزع ولا يسمعُ الله مني أنينا فأكونَ عنده جزوعا ، وأما الطبيب فوالله لا يحكم غير الله في نفسي ، فإن شاء قبضها إليه وإن شاء منَّ بها عليّ ...

فضل الصحة والعافية

قالوا : شيثان لا يعرفُ فضلَهُما إلّا من فقدَهُما : الشَّبابُ والعافية .
وقالوا : لا يعرفُ طعمَ العافية إلّا من نالته يدُ العِلَّة ، ولا طعمَ الرِّخاء إلّا من مسَّته يدُ البلاء .

(١) منقرس : مصاب بالنقرس وهو ورم أو وجع في مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين وفي إبهاءهما أكثر

نفع المرض

اعتَلَّ الْفَضْلُ بْنُ سَهْلٍ بِخِرَاسَانَ ، ثُمَّ بَرَأَ ، فَجَلَسَ لِلنَّاسِ فَهَنَّاوَهُ بِالْعَافِيَةِ وَتَصَرَّفُوا فِي فَنُونِ الْكَلَامِ ، فَلَمَّا فَرَّغُوا أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ : إِنْ فِي الْعِلَلِ زَيْمًا يَدْبِغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَعْرِفَهَا : تَمْحِصُ الذَّنْبَ ، وَالتَّعَرُّضُ لِلثَّوَابِ ، وَالْإِيقَاطُ مِنَ الْغَفْلَةِ ، وَالْإِذْكَارُ بِالنَّعْمَةِ فِي حَالِ الصَّحَّةِ ، وَالِاسْتِدْعَاءُ لِلنُّوبَةِ ، وَالْحَضُّ عَلَى الصَّدَقَةِ ، وَفِي قَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ الْخِيَارُ ...

واعتل بعضهم فقال : اللَّهُمَّ أَجْمَلْهُ أَدَبًا لَا غَضَبًا ... وفي الحديث الشريف : إِنْ الْمَرِيضُ تَنَحَّاهُ عَنْهُ خَطَايَاهُ كَمَا يَتَنَحَّاهُ وَرَقُ الشَّجَرِ (١) ... وَذُكِرَتْ الْأَدْوَاءُ عِنْدَ أَبِي الدَّرْدَاءِ فَقَالَ رَجُلٌ : مَا اشْتَكَيْتُ قَطُّ ، فَقَالَ لَا جَرَمَ أَنْ ذُنُوبَكَ لَمْ تَحْطَ عَنْكَ ...

وصف العلة بأنها تنال الأماثل

قال أبو تمام من أبيات في مرض إلياس بن أسد :
 فَإِنْ يَكُنْ وَصَبٌ عَايَلَتْ سَوْرَتَهُ فَالْوَرْدُ حِلْفٌ لِلْيَثِ الْغَايَةِ الْإِضْمِ
 إِنْ الرِّبَاحُ إِذَا مَا أَعْصَفَتْ قَصَفَتْ عَيْدَانِ تَجِدُ وَلَا يَبْأَنُ بِالرَّثَمِ
 بَنَاتُ نَعَشٍ وَنَعَشٌ لَا كُسُوفٌ لَهَا وَالشَّمْسُ وَالْبَدْرُ مِنْهَا الدَّهْرُ فِي الرُّقْمِ
 قَدْ يُنْعِمُ اللَّهُ بِالْبَلَوَى وَإِنْ عَظُمَتْ وَيَتَسَلَّى اللَّهُ بِبَعْضِ الْقَوْمِ بِالنَّعَمِ
 « الوصب هنا : المرض ، وسورته : شدته ، والورد : الحمى ، والإضم : الغضب ، وعيدان (بالفتح) جمع عيدانة وهي : النخلة الطويلة والشجرة

(١) تحات الشيء : تناثر ، وتحات الورق : سقط عن الغصن

السُّلْبَةُ الْقَدِيمَةُ . وَالرَّتَمُ : نَبَاتٌ مِنْ أَدَقِّ الشَّجَرِ ، وَبَنَاتُ نَعَشٍ كَبْرَى وَهِيَ سَبْعَةُ كَوَاكِبٍ أَرْبَعَةٌ مِنْهَا نَعَشٌ وَثَلَاثُ بَنَاتٍ ؛ وَصُغْرَى : وَهِيَ مِثْلُهَا ، وَمِنْهَا نَأَى مِنْ دُونِهَا ، وَالرَّقْمُ : السَّوَادُ ، وَيُرْفَى بِهِ الْخُفَاءُ لِلْكَسُوفِ وَالْخُسُوفِ «
وَقَالَ الْبَحْتَرِيُّ :

وَمَا الْكَلْبُ مَحْمُومًا وَإِنْ طَالَ عُثْمُرُهُ أَلَا إِنَّمَا الْحُمَّى عَلَى الْأَسَدِ الْوَرْدِ
« قِيلَ لِلْأَسَدِ وَرَدٌ لِأَن لَوْنَهُ أَحْمَرٌ يَضْرِبُ إِلَى صُفْرَةٍ ، وَفِي الْحَدِيثِ
الشَّرِيفِ : مِثْلُ الْمُؤْمِنِ مِثْلُ الْخَامَةِ مِنَ الزَّرْعِ ، تُفَيْئُهَا الرِّيحُ مَرَّةً وَتَعْدِلُهَا
مَرَّةً ، وَمِثْلُ الْكَافِرِ مِثْلُ الْأَرْزَةِ لَا تَزَالُ حَتَّى يَكُونَ انْجِعَافُهَا مَرَّةً وَاحِدَةً .
« الْخَامَةُ : الزَّرْعُ أَوَّلُ مَا يَنْبُتُ عَلَى سَاقٍ وَاحِدَةٍ ، وَقِيلَ : السُّبُلَةُ ، وَقِيلَ :
الطَّاقَةُ الْغَضَّةُ مِنَ الزَّرْعِ ، وَقِيلَ : الشَّجَرَةُ الْغَضَّةُ الطَّرِيَّةُ . وَتُفَيْئُهَا : تَحْرِكُهَا
وَتُجْمِئُهَا يَمِينًا وَشِمَالًا ، وَالْأَرْزَةُ : وَاحِدَةُ الْأَرِزِ : شَجَرٌ مُعْتَدِلٌ صُلْبٌ لَا يَحْرُكُهُ
هَبُوبُ الرِّيحِ يُقَالُ لَهُ الْأَرْزَةُ مَعْرُوفٌ بِلُبْنَانٍ ، وَقِيلَ : شَجَرُ الصَّنَوْبَرِ وَالْمَجْعِ
أَرِزٌ ، وَانْجِعَافُهَا : انْقِلَاعُهَا . وَمَعْنَى الْحَدِيثِ : أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَلْبِغِي لَهُ أَنْ
يَتَلَقَّى الْمَكَارَةَ صَابِرًا رَاجِيًا الْخَيْرَ مِنْ وَرَائِهَا ، وَأَنْ يَعُدَّ نَفْسَهُ كَأَوَّلِ الزَّرْعِ
تُجْمِئُهُ الرِّيحُ يَمَنَةً وَيَسْرَةً ، فَهُوَ فِي الدُّنْيَا هَدَفٌ تَنْتَضِلُ فِيهِ الرِّزَايَا ، فَلَيْسَ لَهُ
إِلَّا أَنْ يَعْتَصِمَ بِالصَّبْرِ وَالرِّضَا ، وَأَنْ يَعْلَمَ عَلَمًا لَيْسَ بِالظَّنِّ أَنَّ كُلَّ مَا يُرْزَوُهُ
مِنْ فَقْدَانِ مَالٍ وَوَلَدٍ وَمَا إِلَيْهِمَا ، وَمَا يَصِيبُهُ مِنْ مَرَضٍ وَوَصَبٍ ، إِنَّمَا هُوَ مُكْفَّرٌ
لنَّسِيئَاتِهِ رَافِعٌ لِدَرَجَاتِهِ ؛ أَمَّا الْكَافِرُ ، أَمَّا الْعِغْفَرِيَّةُ النَّفَرِيَّةُ ، فَإِنْ كُلُّ هَمٍّ أَنْ
يَسْتَمْتِعَ بِشَهَوَاتِ الدُّنْيَا وَلَذَائِهَا ، فَإِذَا رُزِيَ فِي مَالِهِ وَوَلَدِهِ وَنَفْسِهِ تَسَخَّطَ
وَلَمْ يَذْخَرْ لِنَفْسِهِ مَا يَنْفَعُهُ فِي آجِلِهِ وَمَنْ تَمَّ يَمُوتُ إِذْ يَمُوتُ كَمَا تَعَجِفُ
شَجَرَةُ الْأَرْزَةِ وَتُجْتَثُّ مِنْ أَصْلِهَا فَيَلْقَى اللَّهُ بِذُنُوبِهِ حَائَةً . هَذَا ، وَلَكِنْ أَنْ

تقول : إن المعنى بسبيل من قولهم : المؤمن مُصابٌ ، ومعنى هذا أن المؤمن . لأنه يتقى الله في سائر أسبابه ولا يُقدِّم على ما حَرَّمَ الله ، لا توانيهِ الدنيا كما تواتى من لا يتقى الله فيعيش من كان هذا شأنه مُرَرَّزاً وإن كان في آخرته من الفائزين . وهذا في الغالب ، وإلا فهناك من المؤمنين الصادقين من كان إيمانهم مَدْرَجَةً إلى أن يعيشوا عيشة راضية يُحسدون عليها . وعلى أية حال فإن المراد بمثل هذا الحديث هو تعزية المصابين في الدنيا من المؤمنين بأن الآخرة خيرٌ وأبقى ... ،

عيادة المريض

وجوب عيادة المريض

ورد في الحديث الشريف : حَقُّ المسلم على المسلم ثلاثٌ : عيادةُ المريض وتشميتُ العاطِس ، وتشيعُ الجنازة ؛ وفي الحديث أيضاً : من عاد مريضاً لم يزل في حُرْقَةِ الجنة حتى يرجع ... « الحُرْقَةُ (بضم الحاء وفتحها) : ما يُخترَفُ أى يُجتنى من الثمر ، أى لم يزل في بستانٍ يجتنى منه الثمر ، شبه صلوات الله عليه ما يحوزُه من يعودُ المريض من الثواب بما يحوزُه المُخترَف من الثمر »

أدب عيادة المريض

قالوا : سوءُ العيادة تلقيحٌ للعلّة ... وقال الفضل بن الربيع : لا تقولوا : كيف حال أمير المؤمنين ، ولا تسألوه عن حاله فتسكفوه الجواب ، ولعله يُثقلُ عليه الكلام ، ولكن اجعلوا مسألتكم الدعاء له وقولوا بَدَل كيف يَجِدُ أميرُ المؤمنين نفسه : أنزل الله عليه الشفاء والرحمة ... ودخل قومٌ على

السَّيرَى السَّقَطَى رَحِمَهُ اللَّهُ وَدَوَّ عِلِيلَ فَأَطَالُوا الْجُلُوسَ وَقَالُوا : اذْعُ لَنَا ،
فَقَالَ : ارْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ وَقُولُوا : اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِّنْ عَالَمَتِهِمْ عِيَادَةَ الْمَرْضَى ...
وَدَخَلَ قَوْمٌ عَلَى مَرِيضٍ فَأَطَالُوا الْجُلُوسَ ثُمَّ قَالُوا : أَوْصِنَا ، فَقَالَ : أُوصِيكُمْ
أَلَّا تَطِيلُوا الْجُلُوسَ عِنْدَ الْمَرِيضِ إِذَا عُدْتُمْوهُ ... وَدَخَلَ ثَقِيلٌ عَلَى مَرِيضٍ
فَأَطَالَ الْجُلُوسَ ثُمَّ قَالَ : مَا تَشْتَكِي ؟ قَالَ : قُعُودُكَ عِنْدِي ...

شكاية من لا يعودده إخوانه

قال : جحظة البرمكى^(٥) :

مَرَضْتُ فَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَرْضِ حُرٌّ يُشْرِقُنِي بِبَيْرٍ أَوْ سَلَامٍ
وَضَعُوا بِالْعِيَادَةِ وَهِيَ أَجْرٌ كَانَ عِيَادَتِي بَذَلُ الطَّعَامِ

الاعتذار عن ترك العيادة

قال شاعر :

إِنْ كُنْتُ فِي تَرْكِ الْعِيَادَةِ تَارِكًا حَظَى فَإِنِّي فِي الدَّعَاءِ لَجَاهِدُ
وَلَرَبَّمَا تَرَكَ الْعِيَادَةَ مُشْفِقٌ وَأَتَى عَلَى غِلِّ الضَّمِيرِ الْحَايِدُ

من عاده ممرضه

قال العوام بن كعب بن زهير في ليلي الغطفانية :

وَحُبْرْتُ كِلَيْلِي بِالْعِرَاقِ مَرِيضَةً فَأَقْبَلْتُ مِنْ أَهْلِي بِمَصْرَ أَعُودُهَا

(٥) هو أبو الحسن أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد بن برمك ، فهو من ذرية البرامكة كما ترى وكان من ظرفاء عصره وكان أديباً شاعراً صاحب فنون وأخبار ونوادر ومنادمة ، وجحظة لقب لقبه به عبد الله بن المعتز توفي سنة ٣٢٦ هـ انظر ترجمته في معجم البلدان لياقوت ووفيات الاعيان لابن خلكان ،

فوالله ما أدرى إذا أنا عُدْتُهَا أَأُزِيرُهَا مِنْ دَائِهَا أَمْ أَزِيدُهَا

مريض عاد صحيحاً

قال العباس بن الأحنف :

قَالَتْ : مَرِضْتُ فَعُدْتُهَا فَتَبَرَّمْتُ وَهِيَ الصَّحِيحَةُ وَالْمَرِيضُ الْعَائِدُ

وَاللَّهُ : لَوْ أَنَّ الْقُلُوبَ كَقُلُوبِهَا مَارَقَ لِلْوَلَدِ الضَّعِيفِ الْوَالِدُ

وقال آخر :

إِذَا مَرَضْنَا أَتَيْنَاكُمْ نَعُودُكُمْ وَتُعْذِيبُونَ فَنَاتِيكُمْ وَتَعْتَذِرُونَ

حُثُّهم العائد على تنشيط المريض

قال بعض الأطباء القدامى : بَشَرُوا الْمَرِيضَ بِالْبُرْءِ ، وَتَشَطَّرَهُ لَشُرْبِ الدَّوَاءِ ، وَلَا تُصَعَّبُوا عَلَيْهِ الْعِلَّةُ ، فَتَخَافَ نَفْسُهُ ، وَيَمُوتَ حِسَّهُ ، وَقَالَ : أَثْقَرُاطُ : حَدَّثُوا الْمَرِيضَ بِحَالِ مَنْ كَانَ فِي أَصْعَبَ مِنْ عِلَّتِهِ قَبْرًا ، وَلَا تَحْدِثُوهُ عَمَّنْ كَانَ فِي مِثْلِ عِلَّتِهِ فَمَاتَ ...

حُثُّهم على تخويفه ليتجنب المضار

قَالُوا : خَوَّفُوا الْمَرِيضَ لِيَتَجَنَّبَ الْمَضَارَّ ، فَمِنْ خَوْفِكَ لَتَأْتِيَ الْإِمْنُ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَمْنِكَ لَتَأْتِيَ الْخَوْفُ ... وَقَالُوا : مَنْ أَوْجَرَكَ الْمَرُّ لَتَبْرَأَ خَيْرٌ مِنْ أَوْجَرَكَ الْحُلُو لَتَسْقَمَ

تغيير اللون

قال الصولي : لَمْ يُسْمَعْ أَحْسَنُ مِنْ قَوْلِ الْبُحْتَرِيِّ فِي صُفْرِهَ اللَّوْنِ : بَدَتْ صُفْرَةٌ فِي لَوْنِهِ ، إِنَّ حَمْدَهُمْ مِنْ الدَّرِّ مَا أَصْفَرَتْ نَوَاحِيهِ فِي الْعَقْدِ

وقال أبو تمام :

لَمْ تَسْنِ وَجْهَهُ الْهَيْجَ وَلَكِنْ جَعَلْتَ وَرْدَ وَجْنَتِهِ بَهَارًا
 « البهار : نبت برى طيب الرائحة له فُقَّاحَةٌ - زهرة - صَفْرَاءُ يَنْبُتُ
 أَيَّامَ الرَّيِّعِ ، يقال له : العَرَارُ وعَيْنُ الْبَقْرِ .. »

تهنئة من برأ من المرض

قال أبو تمام :

سَقَمْتُ أُتِيحَ لِي بُرٌّ فَرَزَعَهُ وَالرُّمْحُ يَنَادُ طَوْرًا ثُمَّ يَعْتَدِلُ
 قَدْ حَالَ لَوْ أَنَّ فَرْدَ اللَّهِ نَضْرَتَهُ وَالنَّجْمُ يَحْمَدُ حِينًا ثُمَّ يَشْتَغِلُ
 يقال : زَعَزَعَ الشَّيْءَ : حَرَّكَهُ لِيَقْلَعَهُ ، والمراد هنا : دفعه وأزاحه ، وينَادُ :
 يَجِيلُ ، وحَالَ لَوْ أَنَّ : تَغَيَّرَ ، والنَّضْرَةُ : الحسن والجمال ،

وقال أشجع بن عمرو السُّلَمِيُّ : ^(١)

لَنْ جَرَحْتَ شِكَاؤُكَ كُلَّ قَلْبٍ لَقَدْ قَرَّتْ بِصِحَّتِكَ الْعْيُونَ
 وقيل لأعرابي برأ من عِلَّتِهِ : الحمد لله الذى سلك ، فقال : أَوْ يَسْلُمُ مَنْ
 الْمَوْتُ فِي عُنُقِهِ ؟ وقد تقدم

وقال المتنبي :

نَالِجْدُ عُرْفِي إِذْ عُوِفِيَتِ وَالْكَرْمُ وَزَالَ عَنْكَ إِلَى أَعْدَائِكَ الْإِلْمُ
 صَحَّتْ بِصِحَّتِكَ الْغَارَاتُ وَابْتَهَجَتْ بِهَا الْمَكَارِمُ وَأَنْهَلَتْ بِهَا الدِّيمُ

(١) كان شاعرا خلا ولد في اليمامة ونشأ في البصرة ومدح البرامكة وانقطع إلى
 جعفر بن يحيى قهره من الرشيد ومن أبياته السائرة قوله فيه :

وَعَلَى عَدُوِّكَ يَا ابْنَ عَمِّ مُحَمَّدٍ رَصْدَانُ ضَوْءِ الصَّبْحِ وَالْإِظْلَامِ
 فَإِذَا تَذَبَّ رُغَّتَهُ وَإِذَا غَفَا سَلَتْ عَلَيْهِ سَيُوفُكَ الْإِحْلَامُ

وراجع الشَّمْسُ نُورُكَ كَانَ فَارَقَهَا كَأَنَّمَا فَقَدَهُ فِي جِسْمِهَا سَقَمُ
 قوله : وزال عنك إلى أعدائك الألم : إنما هو خبرٌ وليس دُعاءً ، يريد :
 أن أعداءَهُ تَوَلَّوْهُمُ عَافِيَتَهُ لِعُودِهِ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى غُرُوبِهِ ، كما أشار إلى ذلك
 في البيت التالي . وانتهت : سالت ، والديم جمع ديمة وهي : المطر الدائم في
 مكُون . يقول : كانت الغارات على بلاد الروم قد انقطعت فلما شَفِيَ وَصَح
 اتصلت الغارات عليها ، فكان الغارات كانت عيلة بعلته ثم صحت بصحته ،
 وَسُرَّتْ الْمَكَارِمُ بِصَحَّتِهِ لِأَنَّهُ صَاحِبُهَا ، وكانت الأمطارُ مُنْقَطِعَةً فلما شَفِيَ
 صادف اتصالها شفاءً ، ويقول في البيت الثالث : إن الشمس قدت بهجتها
 في عيون أوليائه لا غمائمهم لِعَاتِهِ فلما شَفِيَ عاد إليها حُسْنُهَا ،

تفدية المريض

قال البُحْتُرى :

بَأَنْفُسِنَا لَا بِالطَّوَارِفِ وَالتَّشَلُّدِ

نَفِيكَ الَّذِي تُخْفِي مِنَ الشُّكْرِ أَوْ تُبْدِي

بِنَا مَعَشَرَ الْعَافِينَ مَا بَكَ مِنْ أَذَى

فَإِنْ أَشْفَقُوا بِنَا أَقُولُ فِي وَحْدِي

« الطوارف : جمع طارفة مؤنث طارف وهو المال المستحدث وعكسه التشدد

وهو المال القديم ، والشكو مصدر شكا كالشكوى والشكاة ، والعافى طالب

المعروف ، وأشفقوا : خافوا ،

وقال آخر :

بَالَيْتَ عَلْتَهُ بِي غَيْرَ أَنْ لَهُ أَجَرَ الْعَلِيلِ وَأَنْ غَيْرُ مَا جُورِ

عقريات شتى

في الطب والمرض والعيادة

قال جالينوس : المرض هَرَمَ عارض ، والمهرم مرض طبعي ؛ وله : مجالسةٌ
ثَقِيلٌ حُمَّى الرُّوح .

وقال ثابت بن قُرَّة : ليس شيء أضر بالشيخ من أن تكون له جاريةٌ
حسنة ، وطباخ حاذق ؛ لأنه يُكثِر من الطعام فيسقم ، ومن الجماع فيهرم :
وقال آخر : ليس لثلاث حيلة : فقرٌ يخالطه كسل ، وخصومة يخامرُها
حسد ، ومرض يمازجه هَرَم ...

وقالوا : ثلاثة يُعذَرُونَ على سوءِ الخلق : المريض ، والمسافر ، والعاصم ...
وقالوا : فرط الغمِّ والسرور يقتلان ، أما الغم فإنه يُجمد الدم . والسرور
يُلهيه حتى تَعْلُو حرارته على الحرارة الغريزية ... وقال كسرى لوزيريه يوماً :
أي الفراش ألد ؟ فقال أحدهما : ألدُّ الفراش الخرزُ محشواً ، وقال الآخر :
ألدُّ الفراش الحرير محشواً — وكان بين يديه غلام من الحجاب فقال : أيها
الملك ، أتأذن لي في الكلام ؟ فقال : نعم ، قال : ألدُّ الفراش الآمن ، قال :
صدقت ، قال : فما ألدُّ الطعام ؟ قال : ما لا يهيج على طبيعة علة ، ولا يُقَدُّ
في عُنق آكلة منسة ، فقال : أحسنت ، فما ألدُّ الشراب ؟ فقال : ما لا يُزِيلُ
عَقلاً عن محله ولا يهيجُ على طبيعة شيئاً من عِلل ؛ قال : أحسنت ، فما ألدُّ
الرَّيحان ؟ قال : الولد السارُّ ريحانُ أبيه في حياته وخلفٌ له بعد وفاته ؛ فرفع
محله وألقاه بأكابر حشمه ...

ونالت أبا الطَّيِّب المَتَنَبِّي وهو بمصر علة ، فكان بعضُ إخوانه المصريين

يَكْثُرُ الْإِلْمَامُ بِهِ ، فَلَمَّا أَبْلَقَ طَعْمَهُ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ : وَصَلْتَنِي — أَعَزَّكَ اللَّهُ —
مُعْتَلًا ، وَقَطَعْتَنِي مُبِلًا ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُكَدِّرَ الصَّحَّةَ عَلَيَّ ، وَتُحَبِّبَ الْعِلَّةَ
إِلَيَّ ، فَعَلْتُ ...

وقال شاعر :

إِنْ الْجَهْلُ تَضَرَّنِي أَخْلَاقُهُ ضَرَرَ السُّعَالِ لِيَنْ يَهْ اسْتِسْقَاءُ^(١)

وقال البُستِيُّ^(٢)

أَنَا كَالْوَرْدِ فِيهِ رَاحَةُ قَوْمٍ نَمُ فِيهِ لآخرينَ زُكَا^(٣)

(١) الاستسقاء لدى الأطباء : تجمع سوائل مصلية في تجويف أو أكثر من
تجاويف الجسد أو في خلاياه .

(٢) هو أبو الفتح علي بن محمد البستى الكاتب الشاعر المتوفى سنة ٤٠٠ هـ
من شعره :

وَقَدْ يَلْبَسُ الْمَرْءُ خَزَّ الثِّيَابِ وَمِنْ دُونِهَا حَالَةٌ مُضْلِيَةٌ
كَمَنْ يَكْتَسِي خُدَّهُ خُمْرَةً وَعِلَّتُهَا وَرَمٌ فِي الرِّبَّةِ
وله :

تَحْمَلُ أَخَاكَ عَلَى مَا بِهِ فَمَا فِي اسْتِقَامَتِهِ مَطْمَعُ
وَأَنْتَى لَهُ خُلَاقٌ وَاحِدٌ وَفِيهِ طِبَائِعُهُ الْأَرْبَعُ
وَمِنْ أَلْفَاظِهِ : مَنْ أَصَاحَ فَاسِدَهُ أَرْغَمَ حَاسِدَهُ . مَنْ أَطَاعَ غَضَبَهُ
أَضَاعَ آدَبَهُ . الْفَهْمُ شُعَاعُ الْعَقْلِ . الْمَنِيَّةُ تَضْحَكُ مِنَ الْأَمْنِيَّةِ . حُدُّ الْعَفَافِ
الرِّضَا بِالْكَفَافِ

(٣) قبله :

لَا يَغُرُّنَاكَ أَنَّنِي لَيْنُ الْمَسِّ نَعَزِمِي إِذَا انْتَضَيْتِ حُسَامُ

وقال المتنبي :

لعلَّ عَتَبَكَ محمودٌ عواقبُهُ ورُبُّما صَحَّتِ الأجسامُ بِاللِّئَالِ

وقال :

أُعِيذُهَا نظراتٍ منك صادقةً أنْ تحسِبَ الشَّحْمَ فيمن شَحْمُهُ وَرَمُ
وقيل لبعض الأطباء وقد نمكته العلة : ألا تتعالج ؟ فقال : إذا كان
الداء من السماء ، يطل الدواء ، وإذا قدر الربُّ يطل حذرُ المربوب ، ونعم الدواء
الآمل ، وبئس الداء الآجل .

ومن أدعيتهم : أغناك الله عن الطَّبِّ والأطباء ، بالسلامة والشفاء ، وجعل
علك تمحيصاً لا تنغيصاً ، وتذكيراً لا تنكيراً ، وأدباً لا غضباً .



الباب الرابع

في

كتمان السر وإفشائه

وعبقرياتهم في ذلك وفيما يجري هذا المجرى
من الشورى والاستبداد بالرأى والنصح والائانة والعجلة

وهذا كتمان السر هو الآخر لَوْنٌ من ألوان الصبر الذي أسلفنا القول عليه في الباب الثالث ، وهو معنى من المعاني الخُلُقِيَّة التي عُنى بالقول عليها والحث على الاستمسك بعروتها سائر عقلاء الناس في كل جيل من حُكَمَتِهِم النجاريب ، ذاهبين إلى أن إفشاء السر - كان ما كان لونه - آيةٌ من آيات الضعف ودليل على أن في عقل صاحبه عُهْدَةٌ تُغْتَمَزُ فيه ، وأنه ناشئ من قلة الصبر وضيق الصدر ، وأنه من خلائق ضَعْفَةِ الرجال والنساء والصبيان .

ومن السر ما يعد كتماناً من الحزم والاحتياط . وهذا أخص ما يكون بالملوك والساسة ومن إليهم ، وهذا اللون من السر قد يؤدي إفشاؤه إلى سفك الدماء وضياع الممالك والدول والدمار وخراب الديار ... ومن السر ما يحدث من الإنسان مما تستقبح إشاعته ويشنعُ سماعه . وإلى هذا اللون يشير سيدنا رسول الله بقوله صلوات الله عليه : من أتى منكم من هذه القاذورات بشيء فليستتر بستر الله ...

وبعد فيا لك إياك يا أخى أن يتخذَكَ عن سرِكَ مثل قول القائل :

❖ وأكتمُ السر فيه ضَرْبَةُ العُنُق ❖

وقول الآخر :

وَيْكَا تَمَّ الْأَسْرَارَ حَتَّى لَمَّا لِيَصُونَهَا عَنْ أَنْ تَمُرَّ بِهَا
فَذَلِكَ قَوْلٌ مِنْ يَسْتَنْزِلُكَ عَمَّا فِي نَفْسِكَ حَتَّى إِذَا اسْتَقْصَى مَا عِنْدَكَ لَمْ
يَرَعْ فِيهِ حَقَّكَ ، وَقَدْ قَالُوا : إِنْ الصَّبْرُ عَلَى الْقَبْضِ عَلَى الْجَمْرِ أَيْسَرُ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى
كَيْفَانِ السَّرِّ ...

حفظ اللسان

من قديم ما قيل في حفظ اللسان قولُ امرئ القيس :
إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَخْزَنْ عَلَيْهِ لِسَانَهُ فَلَيْسَ عَلَى شَيْءٍ سِوَاهُ بِخَزَّانٍ
« لَمْ يَخْزَنْ عَلَيْهِ لِسَانَهُ : لَمْ يُحْرِزْ لِسَانَهُ فَيَجْعَلْهُ فِي خِزَانَةِ قَلْبِهِ ، قَالَ صَاحِبُ
اللسان : وَخِزَانَةُ الْإِنْسَانِ قَلْبُهُ ، وَخَازِنُهُ : لِسَانُهُ ، وَقَالَ لَقْمَانَ الْحَكِيمُ لِابْنِهِ :
إِذَا كَانَ خَازِنُكَ حَفِيزًا وَخِزَانَتُكَ أَمِينَةً رَشِدْتَ فِي أَمْرِيكَ : ذُنُوبُكَ
وَأَخْرَجْتَكَ ، يَعْنِي : اللسان والقلب ،

وقالوا : من ضاق قلبه اتسع لسانه ...

وقال أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن البصري : لسان العاقل من وراء
قلبه . فَإِنْ عَرَضَ لَهُ الْقَوْلُ نَظَرَ فَإِنْ كَانَ لَهُ أَنْ يَقُولَ قَالَ ، وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ
الْقَوْلُ أَمْسَكَ ، وَلِسَانُ الْآخِيقِ أَمَامَ قَلْبِهِ ، فَإِذَا عَرَضَ لَهُ الْقَوْلُ قَالَ ، كَانَ عَلَيْهِ
أَوْ لَهُ ... وَقَالُوا : مَقْتَلُ الرَّجُلِ بَيْنَ فَسْكَيْهِ .

ومن كلامهم : قِ فَاكْ مَا يَقْرَعُ قَفَاكَ « قِ : فَعَلَ أَمْرًا مِنَ الْوَقَايَةِ ، وَمِنْهُ :
إِنْ لَمْ تَمْلِكْ فَضْلَ لِسَانِكَ ، مَلَسَتْ الشَّيْطَانُ فَضْلَ عَنَانِكَ .
وَفِي اللِّسَانِ وَمَكَاتِهِ يَقُولُ زُهَيْرٌ :

لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُهُ فلم يبق إلا صورةُ اللحم والدم

منع إظهار السر قبل تمامه

قال سيدنا رسول الله : استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان فإن كلَّ ذى نعمةٍ محسود ... « يقول صلوات الله عليه : إنكم إن أظهرتم الناس على حوائجكم حسدوكم فعارضوكم فيما تترامون إلى تضائه ووقفوا في سبيل تحقيقه »

وقالوا : من وَهَى الأمرُ لإعلانه قبل إحكامه ؛ وقالوا : مَنْ حَصَّن سِرَّهُ فله من تحصينه إياه خَلَّتَانِ : إما الظفرُ بما يريد ، وإما السلامة من العيب والضرر إن أخطأهُ الظَّفر ...

حشم على حفظ السر

قال الشاعر الجاهلي قيس بن الخطيم :
 إذا ما جاوزَ الإثنين سرٌّ فإنه يَبَثُّ وإفشاءُ الحديثِ قَيْنُ (١)
 وإن ضيَّعَ الإخوانُ سرًّا فإنتى كُتُومٌ لأمرارِ العشيرِ أمينُ
 يكونُ له عندى إذا ماضَ مَمَتُهُ دَقْرٌ بسوداءِ الفؤادِ كَنِينُ
 رَوَوْا : أن ابن المقفع لما سمع هذا البيت قال : أراد بالإثنين الشفَطينِ
 كأنه يقول : لا تُفَشِّسْ سِرَّكَ إلى أحد ... وهذا لَعَمْرِي بديع من ابن المقفع

(١) هو معلوم أن الألف في اثنين ألف وصل فإذا جاءت متطوعة في الشعر كما في هذا البيت فإنما ذلك ضرورة شعرية ، والتثنية : نشر الحديث الذى كتمناه أحق من نشره ، وقين : خليف وجدير ، وبث متعلق بقمين

وكان عليُّ ابن أبي طالب رضى الله عنه كثيراً ما يتمثل بهذين البيتين :

فلا تُفشِ سِرَّكَ إلا اليك فإن لكل نصيح نصيحا

وإنى رأيتُ غِوَاةَ الرجا ل لا يتركون أديماً صحيحاً

وقال الصلتان العبدى من أبيات أوردها أبو تمام فى حماسه :

أشاب الصغير وأقى الكبير كثر الغداة ومُر العشي

إذا ليلة هَرَمَتْ يومها أتى بعد ذلك يومٌ فتى

نروح ونغدو لحاجتنا وحاجة من عاش لا تقضى

تموت مع المرء حاجته وتبقى له حاجة ما تبقى

بني بداً خب نجوى الرجال فكن عند سرك خب النجى^(١)

وسرك ما كان عند امرئ وسر الثلاثة غير الخفى

كما الصمت أذنى لبعض الرشا فبعض التكلم أذنى لى

ومن قولهم : سرك من ديك ، يعنون : أنه ربما كان فى إفشاء السر

سَفْكُ الدم ، وقال آخر لآخر له وحده بجديث : أجعل هذا فى وعاء غير

سَرِب ، السرب : السائل ،

من يُكره أطلاعه على السر

قيل : لا تُطلِعوا النساء على سركم تصالح أموركم ، وقالوا : ما كتمته

عدوك فلا تُطلِعْ عليه صديقك

(١) الحب بكسر الخاء : المكر وبفتحها : الحكار ، والنجوى مصدر ، وهو مستعمل

فما يتحدث فيه اثنان على طريق السرواكتان ، يقول : إذا ناجيت صاحبك فكن

خبياً فَمَا تودعه من سرك فإن نجوى الرجال إذا بدا خبها عادت وبالا

المفتخر بحفظ السر

قال المتنبي :

وَلِلْمَرِّ مَنِيٌّ وَوَضَعٌ لَا يَنَالُهُ نَدِيمٌ وَلَا يُفِضِي إِلَيْهِ شَرَابٌ
وَقَالَ مَسْكِينٌ الدَّارِمِيُّ :

وَفَتَيَانِ صِدْقٍ لَسْتُ مُطَالِعَ بَعْضِهِمْ عَلَى سِرٍّ بَعْضٍ غَيْرَ أَنِّي جِئْتُهَا (١)
لِكُلِّ أَمْرٍ شَغَبٌ مِنَ الْقَلْبِ فَارْغُ وَمَوْضِعُ نَجْوَى لَا يُرَامُ أَطْلَاعُهَا (٢)
يَظْلُونَ شَيْءٌ فِي الْبِلَادِ وَسِرُّهُمْ إِلَى صَخْرَةٍ أَتَى الرِّجَالَ انْصِدَاعُهَا

الممدوح بحفظ السر

قال الأحرص - شاعر إسلامي ترجم له صاحب الأغاني في الجزء الرابع - :

كَرِيمٌ يُمِيتُ السِّرَّ حَتَّى كَأَنَّهُ عَمٍّ بَنَوَاحِي أَمْرِهِ وَهُوَ خَائِرُ
وَقَالَ قَيْسُ بْنُ الْخَطِيمِ :

(١) أضاف الفتيان إلى الصديق كما يقال : فتیان خير ، والمعنى : أنهم يصدقون في الود ولا يخونون ؛ والجماع : اسم لما يجمع به الشيء كما أن النظام اسم لما ينظم به الشيء ، والضمير في جاءها : لك أن ترجمه إلى الفتیان أو إلى ما دل عليه الكلام من ذكر الأسرار يقول : رب فتیان هكذا استناموا إلي واستودعوني أسرارهم فكنت أنا نظامها لا يفوتني من خبيات صدورهم شيء ثم أفردت كلا منهم بالوفاة وكتبان ما أودعني من سره

(٢) يقول : لكل رجل منهم جانب من القلب فرغ له وخص بموضع سره ، والشعب في الأصل : الطريق في الجبل وجمعه شعاب أراد به مكانه من قلبه ، والنجوى اسم للسر ، وأطلعها : علمها يقال : أطلع الشيء وأطلع عليه : علمه ، وأنت الضمير العائد على الموضع لتأنيث المضاف إليه

كُتُمُ لَأَسْرَارِ الْخَلِيلِ أَمِينُهَا يَرَى أَنْ بَثَّ السَّرَّ قَاصِمَةُ الظَّهِيرِ
وقال كشاحم :

وَيُسْكَتُمُ الْأَسْرَارَ حَتَّى إِنَّهُ لَيُصَوِّنُهَا عَنْ أَنْ تَمُرَّ بِبَالِهِ
« وقد تقدم آنفاً »

ودخل ابنُ أبي حَجَّجٍ الثَّقَفِيُّ ^(١) على مُعَاوِيَةَ ، فقال له مُعَاوِيَةُ : أبوك
الذي يقول :

إِذَا مِثْتُ فَادْفِنْنِي إِلَى أَصْلِ كَرْمَةٍ تَرَوْنِي عِظَامِي بَعْدَ مَوْتِي عُرُوقُهَا
وَلَا تَدْفِنْنِي فِي الْفَلَاةِ فَإِنِّي أَخَافُ وَرَاءَ الْمَوْتِ أَنْ لَا أَذْرِقُهَا
فقال ابنُ أبي حَجَّجٍ : لو شئتَ ذكرتَ أحسنَ من هذا من شِعْرِهِ !
فقال مُعَاوِيَةُ : وما ذاك ؟ قال : قوله :

(١) أبو حَجَّجٍ الثَّقَفِيُّ هو الصحابي الشاعر المشهور بقصته مع سعد بن أبي وقاص
في يوم القادسية وذلك أنه أتى به إليه وهو سكران - وكان صاحب شراب - فأمر به
فقيد ، وكان بسعد جراحة فاستعمل غيره ، وصعد سعد فوق البيت لينظر ما يصنعه
الناس فجعل أبو حَجَّجٍ يتمثل :

كُنِيَ حَزَنًا أَنْ تَرْتَدِي الْخَيْلُ بِالْقَنَا وَأَتْرَكَ مَشْدُودًا عَلَيَّ وَثَاقِيَا
ثم قال لامرأة سعد : ويلك خيليني ولك على إن سلبت أن أرجع فأضع رجلي
في القيد وإن قتلت استرحمت مني ؛ فخلته ووثب على فرس لسعد يقال لها البلقاء ، ثم
أخذ الرمح وانطلق حتى أتى الناس فجعل لا يحمل في ناحية إلا هزم الناس ، فجعل الناس
يقولون : هذا ملك ، وسعد ينظر فجعل يقول : الضبر ضبر البلقاء ^(١) والظفر ظفر أبي
حَجَّجٍ وأبو حَجَّجٍ في القيد ، فلما هزم العدو رجع أبو حَجَّجٍ فوضع رجله في القيد ،
فأخبرت امرأة سعد سعد بالذي كان فقال : لا والله لا أحد اليوم رجلاً أبلى الله المسلمين
على يديه ما أبلاهم ، فخلى سبيله فقال أبو حَجَّجٍ : لقد كنت أشربها إذ كان يقام عليّ
الحد أظهر منها فأما إذ بهرجتني فوالله لا أشربها أبداً

لا تسأل القومَ ما مالى وما حسبي وسأئلى القومَ ما حزمى وما خلئى
 ألقومُ أعلمُ أنى من سرائيم إذا تطيشُ يدُ الرعيدةِ الفریقِ
 أعطى السنانُ غداةَ الرّوعِ حصته وعاملَ الرّيحِ أرويه من الغلقِ^(١)
 قد أظعنُ الطعنةَ النّجلاءَ عن عُرض وأكتمُ السرَّ فيه ضربةُ العُنُقِ
 فقال معاويةُ : إن كنا أسانا الذولَ لنُحسنَ الفعلَ ، وأجزلَ صلته ..

صعوبة حفظ السرّ

قالوا : أصبرُ الناس من صبر على كتمان سرّه فلم يُبذه اصدق فيرشك
 أن يصيرَ عدواً فيذيعه

وقالوا : الصبرُ على لَهَبِ النارِ أهونُ من الصبرِ على كتمان السرّ ...

من لا يحفظ سرّه ويستحفظه غيره

قال الشاعر :

فلا تُودِعَنَّ الدّهْرَ سِرَّكَ أخفّاً فإنك إن أردعته منه أحمقُ
 إذا ضاق صدرُ المرءِ عن كتم سرّه فصدُرُ الذی يُستودعُ السرَّ أضيقُ

وقال بشار :

تبوحُ بِسِرِّكَ ضيقاً به وتَحسبُ كلَّ أخٍ يَكتمُ
 وكتماؤك السرَّ من تخاف ومن لا تخافتهُ أحزمُ
 إذا ذاع سِرُّكَ من مُخبر فأنت متى أمتَه ألومُ

ذم من يفشى السر

يقولون : فلانُ أضيعُ للأسرار من الغرّبالِ للباء ، وقال الحطيئة :

أَغْرَبَالاً إِذَا اسْتَوْدَعْتَ سِرّاً وَكَأُوناً عَلَى الْمُتَحَدِّثِينَ
 « الكانون : الثقل من الناس ، وقيل : الكانون : الذي يجلس حتى
 يَتَحَصَّى الْأَخْبَارَ وَالْأَحَادِيثَ لِيَتَقَهَا ، قال أبو دَهْبَلٍ :
 وَقَدْ قَطَعَ الْوَاشُونَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا وَنَحْنُ إِلَى أَنْ يُوصَلَ الْحَبْلُ أَحْوَجُ
 فَلَأَيْتَ كَوَانِنَا مِنْ أَهْلِ وَأَهْلِهَا بِأَجْمَعِهِمْ فِي جُلَّةِ الْبَحْرِ لَجَجُوا ،
 وقالوا : فلان آمن من النسيم على الرياض . وقال ابن الرومي :
 كَانَ سِرِّي فِي أَحْشَاءِهِ لَهَبٌ فَمَا تُطِيقُ لَهُ طَبّاً حَوَاشِيهَا

الأحوال التي يفسد فيها السر

قالوا : إذا أردت أن تُنْزِلَ الرَّجُلَ عَنْ سِرِّهِ فَتَوَصَّلْ إِلَيْهِ فِي حَالِ
 سُكْرِهِ * فَالْشُّكْرُ يُظْهِرُ سِرَّهُ الْمَسْكُونَا *

المسازرة في المحافل

قال سيدنا رسول الله : إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث .
 وكان مالك بن مُسَمِّعٍ إِذَا سَارَهُ إِنْسَانٌ يَقُولُ : أَظْهَرُهُ فَلَوْ كَانَ خَيْرًا لَمْ
 يَكُنْ مَكْتُومًا ، وهذا من قول زهير بن أبي سلمى :

وَالسَّتْرُ دُونَ الْفَاحِشَاتِ وَلَا يَلْقَاكَ دُونَ الْخَيْرِ مَنْ سَتَرَ
 « يقول : إن بين الممدوح وبين الفاحشات سترًا من الحياء والثقي ، ولا

سِتْرَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْخَيْرِ يَحْجُبُهُ عَنْهُ »

وقال الخُبَرَاءُ أَرْزَى :

إِذَا أَنْتَ سَارَرْتَ فِي مَجْلِسٍ فَإِنَّكَ فِي أَهْلِهِ مُتَّهَمٌ
 فَبِهَذَا يَقُولُ : قَدْ آغْتَابَنِي وَذَا يَسْتَرِبُ وَذَا يَتَّهَمُ

المتبجح بإظهار أسرار أصدقائه

قال أعرابي :

ولا أَكْتُمُ الأسرارَ لكنْ أَنُفِّسُها ولا أدْعُ الأسرارَ تَغْلِي على قلبي
وإنَّ قَلِيلَ العقلِ مَنْ باتَ لَيْسَ له نُفِّلَ به الأسرارُ جَنْباً إلى جَنْبٍ
وقال آخر :

ولا تُودِعُ الأسرارَ قلبي فإنما تُصَبِّبُ ماءً في إناءٍ مُسَلَّمٍ
وقال رجل لصديق له : أريدُ أنْ أُفْشِيََ إليك سراً تحفظه ، فقال : كلا
لستُ أَشْعَلُ قلبي بنجواك ، ولا أَجْمَلُ صدري خزانة شكواك ، إِنْ قُلِقْتُ
ما أَقْلَقَكَ ، وَيُورِّقُنِي ما أَرَقَكَ ، فَتَنَيْتُ بِإِفْشَائِهِ مُسْتَرِجِحاً ، وَبَيَّتَ قلبي بِحَرِّهِ
جَرِيحاً ... وَلَتَعْمِرُنِي ما أَصْدَقَ هذا وأَكْثَرَهُ انطباقاً على الواقع ! وفي الحق
أن هذا وأمثاله يجب أن يكون عظةً لمن لا يطبقون كتان أسرارهم

الرخصة في إفشاء السر إلى الصديق

قال بعض الشعراء :

وَأَبْدُتُ عَمراً بَعْضَ ما في جِوارِحِي وَجَرَّعْتُهُ مِنْ مُرٍّ ما أَنْجَرُ
فَلَا بُدَّ مِنْ شَكْوَى إلى ذِي حَفِيفَةٍ^(١) إِذا جَعَلْتَ أَسرارُ نَفْسِي تَطْلُعُ

(١) الحفيظة : إما يراد بها : حفظ الأسرار ، وإما أن يراد بها : الغضب لحرمة
تنتهك من حرمانك أو جار ذى قرابة يظلم من ذؤيك أو عهد ينسك قال الحطينة :
يَسُوسُونَ أَهْلاً ما بَعِيداً أَنانُها وَإِنْ غَضِبُوا جاءَ الحَفِيفَةُ والجِدُّ
والمحفظات : الأمور التي تحفظ الرجل أى تغضبه إذا وتر في حيمه أو جيرانه
قال الفطامى :

أخوك الذى لا تملكُ الحِيسَ نَفْسِهِ وَتَرَفُّضُ عِنْدَ المَحْفَظَاتِ الكِتابِ =

وقال أبو تمام :

شَكَوتُ وما الشُّكوى لِثَلِي عَادَةً ولكن تَفِيضُ الكَأْسِ عند امتلائِها
وقالوا : لا يزالُ المرءُ في كُرْبَةٍ ووَحْشَةٍ ما لم يجدْ من يشكو إليه . . . وما
يتصل بهذا أن يُخْبِرَ المريضَ طبيبَهُ بِكُنْه داءِهِ .
وقال محمود الوراق :

إذا كَتَمَ الصَّدِيقُ أخاهُ سِرًّا فما نُضِلُّ الصَّدِيقَ على العدوِّ

عقريات شتى في كتمان السر

قال المهلب بن أبي صفرة : أذنى أخلاق الشريف كتمان السر ، وأعلى أخلاقه نسيان ما أسر إليه .

ويروى أن معاوية بن أبي سفيان أسر إلى ابن أخيه عثمان بن عنبسة بن أبي سفيان حديثاً ، قال عثمان : لجئتُ إلى أبي فقلتُ : إن أمير المؤمنين أسرَّ إليَّ حديثاً أفأحدثُك به ؟ قال : لا ، إنه من كتم حديثه كان الخيار إليه ومن أظهره كان الخيار عليه ، فلا تجملُ نفسك مملوكاً بعد أن كنتَ مالِكاً ، فقلتُ له : أويَدْخُلُ هذا بين الرجل وأبيه ؟ فقال : لا ، ولكنني أكرهُ أن تذللَ لسانك يا فناء السر ! قال : فرجعتُ إلى معاوية فذكرتُ ذلك له ، فقال معاوية : أعنقك أخى من رِقِّ الخطايا . . .

وكان معاوية يقول : أعنتُ على عليٍّ رحمه الله بأربع : كنتُ رجلاً

== والكثائف : جمع كيفة وهي السخيمة والحقد والعداوة يقول الفطامي : إذا استوحش الرجل من ذي قرابته فاضطفن عليه سخيمة لإساءة كانت منه إليه فأوحشته ثم رآه يضام زال عن قلبه ما احتقده عليه وغضب له فنصره وانتصر له من ظلمه ،

أَكْتُمُ سِرِّي ، وكان رجلاً ظَهْرَةً ^(١) وكنت في أَطْوَعِ جُنْدٍ وَأَصْلَحِهِ ، وكان في أَخْبَثِ جُنْدٍ وَأَعَمَّاهُ ، وتركته وأصحابَ الجَلِّ وقلت : إن ظَفِرُوا به كانوا أهونَ عليَّ منه ، وإن ظَفِرَ بهم اعتَدَدْتُ بها عليه في دينه ، وكنتُ أَحَبُّ إلى قريشٍ منه ...

« وجاء رجلٌ إلى القاضي مُرَّجِحٍ فكلَّمه بشيءٍ وأخفاه ، فلما خرج قال له رجلٌ : يا أبا أمية ، ما قال لك ؟ قال : يا ابنَ أخي ، أو ما رأيته سَتَرَهُ عنك !

وأَسَرَّ رجلٌ إلى صديقٍ له حديثاً فلما استقصاهُ قال : أَفَهَمْتُ ؟ قال : لا ، بل نَسِيتُ ..

وقال عُبَيْدُ اللَّهِ بنُ عَبْدِ اللَّهِ بنِ عُتْبَةَ بنِ مَسْعُودٍ الْفَقِيه :
 إِذَا كَانَ لِي سِرٌّ فَخَدَّيْتُهُ الْعِدَا وضاق به صدرى فللناسِ أَعَذَرُ
 هُوَ السِّرُّ مَا اسْتَوْدَعْتَهُ وَكَتَمْتَهُ وأيسر يسر حين يَفْشُو وَيَظْهَرُ
 وَيُقَالُ : إِذَا انْتَهَى السِّرُّ مِنَ الْجَنَانِ إِلَى عَذَابِ اللِّسَانِ فَالْإِذَاعَةُ مُسْتَوَالِيَةٌ عَلَيْهِ ..

وقال عمر بن عبد العزيز : الْقُلُوبُ أَوْعِيَةُ الْأَسْرَارِ ، وَالشِّفَاهُ أَتْقَاهَا وَالْأَلْسُنُ مَفَاتِيحُهَا ، فَلْيَحْفَظْ كُلُّ امْرِئٍ مِفْتَاحَ سِرِّهِ ..
 وقال شاعر :

صَنِ السِّرِّ عَنْ كُلِّ مُسْتَخِيرٍ وحاذر فَا الْحَزْمُ إِلَّا الْحَذَرُ
 أَسِيرُكَ يَرْكُ إِنِّ صُلَّتْهُ وأنت أسيرٌ له إنْ ظَهَرَ
 وقال جميل بن مَعْمَر :

(١) ظهرة بضم ففتح : يظهر أمره للناس

أَمُوتُ وَالْقَى اللَّهَ يَا بَنِيَّ لِمَ أُبْحِ بِسِرِّكَ وَالْمُسْتَخْبِرُونَ كَثِيرُ
وقال عمر بن أبي ربيعة :

ولما تَلَقَيْنَا عَرَفْتُ الَّذِي بِهَا كِمَثْلِ الَّذِي بِي حَذَوَكَ النَّعْلُ بِالنَّعْلِ
فَقَالَتْ وَأَرْنَحْتَ جَانِبَ السَّيْرِ إِنَّمَا مَعِيَ فَتَكَلَّمُ غَيْرَ ذِي رِفْعَةٍ أَهْلِي
فَقُلْتُ لَهَا مَا بِي لَهَا مِنْ تَرْقُبٍ وَلَكِنْ سِرِّي لَيْسَ يَحْمِلُهُ مِثْلِي
يريد : أنه ليس يَحْمِلُهُ أَحَدٌ مِثْلِي فِي صِيَانَتِهِ وَسَتْرِهِ ، أَيْ فَلَا يُبْدِيهِ لِأَحَدٍ ،
وقال شاعر :

أَخْفِضِ الصَّوْتَ إِنْ نَطَقْتَ بَلِيلٍ وَالتَفَتِ بِالنَّهَارِ قَبْلَ الْكَلَامِ
وقال مسلم بن الوليد صَرَّبُ الْغَوَانِي فِي الْكِتَابِ يَا نِيَّكَ فِيهِ السِّرُ :
الْحَزْمُ تَخْرِيقُهُ إِنْ كُنْتَ ذَا حَذَرٍ وَإِنَّمَا الْحَزْمُ سُوءُ الظَّنِّ بِالنَّاسِ
إِذَا أَنْكَ وَقَدْ أَدَّى أَمَانَتَهُ فَاجْعَلْ صِيَانَتَهُ فِي بَطْنِ أَرْمَاسٍ
« أَرْمَاسٍ جَمْعُ رَمَسٍ وَهُوَ الْقَبْرِ ، وَالْمُرَادُ إِخْفَاؤُهُ وَتَعْفِيفُهُ حَتَّى لَا يَبْقَى
لَهُ أَمْرٌ ،

وقال المقرئ :

فُظُنَّ بِسَارٍ الْإِخْوَانِ شَرًّا وَلَا تَأْمَنُ عَلَى سِرِّ نَوَادِ
وَقَبَلَهُ :

نَلُومُ عَلَى تَبَلُّدِهَا قُلُوبًا تَكَايِدُ مِنْ مَعِيشَتِهَا جِهَادًا
إِذَا مَا النَّارُ لَمْ تُطْعَمْ وَقُودًا فَأَوْشَكَ أَنْ تَمُرَّ بِهَا رَمَادًا
فُظُنَّ فُظُنَّ الْبَيْتِ ...

وبعده :

فَلَوْ خَبَرْتَهُمُ الْجُوزَاءُ خُبْرِي لَمَا طَلَعَتْ مَخَافَةٌ أَنْ تُكَلِّدَا

عقرياتهم في المشورة

والاستبداد بالرأى

المشورة مُشتقة من : شُرْتُ الدابة : إذا أَجَرَيْتَهَا لَتَعْرِفَ قُوَّتَهَا ، وهي : استنباط المرءِ رأى غيره فيما يَعْرِضُ له من الأمور الْمُعْضِلَةِ . حتى يَنْبِثَ له حائِثُ الأمرِ .. وَنِعْمَتِ الْعُدَّةُ هي إذا كان المستشارُ صديقاً مجرباً حازماً ناصحاً رابطَ الجأشِ غيرَ مُعْجَبٍ بنفسه ولا مُتَلَوِّنٍ في رأيه ولا كاذبٍ في مقاله - فَإِنَّ من كَذَبَ لِسَانَهُ كَذَبَ رَأْيَهُ - فارغ البال حين استشارته :
فَأَنْفَعُ مَنْ شَاوَرْتَ مَنْ كَانَ نَاصِحاً شَفِيقاً فَأَبْصَرَ بَعْدَهَا مَنْ تُشَاوِرُ
وليس بشافيك الشفيقُ ورأيه عزيزٌ ولا ذو الرأى والصدرِ وَاغِرٌ^(١)

وما كُلُّ ذِي لَبٍّ يُمْوِتُكَ نَصَحَهُ وما كُلُّ مُؤْتٍ نَصَحَهُ بَلِيبٌ
ولكن إذا ما اسْتَجَمَعَا عند واحدٍ فَحَقَّ لَهُ من طاعةٍ بِنَصِيْبٍ^(٢)

مدح المشورة

أَمَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ نَبِيَّهٖ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ بِمَشَاوَرَةٍ مِنْ دُونِهِ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ سُبْحَانَهُ : (وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) ذَهَبَ الْمُفَسِّرُونَ إِلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَأْمُرْ نَبِيَّهٖ بِمَشَاوَرَةِ أَصْحَابِهِ لِحَاجَةِ مَنْهُ إِلَى رَأْيِهِمْ وَلَكِنْ لِيُعْلَمَ مَنَى الْمَشَاوَرَةِ مِنَ الْبَرَكَةِ وَالنِّعْمَةِ ، وَقِيلَ : أَمْرُهُ

(١) عزيز : بعيد غائب

(٢) لابي الاسود الدؤلي وقوله : فحق له من طاعة بنصيب ، يريد : فهو إذن وفي هذه الحالة جدير بأن يطاع ويتنصح بنصحه

بذلك تألفاً لهم وتطيباً لنفوسهم ، وقيل : لبستَنَ بذلك المسلمون ... وقال
سبحانه : وأمرهم شورى بينهم

وفي الأثر : والمشاورة حصنٌ من الندامة وأمنٌ من الملامة وقالوا : ما هلك
أمرؤ عن مشورة

وقال عمر بن الخطاب : الرأي الفرد كالخيط السجيل ، والرأيان
كالخيطين المبرمين ، والثلاثة مِرارٌ لا يكادُ يُنتقض ...

« السجيل : الخيط غير المفتول ، والمِرار : الحبل الذي أُجيدَ قَتْلُهُ ،
وقالوا : رَضُّ رأيك مع أخيك فاستشيره ... »

حثهم على مشاورة الحازم اللبيب

قال بشار بن بُرْد :

إذا بَلَغَ الرأيُ المشورةَ فاستعنْ	بعزمِ نصيحٍ أو بتأييدِ حازمٍ
ولا تجعلِ الشورى عليك غَضاضَةً	مكأنَّ الخوافي نافعٌ للقوادِمِ ^(١)
وخلَّ الهوينى للضعيف ولا تكنْ	تَوْمًا فإنَّ الحزمَ ليس بناثمٍ ^(٢)
وما خيرُ كفٍّ أَمَسَكَ الغلُّ أختها	وما خيرُ سيفٍ لم يُؤَيِّدْ بقائِمٍ ^(٣)
وأذنٍ منَ القُرْبى المقربِ نفسه	ولا تُشهدِ الشورى أمراً غيرَ كاتِمٍ
فإنَّكَ لا تَسْتَطِرِدُ الهَمَّ بالمنى	ولا تَبْلُغُ العُلْيَا بغيرِ المسكارِمِ ^(٤)

(١) الخوافي : ريشات صغار من الجناح إذا ضم الطائر جناحيه خفيت ، والقوادِم :

الريشات الكبار التي في مقدم الجناح يقول : إن الضعيف قد عمد القوى بالمعونة

(٢) الهوينى : تصغير الهونى والهونى تأنيك الأهون يقال : إنك لتعتمد للهوينى

من أرك : أى لاهونه

(٣) الغل : واحد الاغلال طوق من حديد أو جلد يجعل في اليد أو في العنق

(٤) الهَم : ما يهَمُّ به الرجل أو أجال فمكره فيه ليفعله

إِذَا كُنْتَ فَردًا هَرَكِ النَّاسُ مُقْبِلًا وَإِنْ كُنْتَ أَدْنَى لَمْ تَفْرَ بِالْعَزَائِمِ^(١)
وَمَا قَرَعَ الْأَقْوَامَ مِثْلُ دُشَيْعٍ أَرِيبٍ وَلَا جَلَى الْعَمَى مِثْلُ عَالِمٍ^(٢)
قال الأصمى : قلت ابشار : إني رأيت رجال الرأي يتعجبون من
أبياتك في المشورة ؛ فقال : أما علمت أن المشاور بين إحدى الحُسَيْنَيْنِ :
بين صواب يفوز بثمرته أو خطأ يُشَارَكُ في مكروهه ؛ فقلت أنت والله
أشعرُ في هذا الكلام منك في الشعر .

استشارة الكبار والصغار

ومن يُعتمد على مشورته ورويته .

كانت العربُ تَحْمَدُ آراءَ الشيوخ ؛ لتَقْدِمُها في السن ، ولما مرَّ عليها
من التجارب التي عرفت بها عواقب الأمور حتى كأنها تنظرُها عِيَانًا ،
وطرأ عليها من الحوادث التي أَوْضَحَتْ لها طريق الصواب ويئسَتْه بَيَانًا ،
ولما مُنِحَتْهُ من أصالة رأيها ، واستفادَتْهُ بِجَمِيلِ سَعْيِهَا ، قال علي بن
أبي طالب رضي الله عنه : رأى الشيخ خيرٌ من مشهَدِ الغلام . ومن أمثالهم
« زَايِمٌ بِعَوْدٍ أَوْ دَعٍ »^(٣)

وقال بعض الحكماء : عليك بمشورة من حلب أشطَرَ دهره ، ومَرَّتْ عليه

(١) يقال : فلان هزه الناس إذا كرهوا ناحيته ، والعزائم : الحاجات التي
يعتزم المرء فعلها يقول : إذا انفردت برأى نفسك ولم تستعن بآراء ذوى التجارب
باعذك الناس وأصغروا من شأنك وإن كنت أدنى القوم شأنًا لم تفز بحاجاتك التي
اعتزمت عليها .

(٢) المشيع : الشجاع كأنه قد شيع قلبه بما يركب من الأهوال أوبقوة قلبه
(٣) العود : المسن من الإبل أى لا تستعن إلا بأهل السن والتجربة في الأمور

ضروبُ خيره وشره ، وبلغ من العمرِ أشدهُ ، وأورثَ التجربةَ زندهُ ،
واستشارَ زيادُ بنَ أبيه رجلاً ، فقال الرجلُ : حقُّ المستشار أن يكونَ
ذا عقلٍ وافرٍ ، واختبارٍ مُتَظَاهِرٍ ، ولا أُراني كذلك .

وقال ابن الرومي يمدح يحيى بن علي المنجم :

أَلَمَعِي يَرَى بِأَوَّلِ ظَنِّ آخِرَ الْأَمْرِ مِنْ وَرَاءِ الْمَغِيبِ
لَا يُرَوِّى وَلَا يُقَلِّبُ كَفًّا وَأَكُفُّ الرِّجَالِ فِي تَقْلِيلِ

وقال :

تَرَاهُ عَنِ الْحَرْبِ الْعَوَانِ بِمَعْزِلِ وَأَرَاؤُهُ فِيهَا وَإِنْ غَابَ شُهُدُ
كَمَا احْتَجَبَ الْمَقْدَارُ وَالْحَكْمُ حُكْمَهُ عَلَى الْخَلْقِ طُرًّا أَلَيْسَ عَنْهُ مُعَرَّدٌ ^(١)

وقال إبراهيم بن العباس الصولي في الفضل بن سهل :

يُمَضِّي الْأُمُورَ عَلَى بَدِيهِتِهِ وَتُرِيهِ فَكْرَتُهُ عَوَاقِبَهَا
فَيَظَلُّ يُعْصِرُهَا وَيُورِدُهَا فَيَعُمُّ حَاضِرَهَا وَغَائِبَهَا
وَإِذَا الْحُرُوبُ غَلَّتْ بَعَثَتْ لَهَا رَأْيًا تَقُلُّ بِهِ كِتَابَهَا
رَأْيًا إِذَا نَبَتِ السِّبُوفُ مَضَى عَزَمَ بِهَا فَشَقَى مَضَارِبَهَا
وَإِذَا الْخَطُوبُ تَأَلَّتْ وَرَسَتْ هَدَّتْ فَوَاصِلَهُ نَوَائِبَهَا
وَإِذَا جَرَتْ بِضَمِيرِهِ يَدُهُ أَبَدَتْ بِهِ الدُّنْيَا مَنَاقِبَهَا

وقبلهما قل أوس بن حجر :

الْأَلَمَعِيُّ الَّذِي يَظُنُّ بِكَ الظَّنَّ نَّ كَانَ قَدْ رَأَى وَقَدْ سَمِعَا

وقال علي بن أبي طالب في عبد الله بن عباس : إنه لَيَنْظُرُ إِلَى الْغَيْبِ مِنْ

سِتْرِ رَقِيقٍ

وقال الشاعر :

بَصِيرٌ بِأَعْقَابِ الْأُمُورِ كَأَنَّمَا يَرَى بِصَوَابِ الرَّأْيِ مَا هُوَ وَاقِعٌ
وقال الآخر في مثله :

عَلِيمٌ بِأَعْقَابِ الْأُمُورِ بِرَأْيِهِ كَانَ لَهُ فِي الْيَوْمِ عَيْنًا عَلَى الْعَدِ
وقال :

بَصِيرٌ بِأَعْقَابِ الْأُمُورِ كَأَنَّمَا يَخَاطِبُهُ مِنْ كُلِّ أَمْرِ عَوَاقِبُهُ
وَأَيْنَ مَقَرُّ الْحَزْمِ مِنْهُ وَإِنَّمَا مَرَانِي الْأُمُورِ الْمُشْكِلَاتِ تَجَارِبُهُ
ولقد بالغوا في الحثِّ على مُشاوَرَةِ ذَوِي الرَّأْيِ والتَّجَرُّبَةِ حتَّى ولو كانوا
أَعْدَاءُ، قَالَ ابْنُ الْمُقَفَّعِ فِي كَلِيلَةِ وَدِئْنَةِ : لَا يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَتْرَكَ اسْتِشَارَةَ
عَدُوِّهِ ذِي الرَّأْيِ فِيمَا يَشْرَكَ ذَلِكَ الْعَدُوُّ فِي نَفْعِهِ وَضَرِّهِ ...
وقالوا : اسْتَشِرْ عَدُوَّكَ تَعْرِفْ مَقْدَارَ عِدَاوَتِهِ ...

وقد رأى قومٌ خِلَافَ ذَلِكَ وَذَهَبُوا إِلَى أَنَّ رَأْيَ الشَّبَابِ هُوَ الرَّأْيُ
الصَّائِبُ، وَفَهَمَهُمْ هُوَ الْفَهْمُ الثَّاقِبُ، إِذْ أَنَّ عَقُولَهُمْ سَلِيمَةٌ مِنَ الْعَوَارِضِ،
وَأَرَائِهِمْ خَصِيرَةٌ نَظِيرَةٌ لَمْ يَهْتَصِرْ غُصْنُهَا هَرَمٌ^(١)، وَلَا أَذْرَى زَهْرَتِهَا قَدَمٌ
وَلَا خَبَأَ مِنْ ذِكَايَهَا يَطُولُ الْمُدَّةُ ضَرَمٌ. قالوا : إِنْ رَأَى الشَّيْخُ كَالزَّائِدِ قَدْ انْتَلَمَ،
أَمَا رَأَى الشَّبَابَ فَكَالزَّائِدِ الصَّحِيحِ الَّذِي يُورِي بِأَيْسَرِ اقْتِدَاحِ

وقال الشاعر :

رَأَيْتُ الْعَقْلَ لَمْ يَكُنْ أَتِيهَا بَأً وَلَمْ يُقَسَّمْ عَلَى عَدَدِ السَّنِينِ
وَلَوْ أَنَّ السَّنِينَ تَقَسَّمَتْ حَوَى الْآبَاءُ أَنْصَبَةَ الْبَنِينَ

(١) يهتصر الغصن : يقطعه ويكسره من غير انفصال

من يجب أن تجتنب استشارته

قال قُتُس بن ساعدة الإيادي لابنه : لا تُشاور مشغولاً وإن كان حازماً ولا جائعاً وإن كان قهماً ، ولا مذعوراً وإن كان ناصحاً ، ولا مهموماً وإن كان عاقلاً ، فإلهم يحقل العقل فلا يتولد منه رأى ولا تصدق به رواية ... وقالوا : لا تدخل في مشورتك بخيلاً فيقصّر بفعلك ، ولا جباناً فيخوفك ، ولا حريصاً فيعبدك ما لا يرجى ، وإن البخل والجبن والحِرص طبيعة واحدة يجمعها سوء الظن بالله ...

وقالوا : لا تُشاور من ليس في بيته دقيق ...

وكان كسرى إذا أراد أن يستشير إنساناً بعث إليه بنفقة سنة ثم يستشيرهُ .

وقال علي رضي الله عنه : إياك ومُشاورة النساء قرأهنَّ إلى أفن وعزهنَّ إلى وهن ^(١) ... وورد في الأثر : شاوروهنَّ وخالفوهنَّ ...

وجوب نصيحة مستشيرك

قال سيدنا رسول الله : المُستشارُ مُؤتمن ...

وقال صلوات الله عليه : الدِّينُ النصيحة ، قالوا : لِمَن يارسول الله ؟

قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ...

« قال ابن الأثير في النهاية : النصيحة كلمة تُعبر عن جملة هي : إزادة الخير للنصوح له ، وإيست كلمة تُعبر عن هذا المعنى سواها ، وأصل النصح في اللغة . الخُلوص ، يقال : نصحتُه ونصحتُ له .. هذا : والنصيحة لله : الإيمانُ به

(١) الآفن : النقص ، ورجل مأفون : ناص العقل ، والوهن : الضعف

وطاعة أمره واجتناب نهيه ، ومُوالاة من أطاعه ، ومُعاداة من عصاه وما إلى ذلك مما ترجع عائده في الحقيقة إلى العبد ، فهي نصيحة إلى نفسه وكسب خير لها ؛ والنصيحة لكتابه : الإيمان بأنه من عند الله ، وتحليل ما حله وتحريم ما حرّمه ، والاهتداء بما فيه ، إلى أمثال ذلك ؛ والنصيحة للرسول : تصديقه والاستئنان بسنته ، إلى آخره ؛ والنصيحة لأئمة المسلمين - والمراد بهم أولوا الأمر - إعانتهم على الحق ونصحهم في رفق وعدل ، إلى آخره ، والنصيحة لعامة المسلمين : إرشادهم إلى ما فيه خير الدنيا والآخرة . وقال حكيم : لا تُشيرَنَّ على عدوك وصدِّيقك إلا بالنصيحة ، فالصديق تقضى بذلك حقه والعدو يهابك إذا رأى صواب رأيك ...

وقال آخر : إذا استشارك عدوك فخرِّدْ له النصيحة ، لأنه بالاستشارة قد خرج من عداوتك إلى موالاةك ..

ويُروى : أن زياد بن أبيه كتب إلى معاوية : يا أمير المؤمنين ، قد ضبَّطْتُ لك العراقَ بِشمالٍ وفَرَّغْتُ يميني لطاعتِكَ ، فولَّني الحجازَ ، فَبَاقَ ذلك الرجلُ الصالح عبدُ اللهِ بنِ عمرَ رضى اللهُ عنه ، - وكان مُقيماً بمكة - فقال : اللهم اشْغَلْ عَنَّا يمينَ زياد ، فأصابه الطاعونُ في يمينه ، فجمَعَ الأطباءُ واستشارهم ، فأشاروا عليه بقطعها ، فاستدعى القاضي شُريحاً وعرض عليه ما أشار به الأطباءُ ، فقال : لك رِزْقٌ معلوم ، وأجلٌ محتوم ، وإنى أكرهُ إن كانت لك مُدَّةٌ أن تعيش في الدنيا بلا يمين ، وإن كان قد دنا أجلُّك أن تَنَاقَى رَبَّكَ مقطوعَ اليدِ ، فإذا سألك لِمَ قَطَعْتَهَا قلتَ : بُغْضاً في إِفائِكَ ، وفِراراً من قضائِكَ ؛ فأت زيادٌ من يومِهِ ، فلامَ النَّاسَ شُريحاً على مَنَعِهِ من القطع ، لِبُغْضِهِم زياداً ، فقال : إنه استشارني والمُستشارُ مؤثِّمٌ ... ولولا

الامانة في المشورة لَوَدِدْتُ أَنْ تُنْقَطَعَ يَدُهُ يَوْمًا وَرِجْلُهُ يَوْمًا وَسَاوَرُ
جَسَدِهِ يَوْمًا يَوْمًا ...

الحث على قبول النصيحة وإن كان مُرًّا

قالوا: مَنْ أَحَبَّكَ نَهَاكَ ، وَمَنْ أَبْغَضَكَ أَغْرَاكَ
وقال بعضُ الحكماء: مَنْ أَوْجَرَكَ الْمُرَّ لَتَبَرَّأَ أَشْفَقُ عَلَيْكَ مِنْ أَوْجَرَكَ
الْحُلُوَّ لَتَسْقَمَ . . . يقال: أَوْجَرَهُ الدَّوَاءُ: سَقَاهُ إِيَّاهُ . وَالْوَجُورُ: الدَّوَاءُ الَّذِي
يَصُبُّ فِي الْفَمِ ،

عتاب من لم يقبل النصيحة

قالوا: مَنْ لَمْ يَقْبَلْ رَأْيَ أَحِبَّائِهِ وَإِنْ أَحَزَّوْهُ عَادَ ضَرُّهُ عَلَيْهِ ، كَالْمَرِيضِ
الَّذِي يَتَرَكُ مَا يَصِفُّ لَهُ الطَّبِيبُ وَيَعْمِدُ إِلَى مَا يَشْتَهِيهِ فَيَهْلِكُ . وقال الله
تعالى حِكَايَةً عَنْ صَالِحٍ : « لَقَدْ أَتَيْنَاكُمْ رَسُولَاتٍ مِنْ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ
لَا تَحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ،
وقال العرجي^(١):

عَرَضْتُ نَصِيحَةً مِنْي لِيُنْجِيْ فَقَالَ: غَشَشْتَنِي وَالنُّصْحُ مُرٌّ

ضياح النصيحة لمن لا يقبله

قال الشاعر: * وما خيرُ نُصْحٍ قِيلَ لَا يُتَقَبَّلُ *

(١) هو عبد الله بن عمر بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ، سمي العرجي
لأنه ولد بالعرج في الطائف وقيل: بل كان له فيه مال فكان يكثر الاختلاف إليه
فشهر به ، شاعر مطبوع في الغزل والنسيب ، ترجم له صاحب الاغانى (ج ٤)

وقال غيره :

إِنْ كَانَ حَمْدِي ضَاعَ فِي نُصْحِكُمْ فَإِنَّ أَجْرِي لَيْسَ بِالضَّائِعِ
وقيل : أخذ رجلٌ ذُبَابًا فجعل يَعْطُهُ ويقول له : إِيَّاكَ وَأَخَذَ أَغْنَامَ
النَّاسِ فَيُعَايِقُكَ اللَّهُ ، والذَّبُّ يَقُولُ : خَفَّفَ واختَصِرَ فَقَدَّامِي قَطِيعُ
مِنَ الْغَنَمِ لَثَلَا يَفُوتَنِي ...

معاتبته من يستنصح الناس

وَيَسْتَنْصَحُ النَّاصِحَ

قال عبد الله بن هَمَّامِ السَّلُولِيُّ : ^(١)

وَقَدْ يَسْتَنْصَحُ الْمَرْءُ مَنْ لَا يَغْنُشُهُ وَيَأْمَنُ بِالْغَيْبِ أَمْرًا غَيْرَ نَاصِحٍ

وقال أيضا :

أَلَا رُبَّ مَنْ تَغْنُشُهُ لَكَ نَاصِحٌ وَهُوَ يَتَمَنَّى بِالْغَيْبِ غَيْرُ أَمِينٍ
« تَغْنُشُهُ : تُعْذُهُ غَاشًا لَكَ »

وقال غيره :

نَصَحْتُ فَلَمْ أُفْلِحْ وَغَشُوا فَأَفْلَحُوا فَأَنْزَلَنِي نُصْحِي بَشَرٌ مَكَانِ

(١) هو القائل :

وَأَنْتَ أَمْرُوؤُا إِمَّا ائْتَمَمْتُكَ خَالِيًا فَخُنْتَ وَإِمَّا قُلْتَ قَوْلًا بَلَا عِلْمٍ
فَأَنْتَ مِنَ الْأَمْرِ الَّذِي كَانَ بَيْنَنَا بِمَنْزِلَةٍ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْإِنْمِ
وَكَانَ قَدُوشِي بِهِ وَاشْ إِلَى زِيَادِ بْنِ أَبِيهِ وَقَالَ لَهُ : أَنَّهُ هَجَاكَ ، فقال : أَأَجْعُ
بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ ؟ قال : نعم ، فبعث زياد إلى ابن همام فأتى به وأدخل الرجل بيتاً فقال
زياد : يا ابن همام ، بلغني أنك هجرتني ، فقال : كلا . أصلحك الله ما فعلت ولا أنت
لذلك أهل ، فقال : إن هذا الرجل أخبرني وأخرج الرجل ، فأطرق ابن همام هنيهة
ثم أقبل على الرجل وقال هذين البيتين :

وقال يزيد بن الحكم الثقفي ^(١) من قصيدة جيدة في بابها ^(٢) يُعَاتِبُ ابْنَ
عمه عبد الرحمن بن عثمان بن العاص وأولها :
نُكَاثِرُنِي كُرْهًا كَأَنَّكَ نَاصِحٌ

وَعَيْنُكَ تُبْدِي أَنَّ صَدْرَكَ لِي دَوِي ^(٣)
لَسَانُكَ لِي أَرَى وَغِيْبُكَ عَلَقَمٌ ^(٤) وَشُرْكَ مَبْسُوطٌ وَخَيْرُكَ مُنْطَوِي ^(٥)
نُصَارِفُ مَنْ لَاقَيْتَ لِي ذَا عَدَاوَةٍ صِفَاحًا وَغِيٍّ بَيْنَ عَيْنَيْكَ مُزَوِي ^(٥)
تَفَارِضُ مَنْ أَطْوَى طَوَى الْكَشْحِ دُونَهُ ^(٦) وَمِنْ دُونِ مَنْ صَافَيْتَهُ أَنْتَ مُنْطَوِي ^(٦)

الناصح منهم

من أمثالهم : المبالغة في النصيحة تهجمُ بك على عظيم الظَّنة . « الظَّنة :
الثَّهمة ، وقال أكنمُ بنُ صَيْفِي : إياكم وكثرة التَّنصُّح فإنه يورثُ الثَّمة .
« التَّنصُّح : كثرة النصيح ، وقال قائلهم :

❖ وقد يستفيدُ الظَّنةُ المُتَنصِّحُ ❖

(١) شاعر إسلامي فحل ، ترجم له صاحب الأغاني ج ١١ ساسي

(٢) انظرها في الأماالي والخزانة

(٣) يقال : كثر الرجلُ الرجل إذا كثر كل واحد منهم لصاحبه ، وهو أن يبدى
له أسنانه عند التبسم ، وكرهاً : بضم الكاف وفتحها مصدر وضع موضع الحال ،
والدوى وصف من الدوى بالفتح : المرض ودوى صدره : ضعف

(٤) الارى : العسل ، والعلقم : الحنظل

(٥) وغبي يروي وحتمدي ، وزوى ما بين عينيه : قبضها

(٦) فاوضه : أظهر له أمره . وأطوى ضد أنشر ، والطوى : الجوع يقول : تظهر
أمرك لمن أخفى عنه جوعى أى تبسط في الكلام عند عدول لا أظهره على شيء . من
أموري ، وتقبض عن أصدقائي ولا تظهرهم على شيء من أمرك نكايه في .

وشاور المأمونَ يحيى بنَ أَكْثَمَ، فكان الرأى مخالفاً لهوى المأمون، فقال يحيى: ما أحْدُثَ بالغِ في نصيحة الملوِكِ إلا استغشوه، قال: ولمَ يا يحيى؟ قال: لِضَرْفِهِ لَهم عَمَّا يُحِبُّونَ إلى ما لَعلَّهم يَكرَهُونَ في الوقتِ! والهوى إلهُ مَعْبُودٍ!

وصف غاش في نصحه

من أمثالهم في الذى يَنْصَحُ القومَ وهو غاش: «أنت شَوْلَةُ النَّاصِحَةِ» قال ابنُ السَّكَيْتِ: كانت شَوْلَةُ أُمِّه رَعْنَاءٌ تَنْصَحُ لِمَا لِيهَا فتَعُودُ نَصِيحَتُهَا وبِالْأَعْيُنِ عَلَيْهِمُ، لَحْمِهَا.

وقال معاويةُ يوماً لعمرو بنِ العاصِ: هل غَشَشْتَنِي مُذْ اسْتَنْصَحْتُكَ؟ قال: لا، فقال: ولا يومَ أُشْرْتَ عَلَيَّ بِمُبَارَزَةِ عَلِيٍّ وَأَنْتَ تَعْلَمُ مَنْ هُوَ؟ فقال: كيف وقد دعاكَ رَجُلٌ عَظِيمُ الْخَطَرِ كُنْتَ مِنْ مُبَارَزَتِهِ إِلَى إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ! إِنْ قَتَلْتَهُ قُتِلْتَ بِالْمُلْكِ وَازْدَدْتَ شَرْفًا إِلَى شَرَفٍ، وَإِنْ قَتَلَكَ تَعَجَّلْتَ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى مِلَاقَةَ الشَّهَدَاءِ وَالصَّدِيقِينَ! فقال: وهذه أَشَدُّ مِنَ الْأَوَّلَى! فقال: أَوْ كُنْتَ مِنْ جِهَادِكَ فِي شَيْءٍ؟ فقال: دَعْنِي مِنْ هَذَا....

وقال شاعر:

أَعَاذِلَ إِنْ نَصَحَكَ لِي عَنَاءُ خُفْسِيكَ قَدْ سَمِعْتُ وَقَدْ عَصَيْتُ

الاستبداد وكرهه المشورة

ومِنَ النَّاسِ مَنْ آثَرَ الْإِسْتِبْدَادَ بِرَأْيِهِ وَكَرِهَ أَنْ يَسْتَشِيرَ، قَالَ الْمُهَلَّبُ ابْنُ أَبِي صُفْرَةَ: لَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الْإِسْتِبْدَادِ بِالرَّأْيِ إِلَّا صَوْنُ السَّرِّ وَتَوْفِيرُ

العقل لوجب التمسك به ... وقال عبد الملك بن صالح : ما استشرت أحداً قط إلا تكبر على وتصاغرْتُ له ، ودخلته العزة ودخلتني الذلة ؛ فعليك بالاستبداد ، فإن صاحبه جليل في العيون ، مهيب في الصدور ؛ واعلم أنك متى استشرت تضضع شأنك ، ورَجَفَتْ بك أركانك ؛ وما عز سلطان لم يُغْنِه عقله عن عقول وزرائه ، وآراءِ نصحاياه ؛ فإياك والمشورة وإن ضاقت عليك المذاهب ، واشتبهت لديك المسالك .

ورَوَوْا : أن أبا جعفر المنصور كان يستشير أهل بيته حتى مدح ابن هرمة ^(١) بقوله :

يُزِنُ امرأً لا يُصْلِحُ القومُ أمره

ولا يَنْتَهِجِي الأذْنَيْنِ فيما يُجَاوِلُ ^(٢)

فاستوى جالساً وقال : أصبت والله ! واستعاده ، وما استشار بعدها . وقال بعض جلساء هارون الرشيد . أنا قتلْتُ جعفر بن يحيى البرمكي وذلك أني رأيت الرشيد يوماً وقد تنفَّس تنفَّساً مُنْكَراً فأنشدت في إثر تنفسه :

واستبدت مرةً واحدةً إنما العاجزُ من لا يستبد ^(٣)

فأصغى إليه واستعاده ، ثم قتل جعفرًا ...

(١) هو إبراهيم بن علي بن سلمة بن هرمة ، من متقدمي الشعراء ، ومن أدرك الدولتين الأموية والهاشمية ترجم له صاحب الأغاني د ج ٤ ،

(٢) انتباه : إذا أفضى إليه بصره وخصه به

(٣) لعمر بن أبي ربيعة وقوله :

ليت هنبداً أنجزتنا ما تعيدُ وشفت أنفسنا مما نجدُ

وكانت الفُرس والرُّومُ مُخْتَلِفِينَ فِي الاسْتِشَارَةِ ، فَقَالَتِ الرُّومُ : نَحْنُ لَا نُمَلِّكُ مِنْ يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يَسْتَشِيرَ ، وَقَالَتِ الْفُرسُ : وَنَحْنُ لَا نُمَلِّكُ مَنْ يَسْتَغْنَى عَنِ الْمَشَاوَرَةِ ؛ وَقَدْ فَضَّلَ الْفُرسُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى « وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ » .

المتفادى من أن يُستشار

ومن الناس من يَكْرَهُ أَنْ يُشِيرَ :

اسْتَشَارَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَلِيٍّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الْمُقَفَّعِ فِيمَا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِي جَعْفَرِ الْمَنْصُورِ ، فَقَالَ ابْنُ الْمُقَفَّعِ : لَسْتُ أَقُوْدُ جَيْشًا ، وَلَا أَتَقَلَّدُ حَرْبًا ، وَلَا أَشِيرُ بِسَفْكِ دَمٍ ، وَعَثَرَةُ الْحَرْبِ لَا تُسْتَمَالُ ، وَغَيْرَى أُولَى بِالْمَشْوَرَةِ فِي هَذَا الْمَكَانِ ...

وَاجْتَمَعَ رُؤَسَاءُ بَنِي سَعْدٍ إِلَى أَكْثَمَ بْنِ صَيْبٍ يَسْتَشِيرُونَهُ فِيمَا دَمَهُمْ يَوْمَ الْكَلَّابِ ، فَقَالَ : إِنَّ وَهْنَ الْكِبَرِ قَدْ فَشَا فِي بَدَنِ ، وَلَيْسَ مَعِيَ مِنْ حِدَّةِ الذَّهْنِ مَا أَبْتَدِئُ بِهِ الرَّأْيَ ، وَلَكِنْ اجْتَمِعُوا وَقُولُوا ، فَإِنِّي إِذَا مَرَّ بِي الصَّوَابُ عَرَفْتُهُ .

الأنانة والروية والعجلة

مدح الأنانة والروية وذم العجلة

وَكَانُوا يَمْدَحُونَ الْأَنَانَةَ فِي الرَّأْيِ وَإِجَالَةَ الْفِكْرَةِ فِيهِ وَعَدَمَ التَّسَرُّعِ . كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهْبٍ الرَّاسِبِيُّ يَقُولُ : لِيَأَيَّ وَالرَّأْيُ الْفَطِيرُ ! وَكَانَ يَسْتَعِذُّ بِاللَّهِ مِنَ الرَّأْيِ الدَّبَرِيِّ .

« الْفَطِيرُ : كُلُّ مَا أُعْجِلَ عَنْ إِدْرَاكِهِ ، تَقُولُ : نَظَرْتُ الْعَجِينَ ، وَهُوَ

أَنْ تَدْعِيَهُ ثُمَّ تَحْتَبِرْهُ مِنْ سَاعَتِهِ . وَالذَّبْرِيُّ : الَّذِي يَسْنَحُ بَعْدَ الْفَوْتِ
يُقَالُ : شَرُّ الرَّأْيِ الذَّبْرِيُّ ، وَهُوَ الَّذِي يَسْنَحُ أَخِيرًا عِنْدَ فَوْتِ الْحَاجَةِ ،
أَيُّ أَنْ شَرَّهُ إِذَا أَدْبَرَ الْأَمْرُ وَفَاتَ ، وَهِنْ ذَا قَوْلِهِمْ : عَرَفَ الْأَمْرَ تَدْبِيرًا ،
أَيُّ بِأَخْرَةِ قَالَ جَرِيرُ :

وَلَا تَتَّقُونَ الشَّرَّ حَتَّى يَصِيبَكُمْ وَلَا تَعْرِفُونَ الْأَمْرَ إِلَّا تَدْبِيرًا
وَيُقَالُ : إِنْ فُلَانًا لَوْ اسْتَقْبَلَ مِنْ أَمْرِهِ مَا اسْتَدْبَرَهُ لَهْدَى لَوِجَهُ
أَمْرِهِ ، أَيْ لَوْ عَلِمَ فِي بَدْءِ أَمْرِهِ مَا عِلِمَهُ فِي آخِرِهِ لَاسْتَرْشَدَ لِأَمْرِهِ ،
وَكَانَ عَامِرُ بْنُ الظَّرِبِ حَكِيمُ الْعَرَبِ يَقُولُ : دَعُوا الرَّأْيَ يَغِيبُ حَتَّى
يَخْتَمِرَ ، وَإِيَّاكُمْ وَالرَّأْيَ الْفَطِيرُ ! يَرِيدُ الْإِنَانَةَ فِي الرَّأْيِ وَالتَّثَبُّتَ فِيهِ
وَقَالَ الشَّعْبِيُّ — عَامِرُ بْنُ شَرَاهِيلَ — : أَصَابَ مُتَأَمِّلٌ أَوْكَادًا ، وَأَخْطَأَ
مُسْتَعْجِلٌ أَوْكَادَ « الْمُتَأَمِّلُ : الْمُتَثَبِّتُ يَقُولُ : تَأَمَّلْ فُلَانٌ : إِذَا تَثَبَّتَ وَنَظَرَ
فِي الْأَمْرِ ،

وَقَالَ شَاعِرٌ :

تَأَنَّ وَشَاوِرْ فَإِنَّ الْأَمْرَ رَمَهَا مُضِيٌّ وَمُسْتَعْمِضٌ
فَرَأْيَانٍ أَفْضَلُ مِنْ وَاحِدٍ وَرَأْيُ الثَّلَاثَةِ لَا يُنْقَضُ

وَقَالَ الْمُتَنَبِّيُ :

الرَّأْيُ قَبْلَ شِجَاعَةِ الشُّجْعَانِ هُوَ أَوَّلُ وَهْيِ الْمُحِلِّ الثَّانِي
فَإِذَا هُمَا اجْتَمَعَا لِنَفْسٍ مُرَّةً بَلَغَتْ مِنَ الْعَلْيَاءِ كُلِّ مَكَانٍ (١)
وَلَرَبَّمَا طَفَنَ الْفَتَى أَقْرَانَهُ بِالرَّأْيِ قَبْلَ تَطَاعُنِ الْأَقْرَانِ

(١) لنفس مرة: من المرارة، وتروى مرة بكسر الميم: القوة والشدة، وأصل المرة
لحكم الفتل يقال: أمر الحبل لمرارا، وتروى: حرة

لولا العقول لكان أذنى ضيغم^(١) أذنى إلى شرف من الإنسان^(٢)
ولما تفاضلت العقول ودبرت أيدى الكماة عوالي المران^(٣)
وفى الأثر : ما دخل الرفق في شيء إلا زانه ، ولا حرق إلا شانه .
وقال القطامي :

قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل
وقال :

وخير الأمر ما استقبلت منه وليس بأن تتبعه أتباعا^(٣)
وقبله :

ومعصية الشفيق عليك بما يزيدك مرة منه استماعا^(٤)

مدح العجلة وانتهاز الفرص

وهناك من الخطوب ما تمدح فيه العجلة :

قيل لأبي العيناء : لا تعجل فالعجلة من الشيطان ! فقال : لو كان ذلك
كذلك لما قال نبي الله موسى « وعجلت إليك رب لترضى » ،
وقال معاوية : ما من شيء يعدل الثبوت ! فقال الأحنف بن قيس : إلا
أن تبادر بالعمل الصالح أجلك ...

(٢١٠) الضيغم : الأسد والمراد بأذنى ضيغم : أدون وأخس ، وأذنى إلى شرف :
أقرب ، والعوالي : صدور الرماح ، والمزان : الرماح اللينة ، والسكاة جمع كى وهو
البطل المشتمل بالسلاح

(٣) يقول : خير الأمر ما قد تدبرت أوله فعرفت إلام تول عاقبه ، وشره
ماترك النظر في أوله ، وتتبع أو آخره بالنظر

(٤) يقول : إذا عصيت الشفيق عليك الحريص على رشدك تبنت في عواقب
أمرك الزلل فزادك حرصاً على أن تقبل نصحه .

وقالوا: المتأني في علاج الداء، بعد أن عرف الدواء، كلمتأني في إطفاء النار وقد أخذت بحواشي ثيابه ...

وسأل أبو علي البصيرُ بعضَ الأمراء حاجة: فقال له: رُحْ إلى وقتِ العصرِ، فجاء وقتَ الظُّهرِ، فقال: ألم أعدك وقتَ العصرِ؟ فقال: نعم، ولكن رأيتُ الإفراطَ في الاستظهارِ أحمدَ من الاستظهارِ في التواني ... والاستظهار هنا معناه: الاحتياط والاستيثاق،

ومن قولهم في انتهاز الفرص: الهَيْبَةُ خَيْبَةٌ والفرصة تمرُّ مرَّ السحاب ... وقالوا: انتهزَ الفرصة قبل أن تعودَ غُصَّة. وقالوا: الافتراض اقتيناص ...

عقريات شتى في المشورة

قال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب - شاعر ضخم أدرك الدولة العباسية - :

فأرسل حكيمًا ولا تُوصِه	إذا كنتَ في حاجة مُرسلا
فشاوِرَ كَبِيرًا ولا تَقصِه	وإنْ بابُ أمرٍ عَلَيْكَ التَّوَى
حديثًا إذا أنتَ لم تُحِصِه	ولا تَطِيقِ الدهرَ في مجاسِ
فإنَّ الوثيقةَ في نَصِّه ^(١)	ونصَّ الحديثِ إلى أهله
فلا تنأ عنه ولا تُقصِه	وإنْ ناصحٌ منك يومًا دنا
وقد تعجَّبُ العينُ من شَخصِه	وكم من قتي شاحض عقله
ويأتيك بالامر من فِصِّه ^(٢)	وآخرَ تحسُّبه جاهلا

(١) نص الحديث: رفعه وأسنده؛ والوثيقة في الامر: إحكامه والاختذ بالثقة

(٢) فص الامر: أصله وحقيقته تقول: أنا أتيك بالامر من فِصِّه، يعني: من

مخرجه الذي قد خرج منه

وقال ابنُ المَفْقَعِ : لَا يُقْذَفَنَّ فِي رُوعِكَ أَنَّكَ إِذَا اسْتَشَرْتَ الرِّجَالَ ظَهَرَ لِلنَّاسِ مِنْكَ الْحَاجَةُ إِلَى رَأْيِ غَيْرِكَ فَتَنْقَطِعَ بِذَلِكَ عَنِ الْمَشُورَةِ ، فَإِنَّكَ لَا تَرِيدُ الرِّأْيَ لِلتَّخَفُّرِ وَلَكِنْ لَلاتِّفَاعِ بِهِ ، وَلَوْ أَنَّكَ أَرَدْتَ الذِّكْرَ لَكَانَ أَحْسَنُ الذِّكْرِ عِنْدَ الْأَلْبَاءِ أَنْ يُقَالَ : لَا يَنْفَرِدُ بِرَأْيِهِ دُونَ ذَوِي الرِّأْيِ مِنْ إِخْوَانِهِ ...

ولما سار سيدنا رسول الله إلى قُريشٍ في غَزَاةٍ بِدْرٍ نَزَلَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَذْنِي مَاءٍ مِنْ مِيَاهِ بَدْرٍ ، فَقَالَ لَهُ الْحَبَّابُ بْنُ الْمُنْذِرِ : يَا رَسُولَ اللهِ ، أَرَأَيْتَ هَذَا الْمَنْزِلَ أَمْزِلُ أَنْزَلَكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَيْسَ لَنَا أَنْ تَتَقَدَّمَ وَلَا أَنْ تَتَأَخَّرَ عَنْهُ ، أَمْ هُوَ الرِّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ ؟ قَالَ : « بَلْ هُوَ الرِّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ » ؛ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، فَإِنْ هَذَا لَيْسَ لَكَ بِمَنْزِلٍ ، فَانْهَضْ بِالنَّاسِ حَتَّى نَأْتِيَ أَذْنِي مَاءٍ مِنْ مِيَاهِ الْقَوْمِ فَنَنْزِلَهُ ، ثُمَّ نَقُولُ «^(١) مَا سِوَاهُ مِنَ الْقُلُوبِ ، ثُمَّ نَبْنِي عَلَيْهِ حَوْضًا فَتَمْلَأُهُ مَاءً ، ثُمَّ نَقَاتِلُ الْقَوْمَ فَتَشْرَبُ وَلَا يَشْرَبُوا ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَقَدْ أَشْرَيْتَ بِالرِّأْيِ » وَفَعَلَ مَا أَشَارَ بِهِ الْحَبَّابُ .

وفى حديث أبي هريرة : مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَكْثَرَ مَشُورَةً لِأَصْحَابِهِ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ... « أَقُولُ : وَإِنَّمَا كَانَ يَشَاوِرُهُمْ — كَمَا قَالَ عَلَاؤُنَا — فِيمَا لَيْسَ فِيهِ نَصٌّ ، وَفِي أُمُورِ الدُّنْيَا ، وَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ كَانَ يَشَاوِرُهُمْ فِي الْأَحْكَامِ فَقَدْ غَفَلَ غَفْلَةً عَظِيمَةً كَمَا قَالَ الْأَئِمَّةُ ، وَكَذَلِكَ إِنَّمَا كَانَتْ الْمَشَاوِرَةُ قَبْلَ الْعَزْمِ وَالتَّبَيُّنِ ، فَإِذَا عَزَمَ الرَّسُولُ لَمْ يَكُنْ لِبَشَرٍ التَّعَدُّمُ عَلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ، قَالَ الْعُلَمَاءُ : فَلَقَدْ شَاوَرَ النَّبِيَّ أَصْحَابُهُ يَوْمَ أُحُدٍ فِي الْمَقَامِ

(١) عور الركبة : كبعها بالزراب حتى تفسد عيونها

والخروج ، فأوَّاه الخروج ، وكان صلوات الله عليه يرى أن يُقيم
 بالمدينة فيقاتلهم فيها ، فما زالوا برسول الله حتى لبس لأمته ^(١) فلما لبسها
 ندِموا وقالوا : يا رسول الله أقيم فالرأى رأيك ، فلم يمل إليهم بعد العزم
 وقال : لا ينبغي لنبي لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله ... وكذلك كان
 الخلفاء الراشدون يستشيرون الأئمَّة من أهل العلم في الأمور التي لم يكن
 فيها نصٌّ بحكم مُتَّين ليأخذوا بأيسرها ، فإذا وضَّح الكتاب والسنة لم
 يتعدَّوه إلى غيره ، فقد كان أبو بكر رضى الله عنه إذا ورد عليه أمرٌ نظر
 فإن وجد في كتاب الله أو سنة رسوله ما يَقْضِي به قضى وإلا دعا رؤس
 المسلمين وعلماءهم واستشارهم ، وكذلك كان يفعل الفاروق وسائر الخلفاء
 رضى الله عن الجميع »

قالوا : وكانت الروم والفرس لا يجمعون وزراءهم على الأمر يستشيرون
 فيه ، وإنما كانوا يستشيرون الواحد منهم من غير أن يعلم الآخر به ؛
 وذلك لمعانٍ : منها أن لا يقع بين المستشارين منافسةٌ تذهب بأصالة الرأي
 وصحة النظر ، لأن من طباع المشتركين في الأمر التنافس والتغالب والطعن
 من بعضهم على بعض ، وربما أشار أحدهم بالرأى الصواب وسبق إليه
 فحسده الآخرون فتعقبوه بالإعراض والتأويل والتَّهْجِين وكدروه وأفسدوا
 ومنها أن في اجتماعهم على المشورة تعريض السر للإضاعة والإفشاء والإذاعة
 ولذلك قالت الفرس : إنما يُراد الاجتماع والكثرة والتناصُر في الأمور
 التي يُحتاج فيها إلى القوة ، أما الأمور الغائضة فإن الاجتماع يُفْسِدُها ويُوَلِّدُ
 فيها التضاغُن والتنافس ...

وجاء في كتاب للهند : أن ملكا استشار وزراء له ، فقال أحدهم :

(١) أداة الحرب من درع وبيضة وغيرهما من السلاح

الملك الحازمُ يزدَادُ برَأْيِ الوزراءِ الحَزَمَةِ كما يزدَادُ البحرُ بموَادِهِ من الأنهارِ
وينالُ بالحِزْمِ والرأى ما لا يناله بالقوة والجنود؛ وللأسرارِ منازلُ : منها
ما يدخُلُ الرهْطُ فيه ، ومنها ما يُستعان فيه بقوم ، ومنها ما يُستغنى فيه بواحد
وفي تحصين السر الظفر بالحاجة والسلامة من الخلل ، والمستشير وإن كان
أفضلَ رأياً من المشير فإنه يزداد برأيه رأياً كما تزداد النارُ بالسليط ضوءاً^(١) ؛
وإن كان الملكُ مُحَصِّناً لسِرِّه بعيداً من أن يُعرَفَ ما في نفسه مُتَخَيِّراً للوزراءِ
مَهِيئاً في أنفُسِ العامةِ كافياً بحُسنِ البلاء لا يخافُهُ البريء ولا يأمنهُ المريبُ
مُقَدَّراً لما يُفِيدُ وينفِقُ ، كان خليقاً لبقاء مُلكه . ولا يصلحُ لسِرِّنا هذا إلا
لسانان وأربعُ آذانٍ . ثم خلا به ...

(وبعد) فإن دولة الاستبداد قد أُدِيلَ منها في هذه الأجيال وشال أمرها في
الميزان ، ورجحت كِفَّةُ الشورى ونفقت سُوقُهَا ، وخطت في عصرنا هذا
خُطُواتٍ رَغِيبةٌ مُوَفِّقةٌ ، وعمت أكثر الأمم التي أعَرَقت في الحضارة ، وظهر
أن مجالسَ الشورى على عِلاتها هي خَيْرُ ألوانِ الحُكم ، ومَن الذى يقول
إن الاستبداد أو الحكم المطلق الذى لا رِقَبَةَ عليه هو أفضل من الشورى
أَيَّاماً كان لوئها ! اللهم إلا رَجُلٌ أحقُّ مَأْفُونٍ ليس بثاقب الرأى ، وإذا كانت
الشورى لا تعرى من العيوب فأين لا أين الخير تحضاً والكمال صرفاً ...

(١) السليط : الزيت والمراد زيت المصباح

عقرياتهم في الوعظ

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

ومما يتصل بهذا الباب عقرياتهم في الوعظ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلنورد لك صدرًا من ذلك إن شاء الله

نهي من لم يتعظ عن الوعظ

قال رجلٌ لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : عِظْنِي وَأَوْجِزْ ، فقال : تَوَقَّ مَا تَعِيبُ .

وجاء رجل إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنه فقال : إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَعِظَ ، فَقَالَ : أَوْ بَلَغْتَ ذَلِكَ ؟ إِنْ لَمْ تَخْشَ أَنْ تَقْتَضِحَ بِثَلَاثِ آيَاتٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَافْعَلْ ، قَالَ : مَا هِيَ ؟ قَالَ : قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ؟ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ » وَقَوْلُهُ تَعَالَى : « أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْهَوْنَ أَنْفُسَكُمْ » ، وَقَوْلُ الْعَبْدِ الصَّالِحِ سُعَيْبٍ « مَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ » أَلَحَكَمْتَ هَذِهِ الْآيَاتِ ؟ قَالَ : لَا ، قَالَ : فَابْدَأْ إِذَنْ بِنَفْسِكَ .

وقال شاعر :

يَا وَادِظَ النَّاسِ قَدْ أَصْبَحْتَ مُتَّهِمًا إِذْ عِبْتَ مِنْهُمْ أُمُورًا أَنْتَ تَأْتِيهَا
كُنْ كَمَا النَّاسُ مِنْ عُرْيٍ وَعَوْرَتُهُ لِلنَّاسِ بِأَدِيَّةٍ مَا إِنْ يُوَارِيهَا

حشهم على الوعظ بالفعال دون المقال

قال بعضهم : ليس الحكيم الذي يُلَقِّنُكَ الْحِكْمَةَ تَلْقِينًا ، إِنَّمَا الْحَكِيمُ

الذى يعملُ التَّمَلُّ الحَكِيمُ فَتَقْتَدِي بِهِ .

وقال آخر : أَخْذُ الْمَرْءِ نَفْسَهُ بِحُسْنِ الْإِدْبِ تَأْدِيبٌ لِأَهْلِهِ .

ومن هذا يقول محمود الوراق :

رَأَيْتُ صِلَاحَ الْمَرْءِ يُصْلِحُ أَهْلَهُ وَيُعْدِيهِمْ دَاءُ الْفَسَادِ إِذَا قَسَدَ

التلطف واللين في الوعظ

تَصَدَّى رَجُلٌ لِلرَّشِيدِ فَقَالَ : إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَغْظَّ عَلَيْكَ فِي الْمَقَالِ ،
فَهَلْ أَنْتَ مُخْتَمِلٌ ؟ قَالَ : لَا ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرْسَلَ مِنْهُ خَيْرٌ مِنْكَ إِلَى
مَنْ كَانَ شَرًّا مِنِّي ، وَأَمَرَهُ بِاللَّيْنِ ، فَقَالَ تَعَالَى : « فَتَوَلَّاهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ
يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى » ،

وقالوا : وَاجِبٌ مَنْ يَعِظُ أَنْ لَا يَعْنِفَ ، وَمَنْ يُوعِظُ أَنْ لَا يَأْتَفَ

الحث على الاتعاظ

قالوا : السَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بغيره وَالشَّقِيُّ مَنْ وُعِظَ بِهِ بغيره . وقالوا :
مَنْ لَمْ يَتَّعِظْ بغيره وَعَظَ اللَّهُ بِهِ بغيره .

وعظ من لا يتعظ

قالوا : لَا يَنْجُحُ الْوَعِظُ فِي الْهَلُوبِ الْقَاسِيَةِ ، كَمَا لَا يَزْكُو الْبَذَرُ فِي
الْأَرْضِ الْجَاسِيَةِ .

وقالوا : صَفْلُكَ سَيْفًا لَيْسَ لَهُ سِنٌّ^(١) تَعَبٌ ، وَبَذْرُكَ أَرْضًا
سَبِيغَةٌ نَصَبٌ .

(١) السِّنْخ : الْأَصْلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ . قَوْلُ : رَجَعَ فُلَانٌ إِلَى سِنْخِهِ الْكَرِيمِ وَإِلَى سِنْخِهِ الْخَيْثِ

وقالوا : من 'استثقل سماع الحق فهو للعمل به أكثر استغفالا ...

حشهم على قبول وعظ من ليس بمتعظ

قالوا : لا يَمْنَعَنَّكُمْ سوء ما تعلمون عنا أن تعملوا بأحسن ما تسمعون منا .

وورد في الأثر : مُرُوا بالمعروف وإن لم تعملوا به ، وانتهوا عن المنكر وإن لم تَنْتَهُوا عنه :

وقال الحسنُ البَصْرِيُّ يوماً لبعض الصالحين : عِظْ أَصْحَابَكَ ، فقال له : لِمَني أخاف أن أقول ما لا أفعل ، فقال له : يَرْحَمُكَ اللهُ ، وأينا يقول ما يفعل ! يَوَدُّ الشَّيْطَانُ أَنَّهُ ظَفِيرَ بَهْذَةٍ مِنْكُمْ فلم يأمر أحدٌ بمعروف ولم يَنْهَ عن منكر ...

النهى عن الاقتداء بذوى الزلات

قال بعض العلماء : إِيَّاكَ وَالْاِقْتِدَاءَ بِزَلَّاتِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتقول : فُلَانٌ شَرِبَ الْبَيْدَ ، وفُلَانٌ سَمِعَ الْغِنَاءَ ، وفُلَانٌ لَبَّ بِالشَّطْرِجِ فيخرج منك فاسقٌ تَامٌ ... وقالوا : من أخذ برُخصةٍ كُلِّ فقيهٍ خرج منه فاسق ...

الحث على الأمر بالمعروف والحال التي يجوز فيها

قال الله تعالى : « وَتَسْكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ »^(١)

(١) قال الإمام البيضاوي في تفسيره : من في منكم للتبويض لآل الأمر

وقال سيدنا رسول الله : « مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مَنْكِرًا وَاسْتَطَاعَ أَنْ يُغَيِّرَهُ
بِيَدِهِ فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ
أَضْعَفُ الْإِيمَانِ .

وفى الأثر : إِنْ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدِهِ عَمَّهِمْ اللَّهُ
بِعِقَابِهِ .

وأما قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ
إِذَا اهْتَدَيْتُمْ » فقد قال الإمام البيضاوى : قوله : عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ، أى احفظوها
والزموا إصلاحها ، ولا يضرركم ... الآية : أى لا يضرُّكم الضلال إذا كنتم
مُهْتَدِينَ ، قال : ومن الاهتداء أن ينكر المنكر حسب طاقته ، وقال : نزلت
هذه الآية لَمَّا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ يَتَحَسَّرُونَ عَلَى الْكُفْرَةِ وَيَتَمَنُّونَ إِيْمَانَهُمْ ، وَقِيلَ
كَانَ الرَّجُلُ إِذَا أَسْلَمَ قَالُوا لَهُ : سَفَّهْتَ آبَاءَكَ ، فَنَزَلَتْ ،

وقال الراغب الأصبهاني : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال
صلوات الله عليه : اتنعروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ، وإذا رأيت
شُحًا مُطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا وَإِعْجَابَ كُلِّ امْرِئٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِخَوْصِ نَفْسِكَ

بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفاية ، ولأنه لا يصلح له كل أحد
إذ للتصدي له شروط لا يشترك فيها جميع الأمة ، كالعلم بالاحكام ومراتب
الاحتساب وكيفية إقامتها والتمكن من القيام بها ، خاطب الجميع وطلب فعل بعضهم
ليدل على أنه واجب على الكل حتى لو تركوه رأساً آمنوا جميعاً ، ولكن يسقط بفعل
بعضهم ، وهكذا كل ما هو فرض كفاية ثم قال : والدعاء إلى الخير يعم الدعاء إلى
ما فيه صلاح ديني أو دنيوي ، وعطف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عليه عطف
الخاص على العام للإيذان بفضله

وَدَعَ أَمْرَ الْعَوَامِ ^(١) ، ثم قال الراغب : وقال أكثر المتكلمين : لا يجوز ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كل موضع ، لكن من علم أو ظن أن قوله ينفذ وأن لا يناله مكروه إذا أمر أو نهى فعليه أن يفعل ذلك ، ومتى خاف على نفسه فعليه أن ينكر المنكر بقلبه دون لسانه ...

(١) خويصة : تصغير خاصة بسكون الياء لأن ياء التصغير لا تكون إلا ساكنة وجوز النقاء الساكنين فيها أن الأول حرف لين والثاني مدغم ، وعليك بخويصة نفسك : جاهد نفسك وانكش في الأعمال الصالحة ، ثم قال : ودع أمر العوام يريد : دع السواد الأعظم فيما هم فيه سادرون

الباب الخامس

في

الحلم وكظم الغيظ

والعفو والغضب والانتقام

وما إلى هذه المعاني

والحلم كذلك لونٌ من ألوان الصبر، أليس هو تجرُّع الغيظ أو إمساك النفس عن ثورة الغضب وهيجته وانبعائه ؛ وهو فضيلة عليا ما يُلَقَّاهَا إلا الذين صبروا وما يُلَقَّاهَا إلا ذو حظٍ عظيم^(١) ومن كلام الثبوة : كَادَ الحليم أن يكون نبياً . وهو نتاج العقل والآناة ، أو قُلْ : إنه هما . قال عَزَّ وَجَلَّ يَذُمُّ الْكُفَّارَ مُتَعَجِّبًا مِنْهُمْ : « أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ بِهَذَا » ، وسأل علي رضي الله عنه كبيرَ فارسٍ عن الغالبِ كان على كِسْرَى أنو شروان ؛ قال : الحلم والآناة ، قال : هما توأمان يَنْتِجُهُمَا عُلُوُّ الْهِمَّةِ وقال الشاعر :

لَنْ يُدْرِكَ الْمَجْدَ أَقْوَامٌ وَإِنْ كَرُمُوا

حَتَّى يَذِلُّوا — وَإِنْ عَزُّوا — لَا اقْوَامَ

وَيُسْتَمُوا فَتَرَى الْأَلْوَانَ مُسْفِرَةً لَا صَفْحَ ذَلٍّ وَلَكِنْ صَفْحَ أَخْلَامٍ^(٢)

(١) آية كريمة هي : « وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ »

(٢) مسفرة : مشرقة مضيئة سرورا

قالوا : ولن يتمَّ حلمُ الإنسانِ إلا بإمساكِ الجوارحِ كلها : اليد عن البطش ، واللسان عن الفحش ، والعين عن النظر الشر ، وأقربُ لفظ يقابل الحلم هو التذمُّر . وقال أبو هلال العسكري : ومن أشرف نُعوتِ الإنسان أن يُدعى حلماً ، لأنه لا يُدعاه حتى يكون عاقلاً وعالمًا ومُصطبراً وعفوًّا وصالحاً ومحتلاً وكاظمًا ، وهذه شرائف الأخلاق وكرائم السجايا والخصال .

والحلم : منه ماهو غريزي ، وهو هبة من الله لعبده يعمفو عن ظلمه ، ويوصل من قطعه ، ويحسن إلى من أساء إليه ، يصدر في ذلك عن نجيذة كريمة وغريزة سليمة وصدر سالم من الغوائل والأذى ، صاف من شوائب الكدر والقذى ، وهذا هو الحلم الذي لا يُستطاع تعلمه ولا يُكتسب تحلماً :

وإذا الحلم لم يكن في طباع لم يُحلم تقادم الميلاد [المتنبى]
روى أن سيدنا رسول الله قال لأشجع عبد القيس : يا أبا المنذر ، إنَّ فيك تحصلتين يرضاها الله ورسوله : الحلم والانابة ، فقال : يا رسول الله ، أشيءُ جَبَلَنِي اللهُ عليه أم شيءُ اخترعته من قِبَلِ نَفْسِي ؟ قال : « بل شيءُ جبلك الله عليه ، قال : الحمد لله الذي جَبَلَنِي على خُلُقٍ يرضاه الله ورسوله . وهناك من يقول : إن الحلم ليس غريزة ولا طبيعة بل مُكتسب مستفاد . وأيا كان الحال فليس من يُنكر أن من الحلم ماهو غريزي كما قلنا ، كما أن هناك حِلماً يُكتسب بالتَّحَلُّم كما أن العلم بالتعلم

قال حاتم :

تَحَلَّمْ عَنِ الْأَذْنَيْنِ وَاسْتَبْقِ وَدَّهْمَ فَلَئِنْ تَسْتَطِيعَ الْحِلْمَ حَتَّى تَحَلِّمَ
يُرَوِّى أَنَّهُ كَانَ عِنْدَ جَعْفَرِ الصَّادِقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَبْدٌ سَيِّئُ الْخُلُقِ ، فَقِيلَ لَهُ : أَمَا تَأْتَفُ مِثْلَ هَذَا عِنْدَكَ وَأَنْتَ قَادِرٌ عَلَى الْإِسْتِبْدَالِ بِهِ ؟ فَقَالَ :

إنما أتركه لَأَتَعَلَّمَ عَلَيْهِ الْحِلْمَ ...

وقال الشاعر :

وليس يَتِمُّ الْحِلْمُ لِلرَّءِ رَاضِيًا إذا هو عند السُّخْطِ لَمْ يَتَحَلَّمْ
كما لَا يَتِمُّ الْجُودُ لِلرَّءِ مُوسِرًا إذا هو عند الْقَسْرِ لَمْ يَتَحَشَّمْ
[يتحشم : يَتَذَمُّ وَيَسْتَحْي]

وهناك حلم حادث عن السَّكْبَرِ والعَجْرَةِ ، لَا يَرَى الْمُسِيءَ أَهْلًا أَنْ
يُجَارِيَهُ ، كما أَنَّ هُنَاكَ حِلْمٌ هَاهُنَا وَذِلَّةٌ وَعِزٌّ وَضَعْفٌ نَفْسٍ وَصِغَرٌ هِمَّةٍ

الممدوح بالحلم وتمدحهم به

قال مِهْيَارُ الدَّيْلِيُّ :

وإذا الإِبَاءُ الْمُرُّ قَالَ لَكَ : انْتَقِمْ قَالَتْ خَلَانِقُكَ الْكَرَامُ : بَلِ أَحْلَمُ
شَرُّعٍ مِنَ الْعَفْوِ انْفَرَدَتْ بِدِينِهِ وَفَضِيلَةُ لِسَوَاكَ لَمْ تَتَقَدَّمْ
حَتَّى لَقَدْ وَدَّ الْبَرِيُّ لَوْ أَنَّهُ أَذَلَّى إِلَيْكَ بِفَضْلِ جَاءِ الْمُجْرِمِ
وقال بعضهم :

فَدَهَرَهُ يَصْفَحُ عَنْ قُدْرَةٍ وَيَغْفِرُ الذَّنْبَ عَلَى عِلْمِهِ
كَأَنَّهُ يَأْتِفُ مَنْ أَنْ يَرَى ذَنْبَ امْرِئٍ أَعْظَمَ مِنْ حِلْمِهِ
وقال المتنبي :

وَأَحْلَمُ عَنْ خِلِّي وَأَعْلَمُ أَنَّهُ مَتَى أَجْزَهُ حِلْمًا عَلَى الْجَهْلِ يَنْدَمُ
وقال سالم بن وابِصَةَ ^(١) :

(١) شاعر إسلامي تابعي ، وهو صاحب هذه الايات : - وهي من آيات الحماة
أَحَبُّ الْفَتَى يَنْفِي الْفَوَاحِشَ سَمْعُهُ كَأَنَّ بِهِ عَنْ كُلِّ فَاخِشَةٍ وَقُرَا

وَنِيرَبٍ مِنْ مَوَالِي السُّوءِ ذِي حَسَدٍ يَنْتَاتُ لِحْمِي وَمَا يَشْفِيهِ مِنْ قَرَمٍ ^(١)
 دَارَيْتُ صَدْرًا طَوِيلًا غِمْرُهُ حَقْدًا مِنْهُ وَقَلَمْتُ أَظْفَارًا بِلَا جِلْمٍ ^(٢)
 بِالْحَزْمِ وَالْخَيْرِ أَسَدِيهِ وَالْحِمَّةُ نَقْوَى الْإِلَهِ وَمَا لَمْ يَرْعَ مِنْ رَحِمٍ ^(٣)
 فَأَصْبَحَتْ قَوْسُهُ دُونِي مُوْتَرَةً تَرْحِي عَدُوِّي جِهَارًا غَيْرَ مُسْكَنَةٍ ^(٤)
 وَإِنَّ فِي الْحِلْمِ دُلًّا أَنْتَ عَارِفُهُ وَالْحِلْمُ عَنْ قُدْرَةٍ فَضْلٌ مِنَ الْكَرَمِ
 وَقَالَ بَعْنُ بْنُ أَوْسٍ الْمُرَزِيُّ: ^(٥)

وَذِي رَحِمٍ قَلَمْتُ أَظْفَارَ صَغْنِهِ بِحِلْمِي عَنْهُ وَهُوَ لَيْسَ لَهُ حِلْمٌ

سَلِمٌ دَوَاعِي الصَّدْرِ لَا بِاسِطًا أَذَى وَلَا مَانِعًا خَيْرًا وَلَا قَاتِلًا هُجْرًا
 إِذَا شِئْتَ أَنْ تُدْعَى كَرِيمًا مُكْرَمًا أَدِيًّا ظَرِيفًا عَاقِلًا مَاجِدًا حُرًا
 إِذَا مَا أَتَتْ مِنْ صَاحِبٍ لَكَ زَلَّةٌ فَكُنْ أَنْتَ مُحْتَالًا لِرِزْلَتِهِ عُدْرًا
 غِنَى النَّفْسِ مَا يَكْفِيكَ مِنْ سَدِّ خَمَةٍ فَإِنْ زَادَ شَيْئًا عَادَ ذَاكَ الْغِنَى فَقَرًا
 (١) النيرب: الشر والنيمة، أراد: وذى نيرب، والقرم: شدة الشهوة إلى اللحم
 يقول: رب ذى نيرب حسود من موالى السوء يقتابنى ويأكل لحى ولا يشفيه ذلك
 من قرم، ويقتات: يفتعل من القوت.

(٢) الغمر: الحقد والغل، والجلم: أحد شقي المقرض وإنما هما جلمان يقول:
 صابره على مداجاته وانطوائه على حقدى فدفعت شره عن نفسى بطول مداراتى.
 وحقدا: أى حاقدا ودأويت صدره: أى مكنون صدره

(٣) بالحزم متعلق بدأويت أو قلمت وقوله: نقوى الإله يرجع إلى أسديه، وما
 لم يرع من رحم: يرجع إلى ألهمه

(٤) يقول: مازلت أنلطف وأصلح الأمر الفاسد بالرفق قليلا قليلا حتى صار
 يقاتل عدوى مجاهرة بعد أن كان يعادبنى مكاشرة

(٥) شاعر غزل من مخضرمى الجاهلية والإسلام وأبياته هذه من أبيات له طويلة

تراها فى الامالى ج ٢

يُحَاوِلُ رَغْمِي لَا يُحَاوِلُ غَيْرَهُ وكالموتِ عِنْدِي أَنْ يُحَلَّ بِه الرِّغْمُ^(١)
وَيَسْتَمُ عِرْضِي فِي الْمَغِيبِ جَاهِدًا وليس له عِنْدِي هَوَانٌ وَلَا شَتَمٌ
إِذَا سُمِّتُهُ وَضَلَّ الْقِرَابَةَ سَامِنِي قَطِيعَتَهَا ، تِلْكَ السَّفَاهَةُ وَالْإِنْتَمُ
فَمَا زِلْتُ فِي لَيْسَنِي لَهُ وَتَعَطُّفِي عَلَيْهِ كَمَا تَحْنُو عَلَى الْوَلَدِ الْأَثَمُ
وَصَبْرِي عَلَى أَشْيَاءَ مِنْهُ تَرِيْبُنِي

وَكُظْمِي عَلَى غَيْظِي وَقَدْ يَنْفَعُ الْكُظْمُ^(٢)
لَأَسْتَلَّ مِنْهُ الضُّغْنَ حَتَّى اسْتَلْتُهُ وَقَدْ كَانَ ذَا ضِغْنٍ يَضِيئُ بِهِ الْحَزْمُ
فَدَاوَيْتُهُ حَتَّى ارْفَأَنْتُ نِفَارُهُ نَعُدْنَا كَأَنَّا لَمْ يَكُنْ بَيْنَنَا صَرْمُ^(٣)
وَأَطْفَأْتُ نَارَ الْحَرْبِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَأَصْبَحَ بَعْدَ الْحَرْبِ وَهُوَ لَنَا سَلَمُ
وقال شاعر :

لَقَدْ أَسْمَعُ الْقَوْلَ الَّذِي هُوَ كَلِمَا تُذَكِّرُنِيهِ النَّفْسُ قَلْبِي يُصَدِّعُ
فَأُبْدِي لِمَنْ أَبْدَاهُ مِنِّي بِشَاشَةً كَأَنِّي مُسْرورٌ بِمَا مِنْهُ أَسْمَعُ
وَمَا ذَاكَ مِنْ عَجْزٍ بِهِ غَيْرَ أَنِّي أَرَى أَنْ تَرَكَ الشَّرَّ لِلشَّرِّ أَدْفَعُ

فضل كظم الغيظ

يقال : كَظَمَ الرَّجُلُ غَيْظَهُ يَكْظِمُهُ كَظْمًا : رَدَّهُ وَحَبَسَهُ وَتَجَرَّعَهُ . قال تعالى :
« وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ » قال بعض اللغويين : يعني أعدت الجنة للذين جَرَى
ذِكْرُهُمُ وَلِلَّذِينَ يَكْظِمُونَ الْغَيْظَ ،

(١) الرغْم : الذل والقصر

(٢) رابه فلان وأرابه : إذا رأى منه ما يكره

(٣) ارفأن : سكن مأخوذ من رفا الثوب : لام خرقه وضم بعضه إلى بعض

وفي الحديث : « مامن جرعة يتجرعها الإنسان أعظم أجراً من جرعة غيظ في الله عز وجل ،

وقالوا : الكظم يدفع محذور الندم ، كالماء يطفئ حرّ الضرّم وقال بعضهم : كظم يتردد في خلق أحب إلى من نقص أجدّه في خلق .

وقال : * وأفضل حلم حَسْبَةٌ حلم مغضب * وقال معاوية : ما وجدت لذة هي عندي ألد من غيظ أتجرعه وسفه بحلم أقمعه . وقال لابنه يزيد : عليك بالحلم والاحتمال حتى تُمكنك الفرصة فإذا أمكنتك فليك بالصّبح ، فإنه يدفع عنك معضلات الأمور ، ويقيك مصارع المحذور

الغضب وألوانه

وما يسكن به ثورانه

قال الراغب : مَثَلُ الغضبِ مَثَلُ نارٍ ما يشتعل ، والناس فيه مختلفون ، فبعضهم كالخلفاء ^(١) سريع الوقود سريع الخُود ، وبعضهم كالغضا ^(٢) بطيء الوقود بطيء الخمود ، وبعضهم سريع الوقود بطيء الخمود ، وبعضهم على العكس من ذلك ، وهو أحمدهم ، ما لم يؤد به ذلك إلى زوال حِمِيته ، وفقدان غِيَرته . واختلاف الناس في الغضب قد يكون مرثه اختلاف الأمزجة ، وقد يكون

(١) الخلفاء : نبت أطرافه محددة كأنها سعف النخل والخص : ينبت في مغايض المياه .

(٢) الغضا : شجر من الأثل خشبه من أصلب الحشب وجره يبق زمناً طويلاً لا يطفئ الواحدة منه غصاة .

العادة ، إذ من الناس من اعتاد السكون والهدوء من جرّاء إلفه الذلّ والانقياد والاستخزاء ، ومنهم من تعود الطيش والانزعاج فيحتد من أدنى ما يلمّ به ، مثله مثل كلب يسمع صوتاً فينبسح قبل أن يعرف مصدره : وأكثر الناس غضباً الصبيان والنساء ، وأكثرهم ضجراً الشيوخ ، وأجل الناس شجاعة وأفضاهم مجاهدة وأعظمهم قوة من كظم الغيظ . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب ، ومرّ صلوات الله عليه بقوم يرفعون حجراً فقال : (ألا أخبركم بأشدكم ؟ : من ملك نفسه عند الغضب) واعلم أن نار الغضب متى كانت عنيفةً تأججت واضطربت واحتدّ غليان الدم في القلب وابتلات الشرايين والدماغ دخاناً مظلماً يسوء منه حال العقل ويضعف فعله ، وكما أن الكهف الضيق إذا امتلأ حريقاً واختنق فيه اللهب والدخان وعلا الأجيح صعب علاجه وإطفائه ، وصار كل ما يدنو منه مادة لقوته ، كذلك النفس إذا اشتعلت غضباً عميت عن الرشيد وصمّت عن الموعظة حتى تصير المواقف مادة لغضبها ، وربما أدى الغضب إلى تلف ، وهو اختناق الحرارة في القلب الأمر الذي قد يكون سبباً لأمراض مُستعصية تُؤدى إلى التلف ؛ ثم قال وحق من يعتربه الغضب أن يفكر ، فإن كان الم غضوب عليه تحت يده فلا معنى لاستشاطته ؛ إذ هو متمكّن من الانتقام منه مع سكون الجأش ، وإن كان غضبه على من لا سبيل إليه فلا معنى لتعذيبه نفسه في الوقت وإنما الأخلق به أن يصبر حتى يتمكن منه ثم يفعل الواجب ، قال حكيم : سدّ طريق الغضب قبل تلهب ناره في لحيك ودمك فإنك إن لم تُطفئ نار الغضب

قبل انتشارها صُعب عليك إطفائها بعد أن تنتشر . وقال بعض الملوك للحكيم : كيف لي أن لا أغضب ؟ فقال : بأن تكون كل وقت ذا كراً أنه يجب أن تطيع لأن تطاع فقط ، وأن تخدم لا أن تخدم فقط ، وأن تتحقق أن الله تعالى يراك دائماً ، فإذا فدات ذلك لم تغضب وإن غضبت غضبت قليلاً ...

وقالوا : من غضب قائماً فتعد سَكَنَ غضبه ، وإن كان قاعداً فاضطجع سَكَن .

وكانت العرب تقول : إِنَّ الرَّيْثَةَ تَنْفُثُ الغضب : « الرَيْثَةُ : اللبنُ الحامضُ يُصَبُّ عليه الحليب ، وهو أطيبُ اللبن ، وَتَنْفُثُ الغضب : تُسَكِّنُهُ وَتَكْسِرُ حِدَّتَهُ ، وخطب معاوية يوماً فقال له رجلٌ : كَذَبْتَ ، فَنَزَلَ مُغَضِّباً ، فدخل منزله ، ثم خرج عليهم تَقَطَّرُ لحيته ماءً ، فصعد المنبرَ فقال : أيها الناس ، إن الغضبَ من الشيطان ، وإن الشيطانَ من النار ، فإذا غضب أحدكم فليطْفِئْهُ بالماء ؛ ثم أخذ في الموضوع الذي بلغه من خطبته .

وفي الحديث : إن الغضبَ جَرَّةٌ تُوقَدُ في جَوْفِ ابنِ آدمَ ، ألم تروا إلى حُمْرَةِ عَيْنَيْهِ وانتفاخِ أوداجِهِ ...

من اجتهد في إغضابه فحلم

خَاطَرَ رجلٌ آخرٌ ^(١) على أن يُغَضِبَ الأحنفَ بنَ قيسَ ، فجاءه فخطب إليه أمه ، فقال : لستأ نردك انتقاماً لحسبك ، ولا قِلةَ رَغْبَةٍ في ضاهرتك ولكنها امرأةٌ قد علا سِنُّها ، وأنت تحتاج إلى امرأةٍ ولودٍ ودودٍ تأخذ من خُلُقِكَ ، وَتَسْتَمِدُّ من أدبِكَ ؛ أَرَجِعْ إلى قومك وأخبرهم أنك لم تُغَضِبْنِي .

(١) يقال : خاطره على الأمر : راهنه عليه .

وخطب آخر إلى معاوية أمه : فقال : ما الذى رَغَبَكَ فيها وهى عجوز ؟
فقال : إنها عجوز غنايمة العَجُز ! فقال : لعلك خاطرت على أن تُنْضِبَ
سَيِّدَ بنى تميم ؟ قال : نعم ، قال : أَرْجِعْ فليست به .

وَسَمَّ رَجُلُ الْأَخْنَفِ وَالْحَّ عَلَيْهِ ، فلما فرغ قال له : يا بنَ أخى ، هل
لك فى الغداء ؟ فإنك مُنْذَ اليوم تَحْدُو بِجَمَلٍ ثَقَالٍ ... « النفال :
البطء الثَقِيلُ الذى لا يَنْبَغِثُ إِلَّا كَرْهًا »

وروى أن رجلاً خاطَرَ آخر على أن يَقُومَ إلى مُعَاوِيَةَ إذا سَجَدَ
فِيَضَعُ يَدَهُ عَلَى كَفْلِهِ ويقول : سُبْحَانَ اللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! مَا أَشْبَهَ عَجِيزَتَكَ
بِعُجْزَةِ أُمِّكَ هَذَا ؟ ففعل ذلك ، فلما انْقَلَبَ مُعَاوِيَةُ عَنْ صَلَاتِهِ قَالَ لَهُ :
يَا أَخَى ، إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ كَانَ مُحْتَاجًا إِلَى ذَلِكَ مِنْهَا ؛ فَخُذْ مَا جَعَلُوهُ لَكَ ، فَأَخَذَهُ
ثُمَّ خَاطَرَهُ آخِرُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ يَقُومَ إِلَى زِيَادٍ وَهُوَ فِي الْخُطْبَةِ فَيَتَوَلَّى : أَيُّهَا الْأَمِيرُ
مَنْ أُمِّكَ ؟ ففعل ؛ فقال زياد : هَذَا يُخْبِرُكَ — وَأَشَارَ إِلَى صَاحِبِ
الشَّرْطَةِ — فَقَدَّمَهُ وَضَرَبَ عُنُقَهُ ، فلما بَايَعَ ذَلِكَ مُعَاوِيَةَ قَالَ : مَا قَتَلَهُ
غَيْرِ ، وَأَوَّادُ بَنُوهُ عَلَى الْأَوَّلَى مَا عَادَ إِلَى الثَّانِيَةِ ...

وقيل للأخنف : مِمَّنْ أَعْلَمْتَ الْحِلْمَ ؟ قال : من قيس بن عاصم
الْمِنْقَرِيِّ ، رَأَيْتُهُ قَاعِدًا بِفَنَاءِ دَارِهِ مُحْتَبِيًا بِجَاهِلِ سَيْفِهِ يُحَدِّثُ قَوْمَهُ ، حَتَّى
أَتَى بِمَكْتُوفٍ وَرَجُلٍ مُقْتُولٍ ، فَقِيلَ لَهُ : هَذَا ابْنُ أَخِيكَ قَتَلَ ابْنَكَ . قَالَ :
فَوَاللَّهِ مَا حَلَّ حُبُّوهُ وَلَا قَطَعَ كَلَامُهُ ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَى ابْنِ أَخِيهِ فَقَالَ : يَا ابْنَ
أَخِي أَنْتَ بَرِّبِكَ ، وَرَمَيْتَ نَفْسَكَ بِسَهْمِكَ ، وَقَتَلْتَ ابْنَ عَمِّكَ ؛ ثُمَّ قَالَ
لِلابْنِ لَهُ آخِرُ : قُمْ يَا بَنَى فَوَارِ أَخَاكَ وَحُلِّ كِتَافِ ابْنِ عَمِّكَ وَسُقِ إِلَى أُمِّكَ

مائة ناقة دية ابنها فإنها غريبة ، ثم اتكأ على شقه الأيسر وقال :
 إِنِّي أَمْرُو لَا يَعْتَرِي خُلُقِي دَأْسٌ يُفْنِدُهُ وَلَا أَفْنُ^(١)
 مِنْ مَنَقَرٍ فِي يَدِ مَكْرُمَةٍ وَالْفَرْعُ يَنْبُتُ فَوْقَهُ الْغَضَنُ
 حُطْبَاءُ حِينَ يَقُولُ قَاتِلُهُمْ يَبِضُ الْوَجُوهَ أَعْقَةُ لُسْنُ
 لَا يَفْطِنُونَ لِعَيْبِ جَارِهِمْ وَهُمْوَا لِحَفْظِ جَوَارِهِ فُطْنُ

وَأَسْمَعُ رَجُلٌ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ بَعْضَ مَا يَكْرَهُ ، فَقَالَ : لَا عَلَيْكَ
 إِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ يَسْتَمَرَّ الشَّيْطَانُ بِعِزِّ السُّلْطَانِ فَأَنَالَ مِنْكَ الْيَوْمَ مَا تَنَالُهُ
 مَنَى غَدًا ، انصِرِفْ إِذَا شِئْتَ ...

وَأَمْرُ مُحَمَّدُ بْنُ سُلَيْمَانَ بِرَجُلٍ أَنْ يُطْرَحَ مِنَ الْقَصْرِ كَانَ قَدْ غَضِبَ
 عَلَيْهِ فَقَالَ الرَّجُلُ : آتَى اللَّهَ ، فَقَالَ : خَلُّوا سَبِيلَهُ ، فَإِنِّي كَرِهْتُ أَنْ أَكُونَ
 مِنَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ : « وَإِذَا قِيلَ لَهُ آتَى اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ » ،

حشهم على ترك الغضب

المؤدى إلى الاعتذار

قال حكيم : إِيَّاكَ وَعِزَّةَ الْغَضَبِ فَإِنَّهَا تَصِيرُ بِكَ إِلَى ذِلَّةٍ الْاِعْتِذَارِ
 وقال شاعر :

مَتَى تُرِيدَ الشَّمَاءَ لِكُلِّ غَيْظٍ تَكُنْ مَا يَغِيظُكَ فِي ازْدِيَادٍ

(١) وروى هذا البيت أيضاً هكذا :

إِنِّي أَمْرُو لَا يَعْطِي حَسْبِي كَدَسٌ يُهْجِنُهُ وَلَا أَفْنُ

اطباء : دعاء ، والآفن : النقص ، ويفنده : يكذبه

حَثُّهُمْ عَلَى التَّصَامُمِ عَنِ الْقَبِيحِ

وَتَعَذُّهُمْ بِذَلِكَ

قال المهلب بن أبي صفرة: إذا سمع أحدكم العوراء فليطأطأ لها
تَنَخَّطَاهُ ... «العوراء: الكلمة القبيحة أو الفعلَةُ القبيحة: ويقال للكلمة
القبيحة عوراء، وللکلمة الحسنة عينا» قال الشاعر:

وعوراء جاءت من آخر فرددتها بسالة العينين طالبة عذرا
«بسالة العينين: أى بكلمة حسناء لم تكن عوراء. وعورانُ الكلام:
ما تنفيه الأذن قال:

وعوراء قد قيلت فلم أستمع لها وما السكلمُ العورانُ لي بقول^(١)
وقال حاتم طي:

وأغفر عوراء الكريم ادخاره وأعرض عن شتم اللئيم تكرما^(٢)
وقال ابن علقمة الفزاري من أبيات يمدح بها ابن عمه عميلة:
إذا قيلت العوراء أغضى كأنه ذليل بلا ذل ولو شاء لانتصر
وقد تقدم هذا البيت مع أبيات أخرى له جميلة.

حَثُّهُمْ عَلَى الْعَفْوِ مطلقا

قال الله جل شأنه: «وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ،
والله غفور رحيم»، وقال سبحانه: «مَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ»،

(١) وصف الكلام بالعوران لانه جمع وأخبر عنه بالقتول وهو واحد لان الكلم
يذكر ويؤنث وكذلك كل جمع لا يفارق واحده إلا بالهاء
(٢) ادخاره: أى لا دخاره

وقال عزّ وتقدّس : « وأن تعفوا أقرب للتقوى » ، وقال تعالى
لِنَبِيِّهِ : « خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » ... « خُذِ
الْعَفْوَ ، فالعفو : السهل الميسّر والمعنى : احْتَمِلْ أخلاق الناس واقْبَلْ مِنْهَا
مَا سَهْلٌ وَتيسّر ولا تَسْتَقْصِ عَلَيْهِمْ فَيَسْتَقْصِىَ اللهُ عَلَيْكَ مع ما فيه من
العداوة والبغضاء ، أقول : ولما حَقَّقَ سيدنا رسول الله ما أدبه الله به قال
سبحانه في حقّه : (وإنك لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) »

وقال الأحنف بن قيس : إياك وَحِيَّةُ الأَوْغَادِ ، قيلَ : وما حَمِيَّتُهُمْ
قال : يرون العفو مغرماً والتَّحَمُّلَ مَغْنَمًا ... « التحمل دهنا : الغضب وقد
جاء في بعض الروايات بدل التحمل : والبخل »

وقيل لبعضهم : هل لك في الإنصاف أو ما هو خيرٌ من الإنصاف ؟
فقال : وما هو خير من الإنصاف ؟ قال : العفو ...

وقالوا : العفو زكاة النفس

وقالوا العفو عن المذنب من واجبات الكرم ...
وقالوا : لَذَّةُ العفو أَطْيَبُ من لَذَّةِ التَّشَنُّيْ ، لأن لذة العفو يلحُّهَا حُدُ
الماقبة ، وَلَذَّةُ التَّشَنُّيْ يُلْحَقُهَا ذَمُّ النَّدَمِ ... وقال الشاعر وقد نظم هذا المعنى :
لَذَّةُ العفوِ إِن تَنْظَرْتَ بَعَيْنِ الـ حَذَلِ أَشَقَى مِنْ لَذَّةِ الإِتِّقَامِ
هذه تَكْسِبُ المحامدَ والأجـ رَ وهذه تجيءُ بالآثامِ

التحلم عن الخدم

نظر معاوية إلى ابنه يزيد وهو يضرب غلاماً له ، فقال له : اُنْفِسِدْ
أدبَكَ بِأَدَبِهِ ! فلم يُرَ ضارباً غلاماً له بعد ذلك .

وقيل ليجي بن خالد البرمكي : إنك لا تؤدّبُ غلمانك ولا تضربهم !
قال : هم أمّاؤنا على أنفسنا فإذا نحن أخفناهم فكيف نأمنهم !

الرحمة ومدح ذويها

قالوا من كَرَّمَ أَصْلَهُ لَان قَلْبُهُ

وقالوا : من أمارات الكرم : الرحمة ، ومن أمارات اللؤم : القسوة
« الكرم نقيض اللؤم »

وفي الحديث الشريف « اِرْحَمْ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكَ مَنْ فِي السَّمَاءِ »
وفيه أيضاً « لَا تُنْزِعِ الرَّحْمَةَ إِلَّا مِنْ قَلْبٍ شَقِيٍّ »

أما من دَمَّ الرحمة ونعاها على أهلها مثل الوزير محمد بن عبد الملك
الزيات إذ يقول : الرحمة حَوَرٌ فِي الطَّبِيعَةِ ، ومثل غيره من فلاسفة هذا
الجيل كالفيلسوف نيتشه وَمَنْ عَلَى شَاكَلَتِهِ فَأُولَئِكَ إِنَّمَا يَتَرَامُونَ إِلَى
أَهْدَافٍ أُخْرَى ، وإلى مدح القُوَّة في مواضعها ، وهذه سوف تمر عليك
عقربانهم فيها .

ما يستحسن فيه الحلم من الكبار

وما يُستقبح

أغلظ رجلٌ لمعاويةَ فَحَلَمَ عنه ، فقليل له : تحلّمُ عن هذا ! فقال : إني
لا أحولُ بين الناس وبين أَسْنَتِهِمْ ما لم يحولوا بيننا وبين سُلْطَانِنَا ... وقال
المأمون : يحملُ الحلمُ بالملوك إلا في ثلاثة مواضع ، مُذْبِعٍ لِيَبْرٍ ، ومُتَعَرِّضٍ
لِلْحَرَمِ ، وقادح في مُلْك ... « حَرَمُ الرَّجُلِ : عِيَالُهُ وَنَسَاؤُهُ وَمَا يَحْمِيهِ »

وقال السفاح: الحِلْمُ يَحْسُنُ إِلَّا مَا أَوْضَعَ الدِّينَ وَالسُّلْطَانُ .

حُثُّهُمْ عَلَى دَرءِ الْحُدُودِ

فِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ : « أَدْرُوا الْحُدُودَ بِالشُّبُهَاتِ ، وَأَنْيَلُوا الْكِرَامَ عَثَرَاتِهِمْ ، وَإِنَّ الْإِمَامَ لَأَنْ يُخْطِئَ فِي الْعَفْوِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يُخْطِئَ فِي الْعُقُوبَةِ ، »
« ادْرُوا : ادْفَعُوا ، وَالْحُدُودُ جَمْعُ حَدٍّ ، وَهُوَ لُغَةٌ ، الْمَنْعُ وَشَرْعًا : الْعُقُوبَةُ الَّتِي جَعَلَتْ لِمَنْ يَقْتَرِفْ مَانِهِيَ عَنْهُ كَحَدِّ السَّارِقِ ، وَهُوَ قَطْعُ يَمِينِهِ فِي رُبْعِ دِينَارٍ فَصَاعِدًا ، وَكَحَدِّ الزَّانِي الْبَكْرَ وَهُوَ جَلْدُهُ مِائَةً وَتَغْرِيبُهُ عَامًا ، وَكَحَدِّ الْمُحْصَنِ إِذَا زَنَى ، وَهُوَ الرِّجْمُ ، سَمِيَتْ حُدُودًا لِأَنَّهَا تُحَدُّ : أَيْ تَمْتَنِعُ مِنْ إِتْيَانِ مَا جَعَلَتْ عُقُوبَاتٍ فِيهَا ^(١) ، وَالشُّبُهَاتُ جَمْعُ شُبْهَةٍ وَهِيَ الْإِلْتِبَاسُ يَقَالُ : تَشَابَهَتْ الْأُمُورُ وَاشْتَبَهَتْ ، أَيْ النَّبَسَتْ لِاشْتِبَاهِ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ ، وَالْعَثَرَاتُ : الزَّلَاتُ وَالْكِرَامُ : خِيَارُ النَّاسِ وَوُجُوهُهُمْ حَسَبًا وَنَسَبًا وَعِلْمًا وَدِينًا وَصَلَاحًا ، وَمَعْنَى أَنْيَلُوا عَثَرَاتِهِمْ : لَا تَعَاقِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَلَا تَوَاخِذُوهُمْ بِهَا ، إِلَّا فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ فَإِنَّهُ لَا تَجُوزُ إِقَالَتُهُمْ فِيهِ إِذَا ثَبَتَ عِنْدَ الْإِمَامِ وَخَلَا عَنِ الشُّبْهَةِ وَلَمْ يَجِدْ إِلَى دَفْعِهِ سَبِيلًا ، وَمَعْنَى ادْرُوا الْحُدُودَ بِالشُّبُهَاتِ : اْعْمَلُوا مَا وَجَدْتُمْ السَّبِيلَ عَلَى أَنْ لَا تَقِيمُوا الْعُقُوبَةَ عَلَى مُسْلِمٍ إِلَّا بِأَمْرٍ مُتَبَيَّنٍ لَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ التَّأْوِيلُ .

حَثُّ الْقَادِرِ عَلَى الْعَفْوِ

قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : إِذَا مَلَكَتْ فَاسْجُحِ » قَالَتْ ذَلِكَ لَعَلَّ

(١) وَتَطْلُقُ الْحُدُودُ وَيراد بها المعاصي قال تعالى : وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ

تِلْكَ تَقْرِبُوهَا . .

ابن أبي طالب رضى الله عنه يومَ الجمَل حين ظهر على الناس فدنا من هَوْدَجِهَا ثم كلمها بكلام ، فأجابته : ملكت فأَسِجِح ، أى ظَفِرْتَ فأَحْسِنُ وَقَدَّرْتَ فَسَهِّلْ وَأَحْسِنِ العَفْوَ ، فجهزها عند ذلك بأحسنِ الجهازِ إلى المدينة فالإِسْجَاحُ : حُسْنُ العَفْوِ ،

ومن كلمة لعلّى رضى الله عنه : إِذَا قَدَّرْتَ عَلَى الْعَدُوِّ فَاجْعَلِ الْعَفْوَ سُكْرًا قَدَّرْتَكَ .

وقالوا : الْمُقَدِّرةُ تُذْهَبُ الحَفِظَةُ « الحَفِظَةُ : النُّضْبُ ، وقولهم : إِنَّا الحَفَاطُظُ تَذْهَبُ الاحْقَادُ فَمَعْنَاهُ : إِذَا رَأَيْتَ حَمِيمَكَ يُظْلَمُ حِمَّتَ لَهُ وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ فِي قَلْبِكَ حَقْدٌ ... وَظَفَرَ الإسْكَندَرُ الْمُقَدُونِيَّ بِيَعِضِ الْمُلُوكِ ، فَقَالَ لَهُ : مَا أَصْنَعُ بِكَ ؟ قَالَ : مَا يَحْمِلُ بِالْكَرَامِ أَنْ يَصْنَعُوهُ إِذَا ظَفَرُوا ، نَخَلَى سَبِيلَهُ وَرَدَّهُ إِلَى مَمْلَكَتِهِ .

ولما ظَفَرَ أَنُو شُرَوَانَ بِبُزْرُجْهَرَ قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَظْفَرَنِي بِكَ ، فَقَالَ : كَافِيَ مَنْ أَعْطَاكَ مَا تُحِبُّ بِمَا يُحِبُّ ... وَقِيلَ لِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : بَعْفُوكَ عَنْ إِخْوَتِكَ عِنْدَ قَدَّرَتِكَ رُفِعَ قَدْرُكَ ...

ذَمُّ الْمُتَشَفِّي مِنَ الْغِيظِ

قال معاوية رضى الله عنه : الْعُقُوبَةُ الْأَلَمُ حَالَاتُ ذِي الْقُدْرَةِ ... وقال حكيم : التَّشَفِّيُّ طَرَفٌ مِنَ الْجَزَعِ ، فَمَنْ رَضِيَ أَنْ لَا يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الظَّالِمِ إِلَّا سِتْرٌ رَقِيقٌ وَحِجَابٌ ضَعِيفٌ فَلْيَلْتَصِفْ ...

مدح من صفح عن قدرة

قال الاخطل من آيات يمدح بها بنى أمية :

شُئْسُ العداوةِ حتى يُسْتَقَادَ لهم

وأعظمُ الناسِ أحلاماً إذا قَدَرُوا ^(١)

وقال أشجع السَّكِي :

يعفو عن الذنبِ العظيمِ - وليس يُعْجِزُهُ انتِصَارُهُ ^(٢)

صَفْحاً عن الجاني عَليهِ - وقد أحاطَ بِهِ اقْتِدَارُهُ

وقال المتنبي :

قَتَى لَا تَسْلُبُ الْقَتْلَى يَدَاهُ وَيَسْلُبُ عَفْوُهُ الْأَسْرَى الْوَثَاقَا

« يقول المتنبي : إذا قَتَلَ الممدوح قتيلاً لم يأخذْ سَلْبَهُ ، تَرْفُعاً عن ذلك

ولكنَّ عَفْوَهُ يَسْلُبُ أَسْرَاهُ أَغْلَالَهُمْ وَيُؤَدِّهِمْ ، أى يعفو عنهم ويُطْلِقَهُمْ »

الحث على إقالة من سلم ظاهره

قالوا : لَا تَعْتَدْ بما لم تَسْمَعْهُ أذنَاكَ ، فإن السَّيِّدَ إذا حَضَرَ هيب وإذا

غاب اغْتَيْب .

وقال بعض المملوك : إِنَّمَا تَمْلِكُ الْأَجْسَادَ دُونَ النِّيَّاتِ ، وَتَنْفَخُصُ

عَنِ الْأَعْمَالِ لِأَعَنِ السَّرَائِرِ ... وقال البُحْتَرِيُّ :

إِذَا عَدُوُّكَ لَمْ يُظْهِرْ عِدَاوَتَهُ فَمَا يُضْرِكُ إِنْ عَادَاكَ إِسْرَارَا

(١) شمس : جمع شمس وهو : الصعب العداوة ، وقوله : حتى يستقاد لهم : أى

حتى يؤخذ حقهم من اعتدى عليهم ، من قولهم ، استقدت الأمير من القاتل فأقادلى

منه أى قتله (٢) الانتصار : الانتصاف والانتقام

وقال العلاء بن الحضرمي^(١) يخاطبُ سيدنا رسول الله :

وإن دَحَسُوا بالشَّرِّ فاعفُ تَكْرُمًا

وإن خَنَسُوا عنكَ الحديث فلا تَسَلْ^(٢)

« وإن دحسوا: قال ابن الأثير يريد: إن فعلوا الشر من حيث لا تعلمه .

وخنسوا الحديث يريد : وارزوه وغيوه وأخروه عنك ،

العفو عمن سلم باطنه

قد يهفو المرء ونيتة سليمة ، ويَزِلْ وطريقته مستقيمة .

قال إبراهيم بن المهدي في عَيْنَيْتِهِ للبأُمون وقد عفا عنه :

قسماً وما أدلى إليك بِحُجَّةٍ إِلَّا التَّضَرُّعَ مِنْ مُحِبِّ خَاشِعٍ

ما إن عَصَيْتُكَ وَالْغَوَاةُ تَمُدُّنِي أَسْبَابُهَا إِلَّا بِلَيْتِهِ طَائِعٍ

وقال الفرزدق :

فليستَ بِمَأْخُوذٍ بِلُغْوِ تَقْوَلُهُ إِذَا لَمْ تَعْمَدْ عَاقِدَاتُ الْعِزَائِمِ^(٣)

« تعمد : تتعمد »

(١) صحابي جليل استعمله سيدنا رسول الله على البحرين وأقره أبو بكر ثم عمر

مات سنة ٢١ هـ

(٢) بعده :

فإن الذي يؤذيك منه استمأه وإن الذي قالوا وراءك لم يُقَلْ

(٣) لعل الفرزدق أخذ هذا المعنى من قوله تعالى : لا يؤاخذكم الله باللغو في

أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان .

عتب من يحفظ الذنب بعد تقادمه

قال البُحْثَرِي :

تناس ذنوبَ قومِكَ إن حَفِظَ الذَّنْبُ نوبٍ - إذا قَدُمْنَ - مِن الذنوبِ

العفو عن المقرِّ المعترف

قال بعضهم :

إذا ما امرؤٌ من ذنبه جاءَ تائبًا إليك فلم تَغْفِرْ له ، فلك الذنبُ

ومن قولهم : التوبة تغسل الحوبة ، الحوبة : الخطيئة ،

وقالوا : لا عَتَبَ مع إقرار ، ولا ذَنْبَ مع استغفار .

وقال بعضهم لصديق له أنكرَ ذنبًا : إما أن تُقَرَّ بذنبك فيكونَ

إقرارُكَ حُجَّةً لنا في العفو ، وإلا فَطُبْ نفساً بالانتصار منك ، فإن الشاعر

يقول :

أقرِرْ بذنبِكَ ثم اطلبْ تجاوزَنا عنه فإن جحودَ الذنبِ ذنبانِ

ومن كلام لابن المعتز : تجاوزَ عَنْ مُذْنِبٍ لم يَسْلُكْ بالإقرار طريقاً

حتى اتخذ من رجائِكَ رفيقاً .

وقال بعض الأمراء لرجل عاتبه : بَلَّغْنِي أَنَّكَ تُبَغِضُنِي ، فلم يُسْكَرِ

الرجل وقال : أنت كما قال الشاعر :

فإنك كالذئبِ نَدُمُ صُروفَها ونُوسِها ذَمًّا ونَحْنُ عبيدُها

وقال أبو فراس الحمداني :

إِنْ لَمْ تَجَافَ عَنِ الذُّنُوبِ بِ وَجَدَتْهَا فِينَا كَثِيرَةً^(١)
لَكِنَّ عَادَتَكَ الْجَمِيَّةَ أَلَّا أَنْ تَغُضَّ عَنِ الْجَرِيرَةِ^(٢)

وقال السري الرفاء :

فَإِنْ تَغُضَّ عَنِّي تَغُضَّ عَنْ غَيْرِ جَاحِدٍ
لَمَّا كَانَ وَالْإِقْرَارُ بِالذَّنْبِ أَرْوَحُ

وقال آخر :

فَلَسْتُ بِأَوَّلِ عَبْدٍ هَذَا وَلَسْتُ بِأَوَّلِ مَوْلَى عَفَا

وقال غيره :

صَفَحًا فَلَوْ شَقَّ قَلْبِي مِنْ صَحِيفَتِهِ لَظَلَّ يُقْرَأُ مِنْهُ الْخَوْفُ وَالنَّدَمُ
وَأَنْتَ أَبُو جَعْفَرِ الْمَنْصُورِ بِرَجُلٍ أَذْنَبَ . فقال : إِنْ اللَّهُ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ
وَالْإِحْسَانِ : فَإِنْ أَخَذْتَ فِي غَيْرِي بِالْعَدْلِ نَخَذُ فِي بِالْإِحْسَانِ ...

حسن العفو عن المصّر

سمعَ حكيمٌ رجلاً يقول : ذَنْبُ الْإِصْرَارِ ، أَوَّلِي بِالْإِغْتِنَارِ ؛ فقال :
صَدَقَ وَاللَّهِ ، لَيْسَ فَضْلُ مَنْ عَفَا عَنِ السَّهْوِ الْقَلِيلِ كَمَنْ تَفَا عَنِ الْعَمْدِ
الْجَلِيلِ ...

استعفاء من خلط إقرارا بإنكار

قال بعضهم في ذلك :

-
- (١) تجاف بحذف إحدى التاءين أى تتجافى وتتجافى عن الذنوب : تبتعد وتغض الطرف عنها
(٢) الجريرة : ما يجره الإنسان من ذنب

هَبْنِي أَسَاتُ كَمَا ظَنَنْتُ فَأَيْنَ عَاقِبَةُ الْآخِرَةِ
وَإِذَا أَسَاتُ كَمَا أَسَا تُ فَأَيْنَ فَضْلُكَ وَالْمُرُوءَةُ

وقال آخر :

وهَبْنِي — وما أَجْرَمْتُ — أَجْرَمْتُ كُلَّ مَا

أَتَاكَ بِهِ الْوَأَشَى تُجِدُ بِاحْتِمَالِهِ
وقال الشعبي لِبَعْضِ الْوَلَاةِ — وَقَدْ كَلَّمْتُهُ فِي قَوْمٍ حَبَسْتَهُمْ — : إِنَّ
حَبَسْتَهُمْ بِالْبَاطِلِ فَالْحَقُّ يُخْرِجُهُمْ ، وَإِنْ حَبَسْتَهُمْ بِحَقٍّ فَالْعَفْوُ يَسْعُهُمْ ؛
فَأَمْرٌ بِإِطْلَاقِهِمْ .

معتذر مع إنكار

قال الرشيد لرجل يُرْمَى بِالزُّنْدَانَةِ : لَا ضِرْبَتَكَ حَتَّى تُقَرَّ بِالذَّنْبِ ، فَقَالَ :
هَذَا خِلَافُ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ ، لِأَنَّهُ أَمَرَ أَنْ يُضْرَبَ النَّاسُ حَتَّى يُقَرُّوا
بِالْإِيمَانِ وَأَنْتَ تَضْرِبُنِي حَتَّى أُقَرَّ بِالْكَفْرِ أَنْخِجِلْ وَعَفَا عَنْهُ .

وكان الرشيد قد حبس عبيد الملك بن صالح ، فلما أخرجهم الإهين من
الحبس ، وذكر الرشيد وَفَعَلَهُ بِهِ قَالَ : وَاللَّهِ إِنْ الْمَلِكُ لَشَيْءٌ مَا نَوَيْتُهُ
وَلَا تَمَنَّيْتُهُ ، وَلَوْ أَرَدْتُهُ لَكُنَ إِلَى أَسْرَعِ مِنَ الْمَاءِ إِلَى الْخُدُورِ ^(١) ، وَمَنْ
النَّارِ إِلَى يَبِيسِ الْعَرَفِجِ ^(٢) ، وَإِنِّي لَمَأْخُودٌ بِمَا لَمْ أَجِنِ ، وَمَسْئُولٌ عَمَّا
لَا أَعْرِفُ ، وَلَكِنْ لَمَّا رَأَى بِالْمَلِكِ قَيْنَا ، وَإِنْ لَمْ أَتَرَشَّحْ لَهُ فِي سِرِّ
وَلَا جَهْرٍ ، وَرَأَاهُ يَحِنُّ إِلَى حَنِينِ الْوَالِدَةِ الْوَالِهَةِ ، وَتَمِيلُ مِيلَ الْهَلُوكِ ^(٣)

(١) الخدور بوزن رسول : المكان الذي ينحدر منه

(٢) العرفج : نبات سملي

(٣) الهلوك من النساء : الفاجرة الشبهة

عاقبتني عقاب من سهر في طلبه ، فإن كان إنما حسبتني أني أصلح له ويصلح لي فليس ذلك ذنباً فأثوب منه .

وقال التَّوْحِي :

إن كان إقرارى بما لم أجنيه يُرضيك عنى قلتُ لاني ظالمٌ

معتذر بتكذيب نفسه

خرج النعمان بن المنذر في غيب سماء فرَّ برجل من بني يَشْكُر جالساً على غدير ماء ، فقال له : أتعرف النعمان ؟ قال اليشكري : أليس ابن سَلَمَى ؟ قال : نعم ، قال : والله لربما أمررتُ يدى على فرجها ، قال له : ويحك ، النعمان بن المنذر ! قال : قد خبرتك ، فما آنقضى كلامه حتى لحقته الخيل وحيَّوه بتحية الملك ، فقال له : كيف قلت ؟ قال : أبيت اللعن ^(١) ، إنك والله ما رأيت شيئاً أكذب ولا ألأم ولا أوضع ولا أعصَّ يبظر أمه ^(٢) من شيخ بين يديك ؛ فقال النعمان : دَعُوهُ ، فأنشأ يقول :

تعفو الملوك عن العظمى م من الذنوب لفضلها

واقعد تُعاقب في اليَسيرة ر و ليس ذاك لجهلها

إلا ليعرف فضلها ويُخاف شدة نكلها

وانقطع عبدُ الملك بن مروان عن أصحابه . فأنتهى إلى إعرابي ، فقال :

(١) كلمة كانت العرب تحي بها ماوكها في الجاهلية ومعناها : أبيت أيها الملك أن تأتي ما تلعن عليه ، واللعن : الإبعاد والطرده من الخير

(٢) البظر : هنة بين الاسكتين من المرأة لم تخفص - لم تختنن - ومن قولهم في السب : يا ابن مقطعة البظور : جمع بظر ، يريدون أن أمه خائنة وقد يقولونها في معرض الذم وإن لم تكن أمه خائنة

أَنعِرْفَ عَبْدَ الْمَلِكِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، جَارِ بَاثِرٍ ، قَالَ : وَيَحْكُ أَنَا عَبْدَ الْمَلِكِ ! قَالَ :
لَا حَيَاكَ اللَّهُ وَلَا بَيَاكَ وَلَا قَرْبَكَ ، أَكَلْتَ مَالَ اللَّهِ ، وَضَيَّعْتَ حُرْمَتَهُ ، قَالَ :
وَيَحْكُ أَنَا أَضْرُ وَأَنْفَعُ ، قَالَ : لَا رَزَقَنِي اللَّهُ نَفْعَكَ وَلَا دَفَعَ عَنِّي ضُرَّكَ ؛ فَلَمَّا
وَصَلَتْ خَيْلُهُ عِلمَ صِدْقِهِ ، فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَكُتُمُ مَا جَرَى فَالْجَالِسِ
بِالْأَمَانَةِ ...

استعفاء من زعم أن ذنبه كان خطأ

قَالَ غُلَامٌ هَاشِمِيٌّ أَرَادَ عُمَهُ أَنْ يُجَازِيَهُ بِسَهْوٍ مِنْهُ : يَا عَمُّ ، إِنِّي قَدِ اسْتَأْتُ
وَلَيْسَ مِنِّي ذَنْبِي فَلَا تُسَيِّئْ وَمَعَكَ عَقْلُكَ ...
وَقَالَ الْمَتَنَبِيُّ :

وَعَيْنُ الْمُخْطِئِينَ هُمْ وَلَيْسُوا بِأَوَّلِ مَعْشَرٍ خَطِئُوا فَتَابُوا
وَأَنْتَ حَيَاتُهُمْ غَضِبْتَ عَلَيْهِمْ وَهَجَرُ حَيَاتِهِمْ لَهُمْ عِقَابُ
وَمَا جَهِلْتُ أَيَادِيكَ الْبَوَادِي وَلَكِنْ رَبِّمَا خَفَى الصَّوَابُ ^(١)
وَقَالَ أَبُو تَمَامٍ :

فَإِنْ يَكُ حُرْمٌ عَنْ أَوْتِكَ هَفْوَةٌ عَلَى خَطَايَا مَنِي فَعُذْرِي عَلَى عَمْدٍ
وَالْأَصْلُ فِي هَذَا الْمَثْنِيِّ قَوْلُ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ : « رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَاُ
وَالنِّسْيَانُ وَمَا اسْتُكْرَهُوا عَلَيْهِ » وَقَالَ تَعَالَى : وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ
بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ،

(١) أَيَادِيكَ : نَعْمَكَ ، وَالْبَوَادِي : خِلَافُ الْحَوَاضِرِ أَيْ أَهْلُ الْبَوَادِي يَقُولُ :
لَا مِنْهُمْ لَمْ يَجْهَلُوا بَعْضِيَانِكَ سَوَاقِبِ نَعْمِكَ وَلَكِنْ قَدْ يَخْفَى الصَّوَابُ عَلَى الْمَرَّةِ
فِي أَيِّ غَيْرِهِ

مستعفف سأل أن يقوم ويؤدّب

قال أحمد بن أبي فَنَنْ (١) :

أَحِينَ كَثُرَتْ حُسَادِي وَسَاءَهُمْ جَمِيلُ فِعْلِكَ بِي أَشْمَتَ حُسَادِي !
فَإِنْ تَكُنْ هَفْوَةً أَوْ زَلَّةً سَلَفْتُ فَأَنْتَ أَوْلَى بِتَقْوِيٍّ وَإِرْشَادِي

مستعفف سأل العفو

لفرط خوفه

قال علي بن الجهم من أبيات أرسلها إلى المتوكل وهو محبوس :
وعفوك عن مُذنبٍ خاضِعٍ قَرَنْتَ المَقْسِمَ بِهِ المُقْعِدَا (٢)
إِذَا ادَّرَعَ اللَّيْلَ أَنْضَى بِهِ إِلَى الصَّبْحِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَرْقُدَا
أَلَمْ تَرَ عَبْدًا عَدَا طَوْرَهُ وَمَوَّلَى عَفَا وَرَشِيدًا هَدَى
وَمُفْسِدًا أَمْرٍ تَلَا فَيْتَهُ فَعَادَ فَأَصْلَحَ مَا أَفْسَدَا
فَلَا عُدْتُ أَعْصِيكَ فِيمَا أَمَرْتُ حَتَّى أَزُورَ الثَّرَى مُلْحَدَا
وِلَا نَخَالِفْتُ رَبَّ السَّمَاءِ وَخُنْتُ الصَّدِيقَ وَعِفْتُ النَّدَى

مستعفف أتكل على سالف حرمة

قال من لا أذكر اسمه :

أَيَذْهَبُ يَوْمٌ وَاحِدٌ إِنْ أَسَأْتُهُ بِصَالِحِ أَيَّامِي وَخُسْنِ بِلَائِيَا (٣)

(١) شاعر مجيد من شعراء بغداد شهر بالشعر في أيام المتوكل واستفرغ شعره

في الفتح بن خاقان

(٢) يقال : أخذه المقيم المقعد أى ما يوجب الاضطراب من خوف ونحوه

(٣) أسأته : أسأت فيه

وقال جل شأنه : « إن تجتنبوا كبار ما تنهون عنه نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا » والمراد بالسيئات : الصغائر ، والكبار هن : الذنوب التي رتب الشارع عليها حدوداً أو صرح بالوعيد فيها ،

الاستعفاء لمذنب من قوم محسنين

قال ابراهيم بن العباس الصولي :

أسأوا وفيهم مُحْسِنُونَ فَإِنْ تَتَبَ لِحَسَنِهِمْ أَهْلَ الْإِسَاءَةِ يَصْلَحُوا

متوصل إلى العفو بمراجعة أو حجة

رَوَوْا أَنَّ الْفَارُوقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ يَعُشُّ لَيْلَةً ، فَسَمِعَ غِنَاءَ رَجُلٍ مِنْ بَيْتٍ ، فَتَسَوَّرَ عَلَيْهِ ، فَرَأَاهُ مَعَ امْرَأَةٍ يَشْرَبَانِ الْخَمْرَ ، فَقَالَ : يَا عَدُوَّ اللَّهِ ، أَظَنَنْتَ أَنَّ يَسْتُرَكَ اللَّهُ وَأَنْتَ عَلَى مَعْصِيَةٍ ؟ فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، لَا تَعْجَلْ إِنَّ كُنْتُ عَصَيْتُ اللَّهَ فِي وَاحِدَةٍ فَقَدْ تَصَيَّتُ فِي ثَلَاثٍ : قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : وَلَا تَجَسَّسُوا وَقَدْ تَجَسَّسْتَ ، وَقَالَ : وَأَنْتُمْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَقَدْ تَسَوَّرْتَ عَلَيَّ ، وَقَالَ : لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْأَلُوا عَنْ أَهْلِهَا وَقَدْ دَخَلْتَ بِغَيْرِ سَلَامٍ ، فَقَالَ عُمَرُ : أَسَأْتُ فَهَلْ تَعْفُو ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَعَلَى أَنْ لَا أَعُودَ ... وَقَدْ أَوْرَدْنَا هَذِهِ الْأَحَادِيثَ كَمَا أَوْرَدَهَا الْأَدْبَاءُ ، وَإِنْ فِي النَّفْسِ مِنْهَا بَعْدُ لِأَشْيَاءَ ،

مستعفف ذكر فرط خوفه من الوعيد

قال مسلم الخاسر :

لَقَدْ أَتَنَّى مِنَ الْمَهْدِيِّ مَعْتَبَةً تَظَلُّ مِنْ خَوْفِهَا الْأَحْشَاءُ تَضْطَرِبُ وَقَالَ أَبُو تَمَامٍ مِنْ قَصِيدَةٍ يَمْدَحُ بِهَا أَحْمَدَ بْنَ أَبِي دُوَادٍ وَيَعْتَذِرُ إِلَيْهِ :

أَتَانِي عَائِرُ الْأَنْبَاءِ تَسْرِي عَقَارُ بِهِ دَاهِيَةٌ نَادٍ (١)
فِيَاخْبِرَا كَأَنَّ الْقَلْبَ أُمَسَى يُجْرُّ بِهِ عَلَى شَوْكِ الْقَتَادِ (٢)
وَقَالَ الْبَحْتَرِيُّ :

عَذِيرِي مِنَ الْإِيَّامِ رَنْقَنَ مَشْرَبِي وَلَقَيْتَنِي نَحْسًا مِنَ الطَّيْرِ أَشْمًا (٣)
وَأَكْسَبَنِي سُخْطَ امْرِئٍ بَتُّ مَوْهِنًا أَرَى سُخْطَهُ لَيْلًا مَعَ اللَّيْلِ مَظْلَمًا (٤)

من استعفى واستوهب معا

أَخَذَ مُصْعَبُ بْنُ الزَّيْبِرِ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ الْخِتَارِ ، فَأَمَرَ بِضَرْبِ عُنُقِهِ ،
فَقَالَ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، مَا أَقْبَحَ بِكَ أَنْ أَقُومَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى صَوْرَتِكَ هَذِهِ
الْحَسَنَةِ ، وَوَجْهَكَ هَذَا الَّذِي يُسْتَضَاءُ بِهِ ، فَأَتَمَلَّقَ بِأَطْرَافِكَ وَأَقُولُ : أَيُّ
رَبِّ سَلِّ مُصْعَبًا فِيمَ قَتَلَنِي ، نَالَ : أَطْلِقُوهُ ، قَالَ : اجْعَلْ مَا وَهَبْتَ لِي مِنْ
حَيَاتِي فِي خَفْضٍ ، قَالَ : أَعْطُوهُ مِائَةَ أَلْفٍ ، قَالَ : بَابِي أَنْتَ وَأُمِّي ،
أَشْهَدُ اللَّهَ أَنْ لَا بَنَ قَيْسِ الرَّقِيَّاتِ مِنْهُمَا خَمْسِينَ أَلْفًا ، قَالَ : وَلِمَ ؟ قَالَ :
لِقَوْلِهِ فَيْكَ :

إِنَّمَا مُصْعَبُ شَهَابٌ مِنَ اللَّهِ تَجَنَّاتَ عَنْ وَجْهِهِ الظُّلُمَاءُ
مُلْكُهُ مُلْكُ رَحْمَةٍ لَيْسَ فِيهِ جَبَرَوْتُ يُخْشَى وَلَا كِبَرِيَاءُ
يَتَّقِي اللَّهَ فِي الْأُمُورِ وَقَدْ أَفْدَى لِمَحْ مَن كَانَ هَمَّهُ الْإِتْقَاءُ

(١) عَائِرٌ : كَقَوْلِهِمْ : قَصِيدَةُ عَائِرِهِ : أَيُّ سَائِرَةٍ ، وَيُقَالُ : دَاهِيَةٌ نَادٍ فَالْنَادُ :
الدَاهِيَةُ تَحُلُّ .

(٢) فَيَاخْبِرَا : يَرَوِي : ثَنَا خَبَرٌ ، وَثَنَى الْخَبَرَ : أَذَاعَهُ وَأَفْشَاهُ ، وَالْقَتَادُ : شَجَرٌ
صَلْبٌ لَهُ شَوْكٌ كَالْإِبْرِ

(٣) رَنْقَنَ الْمَاءُ : كَثَرَهُ ، وَالْمَشْرَبُ : مَوْضِعُ الشَّرْبِ ، وَالْمَاءُ

(٤) الْمَوْهِنُ : نَحْوُ مَنْ نَصَفَ اللَّيْلَ

نضحك مُصْعَب وقال : أرى فيك موضعاً للصديعة ، وأمره بلزومه
وأحسن إليه ، فلم يزل معه حتى قَتَلَ ...

وقال المتنبي :

فاغفرْ فِدَى لكَ واحِبُّنِي مِنْ بَعْدِهَا لَتُخَصَّنِي بِعَظِيَّةٍ مِنْهَا أَنَا (١)

المتوصل إلى العفو بالتثبت إلى حين التبين

قال تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بَدِيلٌ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا
قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ... « قال الإمام البيضاوي :
« فَتَبَيَّنُوا : فتعرفوا وتصفحوا قال : وتنكير الفاسق والنبأ للتعميم ؛ وتعليق
الامر بالتبين على فسق المخبر يقتضي جواز قبول خبر العدل ... وأن
تصيبوا : أي كراهة لإصابتكم ،

وغضب الرشيد على رجل ، فقال له جعفر بن يحيى : غَضِبْتَ اللَّهَ ، فَأَطَاعَ
اللَّهُ فِي غَضَبِكَ بِالْوُقُوفِ إِلَى حَالِ التَّبَيَّنِ كَمَا غَضِبْتَ لَهُ .. وقال الشعبي
لعبد الملك بن مروان : إنك على إيقاع ما لم تُوقِعْ أَقْدَرُ مِنْكَ عَلَى رَدِّ
مَا أَوْقَعْتَ ...

نهى العافى عن التريب

رَضِيَ بَعْضُ الْمُلُوكِ عَنْ رَجُلٍ ، ثُمَّ أَخَذَ يُؤَيِّجُهُ ، فَقَالَ : إِنْ رَأَيْتَ أَلَا

(١) فاغفر أى فاغفر لى ذنبى ، وفدى خبر عن محذوف أى أنا فدى لك ، وحياء :
أعطاء ، ومن بعدها : أى من بعد هذه المغفرة يقول : إذا عفوت عني وأعطيني
كنت قد خصصتني بعطاء أنا من جلته ، لأنه إذا عفا عنه فقد وهبه نفسه

تَخْذِشَ وَجْهَ رِضَاكَ بِالتَّثْرِيبِ فافعل ^(١)

وقالوا: ما عفا عن الذنب مَنْ قَرَّعَ به ...

وقال شاعرُ فَيْمَنِ يَعاقِبُ ثُمَّ يَعانِبُ :

إِذَا عُوِّبَ الْجَانِي عَلَى قَدَرِ جُرْمِهِ فَتَعْنِيفُهُ بَعْدَ الْعِقَابِ مِنَ الرَّبِّ

نهيهم عن الاعتذار وصعوبته

جاء في الحديث الشريف : إياك وكلُّ أمرٍ يُعْتَذَرُ منه :

وفي حديث آخر : إياكم والمعاذيرَ فإنها مفاجِرُ ...

« ومعنى الحديثين : إياكم أن تتكلموا أو تفعلوا ما تحتاجون إلى أن

تعتذروا عنه . »

وقال بعضهم : دُعِ ما يَسْبِقُ إلى القلوب إنكارُهُ ، وإن كان عندك

اعتذارُهُ فليستَ بمُوسِعٍ عُذْرًا كُلَّ مَنْ أَسْمَعْتَهُ نُكْرًا ...

وكتب الحِجَّاجُ إلى بعض من اعتذر إليه : إِنْ يَسْلَمَ اللَّهُ ذَلِكَ مِنْ

زَيْتِكَ تُكْفَ الْمَقَالُ .

وكتب كاتبٌ : لستُ أعتذر إليك من الذَّنْبِ إلا بالإقْلَاعِ عنه .

وكتب آخر : إِنْ تَرَكْتُ الْعِذَارَ فَلَمَّا قَالَ الشَّاعِرُ — هُوَ مُحَمَّدُ

الوَرَّاقُ — :

إِذَا كَانَ وَجْهُ الْعُذْرِ لَيْسَ بَيِّنٍ فَإِنْ أَطْرَاحَ الْعُذْرُ خَيْرٌ مِنَ الْعُذْرِ

وقالوا : الإغراقُ في العذرَ يَحَقِّقُ التَّهْمَةَ ، كما أن الإفراطَ في النصيحة

يوجب الظَّنَّ ...

(١) التثريب : تقيح الفعل والاستقصاء في اللوم

وكتب بعضهم: إن كان ما بَلَغَكَ حقاً فما تُغْنِي المَآذِيرَ ، وإن كان كَذِباً
فما تَضُرُّ الأَبَاطِيلَ .

وقال شاعر :

تَعَالَوْا نَصْطَلِحْ وَتَكُونُ مِنَّا مُعَاوِدَةً بِلَا عَدِّ الذُّنُوبِ
فَإِنْ أَحْبَبْتُمْ قَلْبَتُمْ وَقَلْنَا فَإِنَّ الْقَوْلَ أَشْفَى لِلْقُلُوبِ
وخطب الحجاج يوماً فأطال ، فقام رجل فقال : الصلاة ، الوقتُ
لا يَنْتَظِرُكَ ، والرَّبُّ لا يَعْذِرُكَ ، فأمر بِحَبْسِهِ ، فَأَتَاهُ قَوْمُهُ وَزَعَمُوا أَنَّهُ مَجْنُونٌ
فَإِنْ رَأَى أَنْ يُحَلَّى سَيْلَهُ ۙ فقال : إن أقر بالجنون خَلَيْتُهُ ، فَقِيلَ لَهُ ذَلِكَ ، فقال :
مَعَاذَ اللَّهِ ، لَا أَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ ابْتَلَانِي وَقَدْ عَاقَانِي ، فَبَاحَ ذَلِكَ الْحَجَّاجُ ، فَعَمَّا
عَنْهُ لَصِدْقُهُ ...

تأسف من يعاتب من غير ذنب

من أمثالهم : رَبُّهُ لَوْ لَمْ لَا ذَنْبَ لَهُ .

وقال البُخْتَرِيُّ :

إِذَا مَحَاسِنِي اللَّائِي أُدِلُّ بِهَا كَانَتْ ذُنُوبِي قُلُّ لِي كَيْفَ أَعْتَذِرُ

عبقرياتهم في ذمّ الحلم

ومدح العقاب

النهى عن الحلم إذا كان يسبب ذلاً أو ضرراً

قال النابغة الجعدي :

ولا خير في حلمٍ إذا لم تكن له بواذرُ تحمي صفوه أن يكدرًا^(١)
 ولا خير في جهلٍ إذا لم يكن له حلیمٌ إذا ما أورد الأمر أضدرًا
 يُروى أنه لما أنشد هذين البيتين سيدنا رسول الله قال صلوات الله
 عليه: أجدت لا يفضض الله فاك؛ فعاش مائة وثلثين سنة لم تنفض له
 ثلثة ... وأنشد المبرد:

أباحسن ما أقبح الجهل بالفتى وللحلم أحياناً من الجهل أقبح
 إذا كان حلم المرء عوناً عدوه عليه فإن الجهل أعنى وأروح
 « أقول: إن مرادهم بالجهل ههنا ما قابل الحلم »

وقال المتلي:

من الحلم أن تستعمل الجهل دونه إذا اتسعت في الحلم طرق المظالم

وقال :

إذا قيل : رفقاً قال : للحلم موضعٌ وحلمُ الفتى في غير موضعه جهلٌ
 وقال أبو يعقوب الخريبي :
 أرى الحلم في بعض المراتن ذلةً وفي بعضها عزاً يسود صاحبه

(١) البواذر جمع بادرة : ما يبدد من الرجل في حال الغضب من قول أو فعل

وقال الأحنف بن قيس : لا حِلْمَ لمن لا سَفِيهَ له . وقال : ما قَلَّ
سَفَهَاءُ قوم إلا ذلوا ...

وقال الجاحظ : من قَابَلَ الإِسَاءَةَ بالإِحْسَانِ فقد خالف الله في
تذْيِيرِهِ ، وظن أن رحمة الله دون رحمته ، فإن الله تعالى يقول : « من يَعْمَلْ
سَوْءًا يُجْزَ بِهِ » ، وقال : « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا »

وقال الشعبي : يُعْجِبُنِي الرَّجُلُ إِذَا سِيمَ هَوَانًا دَعَمَتْهُ الْأَنْفَقَةُ إِلَى الْمَكَافَأَةِ
وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ؛ وَرُفِعَ كَلَامُهُ إِلَى الْحِجَاجِ فَقَالَ : اللَّهُ دَرَهُ أَيُّ رَجُلٍ
بَيْنَ جَنْبَيْهِ ! وَتَمَثَّلَ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ :

وَلَا خَيْرَ فِي عَرِيضِ أَمْرِي لَا يَصُونُهُ وَلَا خَيْرَ فِي حِلْمِ أَمْرِي ذَلَّ جَانِبُهُ

دفع الجهل بالجهل

قال محمد بن وهيب :

لَنْ كُنْتُ مُتَحَاجًّا إِلَى الْحِلْمِ لَأَنِّي إِلَى الْجَهْلِ فِي بَعْضِ الْآحَايِينَ أُخَوِّجُ
وَلِي قَرَسٌ لِلْحِلْمِ بِالْحِلْمِ مُلْتَجِمٌ وَلِي قَرَسٌ لِلْجَهْلِ بِالْجَهْلِ مُسْرَجُ
فَمَنْ رَامَ تَقْوِيَّيَ فَإِنِّي مُقَوِّمٌ وَمَنْ رَامَ تَعْوِيَّيَ فَإِنِّي مُعَوِّجُ
وَمَا كُنْتُ أَرْضَى الْجَهْلَ خِدْنًا وَصَاحِبًا وَلَكِنِّي أَرْضَى بِهِ حِينَ أُخْرِجُ
وَإِنْ قَالَ بَعْضُ النَّاسِ : فِيهِ سَمَاجَةٌ قَدْ صَدَّقُوا ، وَالذَّلُّ بِالْحُرِّ أَسْمَجُ

وقال إياس بن قتادة - وهو بارع جدا - :

تُعَاقِبُ أَيْدِينَا وَيَحْلُمُ رَأْيُنَا وَتَنْسِمُ بِالْأَفْعَالِ لَا بِالتَّكَلَّمَ

وقال أوس بن حنينة - شاعر إسلامي تميمي وحنيناه أمه - :

إِذَا الْمَرْءُ أَوْلَاكَ الْهَوَانَ فَأَوَّلُهُ هَوَانًا وَإِنْ كَانَتْ قَرِيبًا أَوَّاصِرُهُ ^(١)

(١) بقول : إذا سامك إنسان ذلا وهوانا فأوله من الذل والهوان ما ترده به =

وإن أنت لم تقدر على أن تهينه فذره إلى اليوم الذي أنت قادرة^(١)
 وقارب إذا ما لم تكن لك حيلة وصمم إذا أيقنت أنك عاقرة^(٢)
 وقالوا: الشر لا يدفعه إلا الشر والحديد بالحديد يفلح^(٣) ...

من نهى عن الاغترار بحلمه

قال المتنبي :

وأطمع عامر البقيّا عليها ونزفها احتمالك والوقار^(٤)
 وقال آخر :

ولا يغررك طول الحلم منى فإبدأ تصادفني حلما
 وقال آخر :

احذر مغايظ أقوام ذوى أنف إن المغيظ جهول السيف بجنون

الحلم مغرٍ وضار مذل

قال الأحنف لرجل : ليت طول حلمنا عليك لا يدعو جهل غيرنا

إليك .

كيدك عنك وتغنى به نفسك وإن كان الذى سامك الحسف يمت إليك بسبب من
 القرابة وقوله قريبا خبر كان ولم يقل قربة على حد قوله تعالى : إن رحمة الله قريب
 من المحسنين

(١) قدره : أى قادر فيه

(٢) عاقره : قاتله

(٣) يفلح : يشق

(٤) منع عامر من الصرف لأنه أراد القبيلة ، والبقيا اسم من الإبقاء . يقول :
 وأطمعهم فى العصيان إبقاؤك عليهم وعدوك عن الإيقاع بهم ، وحملهم على الطيش
 حليمك عنهم وامتاعك من الانتقام منهم

وقيل للأخف : ما الحلم ؟ فقال : الرضا بالذلّ ...

وقالوا : الشهرة بالملاينة والخير شرٌّ من الاشتهار بالغِلظة والشرّ ، لأن
مَنْ عُرِفَ بالخير اجترأ عليه الناس ، وَمَنْ عُرِفَ بالشر هابهُ الناس
وتجنّبوه .

وقال معاوية : ما وَلَدَتْ قُرَشِيَّةٌ خيراً لِقُرَشِيٍّ مِنِّي ، فقال رجل كان
حاضراً : بل ما وَلَدَتْ شراً لِمَنْ مِنْكَ ، فقال : كيف ؟ قال : لأنك عَوَّدْتَهُمْ عادة
يطلبونها مِنْ بَعْدِكَ فلا يُجيبونهم إليها فيَحْمِلُون عليهم كَحْمَلِهِمْ عَلَيْكَ وَكَأَنِّي
بِهِمْ كَالزَّقاقِ المنفوخة على طُرقاتِ المدينة ...

نهيهم عن إكرام اللئام

قال المتنبي :

إذا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكَتْهُ وإن أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا
وَوَضَعَ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السِّيفِ بِالْعُلَا
مُضِرٌّ كَوْضَعِ السِّيفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى

وقبلهما :

وما قَتَلَ الْأَحْرَارَ كَالْعَفْوِ عَنْهُمْ وَمَنْ لَكَ بِالْحُرِّ الَّذِي يَحْفَظُ الْيَدَا
وقالوا : استعمالُ الحلم مع اللئيم أَضَرُّ مع استعمال الجهل مع الكريم .
وقال يزيد بن معاوية لأبيه : هل ذَنَمْتَ عاقبةَ حِلْمٍ ؟ قال : ما حِلْمْتُ عَنْ
لئيم وإن كان ولياً إلا أَعَقَبْتَنِي نَدَمًا ، ولا أَقْدَمْتُ على كريم وإن كان عدواً
إلا أَعَقَبْتَنِي أَسْفا ...

وقال الشاعر :

مَتَى تَضَعِ الْكِرَامَةَ فِي لُثْمِي فَإِنَّكَ قَدْ أَصَاتَ إِلَى الْكِرَامَةِ

الاستعانة بالجهل لدى الحاجة إليه

قال العباس بن الأحنف :

وَمَنْ يَحْكُمُ وَلَيْسَ لَهُ سَفِيهٌ يُلَاقِي الْمُعْضَلَاتِ مِنَ الرِّجَالِ
وقال غيره :

وَلَا يَلْبَثُ الْجُهَالُ أَنْ يَتَضَمَّوْا أَخَا الْحِلْمِ مَا لَمْ يَسْتَعِنَ بِجَهْلٍ
وَيَتَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جَالِسٌ إِذْ أَقْبَلَ أَعْرَابِيٌّ ،
فَاطْلَمَهُ ، فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ نَجَلَدَ بِهِ الْأَرْضَ ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ : لَيْسَ بِعَزِيزٍ مِنْ
لَيْسَ فِي قَوْمِهِ سَفِيهٌ ...

حث القادر على العقاب قبل فوته

قد أسلفنا كثيراً من عبرياتهم في هذا المعنى ، وقال أبو أذينة الغساني :
يُحَرِّضُ ابْنَ عَمِّهِ الْأَسْوَدَ بْنَ الْمُنْذِرِ عَلَى قَتْلِ جَمَاعَةٍ مِنْ مُلُوكِ الشَّامِ كَانَ قَدْ
أَسْرَمَ فَأَرَادَ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ :

مَا كُلُّ يَوْمٍ يَسْأَلُ الْمَرْءَ مَا طَلَبَا وَلَا يُسَوِّغُهُ الْمَقْدَارُ مَا وَهَبَا
وَأَنْصَفُ النَّاسِ فِي كُلِّ الْمَوَاطِنِ مَنْ
وَلَيْسَ يَظْلِمُهُمْ مَنْ بَاتَ يَضْرِبُهُمْ بِحَدِّ سَيْفٍ بِهِ مِنْ قَبْلِهِمْ ضَرْبَاتَا
فَالْعَفْوُ إِلَّا عَنِ الْأَعْدَاءِ مَكْرُمَةٌ مَنْ قَالَ غَيْرَ الَّذِي قَدْ قُلْتَهُ كَذِبًا
قَتَلْتَ عَمْرًا وَتَسْتَبْقِي يَزِيدَ لَقَدْ رَأَيْتَ رَأْيًا يَجُرُّ الْوَيْلَ وَالْحَرْبَا
لَا تَقْطَعَنَّ ذَنْبَ الْآفَقَى وَتَذَرُكَهَا إِنْ كُنْتَ شَهْمًا فَاتَّبِعْ رَأْيَهَا الذَّنْبُ^(١)

(١) الشهم : الذكي الغواد المتوقد النجد النافذ في الامور

هم جَرَدُوا السيفَ فَاجْعَلُهُمْ به جَزَرًا
هم أَوْقَدُوا النارَ فَاجْعَلُهُمْ لها حَطْبًا^(١)

ومنها :

لَا عَفْوَ عَنْ مِثْلِهِمْ فِي مِثْلِ مَا طَلَبُوا لَكِنَّ ذَلِكَ كَانَ الْهَلَكَ وَالْعَطْبَا
عَلَامَ تَقْبِيلُ مِنْهُمْ فِدْيَةً وَهُمْ لَا فِضْضَةً قَبِلُوا مِنَّا وَلَا ذَهَبًا
وكتب يحيى بن خالد البرمكى إلى الرشيد من الحبس : إن كان الذنب
خاصًّا . فلا تُعَمِّم بِالْعُقُوبَةِ ، فَعَبَى سَلَامَةُ الْبَرِيءِ وَمُودَّةُ الْوَلِيِّ ؛ فَكُتِبَ إِلَيْهِ :
قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ...

وقال بعضهم لأبي جعفر المنصور : لقد هجمت بالعقوبة حتى كأنك لم
تَسْمَعْ بِالْعَفْوِ ! فَقَالَ : لِأَنَّ بَنِي مَرْوَانَ لَمْ تَبَلَّ رِيئُهُمْ ، وَآلُ أَبِي طَالِبٍ لَمْ
تَعْمَدُ سِيوفُهُمْ ، وَنَحْنُ بَيْنَ أَقْوَامٍ قَدْ رَأَوْنَا بِالْأَمْسِ سُوقَةَ وَالْيَوْمَ خُلْفَاءَ ،
فَلَيْسَ تَتَمَهَّدُ الْهَيْبَةُ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا بِأَطْرَاحِ الْعَفْوِ وَاسْتِعْمَالِ الْعُقُوبَةِ ...

التبجح بقسوة القلب وقلة الرحمة

كَانَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الزِّيَّاتِ وَزِيرُ الْمَعْتَصِمِ وَالْوَائِقِي قَدْ انْتَحَذَ تَنْوِيرًا
مِنْ حَدِيدٍ ، وَأَطْرَافُ مَسَامِيرِهِ قَائِمَةٌ مِثْلَ رُؤُسِ الْمَسَالِ ، فِي أَيَّامِ زَارَتِهِ ،
وَكَانَ يَعْذَّبُ فِيهِ الْمَصَادِرِينَ وَأَرْبَابَ الدَّوَابِّ الْمَطْلُوبِينَ بِالْأَمْوَالِ ، فَيَجِدُونَ
لِذَلِكَ أَشَدَّ الْأَلَمِ ، وَلَمْ يَسْبِقْهُ أَحَدٌ إِلَى هَذَا النَّوعِ مِنَ الْعِقَابِ ، وَكَانَ إِذَا قَالَ
لَهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ : أَيُّهَا الْوَزِيرُ ، ارْحَمْنِي ، يَقُولُ لَهُ : الرَّحْمَةُ خَوَرٌ فِي الطَّبِيعَةِ ، فَلَمَّا

(١) اجعلهم جزرا : أى قطعاً ومن ذا قولهم : تركهم جزراً للسباع والطيور أى
قتلهم حتى صاروا قطعاً تأكلها السباع والطيور

اعتقله المتوكلُ أَمَرَ بِإِدْخَالِهِ فِي التَّثْوِرِ وَقِيدَهُ بِخَمْسَةِ عَشَرَ رِطْلًا مِنْ
الحديد، فقال: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، ارْحَمْنِي، فَقَالَ لَهُ: الرَّحْمَةُ خَوْرٌ فِي الطَّبِيعَةِ،
كَمَا كَانَ يَقُولُ لِلنَّاسِ . ثُمَّ يَتِمُّثَلُ :

❖ فَلَا تَجْزَعَنَّ مِنْ سِيرَةٍ أَنْتَ سِرَّتَهَا ^(١) ❖

وَوَقَّعَ مَرَّةً فِي قِصَّةِ رَجُلٍ : دَعْنِي مِنْ ذِكْرِ الرَّحْمَةِ وَالْإِشْفَاقِ ، فَمَا هُمَا
إِلَّا لِلنَّسْوَانِ وَالصَّيْدَانِ ...

وَقَالَ الْمُتَلَبِّي :

يَدْخُلُ صَبْرُ الْمَرْءِ فِي مَدْحِهِ وَيَدْخُلُ الْإِشْفَاقُ فِي ثَلْبِهِ ^(٢)

« الثَّلَبُ : الذَّمُّ وَالْعَابُ ، يَقُولُ : إِنَّ الصَّبْرَ مِمَّا يَمْدَحُ بِهِ الْإِنْسَانُ وَالْإِشْفَاقُ
مِمَّا يَعَابُ بِهِ »

أَخَذَ الْبَرِيءُ بِذَنْبِ الْجَانِي

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ،

وَقَالَ الْحَارِثُ بْنُ حَزَلَةَ الْيَشْكُرِيُّ مِنْ مَعْلَقَتِهِ الَّتِي ارْتَجَلَهَا بَيْنَ يَدَيْ عَمْرِو بْنِ هَنْدٍ
مَلِكِ الْحِيرَةِ فِي شَيْءٍ كَانَ بَيْنَ بَكْرِ وَتَغْلِبَ :

عَنَّا بِاطْلًا وَظُلْمًا كَمَا تُعَدُّ سِتْرٌ عَنْ حَجَرَةِ الرَّيِّضِ الظُّبَاءِ

« الْعَنَنْ : الْإِعْتِرَاضُ يَقَالُ : عَنْ يَعْينُ وَيَعُنُّ عَنَّا وَعُنُونًا وَاعْتَنَّ :

عَرَضَ وَاعْتَرَضَ ، وَالْأَسْمُ الْعَنَنْ ، وَالْحَجَرَةُ : النَّاحِيَةُ ، وَالْجَمْعُ : حَجَرٌ

(١) هذا مثل تقدم القول عليه في الجزء الأول صفحة ٢٣

(٢) من قصيدته التي يعزى بها أبا شجاع عضد الدولة بعمته وأولها :

آخَرُ مَا أَلَمَّ الْمَلِكُ مُعَزَّى بِهِ هَذَا الَّذِي أَثَّرَ فِي قَلْبِهِ

وحجرات مثل جَمْرَةٍ وَجَمْرٍ وَحَجَرَاتٍ ، والعتر ، ذبح العتيرة ، وهي ذبيحة كانت تذبح للأصنام في رجب ، والرييض : الغنم الرابضة في مَرَبِضِهَا ، وقد كان الرجل في الجاهلية ينذر : إن بَلَغَ اللهُ غَنَمَهُ مائة ذبح منها واحدة للأصنام ، ثم رُبَّمَا ضَمَّتْ نَفْسَهُ بِهَا فَأَخَذَ ظِيماً وَذَبَحَهُ مَكَانَ الشاة الواجبة عليه يقول : الزمتمونا ذنب غيرنا عَنَّا باطلا كما يُذبح الظبي لِحَقِّ وَجِب في الغنم ،

وقال النابغة الذبياني من أبياته العينية التي يعتذر فيها إلى النعمان بن المنذر
 أَتَانِي أَبِيتُ اللَّعْنَ أَنْكَ لُمْتَنِي وتلك التي تَسْتَكُّ مِنْهَا الْمَسَامِعُ
 مَقَالُهُ أَنْ قَدْ قُلْتَ : سَوْفَ أَنَا لَهُ وذلك من تَلْقَاءِ مِثْلِكَ رَانِعُ
 أَتُوْعِدُ عَبْدًا لَمْ يَخُنْكَ أَمَانَةٌ وتتركُ عَبْدًا ظَالِمًا وَهُوَ ظَالِمُ
 وَحَمَلْتَنِي ذَنْبَ امْرِئٍ وَتَرَكْتَهُ كَذَى الْعُرِّ يُكْوِي غَيْرُهُ وَهُوَ رَانِعُ
 وَذَلِكَ أَمْرٌ لَمْ أَكُنْ لِأَقُولُهُ ولو كُذِّبْتُ فِي سَاعِدَيَّ الْجَوَامِعُ
 أَتَاكَ بِقَوْلٍ لَهْلَهٍ الدَّسَخِ كَاذِبًا ولم يَأْتِ بِالْحَقِّ الَّذِي هُوَ نَاصِعُ
 لَعَمْرِي وَمَا عَمْرِي عَلَى بَهَيْنٍ لَقَدْ نَطَقْتُ بِطُلًّا عَلَى الْآقَارِغِ
 ومنها :

وَعِيدُ أَبِي قَابُوسَ فِي غَيْرِ كُنْهٍ أَتَانِي وَدُونِي رَاكِسٌ فَالضَّوَاجِعُ
 فَيْتُ كَأَنِّي سَاوَرْتَنِي ضَبِيلُهُ من الرَّقَشِ فِي أَنْيَابِهَا السُّمُّ نَاقِعُ
 يُسَهِّدُ فِي لَيْلِ التَّمَامِ سَلِيمُهَا لِحَلِيِّ النِّسَاءِ فِي يَدَيْهِ قَعَارِقُ
 تَنَادَرَهَا الرَّاقُونَ مِنْ سُوءِ سُمِّهَا تُطْلِقُهُ طَوْرًا وَطَوْرًا تُرَاجِعُ
 ومنها :

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيَّةً وهل يَأْتُمِّنُ ذُو إِمَّةٍ وَهُوَ طَانِعُ
 فَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ الْمُتَنَائِي عَنْكَ وَاسِعُ
 « وَإِلَيْكَ شَرَحَ هَذِهِ الْآيَاتِ : أَبِيتُ اللَّعْنَ : أَبِيتُ أَنْ تَأْتِيَنِي مِنْ

الأخلاق المذمومة ما تُلَعَنُ عليه ، وكانت هذه تحيةً لخم وجُذام ، وكانت منازلهم الحيرة وما يليها ، وكانت تحيةً ملوك غَسَّان : يا خَيْرَ الْفَتِيانِ ، وكانت منازلهم الشام : وَتَسْتَكُ : تَلَسَّدُ وَلَا تَسْمَعُ ؛ ورائع : مُفْرِعٌ وَخَوْفٌ . وإضافة مقالة إلى أن قد قلت من إضافة الأعم إلى الإخص ، وهى من الإضافة البيانية أى مقالة هى هذا القول . وظالِع : مائل . والعَر : قَرْحٌ يأخذ الإبل فى مَشَافِرها وأطرافها شديه بالقرع ، وربما تفرَّق فى مَشَافِرها مثل القُوباء ، يَسِيلُ منه ماءٌ أَصْفَرُ ، وكان الأعرابُ إذا رقع العُرُّ فى إبل أحدٍم اعترضوا بغيراً صحيحاً من تلك الإبل فكَوَّروا مِشْفَرَه وعُضْدَه وفَخْذَه يرون أنهم إذا فعلوا ذلك ذهب العُرُّ من إبلهم . وقيل : إنما كانوا يَكْوُونُ الصحيحَ لثلا يَتعلَقُ به الداءُ لا لِيَبْرَأَ السقيم . وكَبَلَتْ : قِيدَتْ . والجوامع : الأغلال ، جمع جامعة . وثوبٌ لَهْلَهُ النسيج وهلهل النسيج : إذا كان رقيقاً ، وناصع : بَيِّنٌ واضح . وقوله : لَعَمْرَى ... البيت فالعمر بفتح العين هو العمر بضمها لكن حُصَّ استعمال المفتوح فى الْقَسَم ، أى ما قَسَمْتُمُ بَعْمَرَى هين على حتى يتهمنى متهم بأنى أحلف كاذباً ، والبطل - بالضم : - هو الباطل والاقارع : هم بنو قُرَيْع بن عوف الذين كانوا سَعَوْا به إلى النعمان بن المنذر حتى تَغَيَّرَ له . وأبو قابوس : كنية النعمان بن المنذر . وقوله فى غير كنهه : أى جاءنى وعيدُه فى غير قدر الوعيد ، أى لم أكن بلغت ما يغضب على فيه . وراكس : وادٍ ، والضواجع جمع ضاجعة وهو مُنْحَنَى الوادى . وقوله : فَبْتُ ... ألبت فالمساورة : الموائمة ، والأفعى لا تَلْدَغُ إلا وَثْباً . وضئيلة : هى الحية الدقيقة القليلة اللحم . والرثش من الحيات : المتقطعة بسواد ، وهى من شِرَارِها ، والسهم مبتدأ وناقع خبر ويجوز فى غير الشعر ناقعاً على الحالية وفى أنيابها هو الخبر . وليل التمام بكسر التاء أطول ليلة فى السنة ، والسلام :

اللديغ ، وسمت العرب الملسوع سليماً تفاؤلاً . وقوله : لخلي النساء في يديه
قمايع : فقد كان الملدوغ يُجَمَلُ الحَلِي في يديه والجلال جل حتى لا ينأى فيدب
السُّم . فيه وتناذرهما الراقون يروى أيضاً : تناذرهما الحارون ، وهو جمع حار ،
وهو الذي يُمَسِكُ الحَيَاتِ ، أى أنذر بعضهم بعضاً بأنها لا تُجِيبُ راقياً
وقوله : تُطَلِّقُهُ : تخف عنه مرة وتشهد عليه مرة ، ومثل ذلك قول
الآخر :

تبيتُ الهمومُ الطارقاتُ يُعدّني كما تغتري الأوصابُ رأسَ المطلقِ
يقال : طلق السليم : رجعت إليه نفسه وسكن وجعه بعد العذاب^(١)
فهو مُطلق ، قال المبرد : وهذا هو الذي ذكره النابغة قال : وذلك أن
المنهوش إذا ألح الوجعُ به تارةً وأمسك عنه تارةً فقد قارب أن يؤيس
من بُرئه ، وإنما ذكر خوفه من النعمان وما يصتريه من لوعة في إثر
فترة والخائف لا ينأى إلا غراراً ، فلذلك شبه بالملدوغ المُسَهَّد . والإمة
لغة في الأمة : الدين والخير ثم شبهه في البيت الأخير في حال سخطه
بالليل الشديد الظلمة لا يُهتدى فيه »

ووقف رجلٌ على الحجاج فقال : أصلح الله الأمير ، جنى جان في
الحى فأخذتُ بحريرتِه وأسقط عطاءى . فقال الحجاج : أما سمعتَ قولَ
الشاعر :

جانيك من يحنى عليك وقد تُعدي الصحاحَ مباركُ الجُربِ^(٢)

(١) الامداد : احتياج وجع اللديغ . وأصله من العدد ، وقيل : عداد السليم : أن
تعد له سبعة أيام فإن مضت رجوا له البرء ومالم تمض قيل : هو في عداده
(٢) جانيك من يحنى عليك ، يريد : صاحب جنائيك من يحنى عليك فلا تأخذ

وَلَرَبِّ مَأْخُوذٌ بِذَنْبِ صَدِيقِهِ وَنَجَا الْمُقَارِفُ صَاحِبُ الذَّنْبِ ^(١)
 فَقَالَ : أَعَزَّ اللَّهُ الْأَمِيرَ ، كِتَابُ اللَّهِ أَوْلَى مَا أَتَّبِعُ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى :
 « مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعِنَا عِنْدَهُ » فَقَالَ الْحِجَاجُ : صَدَقْتَ
 يَا غِلَامَ ، رُدَّ اسْمُهُ وَأُثْبِتَ رَسْمُهُ ؛ وَأُسِّنَ لَهُ عَطَاءَهُ .

عذر من بدر منه سخط

قال البحتري :

إِذَا أُخْرِجْتَ ذَا كَرَمٍ تَخْطِي إِلَيْكَ بِيَغْضٍ أَخْلَاقَ اللِّثَامِ

طائفة من عبقرياتهم في العداوات

الاحتراس من غرس العداوة

جاء في كيلة ودمنة : لا ينبغي للعاقل أن تحمله ثقته بقوته على أن
 يَجْتَزِيَ العداوة ، كما لا يجب لصاحب الترياق أن يشرب السم انكالا
 على أدويته .

وقالوا : احذر مُعَادَاةَ الرجال فالناس رُجُلَان : عاقل فاحذر خَنَلَهُ ،
 وأحمق فاحذر خُمَقَهُ

بالعقوبة غيره ، قال أبو عبيد : قولهم : جانيك من يحنى عليك يضرب مشلا للرجل
 يعاقب بجناية ولا يؤخذ غيره بذنبه ، إنما يجنيك من جنايته راجعة إليك ، وذلك
 أن الإخوة يجنون على الرجل ، وقال غيره : معناه : الذي تلحقك منفعته هو الذي
 يحنك عاره ، يعنى : الذي يحنى لك الخير هو الذي يحنى عليك الشر ، فقولهم : جانيك
 معناه الجاني لك ، ومبارك الحرب : مواضع بروكها أى : مرايضها ، والجرب :
 المصابة بالحرب .

(١) قارف فلان الخطيئة : خالطها

وسيمر عليك كثير من عقرياتهم في هذا المعنى في كتاب الإخروانيات
والأصدقاء والصدقة .

نهيهم عن الاغترار بالوَدِّ

تُسَدِّطُنْ مَعَهُ الْعَدَاوَةَ

دخل سُدَيْفٌ مولى أبي العباس السفاح ^(١) على أبي العباس أمير المؤمنين
وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك وقد أدناه وأعطاه يده فقبلها ، فلما
رأى ذلك سُدَيْفٌ أقبل على أبي العباس وقال :

بَجَرْدِ السِّيفِ وَارْفَعِ الْعَفْوَ حَتَّى لَا تَرَى فَوْقَ ظَهْرِهَا أُمُومِيًّا
لَا يَغُرُّنَكَ مَا تَرَى مِنْ أَنَاسٍ إِنَّ تَحْتَ الضُّلُوعِ دَاءٌ دَوِيًّا
فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ سُلَيْمَانُ فَقَالَ : قَتَلْتَنِي أَيُّهَا الشَّيْخُ تَتَلَّكَ اللَّهُ وَقَامَ أَبُو الْعَبَّاسِ
فَدَخَلَ ، فَإِذَا الْمُنْدَبِلُ قَدْ أُلْقِيَ فِي عُنْقِي سُلَيْمَانُ ، ثُمَّ جَرَّ فَقَتَلَ .

ودخل شِبْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ مولى بنى هاشم على عبد الله بن علي ، وقد
أجلس ثمانين رجلاً من بنى أُمَيَّةَ على مُمِطِ الطَّعَامِ ، فثَلَّ بَيْنَ يَدَيْهِ وَقَالَ :
أَصْبَحَ الْمَلِكُ ثَابِتَ الْآسَاسِ بِالْبَهَائِلِ مِنْ بَنِي الْقَبَّاسِ ^(٢)

(١) ذكر أبو الفرج في الأغاني أنه مولى خزاعة وكان سبب ادعائه ولاء بنى
هاشم أنه تزوج مولاة لأبي لُحَبٍّ ويقال : بل أبوه هو الذي تزوجها فولدت له سُديفًا
وسُديف شاعر مقل من مخضرمى الدولتين شديد التعصب لبني هاشم مظهرًا لذلك
أيام بنى أُمَيَّة

(٢) الآساس واحدها أس ، وقد يقال للواحد : آساس وجمعه أسس ، والبهلول :
العزير الجامع لكل خير

طلبوا وتر هاشم فشَفَوْها بعد مِيلٍ مِنَ الزَّمانِ وَيَاسَ^(١)
 لَا تُقَيِّلَنَّ عبدَ شمسٍ عِثارًا واقْطَئَنَّ كُلَّ رَقْلَةٍ وَأَوَاسِي^(٢)
 ذُلُّها أَظْهَرَ التَّوَدُّدِ مِنْها وبها مِنْكُمْ كَخَزِ الْمَوَاسِي
 ولقد غاظني وغاز سَوائِي قُرْبُهُمْ مِنْ نَمَارِقٍ وَكَرَاسِي^(٣)
 أَنْزَلُوها بَحْيْثُ أَنْزَلَهَا اللهُ بدارِ الهوانِ والإِتعاسِ
 واذْكُرُوا مَصْرِعَ الحُسَيْنِ وَزَيْدًا وَقَتِيلًا بِجَانِبِ الْمِهْرَاسِ^(٤)
 والقَتِيلَ الَّذِي بَحْرَانٌ أَضْحَى ثَاوِبًا بَيْنَ غُرْبَةٍ وَتَنَاسِ^(٥)
 نِعَمَ شَيْبَلُ الْهَرَّاشِ مَوْلَاكَ شَيْبَلُ لَوْ نَجَا مِنْ حَبَائِلِ الْإِفْلَاسِ
 فَأَمَرَ بِهِمُ عَبْدُ اللهِ ، فَشَدَّ خُرا بِالْعَمَدِ ، وَبَسَطَتْ عَلَيْهِمُ الْبُسُطُ ، وَجَلَسَ
 عَلَيْهَا وَدَعَا بِالطَّعَامِ وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ أَنْيْنَ بَعْضِهِمْ حَتَّى مَاتُوا جَمِيعًا ، وَلَمَّا فَرَغَ مِنَ
 الْأَكْلِ قَالَ : مَا أَغْلَبَنِي أَكَلْتُ أَكْلَةً نَطَّ أَهْنًا وَلَا أَطِيبَ لِنَفْسِي مِنْهَا ! وَقَالَ

(١) يقال فيك ميل علينا بسكون الياء أما كل منتصب مثل الحائط فيقال : في
 الحائط ميل بالتحريك

(٢) الرقلة : النخلة الطويلة ويقال - إذا وصف الرجل بالطول - : كأنه رقلة ،
 والأوإسي : جمع آسية وهي : أصل البناء بمنزلة الأساس

(٣) النمارق جمع نمرقة وهي : الوسائد

(٤) زيد هو زيد بن علي بن الحسين ، خرج على هشام بن عبد الملك سنة ٢٢١ هـ
 وقتله يوسف بن عمر الثقفي أمير العراق لحشام وصلبه بالكناسة - محلة بالكوفة -
 عريانا هو وجماعة من أصحابه ، وقوله : وقتيلا بجانب المهراس فالمهراس : ماء بأحد
 ويريد : حمزة بن عبد المطلب ، وإنما نسب شبل قتل حمزة إلى بني أمية لأن أباسفيان
 ابن حرب كان قائد كفار قريش يوم أحد

(٥) القَتِيلَ الَّذِي بِحِزَانٍ هو إبراهيم بن محمد بن علي ، وهو الذي يقال له الإمام

لِشَبَلٍ : لولا أنك خلطت كلامك بالمسألة لا غنمْتُكَ جميعَ أموالهم ^(١) ،
ولَعَقَدْتُ لك على جميع موالى بنى هاشم .

وقال المتنبي :

فلا تَغُرُّكَ أَلْسِنَةُ مَوَالٍ تُقَلِّبُهُنَّ أَفْئِدَةُ أَعَادِي ^(٢)

وكنْ كَالْمَوْتِ لَا يَرَى لِبَاكِ بَكَى مِنْهُ وَيُرَوِّى وَهُوَ صَادٍ ^(٣)

فإن الجرحَ يَنْفِرُ بعد حينٍ إذا كانَ البناءُ على فسادٍ

» قوله : فإن الجرح ... البيت : مثله قول البُحْتَرِيِّ :

إذا ما الجُرحُ رُمَّ على فسادٍ تَبَيَّنَ فِيهِ تَفْرِيطُ الطَّيِّبِ

وفى كَلِيلَةِ وَدَمَنَةِ : لَا يَغُرُّ الْعَاقِلُ سَكُونُ الْحَفْدِ فِي الْقَلْبِ مَا لَمْ يَجِدْ مُحَرَّكَ

فإنه كالجمر المكنون ما لم يجد حَطَبًا ؛ وَالْعِدَاوَةُ إِذَا وَجَدَتْ فُرْصَةً اشْتَعَلَتْ

فلا يُطْفِئُهَا شَيْءٌ دُونَ النَّفْسِ ...

(١) بالمسألة يريد : سؤاله إذا قال :

نعم شبل الهراش مولاك شبل لو نجنا من حبال الإفلاس

(٢) موال : جمع مولى وهو الولي والصديق يقول : لا تغتر بما تراه من إظهار

ودهم فإن تلك الألسنة الموالية نقابها أفئدة معادية

(٣) لا يَرَى : لا يرحم . وَالصَّادِي : العطشان ، يقول : كن قاسياً عليهم كالموت

لا يرحم الباكي من خوفه ، ويروى وهو صاد كأنه اطلبه الشرب بعد الرى صاد ،
أى اطلب النفوس ، ومعنى يروى : ينال ما لو أدركه لروى

• كالموت ليس له رى ولا شبع •

(٤) نفر الجرح : هاج وورم بعد البرء ، وقوله : إذا كان البناء على فساد أى

إذا ثبت اللحم على ظاهره وله غور فاسد ، يعنى . أنهم يطوون المداوة فى أنفسهم إلى

أن تمسكهم الفرصة .

نهيهم عن السكون إلى من تقدم

منك إليه إساءة

يُحكي أن رجلاً كان له عبدٌ سِنْدِيٌّ ، فَعَرَّضَ لَامْرَأَتِهِ ، فَعَلِمَ الرَّجُلُ بِذَلِكَ ، فَأَخَذَهُ وَجَبَهُ ، ثُمَّ تَحَوَّبَ لَذَلِكَ ، فداواه ، فلما برأ اتَّفَقَ أَنْ غَابَ الرَّجُلُ يَوْمًا ، فَعَمَدَ السِّنْدِيُّ الْمَجْبُوبُ إِلَى ابْنَيْنِ كَانَا لِسَيِّدِهِ فَأَخَذَهُمَا وَصَعَدَ السُّورَ ، فَلَمَّا بَصَرَ بِالرَّجُلِ قَالَ : وَاللَّهِ إِنْ لَمْ تَجِبْ نَفْسَكَ كَمَا جَبَبْتَنِي لَأَقْدِفَنَّهَما مِنَ السُّورِ لِيَمُوتَا ، وَإِنْ نَفْسِي لَأَهْوَنُ مِنْ شُرْبَةِ مَاءٍ ، فَلَمَّا رَأَى الرَّجُلُ مِنْهُ الْجِدَّةَ جَبَّ نَفْسَهُ ، قَرَمَى الْعَبْدُ بِالْابْنَيْنِ مِنَ السُّورِ وَقَالَ : إِنْ جَبَّكَ نَفْسَكَ قِصَاصٌ لِمَا جَبَبْتَنِي ، وَقَتَلَ ابْنُكَ زِيَادَةً أُعْطِشْتُكُمَا ...

وتزعمُ العرب : أَنَّ أَخَوَيْنِ كَانَا فِي إِبِلٍ لَهَا ، فَأَجْدَبَتْ بِلَادُهُمَا ، وَكَانَ بِالْقُرْبِ مِنْهُمَا وَادٍ خَصِيبٌ وَفِيهِ حَيَّةٌ تَحْمِيهِ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِلْآخَرِ : يَا فُلَانُ ، لَوْ أَنِّي أَتَيْتُ هَذَا الْوَادِيَ الْمُكَلَّيَّ فَرَعَيْتُ فِيهِ إِبِلِي وَأَصْلَحْتُهَا ؟ فَقَالَ لَهُ أَخُوهُ : إِنْ أَخَافُ عَلَيْكَ الْحَيَّةَ ، أَلَا تَرَى أَنَّ أَحَدًا لَا يَهْبِطُ ذَلِكَ الْوَادِيَ إِلَّا أَهْلَكَتَهُ ، قَالَ : فَوَاللَّهِ لَا قَتْلَنَ ، فَهَبَّطَ الْوَادِيَ وَرَعَى بِهِ إِبِلَهُ زَمَانًا ، ثُمَّ إِنْ الْحَيَّةَ تَهَشَّتْهُ فَقَتَلَتْهُ ، فَقَالَ أَخُوهُ : وَاللَّهِ ، مَا فِي الْحَيَاةِ بَعْدَ أَخِي خَيْرٍ ، فَلَا طُلُبْنَ الْحَيَّةَ وَلَا قَتْلَهَا ، أَوْ لَا تَبْعَنُ أَخِي ، فَهَبَّطَ ذَلِكَ الْوَادِيَ وَطَلَبَ الْحَيَّةَ لِيَقْتُلَهَا طَلَبًا بَنَارَهُ ، فَقَالَتْ لَهُ الْحَيَّةُ : فَهَلْ لَكَ فِي الصُّلْحِ ، فَأَدْعُكَ بِهَذَا الْوَادِيَ تَكُونُ فِيهِ وَأَعْطِيكَ كُلَّ يَوْمٍ دِينَارًا مَا بَقِيَتْ ؟ قَالَ : أَوْ فَاعِلَةٌ أَنْتِ ؟ قَالَتْ : نَعَمْ ، قَالَ : إِنْی أَفْعَلُ ، فَخَلَفَ لَهَا وَأَعْطَاهَا الْمَوَاتِيقَ : لَا يَضُرُّهَا ، وَجَمَلْتَ تَعْطِيهِ كُلَّ يَوْمٍ دِينَارًا ؛ فَكُثُرَ مَالُهُ حَتَّى صَارَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ حَالًا ؛ ثُمَّ إِذْ ذَكَرَ أَخَاهُ فَقَالَ : كَيْفَ يَنْفَعُنِي الْعَيْشُ وَأَنَا

أَنْظُرْ إِلَى قَاتِلِ أَخِي ! فَعَمَدٌ إِلَى فَأْسِهِ فَأَخَذَهَا ؛ ثُمَّ رَصَدَ لَهَا ، حَتَّى خَرَجَتْ ،
فَضْرَبَهَا ضَرْبَةً شَجَّتْ رَأْسَهَا ، فَلَمَّا رَأَتْ مَا فَعَلَ قَطَعَتْ عَنْهُ الدِّينَارَ ، خَافَ
الرَّجُلُ شَرَّهَا وَتَدِيمَ ، فَقَالَ لَهَا : هَلْ لَكَ أَنْ تَتَوَاتَّقَ وَتَعُودَ إِلَى مَا كُنَّا عَلَيْهِ ؟
فَقَالَتْ : كَيْفَ أَعَاودُكَ وَهَذَا أَثَرُ فَأْسِكَ وَهَذَا قَبْرُ أَخِيكَ ! وَقَدْ ذَكَرَ هَذِهِ
الْحِكَايَةَ النَّابِغَةُ الذِّيَّانِي فِي آيَاتٍ لَهُ لَا دَاعِيَ إِلَى إِيْرَادِهَا وَقَدْ جَاءَ فِي
خَتَامِهَا هَذَا الْبَيْتُ :

أَبَى لَكَ قَبْرُ لَا يَزَالُ مُوَاجِهِي وَضَرْبَةُ فَأْسٍ فَوْقَ رَأْسِي فَاعْرِهْ

نهيهم عن احتقار العدو

قال ابنُ بُنَاتَةَ السَّعْدِيُّ :

وإِذَا عَجَزْتَ عَنِ الْعَدُوِّ فَدَارِهِ وَامْزُجْ لَهُ إِنْ الْمِزَاجَ وَفَاقُ
فَالنَّارُ بِالمَاءِ الَّذِي هُوَ ضِدُّهَا تُعْطَى التَّضَاجُ وَطَبْعُهَا الْإِحْرَاقُ
وَقَالُوا : لَا يُتَقَى الْعَدُوُّ الْقَوِيُّ بِمِثْلِ الْخُضُوعِ وَاللِّينِ ، وَمِثْلُ ذَلِكَ مِثْلُ
الرَّيْحِ الْعَاصِفِ تَقْلَعُ الْأَشْجَارَ الْعِظَامَ ، لَتَأْيِيهَا عَلَيْهَا ، وَيَنْسَلِمُ مِنْهَا النَّبَاتُ
الَّذِينَ لَتَمَأْيِلُهُ مَعَهَا .

وَمِنْ أَمْثَالِهِمْ : إِذَا عَزَّ أَخُوكَ فَهُنَّ

وَقَالَ الْإِمَامُ ثَعْلَبُ : هَذَا مِثْلُ وَمَعْنَاهُ : إِذَا تَعَذَّرَ أَخُوكَ شَاخِحًا عَلَيْكَ
فَالنَّزِيمُ لَهُ الْهُوَانُ ؛ وَعِبَارَةُ الْأَزْهَرِيِّ : الْمَعْنَى : إِذَا غَلَبَكَ وَقَهْرَكَ وَلَمْ تَقَارِمْهُ
فَتَوَاضَعَ لَهُ ، فَإِنْ اضْطَرَّ بِكَ عَلَيْهِ يَزِيدُكَ ذُلًّا وَخَبَالًا ؛ وَقَالَ الرَّجَاجُ : الَّذِي
قَالَهُ ثَعْلَبُ خَطَأً ، وَإِنَّمَا الْكَلَامُ . إِذَا عَزَّ أَخُوكَ فَهُنَّ - بِكسر الهاء - وَمَعْنَاهُ إِذَا
اشْتَدَّ عَلَيْكَ فَهُنَّ لَهْ وَدَارِهِ ، وَهَذَا مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ ، كَمَا رَوَى عَنْ

معاوية رضى الله عنه أنه قال : لو أن بينى وبين الناس شجرةً يمدّونها وأمدّها ما انقطعت ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال : كنت إذا أرخّوها مَدَدْتُ ، وإذا مَدَّوها أَرَخَّيْتُ ، فالصحيح فى هذا المثل ، فهنّ بالكسر ، من قولهم : هان يهنّ : إذا صار هيناً لينا ، كقوله :

هَيْنُونَ لَيْنُونَ أَيْسَارُ ذَوُو كَرَمٍ سُؤسُ مَكْرُمَةِ أَبْنَاءِ أَطْهَارٍ
وإذا قالوا : فهنّ فهو من الهوان ، والعرب لا تأمر بذلك ، لأنهم أعزّة
أَبَاؤُنَ لِلضَّيْمِ . وقال ابنُ سيده . وعندى أن الذى قاله ثعلب صحيح لقول
ابن الأحرر - شاعر إسلامي - :

وقارعة من الأيام لولا سيّلهم لزاحت عنك جينا
دببت لها الضراء وقلت : أبقي إذا عزّ ابن عمك أن تهونا^(١)

المتبجح بإظهار اللبان وإضممار العداوة

قال المتنبي :

وجاهل مدّه فى جهله ضحكى حتى أتته يدُ فَرَّاسةٍ وفمُ
إذا نظرت نيوبَ اللَّيْثِ بارِزةً فلا تظننَّ أنَّ اللَّيْثَ مُبْتَسِمُ
« مدّه : أمهله وطوّل له ، وأصل الفرس : دق العنق يقول : ربّ جاهل
خدعته بجاملتى وتركه فى خُمقه ضحكى منه حتى افترسته وبطشت به بعد زمان
يعنى أنه يُغضى عن الجاهل ويَحْلُم إلى أن يُجَازِيَه ويعصِف به ، ثم قال فى

(١) الضراء فى الاصل : الشجر المذلف فى الوادى يقال : فلان يمشى الضراء :
إذا مشى مستخفياً فيما يوارى من الشجر ، والضراء أيضاً : المشى فيما يوارى من
تكيده وتختله يقال : فلان لا يدب له الضراء ، يقال للرجل - إذا ختل صاحبه
ومكر به : هو يدب له الضراء

البيت التالى : إذا كشر الأسد عن نابه فليس ذلك تبسماً ، بل قصداً للاقتراس ، يريد : أنه وإن أبدى بشره ، وتبسّمه للجاهل فليس ذلك رضى عنه ، وفى مثل هذا يقول أبو تمام :

قَدْ قَلَصْتُ شَفْتَاهُ مِنْ حَفِيفَتِهِ فَعَجِلَ مِنْ شِدَّةِ التَّعْيِيسِ مُبْتَسِمًا

العدو يكاشرك إذا حضرك

قال المثلثب العبدى - شاعر جاهلى - :

إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْ يَكْشِرُ لِي حِينَ أَلْقَاهُ وَإِنْ غَبْتُ شَتْمُ
وقال ابن الرومى :

يُدِيحُ لِي صَفْحَةَ السَّلَامَةِ وَالسَّلَامِ وَيُخْفِي فِي قَلْبِهِ مَرَضًا
وقال المتنبي :

أَبْدُو فَيَسْجُدُ مِنَ السُّوءِ يَذْكُرُنِي وَلَا أَعَاتِبُهُ صَفْحًا وَإِهْوَانًا ^(١)
وبما يصح أن يذكر هنا ما روى : أنه قيل لأعرابي : كيف فلان فيكم ؟
فقال : إذا حَضَرَ هِبْنَاهُ ، وَإِنْ غَابَ اغْتَبْنَاهُ ، قال : ذاك هو السيد فيكم ...

من نظره ينبي عن عداوته

وتحذيرهم من العداوة المستورة

قال شاعر :

سُتُورُ الضَّمَائِرِ مَهْتَوِكَةٌ إِذَا مَا تَلَا حَظَّتِ الْأَعْيُنُ
وقال زهير بن أبى سُلَيمى :

وَمَا يَكُ فِي عَدُوٍّ أَوْ صَدِيقٍ تُخْبِرُكَ الْعَيُونُ عَنِ الْقُلُوبِ

(١) يقول : إذا ظهرت لى يذكرنى بالسوء فى غيبتى عظمى وخضع لى وأنا
أعرض عن عتابه إعراساً عنه واحتقاراً له لأنه لا يقدر أن ينظر إلى فى حضرتى

وقال عُمَيْرُ بْنُ حُبَابٍ :

أَلَا رَبُّ مَنْ تَدْعُو صَدِيقًا وَلَوْ تَرَى
يُسْرَكَ بِأَدِيهِ وَتَحْتَ أَدِيمِهِ
تُبِينُ لَكَ الْعَيْنَانِ مَا هُوَ كَأْتَمُّ
وَفِينَا - وَإِنْ قِيلَ اصْطَلَحْنَا - تَضَاغُنُّ

مَقَالَتَهُ فِي الْغَيْبِ سَاءَ مَا يَفْرَى^(١)
نَمِيَّةٌ شَرٌّ تَبْرَى تَصْبِ الظُّهْرِ^(٢)
مِنَ الضُّغْنِ وَالشَّحْنَاءِ بِالنَّظَرِ الشَّرِّ
كَأَنَّ طَرَأُوبَارُ الْجِرَابِ عَلَى النَّشْرِ^(٣)

وقال أبو نواس :

كَمَنَّ الشَّنَانُ فِيهِ لَنَا
كَكُمُونَ النَّارِ فِي حَجَرِهِ^(٤)

وقبله :

وَابْنِ عَمٍّ لَا يُكَاشِفُنَا
وَهِيَ الْآيَاتُ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا :

قَدْ لَبِسْنَاهُ عَلَى غَمْرِهِ^(٥)

لَا أَذُودُ الطَّيْرَ عَنْ شَجَرٍ
وقال زُفَرُ بْنُ الْحَارِثِ :

قَدْ بَلَوْتُ الْمُرَّ مِنْ ثَمَرِهِ

وقد يَنْبُتُ الْمُرَّ عَلَى دِمَنِ الثَّرَى وَتَبَقَى حَزَازَاتُ النُّفُوسِ كَاهِيَا^(٦)

(١) يفرى : يختلق ويكذب ، من الافتراء

(٢) تبرى : تبرى وتحت

(٣) جاء في اللسان : النشر : الكلا يهيج أعلاه وأسفله ندى أخضر تدفى منه الإبل إذا رعته ، واستشهد بالبيت ثم قال : يقول : ظاهرنا في الصلح حسن في مرآة العين وباطننا فاسد كما تحسن أوبار الجرب عن أكل النثر وتحتها داء منه في أجوافها . وقال أبو منصور الأزهري : وقيل النشر في هذا البيت نشر الجرب بعد ذهابه ونبات الوبر عليه حتى يخفى ، قال : وهذا هو الصواب

(٤) الشنان : البغض . يقول : البغض قد كن فيه واستتر مثل كمون النار في الحجر الذي يوريه ويقدحه

(٥) لا يكاشفنا : لا يظهرنا على العداوة ، ولبسناه على غمره : عاشرناه على ما به من حقد (٦) الدمن جمع دمنة والمراد : الموضع الذي يتلبد فيه السارقين وأبعاد الغنم والبقر ، وفي الحديث : إياكم وخضراء الدمن ، قيل : وما ذاك . قال صلى الله

وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر الفتن فقال : يكون بعدها هُدْنَةٌ على دَخْنٍ وجماعةٌ على أَقْدَاءٍ « وأصل الهدنة : السكون بعد الهيج ، ودمته قيل للصلح بعد القتال بين كل متحاربين : هُدْنَةٌ ، لأنها مُلَايِنَةٌ وفترة سكون بين المتقاتلين ، والدخن : السكْدُورَةُ إلى السواد كالمدخان . والمراد سكون على غل ،

ثبات العداوة الذاتية

قالوا في ذلك : الوُدُّ والعداوة يُتَوَارَثَانِ .

وفي كَلِمَةٍ ودمنة : ليس بين العداوة الجوهرية صلحٌ وإن اجْتُهِدَ ، فالسُّلْمُ وإن أُطِيلَ لِسَخَانِهِ فليس يَمْتَنِعُ من إطفاءِ النار إذا صَبَّ عليها . ويُحْكى : أَنَّ أعرابياً أخذ جَرَوْ ذئب ، فرباه بِلَبَنٍ شاةٍ عنده ، وقال : إذا ربيته مع الشاة أنس بها ، فيذُبُّ عنها ويكونُ أشدَّ من الكلب ، ولا يعرف طبع أجناسه ، فلما قوى وَثَبَ على شاةٍ فافترسها ، فقال الأعرابي :

أَكَلْتُ شَوْهِي وَنَشَأْتُ فِينَا فَا أَدْرَاكَ أَنَّ أَبَاكَ ذِيبُ

حمد المداجاة طلباً للفرصة

قال علي كرم الله وجهه : أنسى الأشياء لعدوك أن لا تُغلبه أنك اتخذته عدواً .

وقال القاضي التنوخي :

أَلْقَى الْعَدُوَّ بِوَجْهِهِ لَا قُطُوبَ بِهِ يَكَادُ يَقْطُرُ مِنْ مَاءِ الْبَشَاشَاتِ
فَأَحْزَمُ النَّاسِ مَنْ يَلْقَى أَعَادِيَهُ فِي جَسْمٍ حَقْدٍ وَثُوبٍ مِنْ مَوَدَّاتِ

عليه وسلم : المرأة الحسناء في المنبت السوء ، شبه المرأة بما ينبت في الدمن من الكلال . يرى له غضارة وهو وبني الموعى من بني الأصل

الرَّقِيْ يُبْنِي وَيُخَيِّرُ الْقَوْلِ أَصْدَقُهُ وَكَثْرَةُ الْمَرْحِ وَفَتْحُ الْعِدَاوَاتِ

المسرة بوقوع العداء بين أعدائك

في كيلة ودمنة : من حق العاقل أن يرى معاداة بعض عدوه لبعض ظفراً حسناً ، ففي اشتغال بعضهم ببعض خلاصه منهم .

دنى يعاديك بلا سبب

قال المتنبي :

وَأَتَعَبُ مَنْ نَادَاكَ مَنْ لَا تَجِيئُهُ وَأَغِيظُ مَنْ عَادَاكَ مَنْ لَا تُشَاكِلُ
 يقول : أتعب من ناداك من ناداك فلم تجبه ، لأنك لا تشفيه بالجواب ،
 فيجهد في النداء ، كما أن أغيط الأعداء لك من عاداك وهو دونك ، لأنك
 تترفع عن معارضته فلا تشتني منه ،
 وقال شاعر :

يُسْطُو بِلا سببٍ وتلك طبيعة الكلب العقور

تأسف من يعاديه لئيم أو دنى

قال المتنبي في عذر من يخاصم دينياً ويدافعه :

إِذَا أَتَتْ الْإِسَاءَةُ مِنْ لَيْئِمٍ وَلَمْ أَلَمْ الْمُسِيءَ فَنِ الْوَمِ

وقال علي بن الجهم في تأسف من يعاديه لئيم :

بَلَاءٌ لَيْسَ يُشَبَّهُ بِبَلَاءِ عِدَاوَةِ غَيْرِ ذِي حَسَبٍ وَدِينٍ

يُبِيحُكَ مِنْهُ عِرْضاً لَمْ يَصْنَهُ وَيَرْتَعُ مِنْكَ فِي عِرْضٍ مَصُونٍ

ويحكي : أن خنزيراً بعث إلى الأسد وقال : فانتني ، فقال الأسد :

أَسْتَـبْكَفَى ، وإن أنا قَتَلْتُكَ لَمْ يَكُنْ لِي ذَلِكُ غَفْرًا ، وإن قَتَلْتَنِي لَحَقَنِي عَارٌ عَظِيمٌ ، فَقَالَ الْخَزِيرُ : لَا تُخْبِرَنَّ السَّبَاعَ بِذُكُوكَ ، فَقَالَ الْأَسَدُ : اِحْتِمَالُ الْعَارِ فِي ذَلِكَ أَيْسَرُ مِنَ التَّلَطُّحِ بِدَمِكَ .

حشهم على العداوة بالقول لا بالفعل

قالوا : غَضِبُ الْجَاهِلِ فِي قَوْلِهِ ، وَغَضَبُ الْعَاقِلِ فِي فِعْلِهِ
وقالوا : « وَنَشْتُمُ بِالْأَفْعَالِ لَا بِالتَّكَلُّمِ » وقد تقدم

طائفة من عبقرياتهم

فِي النَّاسِ وَمَا جُبِلَ عَلَيْهِ السَّوَادُ الْأَعْظَمُ مِنَ الْحَقْدِ وَالْحَسَدِ
وَسُوءِ الظَّنِّ وَالشَّمَاتَةِ وَمَا جَرَى هَذَا الْمَجْرَى
وَلِمُنَاسَبَةِ عِبْقَرِيَّاتِهِمْ فِي الْعِدَاوَاتِ نُورِدَ عَلَيْكَ هَاهُنَا صَدْرًا مِنْ عِبْقَرِيَّاتِهِمْ
فِي النَّاسِ وَمَا جُبِلَ عَلَيْهِ السَّوَادُ الْأَعْظَمُ مِنَ الْحَقْدِ وَالْحَسَدِ وَسُوءِ الظَّنِّ
وَالشَّمَاتَةِ وَالْمُزَاحِ وَمَا جَرَى هَذَا الْمَجْرَى

الناس

لا يزال الناس بخير ما تباينوا

مَنْ أَرُوْعَ مَا قِيلَ فِي النَّاسِ وَحِكْمَةُ تَبَايُنِهِمْ وَاخْتِلَافُهُمْ قَوْلَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا تَبَايَنُوا ؛ فَإِذَا تَسَاوَوْا هَلَكُوا » ، قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ فِي الْهَيْئَةِ مَعْنَاهُ : أَنَّهُمْ إِنَّمَا يَتَسَاوَوْنَ إِذَا دَرَضُوا بِالنَّقْصِ وَتَرَكَوا التَّنَافُسَ فِي طَلَبِ الْفَضَائِلِ وَدَرَكِ الْمَعَالِي ، وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ خَاصًا فِي الْجَهْلِ ، وَذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ لَا يَتَسَاوَوْنَ فِي الْعِلْمِ وَإِنَّمَا يَتَسَاوَوْنَ إِذَا كَانُوا كُلُّهُمْ جُهَالًا ، وَقِيلَ :

أراد بالتساوى التحزب والتفرق وأن لا يجتمعوا على إمام ويدعى كل واحد الحق لنفسه فينفرد برأيه . . . وقال أبو عبيد : أَحْسَبُ قَوْلَهُ : فإذا تساؤوا هلكوا ، لأن الغالب على الناس الشر ، وإنما يكون الخبر في النادر من الرجال ، لعزته ، فإذا كان التساوى فإنما هو في السوء . . . وقال شاعر :

النَّاسُ أَخْيَافٌ وَشَتَّى فِي الشَّيْمِ وَكُلُّهُمْ بِجَمْعِهِمْ بَيْتُ الْآدَمِ

« أخياف : ضروب مختلفة الأخلاق والأشكال . والآدم : قيل : أراد آدم ، وقيل الأرض ، ولعله يشير بهذا إلى ما جاء في الأثر : كلكم لآدم وآدم من تراب ؛ وقال مسلم بن الوليد :

النَّاسُ كُلُّهُمْ لِيَضْنٍ وَاحِدٍ ثُمَّ اخْتَلَفَ طَبَائِعُ فِي أَنْفُسِ
« الضنء : الأصل » وقالوا : الناس في اختلافهم في خلقهم كاختلافهم في خلقهم . وقال خالد بن صفوان : الناس أخياف ، منهم من هو كالكلب ، لا تراه الدهر إلا هراً را على الناس ، ومنهم كالخنزير ، لا تراه الدهر إلا قذراً ، ومنهم كالقريد ، يضحك من نفسه . وقال بعضهم : الناس أخياف : علق مَضْنَةً لَا يُبَاعُ ، وعلق مَظْنَةً لَا يُبْتَاعُ ، وقال أبو العتاهية :

مَنْ لَكَ بِالْمَحْضِ وَلَيْسَ مَحْضٌ يَخْبَثُ بَعْضٌ وَيَطِيبُ بَعْضٌ
« وقد بما قلت فيما قلت ، في كتابي «الفردوس» : ولم لا يكون هذا الاختلاف في الحياة الدنيا بين الأفراد والجماعات إنما يُقصدُ به إلى معنى جميل مأمونه بُدِّا ألسنا قد نُنشئنا كأنغام آلات الموسيقى ، هي وإن اختلفت غير أن اجتماعها يُؤلف من هذا الاختلاف نغما موسيقياً متجانساً بديعاً يُطرب السمع ويملك على المرء مشاعره . ولعل الأصل في هذا كله قوله عز وجل : قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا . . . وقوله :

ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ...

وجدت الناس أخبر ثقله

ومن أبدع ما قيل في ذم الناس ما جاء في حديث أبي الدرداء: وجدتُ الناسَ أَخْبَرَ ثَقْلَهُ .. قال ابن الأثير في النهاية: القَلْبُ: البغض، يقال: قَلَاهُ يُقْلِيهِ قَلًى وَقَلًى: إذا أبغضه، قال الجوهري: إذا فتحت مددت، ويقلاه: لغة طي. يقول جرب الناس فإنك إذا جربتهم قَلَيْتَهُمْ وتركتهُم، لما يظهر لك من بواطن سرائرهم. لَفْظُهُ لَفْظُ الْأُورِ وممناه الخبر، أى من جربهم أبغضهم وتركهم: والهاء في ثقله: للسكت. ومعنى نظم الحديث: وجدت الناس مقولا فيهم هذا القول.

الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة

وجاء في الحديث الشريف: الناسُ كإبلٍ مائةٍ لا تجدُ فيها راحلةً
يعنى أن المَرْضَىَّ المُنْتَخَبَ من الناس في عِزَّةٍ وُجُودِهِ كالنَجِيبِ من الإبلِ القويِّ على الأحمال والأسفار الذى لا يوجد فى كثير من الإبل. وقال الإمامُ الأزهريُّ: الذى عندى فى هذا الحديث: أَنَّ الله تعالى ذم الدنيا وحذَّرَ العبادَ سوءَ مَغْبَتِهَا وضربَ لهم فيها الأمثالَ لِيَتَعَبَّرُوا، ويحذِّروا، وكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يحذِّرُهم كما حذَّرَهم الله، فَرَغِبَ بعضُ أصحابه بعده فيها وتنافسوا عليها حتى كان الزهدُ فى النادرِ القليلِ منهم فقال: تجدون الناسَ بعدى كإبلٍ مائةٍ ليس فيها راحلةٌ، أى أَنَّ الكَامِلَ فى الزهد فى الدنيا والرغبة فى الآخرة قليل كقلة الراحلة فى الإبل، والراحلة هي

البعيرُ القوى على الأسفار والاحمال ، النجيبُ النائمُ الخلقُ الحسنُ المنظرُ ، ويقعُ
على الذكر والآثى ، والهاء فيه للبالغه ،

وقال الشاعر :

الناس يمثّلُ بؤوت الشعر كم رجلٍ منهم بألفٍ وكم يبتِ بديوانٍ
وفي هذا المعنى يقول المعري :
الناس كالشعر تُلنى الأرض جائشةً بالجمع يُزجى وخيرٌ منهم رجلٌ

لو تكاشفتُم ما تدافتم

ومن كلمة لسيدنا رسول الله صلوات الله عليه : لو تكاشفتُم ما تدافتم .
يقول : لو علم بعضهم سريرة بعض لاسْتَقْبَل تشييعه ودَفَنه . . ولعل
أبا العتاهية قد أخذ من هذا الحديث قوله :

وفي الناس شرّ لو بدّأ ما تعاشرُوا ولكن كساهُ الله ثوبَ غطاء

وقالوا في ذم الناس :

عَوَى الذئبُ فاستأنستُ بالذئبِ إذ عَوَى

وَصَوَّتَ إنسانٌ فكدتُ أطيُرُ

وقال المعري :

يَحْسُنُ مَرَأَى لَبْنِي آدِمٍ وكلهم في الذوق لا يَنْدُبُ
ما فيهمُ بَرٌّ ولا ناسِكٌ إِلَّا إلى نَفْعٍ له يَجْدُبُ
أَفْضَلُ من أَفْضَلِهِمْ صَخْرَةٌ لَا تَظْلِمُ الناسَ وَلَا تَكْذِبُ

وقال محمد بن يسير :

سَوَاءٌ لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ أَنَا فِي هَذَا مِنْ أَوْلَهُمْ

لَسْتُ تَدْرِي حِينَ تَنْسَبُهُمْ أَيْنَ أَذْنَاهُمْ مِنْ أَفْضَلِهِمْ

وقال بعضهم : كنتُ عند الحسن البصريِّ ، فقال : أَسْمَعْ حَسِيسًا ، وَلَا أَرَى أَنِيسًا ، صَبِيانُ حَيَارَى ، مَا لَهُمْ تَفَاقَدُوا عَقُولَهُمْ ، وَفَرَّشُ نَارٍ ، وَذِبَابُ طَمَعٍ . وَقِيلَ لِسَفِيَّانِ الثَّوْرِيَّ : دُلَّنَا عَلَى رَجُلٍ نَجْلِسُ إِلَيْهِ ، فَقَالَ : تِلْكَ ضَالَّةٌ لَا تَوْجِدُ . . . وَقَالَ فُلَانٌ : رَأَيْتُ كُلْثُومَ بْنَ عَمْرِو الْعَتَابِيِّ يَا كُلَّ حُبْرَاءَ فِي الطَّرِيقِ ، فَقُلْتُ لَهُ أَمَا تَسْتَحْيِي أَنْ تَأْكُلَ بِحَضْرَةِ النَّاسِ ؟ فَقَالَ : أَرَأَيْتَ لَوْ كُنْتُ فِي دَارٍ فِيهَا بَقْرٌ ، أَمَا كُنْتُ تَأْكُلُ بِحَضْرَتِهِمْ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، قَالَ : فَهَؤُلَاءِ بَقَرَاتٌ قُلْتُ : إِنْ شِئْتُ أَرَيْتُكَ دَلَالَةً عَلَى ذَلِكَ ، ثُمَّ قَامَ وَوَعِظَ ، وَجَمَعَ قَوْمًا ثُمَّ قَالَ : رَوَى عَنْ غَيْرِ وَجْهِ : أَنَّ مَنْ بَاغَ لِسَانَهُ أَرْثَبَةً أَنْفَهُ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ ، فَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ إِلَّا أَخْرَجَ لِسَانَهُ يَنْظُرُ هَلْ يَبْلُغُ

وقال رجل لأحد الشعراء : أَيْنَ سَكَّةُ الْخَيْرِ ؟ فَقَالَ : اسْلُكْ أَيْ سَكَّةَ شِئْتُ فَكُلَّهَا دَرُوبُ الْخَيْرِ . . . وَمِثْلُ هَذَا مِنَ النَّوَادِرِ الْمُسْتَطَرَفَةِ . . .

وقال بعضهم : النَّاسُ أَرْبَعَةُ أَصْنَافٍ : آسَادُ ، وَذُنَابُ ، وَثَعَالِبُ ، وَضُرَّانُ ، فَأَمَّا الْآسَادُ فَالْمُلُوكُ - وَهِيَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْحُكَامِ الْمُسْتَبْدِينَ - وَأَمَّا الذُّنَابُ فَالْتَّجَارُ ، وَأَمَّا الثَّعَالِبُ فَالْقُرَّاءُ الْخَادِعُونَ ^(١) . وَأَمَّا الضُّرَّانُ فَالْمُؤْمِنُ - يَرِيدُ الطَّيِّبَ الْكَرِيمَ - يَنْهَشُهُ كُلُّ مَنْ يَرَاهُ . وَقَالَ كَثِيرٌ عَزَّةً :

سَوَاسٍ كَأَسْنَانِ الْخِمَارِ فَمَا تَرَى لِيذِي شَيْبَةٍ مِنْهُمْ عَلَى نَائِيٍّ فَضْلًا

(١) لعل المراد بالقراء : النساك . وقد جاء في الحديث : أَكْثَرُ مَنَافِقٍ أُمَّتِي قَرَأُوهَا قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ فِي الْهَيْكَةِ . أَيْ أَنَّهُمْ يَحْفَظُونَ الْقُرْآنَ نَفْيًا لِلنِّهْمَةِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَهُمْ مُعْتَقِدُونَ تَضْيِيعَهُ وَكَانَ الْمَنَافِقُونَ فِي عَصْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ الصِّفَةِ

«يقال هُم سَوَاسِيَّةٌ وَسَوَاسٌ وَسَوَاسِيَّةٌ : إذا استَوَوْا في اللُّؤْمِ والخَسَّةِ
والشر، وقال آخر :

شَبَابُهُمْ وشِدْهِم سَوَاءٌ سَوَاسِيَّةٌ كَأَسْنَانِ الحِمَارِ
«وأَسْنَانِ الحِمَارِ مستعربة ،

وقال طرفة بن العبد :

كَلَّ خَلِيلُ كُنْتُ خَالَتُهُ لَا تَرَكِ اللهُ لَهُ وَاضِحَةً ^(١)
كَلِمَ أَرْوَعُ مِنْ ثَلَبٍ مَا أَشْبَهَ اللَّيْلَةَ بِالْبَارِحَةِ
وقال المتنبى :

وَلَمَّا صَارَ وَدَّ النَّاسُ خِبَا جَزَبْتُ عَلَى ابْتِسَامٍ بِابْتِسَامٍ
وَصِرْتُ أَشْكُ فِيمَنْ أَصْطَفِيهِ لَعَلِّي أَنَّهُ بَعْضُ الْأَنَامِ
وقال ابن الرومي :

رَاعِلُمْ بَانَ النَّاسُ مِنْ طِينَةٍ يَصْدُقُ فِي الثَّلَبِ لَهَا الثَّالِبُ ^(٢)
وَلَا عِلَاجَ النَّاسِ أَخْلَاقَهُمْ إِذْنُ لَفَاحِ الحِمَا اللَّازِبُ ^(٣)
وقال المتنبى :

أَذْمُ إِلَى هَذَا الزَّمَانِ أَهْلُهُ نَأَعْلَهُمْ قَدَمٌ وَأَحْزَمَهُمْ وَغَدُ
وقال :

إِنَّمَا أَنْفُسُ الْأَنْبَسِ سِبَاعُ يَتَفَارَسُنَ جَهْرَةً وَاغْتِيَالَا
مَنْ أَطَاقَ التَّمَسَّ شَيْءٌ غِلَابًا وَاغْتِصَابًا لَمْ يَلْتَمِسْهُ سُؤَالَا
كُلُّ غَادٍ لِحَاجَةٍ يَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ الْغَضْمَقَرُ الرَّبَالَا

(١) الواضحة : الأسنان التي تبدو عند الضحك . (٢) الثلب : العيب

(٣) الحما : الطين الاسود الملتين ، واللازب . الذي يلزق ويصلب

وقال :

إِنَّا لِنِي زَمَن تَرَكَ الْقَيْحَ بِهِ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ إِحْسَانُ وَلَا جَمَالُ
لَوْلَا الْمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسَ كُلَّهُمْ الْجُودُ يُفْقِرُ وَالْإِقْدَامُ قَتَالُ

وقالوا في أن من شيم الناس أن يَحْمَدَ مَنْ رَشَدَ وَتَلُومَ مَنْ يَغْوِي
وفي ذلك يقول القُطَامِيُّ :

وَالنَّاسُ مَنْ يَلْقَى خَيْرًا قَالُوا لَهُ مَا يَشْتَهِي وَلَا مَ الْخَطِيئِ الْمَبْلُ^(١)

وقد أخذ من قول المُرْقَشِ الأصغر :

وَمَنْ يَلْقَى خَيْرًا يَحْمَدُ النَّاسَ أَمْرَهُ وَمَنْ يَغْرِ لَا يَعْدَمُ عَلَى الْغَى لَا مَأْمَا
وهذا كَعُمَرَى من عناوين اللوم المركب في الطباع.

وقالوا في انتكاس الأحوال وارتفاع السفلة الاندال والقائل : خِدْلُشْ

بن زهير - شاعر جاهلي من شعراء قيس - وهو ابن عم لبيد :

فإِنَّكَ لَا تُبَالِي بَعْدَ حَوْلٍ أَظْبِيْ كَانَ أُمِّكَ أُمِّ جِمَارُ

فقد لحق الأسافل بالآعلى وماج اللؤم واختلط النجار

وعاد الفند مثل أبي قُبَيْسٍ وسبق مع المعْلَهَجَةِ العِشَارُ

« النجار : الأصل . والفند : قطعة من الجبل طولا ، وأبو قُبَيْسٍ جبل

بمكة ، والمراد به : الرجل الشريف ، كما يراد بالفند ، الرجل الوضع ، والمعلَهجة :

المرأة اللئيمة الأصل الفاسدة النسب . والعشار : جمع العُشَرَاءِ : الناقة مضى

لحلمها عشرة أشهر ؛ يقول هذا الشاعر : أما وقد لحق الأسافل بالآعلى

واختلطت الأصول وماج أمر الناس واضطرب وعظم شأن اللؤم ونفقت

(١) الهبل : الثكل - الفقد -

سُوقَهُ وَعَادَ الْحَسِيسَ مِثْلَ الشَّرِيفِ حَتَّى سَيِّدَتْ الْإِبِلَ الْحَوَامِلَ فِي مَهْرِ اللَّيْمَةِ
وَتَغَيَّرَ بِذَلِكَ الزَّمَانُ وَاطْرَحَتْ مِرَاةَ الْأَنْسَابِ فَلَا نَبَالَي بَعْدَ قِيَامِكَ بِنَفْسِكَ
وَاسْتَغْنَانِكَ عَنْ أَبِيكَ ، مَنْ اتَّسَبَتْ إِلَيْهِ ، شَرِيفًا كَانَ أَمْ وَضِيعًا ... وَضَرَبَ
الْمَثَلَ بِالظُّبَى وَالْحِمَارِ وَجَعَلَهُمَا أَمِينَيْنِ وَهَمَا ذَكَرَانِ لِأَنَّهُ مِثْلُ لَا حَقِيقَةَ ، وَقَصَدَ
قَصْدَ الْجَنَسَيْنِ وَلَمْ يَحْقُقْ أَبَوَةَ . وَذَكَرَ الْحَوْلَ ، لِذِكْرِ الظُّبَى وَالْحِمَارِ ، لِأَنَّهُمَا
يَسْتَغْنِيَانِ بَأَنْفُسِهِمَا بَعْدَ الْحَوْلِ ؛ فَهَذَا شَاعِرٌ سَاخِطٌ كَمَا تَرَى ،

وَقَالَ ابْنُ الرُّومِيِّ :

دَهْرٌ عَلَا قَدْرُ الْوَضِيعِ بِهِ وَهُوَ الشَّرِيفُ يَحْطُطُ شَرَفُهُ
كَالْبَحْرِ يَرْسُبُ فِيهِ لُؤْلُؤُهُ سُفْلًا وَتَطْفُو فَوْقَهُ جِيفُهُ
وَقَالَ :

رَأَيْتُ الدَّهْرَ يَرْفَعُ كُلَّ وَغْدٍ وَيَخْفِضُ كُلَّ ذِي شَيْمٍ شَرِيفَةٍ
كَمِثْلِ الْبَحْرِ يَغْرَقُ فِيهِ حَيٌّ وَلَا يَنْفَكُ تَطْفُو فِيهِ جِيفَةٌ
أَوِ الْمِيزَانَ يَخْفِضُ كُلَّ وَافٍ وَيَرْفَعُ كُلَّ ذِي زِنَةٍ خَفِيفَةٍ
وَقَالَ الْوَزِيرُ الْمَغْرِبِيُّ :

إِذَا مَا الْأُمُورُ اضْطَرَبْنَ اعْتَلَى سَفِينُهُ يُضَامُ الْعُلَى بِاعْتِلَائِهِ
كَذَا الْمَاءُ إِنْ حَرَّ كُنْهُ يَدُّ طَفَمَا عَكِرْتُ رَاسِبٌ فِي إِيَائِهِ

وَقَالَ الْمَعْرِيُّ فِي النَّاسِ :

لَقَدْ قَنَسْتُ عَنْ أَصْحَابِ دِينٍ لَهُمْ نُسْكٌ وَلَيْسَ لَهُمْ رِبَاءُ
فَأَلْفَيْتُ الْبَهَائِمَ لَا عُقُولَ تُقِيمُ لَهَا الدَّلِيلَ وَلَا ضِيَاءُ
وَإِخْوَانُ الْقَطَانَةِ فِي اخْتِيَالٍ كَأَنَّهُمْ لِقَوْمٍ أَنْبِيَاءُ
فَأَمَّا هَؤُلَاءِ فَأَهْلُ مَكْرٍ وَأَمَّا الْأَوَّلُونَ فَأَغْيَاءُ

فإن كان الثَّقِي بَلَمَّا وَعِيًّا فَأَعْيَارُ الْمَذَلَّةِ أَتَقِيَاءُ
 « الأعيار : جمع عير ، وهو الحمار يضرب به المثل في الذل قال المتلمس :
 ولا يقيم على ضميمٍ أَلَمَّ به إِلَّا الْأَذْلَانِ عَيْرُ الْحَيِّ وَالْوَتْدُ
 فذاك يُخَسِّفُ مَرْبُوطًا بِمَقْوَدِهِ وَذَا يُشَجُّ وَلَا يَرِثِي لَهُ أَحَدٌ
 وقال :

بَنِي الدَّهْرِ مَهْلًا إِنْ ذَمْتُ فَعَالِكُمْ فَبَنِي بِنَفْسِي لَا مَحَالَةَ أَبَدًا
 مَتَى يَتَقَضَى الْوَقْتُ وَاللَّهُ قَادِرٌ فَتَسْكُنُ فِي هَذَا التُّرَابِ وَنَهْدًا
 تَجَاوَرَ هَذَا الْجِسْمُ وَالرُّوحُ بِرَهَةٍ فَمَا بَرَحْتُ تَأْذَى بِذَاكَ وَتَضْدًا
 وقال المعري :

جَرَبْتُ دَهْرِي وَأَهْلِيهِ فَا تَرَكْتُ لِي التَّجَارِبُ فِي وَدَّ امْرِئٍ غَرَضًا
 وقال :

أُولُو الْفَضْلِ فِي أَوْطَانِهِمْ غُرَبَاءُ تَشِدُّ وَتَنَأَى عَنْهُمْ الْقُرَبَاءُ
 تَوَاصَلَ حَبْلُ النِّسْلِ مَا بَيْنَ آدَمَ وَبَيْنِي وَلَمْ يُوصَلْ بِبِلَاحِي بَاءُ
 تَنَاءَبَ عَمْرُو إِذْ تَنَاءَبَ خَالِدٌ يَعْدَوِي فَمَا أَعْدَتَنِي الثُّبَاءُ
 وَزَهْدَنِي فِي الْخَلْقِ مَعْرِقِي بِهِمْ وَعَلَيَّ بَأَنَ الْعَالَمِينَ هَبَاءُ
 وقال المعري :

أَرَأَيْتِكَ فَلْيَغْفِرْ لِي اللَّهُ زَلَّتِي بِذَاكَ وَدِينُ الْعَالَمِينَ رِثَاءُ
 وَقَدْ يُخَالِفُ الْإِنْسَانُ ظَنَّ عَشِيرِهِ وَإِنْ رَاقَ مِنْهُ مَنَظَرٌ وَرُوءَاءُ
 إِذَا قَوْمُنَا لَمْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَحَدَهُ بِنُصْحٍ فَإِنَّا مِنْهُمْ بُرُوءَاءُ
 وقال :

إِذَا بَكَرْتُ جَنَى فَتَوَقَّ عَمْرًا فَإِنَّ كِلَيْهِمَا لَابٌ وَأَمُّ

وفي كُلِّ الطَّبَاعِ طَبَاعٌ نَكَزٍ وليس جَمِيعُهُنَّ ذَوَاتِ سُمْ
« النَكَزُ : تَسْعُ الْحَيَّةُ »

رَأَيْتُ الْحَقَّ لَوَلُوءَةً تَوَارَتْ بَلَجٍّ مِنْ ضَلَالِ النَّاسِ جَمٍّ
وقال :

رِيَاءُ بَنِي حَوَاءَ فِي الطَّبَعِ ثَابِتٌ فَهُمْ مُجَسَّدٌ فِي النِّفَاقِ وَهَازِلٌ
سَخَوَالِيْقُولِ النَّاسِ جَادُوا وَأَقْدَمُوا لِيَذْكُرَ فِي الْهَيْجَاءِ قِرْنَ مُنَازِلُ
وقال :

النَّاسُ مِثْلُ الْمَاءِ تَضْرِبُهُ الصَّبَا فَيَكُونُ مِنْهُ تَفَرُّقٌ وَتَأَلُّفٌ
وَالْخَيْرُ يَفْعَلُهُ الْكَرِيمُ بِطَبِيعِهِ وَإِذَا اللَّئِيمُ سَخَا فَذَاكَ تَكَلُّفٌ
شَكَوَتْ مِنْ أَهْلِ هَذَا الْعَصْرِ عَذْرَهُمْ

لَا تُنْكَرَنَّ فَعَلَى هَذَا مَضَى السَّافُ
وَقَلَمًا تَسْكُنُ الْأَضْغَانُ فِي خَلَدٍ إِلَّا فِي وَجْهِ مَنْ يَسْعَى بِهَا كَلْفُ
أَمْسَى النِّفَاقِ دُرُوعًا يُسْتَجَنُّ بِهَا مِنَ الْأَذَى وَيُقَوَّى بِمَرَدَّهَا الْخِلَافُ
« الْخِلَافُ : الْيَمِينُ »

حَسَنَ الْوَعْدِ بِالْإِنْجَازِ تَبِعَهُ إِذَا مَوَاعِدُ قَوْمِ شَانَهَا الْخُلْفُ
وقال :

إِذَا فَرَعْنَا فَإِنَّ الْأَمْنَ غَايَتُنَا وَإِنْ أَمِنًا فَمَا نَخْلُو مِنَ الْفَرَعِ
وَشِمَةُ الْإِنْسِ بِمَزُوجِهَا مَلَلٌ فَمَا تَدُومُ عَلَى صَبْرِ وَلَا جَزَعِ
وقال :

إِذَا مَا أَسَنَّ الشَّيْخُ أَقْصَاءَ أَهْلِهِ وَجَارَ عَلَيْهِ التَّجَلُّ وَالْعَبْدُ وَالْعِرْسُ

« العرس : الزوجة »

يُسَبِّحُ كَيْمَا يَغْفِرُ اللَّهُ ذَنْبَهُ رُوَيْدَكَ فِي عَهْدِ الصَّبَا مُلَى الطَّرْسِ

وقال :

أَهْرُبُ مِنَ النَّاسِ فَإِنْ جِئْتَهُمْ فَيَلْجَأُ سَابِ جَرَّهَ السَّاحِبِ ^(١)

يَلْتَفِعُ النَّاسُ بِمَا عِنْدَهُ وَهُوَ لَقِيَ بَيْنَهُمْ شَاخِبُ ^(٢)

وقال :

إِنْ مَازَتْ النَّاسَ أَحْلَاقُ يُعَاشُ بِهَا فَإِنَّهُمْ عِنْدَ سُوءِ الطَّبَعِ أَسْوَأُ

أَوْ كَانَ كُلُّ بَنِي حَوَاءَ يُشْبِهُنِي فَيُنْسَ مَا وَلَدَتْ فِي الْخَلْقِ حَوَاءُ

بُعْدِي مِنَ النَّاسِ بُرَّةٌ مِنْ سَقَامِهِمْ وَقُرْبُهُمْ لِلْحَيِّ وَالَّذِينَ أَدَوَاءُ

كَالْبَيْتِ أَفْرَدَ لَا إِطَاءَ يُذَرِّكُهُ وَلَا سِنَادَ وَلَا فِي الْإِظْهُاقِ ^(٣)

وقال :

قَدْ حُجِبَ الثَّوْرُ وَالضِّيَاءُ وَإِنَّمَا دَيْنُنَا رِبَاءُ

يَا عَالَمَ السُّوءِ مَا عَلِمْنَا أَنَّ مُصْلَيْكَ أَتْقِيَاءُ

كَمْ وَعَظَ الْوَاعِظُونَ مِنَّا وَقَامَ فِي الْأَرْضِ أَنْبِيَاءُ

فَانْصَرَفُوا وَالْبَلَاءُ بَاقٍ وَلَمْ يَزُلْ دَاوُكُ الْعِيَاءُ

« زال يزول : راح وذهب ؛ والعياء : الذي لا يبرأ منه »

حُكْمٌ جَرَى لِلْمَلِكِ فِينَا وَنَحْنُ فِي الْأَصْلِ أَغْيَاءُ

(١) السَّابُ : ذِقِ الْخَمْرِ

(٢) اللَّقَى : الْمَلَقَى عَلَى الْأَرْضِ ، وَالشَّاحِبُ : الْمَهْزُولُ الْمُنْتَغِيرُ اللَّوْنُ لِمَعَارِضِ كَعَرَضٍ وَنَحْوِهِ

(٣) الْإِطَاءُ : تَكَرُّرُ الْقَافِيَةِ بِلَفْظِهَا وَمَعْنَاهَا ، وَالْأَقْوَاءُ : اخْتِلَافُ إِعْرَابِ الْقَوَائِي ،

وَالسِّنَادُ أَنْوَاعٌ وَهُوَ كُلُّ عَيْبٍ يَحْدُثُ قَبْلَ الرُّوْيِ كَارْدَافٍ قَافِيَةٍ وَتَجْرِيدٍ أُخْرَى

وَهَذِهِ مِنْ عِيُوبِ الْقَافِيَةِ

وقال :

مُلِّ الْمَقَامُ فَكُمُ أَعَاشِرُ أُمَّةٍ أَمَرْتُ بِغَيْرِ صَلاَحِهَا أَمْرَاؤُهَا
ظَلَمُوا الرَّعِيَّةَ وَاسْتَجَازُوا كَيْدَهَا قَعَدُوا مَصَالِحَهَا وَهُمْ أَجْرَاؤُهَا
وقال بشار بن برد :

خَيْرُ إِخْوَانِكَ الْمُشَارِكُ فِي الْمُسْرِ وَأَيُّنَ الْمُشَارِكُ فِي الْمَرِّ أَيْنَا
الَّذِي إِنْ شَهِدْتَ سَرَّكَ فِي الْحَمْسَى وَإِنْ غَبْتَ كَانَ أَذَنَّا وَعَيْنَا
مِثْلُ سِرِّ الْبَاقِيَةِ إِنْ مَسَّهُ النَّارُ جَلَاءُ الْبَلَاءِ فَازْدَادَ زَيْنَا
أَنْتَ فِي مَعَشِرٍ إِذَا غَبْتَ عَنْهُمْ بَدَلُوا كُلَّ مَا يَزِينُكَ شِينَا
وَإِذَا مَا رَأَوْكَ قَالُوا جَمِيعَا أَنْتَ مِنْ أَكْزَمِ الْبَرَايَا عَلَيْنَا
مَا أَرَى لِلْأَنَامِ وُدًّا صَحِيحَا عَادَ كُلُّ الْوِدَادِ زُورًا وَمَيْنَا
وقال ابن الرومي :

ذُقْتُ الطُّعُومَ فَمَا التَّدَذُّتُ بِرَاحَةٍ مِنْ مُحِبَّةِ الْإِخْتِيَارِ وَالْإِشْرَارِ
أَمَّا الصَّدِيقُ فَلَا أَحَبُّ لِقَاءٍ حَذَرَ الْقَلْبِ وَكَرَاهَةَ الْإِعْوَارِ
وَأَرَى الْعَدُوَّ قَذَى فَأَكْرَهُ قُرْبَهُ فَهَجَرْتُ هَذَا الْخَلْقَ عَنْ إِعْذَارِ
أَرْنِي صَدِيقًا لَا يَنْوِي بِسَقَطَةٍ مِنْ عَيْنِهِ فِي قَدَرٍ صَدَرَ نَهَارِ
أَرْنِي الَّذِي عَاشَرْتَهُ فَوَجَدْتَهُ مُتَغَاضِيًا لَكَ عَنْ أَقْلٍ عِشَارِ
أَحِبُّ قَوْمًا لَمْ يُحِبُّوا رَبَّهُمْ إِلَّا لِفِرْدَوْسٍ لَدَيْهِ وَنَارِ

وقال :

عَدُوُّكَ مِنْ صَدِيقِكَ مُسْتَفَادٌ فَلَا تَسْتَكْبِرَنَّ مِنَ الصَّحَابِ
فَإِنَّ الدَّاءَ أَكْثَرَ مَا تَرَاهُ يَحُولُ مِنَ الطَّعَامِ أَوْ الشَّرَابِ
إِذَا انْقَلَبَ الصَّدِيقُ غَدًا عَدُوًّا مُبِينًا وَالْأُمُورُ إِلَى آتِقَالِابِ

ولو كان الكثير يَطِيبُ كانت مُصاحِبَةُ الكثير من الصواب
وما اللُّجُجُ المِلاحُ بِمُرُويَاتٍ وتَلَقَّى الرَّيَّ فِي النُّظْفِ العِذابِ
وبعد فإن هذا الباب مُتَّسِعٌ جداً ، وسيمر عليك كثير من عبقرياتهم فيه في باب
الإخوانيات و باب الطبائع ، فلنَجْتَزِي بهذا المقدار .



الغوغاء

ولهم في السُّقَاطِ والسَّفَلَةِ وهذه الرَّجَرَةِ من الناس كلام كثير ، فن ذلك قولُ
وإِصْلَ ابنِ عَطَاءٍ : أَلَا قَاتَلَ اللهُ هَذِهِ السَّفَلَةَ ، تُؤَادُّ مَنْ حَادَّ اللهَ وَنَبِيَّهَ ، وَتُحَادُّ مَنْ
وَادَّ اللهَ وَنَبِيَّهَ ، وَتَذُمُّ مَنْ مَدَحَهُ اللهُ ، وَتَمْدَحُ مَنْ ذَمَّهُ اللهُ ، عَلَى أَنْ بِهِمْ
عُلِمَ الْفَضْلُ لِأَهْلِ الطَّبَقَةِ الْعَالِيَةِ ، وَبِهِمْ أُعْطِيَتِ الْاَوْسَاطُ حَقَّهَا مِنَ الثُّبُلِ ...
ومنه قول سيدنا علي رضي الله عنه . وقد أَتَى بِجَنَانٍ وَمَعَهُ غُوغَاءٌ —
فَقَالَ : لَا تَرْجَبًا بِوَجْهِهِ لَا تُرَى إِلَّا عِنْدَ كُلِّ سَوَاءٍ ... وقوله رضي الله عنه :
هَمُّ الَّذِينَ إِذَا اجْتَمَعُوا ضَرُّوا وَإِذَا تَفَرَّقُوا نَفَعُوا ؛ فَقِيلَ لَهُ : قَدْ عَلِمْنَا مَضَرَّةَ
اجْتِمَاعِهِمْ فَمَا مَنَفَعَةُ انْتِفَاعِهِمْ ؟ فَقَالَ : يَرْجِعُ أَصْحَابُ الْمِهْنِ إِلَى مِهْنِهِمْ ، فَيَنْتَفِعُ
النَّاسُ بِهِمْ ، كَرَجُوعِ الْبِنَاءِ إِلَى بِنَائِهِ ، وَالنَّسَاجِ إِلَى مَنَسَجِهِ ، وَالْحَبَّازِ
إِلَى مَخْبِزِهِ .

وكان الحسن البصري إذا ذكر الغوغاء والسُّوق يقول : قَتَلَةُ الْأَنْبِيَاءِ ،
وكانوا يقولون : الْعَامَّةُ كَالْبَحْرِ إِذَا هَاجَ أَهْلُكَ رَاكِبُهُ ، وَكَانَ الْمَأْمُونُ الْخَلِيفَةُ
الْعَبَّاسِيُّ يَقُولُ : كُلُّ شَيْءٍ وَظَلَمَ فِي الْعَالَمِ فَهُوَ صَادِرٌ عَنِ الْعَامَّةِ وَالْغُوغَاءِ ؛ لِأَنَّهُمْ
قَتَلَةُ الْأَنْبِيَاءِ ، وَالشُّعَاةُ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ ، وَالنَّمَامُونَ بَيْنَ الْأَوْدَادِ ، وَمِنْهُمْ لِلْأَصْوَصِ

وَقَطَّاعِ الطَّارِقِ وَالطَّرَّارُونَ وَالْمُحْتَالُونَ وَالسَّاعُونَ إِلَى السَّاطِئَانِ ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ حُشِرُوا عَلَى عَادَتِهِمْ فِي السَّعَايَةِ ، فَقَالُوا : رَبَّنَا أَطْعَمْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ، رَبَّنَا وَآتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمُ لَعْنًا كَبِيرًا... وَقَالَ الْجَاهِظُ : الْغَاغَةُ وَالْبَاغَةُ ^(١) وَالْحَاكَةُ كَأَنَّهُمْ إِعْذَارُ ^(٢) عَامٍ وَاحِدٍ ، أَلَا تَرَى أَنَّكَ لَا تَجِدُ أَبَدًا فِي كُلِّ بَلَدَةٍ ، وَفِي كُلِّ عَصْرِ ، هَوْلًا ، إِلَّا بِمِقْدَارٍ وَاحِدٍ وَجْهَةً وَاحِدَةً ، مِنَ السَّخْفِ وَالنَّقْصِ وَالْخَوْلِ وَالْغَبَاوَةِ .

وَمِنْ كَلِمَةِ اسْمِدْنَا عَلَى فِي فَضْلِ الْعِلْمِ عَلَى الْمَالِ وَوَصَفِ الطَّغَامِ — قَالَ كَمِيلُ بْنُ زِيَادٍ النَّخَعِيُّ : أَخَذَ بِيَدِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، فَأَخْرَجَنِي إِلَى الْجَبَانِ ^(٣) ، فَلَمَّا أَصَحَرَ تَنَفَّسَ الصُّعْدَاءُ ^(٤) ، ثُمَّ قَالَ : يَا كَمِيلُ بْنُ زِيَادٍ ، إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ أَوْعِيَتْ نَفِيرَهَا وَأَوْعَاهَا ، فَاحْفَظْ عَنِّي مَا أَقُولُ لَكَ ، النَّاسُ ثَلَاثَةٌ ، فَقَالِمُ رَبَّنَائِي ، وَمُتَعَلِّمُ عَلَى سَبِيلِ نَجَاةٍ ، وَهَمَّجٌ رَعَاعٌ ، أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِيٍّ يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ ، لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ ، وَلَمْ يَاجِأُوا إِلَى رَكْنٍ وَثِيقٍ ، يَا كَمِيلُ ، الْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ ، الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ وَأَنْتَ تَحْرُسُ الْمَالَ ، وَالْمَالُ تَنْقُصُهُ النَّفَقَةُ وَالْعِلْمُ يَزْكُو عَلَى الْإِنْفَاقِ ، وَصَنِيعُ الْمَالِ يَزُولُ بِزَوَالِهِ ؛ يَا كَمِيلُ بْنُ زِيَادٍ ، هَلَّاكَ خُزَانُ الْأَمْوَالِ وَهُمْ أَحْيَاءُ ، وَالْعُلَمَاءُ بَاقُونَ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ . إِلَى آخِرِ هَذِهِ الْخُطْبَةِ الْعُلَوِيَّةِ الَّتِي تَرَاهَا فِي نَهْجِ الْبَلَاغَةِ ...

(١) الَّذِي فِي اللِّسَانِ : وَبُغَاةُ النَّاسِ : سَفَلَتُهُمْ وَطَاشَتُهُمْ وَحَقَامُهُ .

(٢) الْإِعْذَارُ : الْخُتَانُ وَطَعَامُ الْخُتَانِ وَفِي الْحَدِيثِ : كُنَّا إِعْذَارَ عَامٍ وَاحِدٍ ، أَيْ

(٣) الْجَبَانُ وَالْجَبَانَةُ يُرِيدُ الصَّحْرَاءَ .

خَتَانِي فِي عَامٍ وَاحِدٍ ، وَكَانُوا يَخْتَنُونَ لِسَنٍ مَعْلُومَةٍ فِيمَا بَيْنَ عَشْرِ سَنِينَ وَخَمْسِ عَشْرَةٍ

(٤) تَنَفَّسَ الصُّعْدَاءُ : أَيْ تَنَفَّسَ تَنَفُّسًا مَمْدُودًا طَوِيلًا

وقال معاوية لِصُحَّصَةَ بنِ صوحان : صِفْ لِي النَّاسَ ، فَقَالَ : مُخْلِقُ
النَّاسِ أَطْوَارًا ، طَائِفَةٌ لِلسِّيَادَةِ وَالْوِلَايَةِ ، وَطَائِفَةٌ لِلْفِقْهِ وَالسُّنَّةِ ، وَطَائِفَةٌ لِلْبَأْسِ
وَالنَّجْدَةِ ، وَرِجْرِيَّةٌ بَيْنَ ذَلِكَ ، يُغْلُونَ السَّعْرَ ، وَيُكَدِّرُونَ الْمَاءَ ، إِذَا اجْتَمَعُوا
ضُرُّوا ، وَإِذَا تَفَرَّقُوا لَمْ يُعْرَفُوا ... وَمِنْ طَرِيفِ التَّفَاسِيرِ وَغَرِيبِهَا مَا قِيلَ فِي
قَوْلِهِ تَعَالَى : « قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ » أَيْ مِنْ
السُّلْطَانِ ، أَوْ مِنْ تَحْتَ أَرْجُلِكُمْ ، أَيْ مِنَ السَّفْلِ .

وَقَالَ دُعَيْلُ :

مَا أَكْثَرَ النَّاسَ لَا بِلَ مَا أَقْلَهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَقُلْ فَنَدَا
إِنِّي لَأَفْتَحُ عَيْنِي حِينَ أَفْتَحُهَا عَلَى كَثِيرٍ وَلَكِنْ لَا أَرَى أَحَدًا
وَهُمْ يَشْبَهُونَ سَوَادَ النَّاسِ بِالْذَّبَا ، وَالذَّبَا مَقْصُورٌ : الْجَرَادُ قَبْلَ أَنْ يَطِيرَ ،
وَفِي حَدِيثٍ عَائِشَةُ قَالَتْ : كَيْفَ النَّاسُ بَعْدَ ذَلِكَ ؟ قَالَ : دَبِّي يَا كُلَّ شِدَادُهُ
ضِعَافُهُ حَتَّى تَقُومَ عَلَيْهِمُ السَّاعَةُ ...

قِلةُ الْوَفَاءِ فِي النَّاسِ وَشِيوعُ الْغَدْرِ وَالْمَكْرِ فِي عَامَتِهِمْ

وَقَالُوا فِي قِلةِ الْوَفَاءِ فِي النَّاسِ وَوَصَفَ عَامَتَهُمُ بِالْغَدْرِ ، وَالْمَكْرِ السَّيِّئِ ،
وَمِنْ أَرْوَعٍ مَا قِيلَ فِي ذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : « وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ
وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ » .. وَقَالَ سُبْحَانَهُ : « الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ
مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ
أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ » ...

وَقَالَ : « أَفَإَمِنْ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ
أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ » ، وَقَالَ : وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ

إلا بأهله ... وقال : ومن نكثَ فإنما ينكثُ على نفسه . وقال : إنما
بغيتكم على أنفسكم ... وقال المتنبي :

غيري بأكثرِ هذا الناسَ يَنحَدُعُ إن قاتلوا جُبِنوا أو حَدَّثُوا شُجِعُوا
أهلُ الحفيظةِ إلَّا أن تُجَرَّبَهُم وفي التجاربِ بعد الغيِّ ما يَزَعُ

وقال أبو فراس الحمداني :

بمن يثِقُ الإنسانُ فيما ينوبه ومن أين للحرِّ الكريمِ صحاب
وقد صارَ هذا الناسُ إلَّا أقلَّهم ذئاباً على أجسادهن ثيابُ

وقال أبو تمام :

إن شئت أن يسودَّ ظنُّكَ كلُّه فأجلُّه في هذا السوادِ الأعظمِ

ليس الصديقُ بمن يعيرُكَ ظاهراً متبسماً عن باطنٍ متجهمٍ

« يقول : إن شئت أن لاتظن بأحد خيراً فاختر من شئت من هذا الناس ،

وكان يحيى بن خالد البرمكي إذا اجتهد في يمينه يقول : لا والذي جعل
الوفاء أعزَّ ما يرى . وكان يقول : هو أعزُّ من الوفاء . وقالوا : من عامل الناس
بالمكر كما فؤوه بالغدر

وكانت العرب إذا غدرَ منهم غادر ، يوقدون له بالموسم ناراً
وينادون عليه يقولون : ألا إن فلاناً غدر ... وقالوا : ربَّ حيلة أهلك
المحتال ، وقال امرؤ القيس :

أحارِ بنَ عَمْرِو كَأَنِّي نَحِرُ وَيَعْدُو عَلَى الْمَرْءِ مَا يَأْتِمُرُ

« رجل نحير : خالطه الداء ، وقوله ويعدو الخ : أراد أن المرء يأتمر لغيره

بسوء فيرجع وبأل ذلك عليه » وقال شاعر لا أذكره :

وكم من حافِرٍ لآخيه ليلاً تَرَدَّى فِي حَفِيرِهِ نهاراً

ومن قولهم في وصف الغادر : فلان يَحْسُو الأماناتِ حَسْواً ، وفلان

أعذر من الذئب، قال : * هو الذئب وللذئب أوفى أمانة *
وقال : * والذئب يأدو للغزال يأكله *

« يأدو للغزال : يَحْتَلِه لِيَأْكَلِه ، قال الشاعر :

حَنَنْتَنِي حَانِيَاتِ الدَّهْرِ حَتَّى كَأَنِّي خَائِلٌ يَأْدُو لِصَيْدٍ ،

ويقال : رَكِبَ فُلَانُ السَّخْبَرَ : إِذَا غَدَرَ ، قال حسان بن ثابت :

يَا حَارِ مَنْ يَغْدِرُ بِذِمَّةِ جَارِهِ مِنْكُمْ فَإِنْ مُحَمَّدًا لَمْ يَغْدِرْ

إِنْ تَغْدِرُوا فَالْغَدْرُ مِنْكُمْ شِيمَةٌ وَالْغَدْرُ يَنْبُتُ فِي أَصُولِ السَّخْبَرِ

قال ابن برى : إِنَّمَا شُبِّهَ الْغَادِرُ بِالسَّخْبَرِ ، لِأَنَّ السَّخْبَرَ شَجَرٌ إِذَا انْتَهَى اسْتَرْخَى

رَأْسُهُ وَلَمْ يَبْقَ عَلَى انْتِصَابِهِ ، يَقُولُ حَسَانُ : أَنْتُمْ لَا تَنْتَبِرُونَ عَلَى وِفَاءِ كَهَذَا السَّخْبَرِ

الَّذِي لَا يَنْبُتُ عَلَى حَالٍ ، بَيْنَمَا يُرَى مُعْتَدِلًا مُنْتَصِبًا ، عَادَ مُسْتَرْخِيًا غَيْرَ مُنْتَصِبٍ ،

وَبَعْدَ فَاثْنِهِمْ عَلَى هَذَا نَصَحُوا بِمُدَارَاةِ النَّاسِ مَا دَامَ الْإِسْتِغْنَاءُ عَنْهُمْ غَيْرَ

مُسْتَطَاعٍ . قَالَ رَجُلٌ لَابْنِ عَبَّاسٍ : ادْعُ اللَّهَ لِي أَنْ يُغْنِيَنِي عَنِ النَّاسِ

فَقَالَ : إِنَّ حَوَائِجَ النَّاسِ تَتَّصِلُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ كَاتِّصَالِ الْأَعْضَاءِ ، فَتَى يَسْتَعْنِي

الْمَرْءُ عَنْ بَعْضِ جَوَارِحِهِ ؟ وَلَكِنْ قُلْ : أَغْنَى عَنِ شِرَارِ النَّاسِ . وَرَوَى :

أَنْ بَعْضَهُمْ كَانَ يَطُوفُ وَيقُولُ : مَنْ يَشْتَرِي مِنِّي بِضَائِعَ بَعْشَرَةِ آلَافٍ دِرْهَمٍ ؟

فَدَعَاهُ بَعْضُ الْمُلُوكِ وَبَذَلَ لَهُ الْمَالَ فَقَالَ لَهُ : أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَخْلُقْ خَلْقًا

شَرًّا مِنَ النَّاسِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بَدٌّ مِنَ النَّاسِ فَانْظُرْ كَيْفَ تَحْتَاجُ أَنْ تَعَاوَلَ

مَا لَا بَدٌّ مِنْهُ وَلَا غِنَى بِكَ عَنْهُ ... ثُمَّ قَالَ : هَلْ يَسَاوِي هَذَا الْكَلَامُ

عَشْرَةَ آلَافٍ دِرْهَمٍ ؟ قَالَ : دُونَكَ الْمَالَ ، وَلَمْ يَأْخُذْهُ ... وَقَالُوا :

نَلَسْنَا التَّعَايِشَ ، مُدَارَاةِ النَّاسِ . وَقَالَ النَّظَّامُ - إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَيَّارٍ

أَحَدُ شُعْبُوخِ الْمُعْتَزِلَةِ - : مَا يُسْئِرُنِي تَرْكُ الْمُدَارَاةِ وَلِي حُمْرُ النَّعَمِ ،

قيل له : لِمَ ؟ قال : لأن الأمر إذا غَشِيَكَ فَشَخَّصْتَ له أَرْدَاكَ ، وإذا طَاطَأَتْ له تَخَطَّاتِكَ ... وقال معاوية : لو كان بيني وبين الناس شَعْرَةٌ ما انقطعت ، لأنهم إذا جذبوها أرسلتها ، وإذا أرسلوها جذبتها ... وقال أكرم بن صَيْفِي : الانقباض من الناس مَكْسِبَةٌ للعداوة ، وإفراط الانس مَكْسِبَةٌ لقرناء السوء ، ومن أمثال العرب : لا تكن حُلُوءًا فَتُسْتَرْطَ ولا مُرًّا فَتُلْفَظَ « استرطه ابتلعه » وجاء في كتاب للهند : بعض المقاربة حزم ، وكل المقاربة عجز ، كالخسبة المنصوبة في الشمس ، ثَمَالٌ فيزيد ظلها ، وَيُفَرِّطُ في الإمالة فيَنْقُصُ الظِّلُّ ...

وقال الطغرائي في لاميته المشهورة المعروفة بلامية العجم :
وَحُسْنُ ظَنِّكَ بِالْأَيَّامِ مَعْجَزَةٌ فَظَنَّ شَرًّا وَكَانَ مِنْهَا عَلَى وَجَلٍ
غَاضُ الْوَفَاءِ وَفَاضَ الْغَدْرُ وَانْفَرَجَتْ مَسَافَةُ الْخُلْفِ بَيْنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ
وَإِنَّمَا رَجُلُ الدُّنْيَا وَوَاحِدُهَا مَنْ لَا يَعُولُ فِي الدُّنْيَا عَلَى رَجُلٍ

الأنذال واللائم

اللَّؤْمُ : ضِدُّ الْعِتْقِ وَالْمَكْرَمِ ، وَاللَّيْمُ : الدَّنْيُ الْأَصْلُ الشَّجِيحُ النَّفْسُ .
وَالنَّدَالَةُ : الْحِسَةُ وَالسَّفَالَةُ وَرَكَكَ الْعَقْلُ وَالتَّأَخَّرُ عَنِ الْمَكَارِمِ ، وَالنَّذْلُ :
الْخَسِيسُ الْحَقِيرُ الْفَسَلُ الَّذِي لَا مَرْوَةَ لَهُ . ومن عبقرياتهم في هذا الصنف
من الناس قولُ أَبِي الْأَسَدِ نُبَاتَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ التِّيمِيِّ - شاعر كان معاصراً
لأبي تمام : -

إِنْ يَبْخَلُوا أَوْ يَجْبُنُوا أَوْ يَغْدِرُوا لَا يَخْفَلُوا
يَغْدُوا عَلَيْكَ مُرَجِّلِينَ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا

كَأَنِّي بَرَأَيْشَ كُلِّ لَوْ بَلَّوْنُهُ يَتَخَيَّلُ

« وَصَفَ قَوْمًا مُشْهُورِينَ بِالْمَقَابِحِ لَا يَسْتَحُونُ وَلَا يَحْتَفِلُونَ بِمَنْ رَأَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ . وَقَوْلُهُ : يَغْدُوا هُوَ بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ : لَا يَحْفِلُوا ، لِأَنَّ غُدُوَّهُمْ مُرَجَّلِينَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَحْنِلُوا . وَالْتَرَجِيلُ : مَشَطُ الشَّعْرِ وَإِرْسَالُهُ . وَأَبُو بَرَأَيْشَ طَائِرٌ صَغِيرٌ أَعْلَى رِيشِهِ أَغْبَرُ وَأَوْسَطُهُ أَحْمَرُ وَأَسْفَلُهُ أَسْوَدٌ فَإِذَا انْتَفَشَ تَغَيَّرَ لَوْنُهُ أَلْوَانًا شَتَّى . وَهَذَا أَبُو بَرَأَيْشَ غَيْرُ بَرَأَيْشَ الَّتِي وَرَدَتْ فِي قَوْلِهِمْ : عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ بَرَأَيْشُ ، فَهَذِهِ اسْمُ كَلْبَةٍ لِقَوْمٍ مِنَ الْعَرَبِ أُغْيِرَ عَلَيْهِمْ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ ، فَهَرَبُوا وَاتَّبَعْتَهُمْ بَرَأَيْشٌ فَرَجَعَ الَّذِينَ أَغَارُوا خَائِبِينَ ؛ فَسَمِعَتْ بَرَأَيْشُ وَقَعَ حَوَافِرِ الْحَيْلِ ، فَتَبَحَّتْ فَاسْتَدَلُّوا عَلَى مَوْضِعِ نَبَاحِهَا ، فَعَطَفُوا عَلَيْهِمْ وَاسْتَبَاحُوهُمْ ، فَذَهَبَتْ مَمْلَأَةً وَقَالُوا : عَلَى أَهْلِهَا تَجْنِي بَرَأَيْشُ ، قَالَ حَمْرَةُ بْنُ يُبَيْضَ :

لَمْ تَكُنْ عَنْ جَنَابِي لِحِقْتَنِي لَا يَسَارِي وَلَا يَمِينِي جَنَّتَنِي
بَلْ جَنَّاها أَخٌ عَلَى كَرِيمٍ وَعَلَى أَهْلِهَا بَرَأَيْشُ تَجْنِي

وقال آخر — وهى من أبيات الحماسة — حماسة أبي تمام : —

أَنَاخَ اللُّؤْمُ وَسَطَ بَنَى رَبَاحٍ مَطِيتُهُ فَأَقْسَمَ لَا يَرِيمُ
كَذَلِكَ كُلُّ ذِي سَفَرٍ إِذَا مَا تَنَاهَى عِنْدَ غَايَتِهِ يُقِيمُ

« يَقَالُ : أَنْخَتُ الْبَعِيرَ قَبْرَكَ ، وَلَا يَقَالُ قَنَاخَ ، وَهَذَا مِنْ بَابِ مَا اسْتَعْنَى عَنْهُ بِغَيْرِهِ ، وَلَا يَرِيمُ : لَا يَبْرَحُ ، وَقَوْلُهُ : كَذَلِكَ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ لِأَنَّ كُلَّ ذِي سَفَرٍ مُبْتَدَأٌ وَمُقِيمٌ خَبْرُهُ ، كَأَنَّهُ قَالَ : رَكَلَ مُسَافِرٌ إِذَا مَا انْتَهَى إِلَى غَايَتِهِ يُبْلَقُ عَصَاهُ كَذَلِكَ ، أَيْ مِثْلَ إِقَامَةِ اللُّؤْمِ فِيهِمْ ، وَقَدْ نَقَلَ الْبُحْتَرِيُّ هَذَا الْمَعْنَى إِلَى الْمَذْحَ فَقَالَ :

إِذَا مَا رَأَيْتَ الْمَجْدَ أَلْقَى رَحْلَهُ فِي آلِ طَلْحَةَ نَهْمٌ لَمْ يَتَحَوَّلِ ،

وقال جرير :

وَكَنتَ إِذَا نَزَلْتَ بَدَارِ قَوْمٍ رَحَلْتَ بِخَزِيَّةٍ وَتَرَكَتَ عَارَا
وقال :

تَمِيمٌ بِطَرِيقِ اللُّثْمِ أَهْدَى مِنَ الْقَطَا وَلَوْ سَلَكَتُ سُبُلَ الْمَكَارِمِ صَلَّتْ
وَقَالُوا فَيَمَنْ لَا يَصْلُحُ لِخَيْرٍ وَلَا شَرٍّ : فُلَانٌ أَمْلَسَ لَيْسَ فِيهِ مُسْتَقَرٌّ
لِخَيْرٍ وَلَا شَرٍّ . وَقَالُوا : فُلَانٌ مَا هُوَ إِلَّا بِرَطْبٍ فَيُعَصَّرُ وَلَا يَبْيَأِسُ فَيَسْكُتُ .
وَقَالُوا : شَرُّ النَّاسِ الَّذِي لَا يَتَوَقَّى أَنْ يَرَاهُ النَّاسُ مُسِيئًا ، وَقَدْ تَقَدَّمَ .
وقال الشاعر :

قَوْمٌ إِذَا خَرَجُوا مِنْ سَوَاءٍ وَاجْتَمَعُوا فِي سَوَاءٍ لَمْ يَخْبَأُوهَا بِأَسْتَارِ

الظن

وَلِتَفَشَى الْغَدْرُ وَالْمَكْرُ فِي هَذَا النَّاسِ مَدَحُوا الْاِخْتِرَاسَ وَالْخَذَرَ وَسُوءَ
الظَّنِّ بِالنَّاسِ . قِيلَ لِبَعْضِهِمْ : مَا الْحَزْمُ ؟ قَالَ : سُوءُ الظَّنِّ بِالنَّاسِ . وَقَالَ
الشاعرُ الْبَيْغَاءُ :

وَأَكْثَرُ مَنْ تَلَقَّى يَسْرُكَ قَوْلُهُ وَلَكِنْ قَلِيلٌ مَنْ يَسْرُكَ فِعْلُهُ
وَقَدْ كَانَ حُسْنُ الظَّنِّ بَعْضَ مَذَاهِبِي
فَأَدَّبَنِي هَذَا الزَّمَانُ وَأَهْلُهُ

وَقَالُوا عَلَيْكَ بِسُوءِ الظَّنِّ ، فَإِنْ أَصَابَ فَالْحَزْمُ ، وَإِنْ أَخْطَأَ فَالْإِسْلَامَةُ .
وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : إِنْ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ : دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ جُلَّةَ
صَوَابٍ . وَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ : فَرَّقَ مَا بَيْنَ عُمَرَ وَعُثْمَانَ أَنَّ عُمَرَ
أَسَاءَ ظَنَّهُ فَأَحْكَمَ أَمْرَهُ ، وَأَنَّ عُثْمَانَ أَحْسَنَ ظَنَّهُ فَأَهْمَلَ أَمْرَهُ . وَقِيلَ

لبعضهم : أسأت الظن ! فقال : إن الدنيا لما امتلأت مكارية وجب على العاقل أن يَمْلأها حذراً ...

ولما رأوا أن الظن هو الغالب على الناس وأنه لذلك يكاد يكون غريزة من الغرائز الإنسانية ، وأن تحقيقه ولا سيما بين الأصدقاء يُعَدُّ من الإفراط الممقوت ، وأنه لا يليق بمكارم الأخلاق ، ذمُّوه وتعوَّهوا على أهله ، قال تعالى : اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ . وقال سيِّدنا رسول الله : ثَلَاثَةٌ لَا يَسْلَمُ مِنْهُنَّ أَحَدٌ : الطَّيْرَةُ ، وَالظَّنُّ ، وَالْحَسَدُ ، قِيلَ : فما المَخْرُجُ مِنْهُنَّ يا رسول الله ؟ قال : إِذَا تَطَلَّيْتَ فَلَا تَرْجِعْ ، وَإِذَا ظَنَنْتَ فَلَا تُحَقِّقْ ، وَإِذَا حَسَدْتَ فَلَا تَبْغِ ... وقال صلوات الله عليه : يَا كُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ . وقال ابن الأثير في النهاية : أراد : إِيَّاكُمْ وَسُوءَ الظَّنِّ وَتَحْقِيقَهُ ، دُونَ مَبَادِيِ الظُّنُونِ الَّتِي لَا تُمْلِكُ وَخَوَاطِرِ الْقُلُوبِ الَّتِي لَا تُدْفَعُ ، وَقِيلَ : أراد : الشَّكَّ يَعْرِضُ لَكَ فِي الشَّيْءِ فَتُحَقِّقُهُ وَتَحْكُمُ بِهِ . وأكذب الحديث : أى حديث النفس ؛ لأنه يكون بإلقاء الشيطان في نفس الإنسان ، وقال المتنبي :

إِذَا سَاءَ فِعْلُ الْمَرْءِ سَاءَتْ ظُنُونُهُ وَصَدَقَ مَا يَعْتَادُهُ مِنْ تَوَهُُّمِهِ
وَعَادَى مُحِبِّهِ بِقَوْلِ عِدَائِهِ فَأَصْبَحَ فِي دَاجٍ مِنَ الشَّكِّ مُظْلِمِ

وقال شاعر :

مَنْ سَاءَ ظَنًّا بِمَا يَهْوَاهُ فَارَقَهُ وَحَرَّضَتْهُ عَلَى إِبَادِهِ التَّهَمُ

وَمِنْ هُنَا مَدَحُوا التَّثَبُّتَ وَالتَّغَافُلَ . وَتَرَى سَائِرَ عَقَرِيَّاتِهِمْ فِي الظَّنِّ فِي

باب الطبايع و باب الإخروانيات .

الشِّمَاتَةُ

والشِّمَاتَةُ : الفرح بِبَلِيَّةٍ تَنْزِلُ بِمَنْ تُعَادِيهِ ، تقول : شِمْتُ بِهِ يَشْمَتُ شِمَاتَةً وَشِمَاتًا ، وَأَشْمَتُهُ اللَّهُ بِهِ ، وفي القرآن الكريم : فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ ... وقد تقدم طَرَفٌ من عبقرياتهم في الشِّمَاتَةِ بالموت ، ومن عبقرياتهم في الشِّمَاتَةِ مطلقًا قول الفرزدق :

إِذَا مَا الدَّهْرُ جَرَّ عَلَى أَنْاسٍ حَوَادِثُهُ أَنَاخَ بآخرينا
فَقُلْ لِلشَّامِتِينَ إِنَّا أَفِيقُوا سَيَلْقَى الشَّامِتُونَ كَمَا لَقِينَا
وقيل لِأَيُّوبَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَيُّ شَيْءٍ كَانَ أَشَدَّ عَلَيْكَ فِي بِلَانِكَ ؟
قال شِمَاتَةُ الْأَعْدَاءِ .

الحَقْدُ

الحَقْدُ — كما جاء في اللسان — : إِمْسَاكُ الْعَدَاوَةِ فِي الْفَلَبِ وَالزَّبْصِ
لِفِرْصَتِهَا ، قال : والحَقْدُ : الضُّغْنُ . قال : وَحَقَّدَ عَلَىَّ يَحْقِدُ حِقْدًا ، وَحَقَّدَ
— بالكسر — حَقْدًا وَحِقْدًا فَهُوَ حَاقِدٌ ؛ فَالْحَقْدُ : الْفِعْلُ ، وَالْحِقْدُ : الْأَسْمُ ،
وَتَحَقَّدَ : كَحَقَّقَ ، قال جرير :

يَا عَذَنَ إِنَّ وَصَالَهُنَّ خِلَابَةٌ وَلَقَدْ جَمَعَنَ مَعَ الْبِعَادِ تَحَقُّدًا
« وبعد ، فَالْحَقْدُ عَلَى أَنَّهُ خَلَّةٌ لَا تَتَفَقُّ وَالنُّبْلُ وَالسُّودَدُ وَمَكَامٍ
الْأَخْلَاقِ فَإِنَّهُ دَلِيلُ الْحَيَوِيَّةِ ، وَهَنَ ثُمَّ يَكَادُ يَكُونُ خَلَّةً مَرَّ كَوْرَةً فِي الطَّبَاعِ ،
وَإِذَا كَانُوا قَدْ مَدَحُوهُ فَإِنَّمَا يَتَرَامُونَ — كما قلنا — إِلَى أَنَّهُ عُذْوَانُ الْحَيَوِيَّةِ وَأَن
مَنْ لَا يَحْقِدُ لَا يَشْكُرُ ، وَإِذَا هُم ذَهَبُوا ، فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا يَدْعُونَ إِلَى تَنَاسِيهِ وَأَن
مِنْ سُمُو الْأَخْلَاقِ أَنْ لَا يَحْمِلَ الْمَرْءُ الْحَقْدَ الْقَدِيمَ ، كما قال الْمُقَنَّنُ الْكِنْدِيُّ

واسمه محمد بن عُمَيْرَة ، وهو شاعر كِنْدِيّ إسلاميّ^(١) ، وكان أحسن الناس
وَجْهًا فإذا سَفَرَ لُقِيعَ ، أى أصابته العين ، فَيَمْرَضُ وَيَلْحَقُهُ عَنَتٌ ، فكان
لا يمشي إِلَّا مُقَنَّعًا ، قال من أبيات جَيِّدَة تراها في حماسه أبى تمام وغيرها :
ولا أَحْمِلُ الحِقْدَ القَدِيمَ عليهم
واليس رئيسُ القومِ مَنْ يَحْمِلُ الحِقْدَا

ذم الحقد ومدحه

أما عبقرياتهم في ذم الحقد : فمن ذلك ما يُروى : أنه قيل للأخنف بن
قيس : مَنْ أَسْوَدُ الناس ؟ فقال الآخرقُ في ماله المَطْرَحُ الحِقْدُ :
وقال ابن الرومي يَذِّمُه بعد أن مَدَحَه ، كما سيأتي :
يا مادحَ الحقدِ مُحْتالًا لَهُ شَهْرًا لقد سَلَكْتَ إِلَيْهِ مَسْلَكًا وَعَثَا^(٢)
لَنْ يَقْلِبَ العيبَ زَيْنًا مَنْ يُزِينُهُ حَتَّى يَرُدَّ كَبِيرًا عَانِيًا حَدَثَا^(٣)

(١) وهو صاحب هذه الايات الجيدة في صاحب السوء :
وصاحبُ السُّوءِ كالداءِ العيَاءِ إذا ما رَفَضَ في الجوفِ يَجْرِي هَاهُنَا وَهَنَا
يُلْبِي وَيُخَيِّرُ عن سَوَاتٍ صاحبه وما رأى عنده من صالحٍ دَفَنَّا
كمُهْرٍ سَوِءٍ إذا رَفَعَتْ سِيرَتَهُ رامَ الجِمَاحَ وإن خَفَضَتْهُ حَرَنَّا
إن يَحْيَ ذاكَ فَمَكُنْ منه بمَعْرِلة أو مات ذاكَ فلا تَعْرِفْ له جَنَنَّا
« داء عيَاء : لا يُبرأ منه ، ورفعت سيرته : حملته على أن يزيد في سرعة
سيره ؛ والجنن - بالتحريك - القبر »

(٢) وعث الطريق : تعسر سلوكه والكلام على المثل

(٣) عانيا : جاوز الحد

إِنَّ الْقَيْحَ ، وَإِنْ صَنَعْتَ ظَاهِرَهُ يَعُودُ مَا لَمْ مِنْهُ مَرَّةً شَعِثًا ^(١)
 كَمْ زَخَرَفَ الْقَوْلُ ذُو زُورٍ وَلَبَّسَهُ عَلَى الْقُلُوبِ وَلَكِنْ قَلَمًا لَبِثًا
 قَدْ أَبْرَمَ اللَّهُ أَسْبَابَ الْأُمُورِ مَعًا فَلَنْ تَرَى سَيِّئًا مِنْهُمْ مُنْتَكِبًا
 يَا دَاغِ الْخُقْدِ فِي ضِعْفِي جَوَانِحِهِ سَاءَ الدِّفْنُ الَّذِي أُمْسَتْ لَهُ جَدْنَا ^(٢)
 الْحُقْدُ دَاءٌ دَرِيٌّ لَا دَوَاءَ لَهُ يَرَى الْمَصْدُورَ إِذَا مَا جَرَّهُ حُرثًا ^(٣)
 فَاسْتَشْفِ مِنْهُ بِصَفْحٍ أَوْ مُعَاتَبَةٍ فَإِنَّمَا يَبْرَأُ الْمَصْدُورُ مَا نَفَثَا ^(٤)
 وَاجْعَلْ طِلَابَكَ بِالْأَوْتَارِ مَا عَظُمَتْ

وَلَا تَكُنْ لِصَغِيرِ الْأَمْرِ مُكْتَرِنًا
 وَالْعَفْوُ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَإِنْ جُرْمٌ مِنْ مُجْرِمٍ جَرَحَ الْإِكْبَادُ أَوْ فَرَمًا ^(٥)
 يَكْفِيكَ فِي الْعَفْوِ أَنَّ اللَّهَ قَرَّظَهُ وَحُبًّا إِلَى خَيْرٍ مَنْ صَلَّى وَمَنْ بُعِثَا
 شَهِدْتُ أَنَّكَ لَوْ أَذْنَبْتَ سَاءَكَ أَنْ
 تَلْقَى أَخَاكَ حَقُودًا صَدْرُهُ شَرْنَا ^(٦)

(١) شعث : منتشر مفرق

(٢) الجدت : القبر

(٣) حرث : هيج ، ويرى الصدور : يأكلها

(٤) المصدور : الذي يشتكي صدره ، وما في قوله : ما نفثا مصدرية ، ونفث : رمى
 بالنفثة وهو ما يلقيه المصدور من فيه وفي المثل : لا بد للمصدور أن ينفث وقد يستعار
 ذلك للبداعي كما هنا وكما ورد أن بعضهم قال لشاعر : متى تقول هذا الشعر ، فقال :
 أوستطيع المصدور أن لا ينفث ! أى لا يبرق ، شبه الشعر بالنفث لأنهما يخرجان
 من الفم .

(٥) الفرث : تفتيت الكبد بالغم والأذى

(٦) الشرث ههنا : الغليظ الخشن ، من شرث الكف غلظ وتشقق ، والشرث
 أيضا : الخلق البالي من كل شيء فلعله من هذا أيضا .

إِذْنٌ وَسَرَكَ أَنْ يَلْتَمِسَ الذُّنُوبَ مَعًا وَأَنْ تُصَادِفَ مِنْهُ جَانِبًا دَيْنًا
لَئِنْ إِذَا خَلَطَ الْأَقْوَامُ صَالِحَهُمْ بِسَيِّئِ الْفَعْلِ جَدًّا كَانَ أَوْ عَيْنًا
جَعَلْتُ صَدْرِي كظَرْفِ السَّبِيلِ حِينْتِذٍ يَسْتَخَالِصُ الْفِضَّةَ الْبَيْضَاءُ لَا الْخُبْنَا
وَلَسْتُ أَجْعَلُهُ كَالْحَرِيزِ أَمْدُوحَهُ بِحِفْظِ مَا طَابَ مِنْ مَاءٍ وَمَا خُبْنَا

وقال يمدح الحقد :

حَقَدْتُ عَلَيْكَ ذَنْبًا بَعْدَ ذَنْبٍ وَلَوْ أَحْسَنْتَ كَانَ الْحِقْدُ سُكْرًا
أَدِيمِي مِنْ أَدِيمِ الْأَرْضِ فَأَعْلَمَ أَيْمَى الرَّيْعِ حِينَ أُسِيءُ بَذْرًا
وَلَمْ تَكْ ، يَالِكَ الْخَيْرَاتُ ، أَرْضُ لِيُزْرَعَ خَرْبَقًا فَتُرِيْعَ بُرًّا
أَوْدَى إِنْ فَعَلْتَ الْخَيْرَ خَيْرًا إِلَيْكَ وَإِنْ فَعَلْتَ الشَّرَّ شَرًّا
وَلَسْتُ مُكَافئًا بِالْثُكْرِ عُرًّا وَلَسْتُ مُكَافئًا بِالْعُرِّ نُكْرًا
يُسَمَّى الْحِقْدُ عَيْبًا وَهُوَ مَذْحُحٌ كَمَا يَدْعُونَ حُلُولَ الْحَقِّ مُرًّا

« الخَرْبَقُ : نبات كالشَّصِّ ورَقُهُ أبيض وأسود ، والْبُرُّ : القمح »

وأراد يحيى بن خالد بن برمك وزير الرشيد أن يَضَعَ من عبد الملك
ابن صالح فقال له : يا عبد الملك بَلَّغْنِي أَنَّكَ حَقُودٌ فَقَالَ عبد الملك : أَيُّهَا
الوزير ، إِنْ كَانَ الْحِقْدُ هُوَ بَقَاءُ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ لَأَتَمَّا لِبَاقِيَانِ فِي قَلْبِي ، فَقَالَ
الرشيد : مَا رَأَيْتُ أَحَدًا احْتَجَّ لِلْحِقْدِ بِأَحْسَنَ عَمَّا احْتَجَّ بِهِ عَبْدُ الْمَلِكِ
وقال ابن الرومي يمدح الحقد أيضا وقد عابه عائب :

لَيْنَ كُنْتَ فِي حَفْظِي لِمَا أَنَا مُودَّعٌ

من الخير وَالشَّرُّ انْتَحَيْتَ عَلَى عِرْضِي

لَمَّا عِبْتَنِي إِلَّا بِفَضْلِ إِبَانَةٍ وَرُبَّ أَمْرِي يُزِرِّي عَلَى خُلُقِي مَحْضٍ
وَلَا عَيْبَ أَنْ تُجْزِيَ الْقُرُوضُ بِمِثْلِهَا بَلِ الْعَيْبُ أَنْ تَدَّانَ دَيْنًا وَلَا تَقْضِي

وخَيْرُ سَجِيَّاتِ الرِّجَالِ سَجِيَّةٌ تُؤْفِكُ مَا تُسَدِّى مِنَ الْقَرْضِ بِالْقَرْضِ
 إِذَا الْأَرْضُ أَدَّتْ رَيْعَ مَا أَنْتَ زَارِعٌ مِنَ الْبَذْرِ فِيهَا فَهِيَ نَاهِيكَ مِنْ أَرْضٍ
 وَلَوْلَا الْحُقُودُ الْمُسْتَكِنَاتُ لَمْ يَكُنْ لِيَنْقُضَ وَتَرَأَ آخِرَ الدَّهْرِ ذُو نَقِضٍ
 وَمَا الْحِقْدُ إِلَّا تَوَأْمُ الشُّكْرِ فِي الْفَتَى وَبَعْضُ السَّجَايَا يَمْتَهِنُ إِلَى بَعْضٍ
 فَحَيْثُ تَرَى حِقْدًا عَلَى ذِي إِسَاءَةٍ فَتَمَّ تَرَى شُكْرًا عَلَى حَسَنِ الْقَرْضِ
 وَفِي هَذَا الْقَدَرِ مِنْ عِبْقَرِيَّاتِهِمْ فِي الْحَقْدِ كِفَايَةٌ. وَتَرَى فِي بَابِ الطَّبَائِعِ
 مَا يَنْقَعُ غُلَّتُكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

الحسد

الْحَسَدُ وَقَانَا اللَّهُ شَرٌّ — دَاءٌ مِنَ الْأَدْوَاءِ الْمُنَاصِلَةِ الْحَبِثَةِ الشَّامَةِ فِي
 هَذَا النَّاسِ إِلَّا مَنْ عَصَمَ رَبُّكَ ، قَالَ عَلِيٌّ : الْحَسَدُ : أَنْ يَرَى الرَّجُلُ لِأَخِيهِ
 نِعْمَةً فَيَتَمَنَّى أَنْ تَزُولَ عَنْهُ وَتَكُونَ لَهُ دُونَهُ ، أَمَا الْغَبْطُ أَوْ الْغِبْطَةُ فَهِيَ :
 أَنْ يَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ لَهُ مِثْلُهَا وَلَا يَتَمَنَّى زَوَالَهَا عَنْهُ ، وَهِيَ كَمَا قَالَ الْإِمَامُ
 الْأَزْهَرِيُّ - : ضَرْبٌ مِنَ الْحَسَدِ ، وَلَكِنهَا أَخْفَى مِنْهُ ، قَالَ : أَلَا تَرَى أَنَّ النَّبِيَّ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا سُئِلَ : هَلْ يُضَرُّ الْغَبْطُ ؟ فَقَالَ : نَعَمْ ، كَمَا يُضَرُّ الْخَبْطُ
 فَأَخْبَرَ أَنَّهُ ضَارَ وَلَيْسَ كَضَرِّ الْحَسَدِ الَّذِي يَتَمَنَّى صَاحِبُهُ زَوَالَ النِّعَةِ عَنْ
 أَخِيهِ ، وَالْخَبْطُ : ضَرْبٌ وَرَقِ الشَّجَرِ حَتَّى يَتَحَاتَّ عَنْهُ ثُمَّ يَسْتَخْلَفُ مِنْ غَيْرِ
 أَنْ يُضَرَّ ذَلِكَ بِأَصْلِ الشَّجَرَةِ وَأَغْصَانِهَا

وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ...
 قَالَ الْإِمَامُ الْبَيْضاوِيُّ : مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ : أَيُّ مِنَ
 الْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ كَالْجَاهِ وَالْمَالِ ، قَالَ : لَا تَتَمَنَّوْهُ . فَلَعَلَّ عَدَمَهُ خَيْرٌ ، قَالَ :

والمقتضى للنعم كونه ذريعة إلى التحاسد والتعادي مُعْرِبةً عن عَدَم الرضا بما قَسَمَ الله له ، وأنه أَشبهَ لحصول الشيء له من غير طلب ، وهو مذهوم لأن تَمَنَّى ما لم يُقَدَّر له معارضة لحكم القدر وتمنى ما قدر له بغير كسب ضائع ومحال ؛ وقد نعى الله في غير ما آية على أولئك الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ،

وفي الحديث : لاحسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آتاء الليل وأطراف النهار ، ورجل آتاه الله قرآنا فهو يتلوه ... قال الإمام الأزهري : هو أن يتمنى الرجل أن يرزقه الله مالا يُنْفِقُ منه في سبيل الخير أو يتمنى أن يكون حافظاً لكتاب الله فيتلوه آتاء الليل وأطراف النهار ، ولا يتمنى أن يُرزأ صاحب المال في ماله أو تال القرآن في حفظه . وقال ثعلب : معناه ليس حسد لا يضر إلا في اثنتين ، أقول : ومعنى ذلك أن كل حسد ضار إلا في هاتين أى أن حسد صاحب المال ينفقه في سبيل الخير وحافظ القرآن يتلوه ، غير ضار ، لأن هذين على سبيل سواء يستحقان معه أن يُحسدا ، أى أن يُغبطا ...

وقال حكيم : الحسد من تعادى الطبائع واختلاف التركيب وفساد مزاج البنية وضعف عقْد العقل . والحاسد طويل الحسرات .

وقال حكيم : الحسد جرح لا يبرأ ، وحَسْبُ الحسود ما يَلْقَى . وقال الحسن البصري : يا ابن آدم ، لِمَ تَحْسُدُ أَخاك ؟ إن كان الله أعطاه لكرامته عليه ، فليَمَ تَحْسُدُ مَنْ أكرمه الله ؟ وإن كان غير ذلك فليَمَ تَحْسُدُ مَنْ صَبَّرَهُ إلى النار أو في الأثر : الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ، وقال علي بن أبي طالب : ما رأيت ظالماً أشبهَ بظالم من الحاسد ، نَفَسَ دائم ،

وعقل هائم، وحزن لازم، وقالوا: الحسود لا يسود... قال روح بن زنباع الجذامي: كنت أرى قوماً دوني في المنزلة عن السلطان يدخلون مدخل لا أدخلها، فلما أذهبت عني الحسد دخلت حيث دخلوا... وقال ابن المقفع: أقل ما لتارك الحسد في تركه أن يصرف عن نفسه عذاباً ليس بمذكرك به خطاً ولا غائظ به عدواً، فإنما لم تر ظالمًا أشبه بظلوم من الحاسد، طول أسف، ومخالفة كتابة وشدة تحرق، ولا يبرح زارياً على نعمة الله ولا يجحد لها مزالاً، ويكدر على نفسه ما به من النعمة فلا يجحد لها طعماً ولا يزال ساخطاً على من لا يترضاه ومتسخطاً لما لن ينال فوقه، فهو منغص المعيشة دائم السخطه مخروم الطلبة، لا بما قسم له يقنع ولا على ما لم يقسم له يغلب؛ والمحسود يتقلب في فضل الله مباشرة للسرور متنعفاً به ممهلاً به إلى مدة ولا يقدر الناس لها على قطع وانتقاص... وقال أبو تمام:

وإذا أراد الله نشر فضيلة
طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت
ما كان يعرف طيب عرف العود
لولا التخوف للعواقب لم تزل
للحاسد النعمي على المحسود
وقال البحتري:

ولن يستبين الدهر موضع نعمة
إذا أنت لم تدلل عليها بحاسد
وقال عبد الله بن المعتز:

اضرب على كيد الحسود دقان صبرك قاتله
فالنار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله

وقال ابن المقفع أيضاً: الحسد والحِرص دعامة الذنوب، فالحرص أخرج آدم عليه السلام من الجنة، والحسد نقل إبليس من جوار الله تعالى

وقال الجاحظ : من العدل المحض والإنصاف الصريح - الخالص - أن
تَحْطَ عن الحاسد نصف عقابه ، لأن ألم جسمه قد كفاك دُونَ شطر
غَيْظك ؛ وللجاحظ رسالة مطولة في الحسد تراها في رسائله
وقيل للحسن البصري : أَيَحْسُدُ الْمُؤْمِنُ أَخَاهُ ؟ قال : لا أَبَالِكَ ،
أَنَسِيتَ إِخْوَةَ يَوْسُفَ ؟ وقالوا : الحسود غَضَبَانُ عَلَى الْقَدَرِ ، وَالْقَدَرُ
لَا يُغْتَبَى - أَى لَا يَزِيلُ عَثْبَهُ : أَى لَا يَرْضِيهِ - أَخَذَ هَذَا الْمَعْنَى مِنْصُورٌ
الْفَقِيه فَقَالَ :

أَلَا قُلْ لِمَنْ بَاتَ لِي حَاسِدًا أَتَدْرِي عَلَى مَنْ أَسَأْتَ الْآدَبَ
أَسَأْتَ عَلَى اللَّهِ فِي فِعْلِهِ إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرْضَ لِي مَا وَهَبَ
وَقَالَ مَعَاوِيَةُ : كُلُّ النَّاسِ يُمْكِنُنِي أَنْ أَرْضِيَهُ ، إِلَّا الْحَاسِدَ الَّذِي لَا يَرُدُّهُ
إِلَى مَوَدَّتِي إِلَّا زَوَالُ نَعْمَتِي . وَقَالَ الْمَتَنِيُّ :

سِوَى وَجَعِ الْحَسَادِ دَاوٍ فَإِنَّهُ إِذَا حَلَّ فِي قَلْبٍ فَلَيْسَ بِمَحْوُلٍ
وَقَالَ آخَرُ :

كُلُّ الْعَدَاوَةِ قَدْ تُرْجَى إِمَاتَتُهَا إِلَّا عِدَارَةٌ مِنْ عَادَاكَ مِنْ حَسَدٍ
وَيَقَالُ : إِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَسْلُطَ عَلَى عَبْدِهِ عَدُوًّا لَا يَرْخُمُهُ سُلْطَانُ عَلَيْهِ
حَاسِدًا ... وَقَالَ الْعُتْبِيُّ - وَذَكَرَ وَلَدُ الَّذِينَ مَاتُوا - :

وَحَتَّى بَكَى لِي حُسَادُهُمْ وَقَدْ أَتَرَعُوا بِالْمَدْمُوعِ الْعُيُونَا
وَحَسْبُكَ مِنْ حَادِثٍ بَا مَرِيٍّ يَرَى حَاسِدِيهِ لَهُ رَاحِمِينَا
وَقَالُوا : مَنْ دَعَمَتْهُ نَفْسُهُ إِلَى تَرْكِ الدُّنْيَا فَلْيَنْظُرْ : هَلْ يَحْسُدُ أَحَدًا ، فَإِنْ
حَسَدَ كَانَ تَرْكُهُ عَجْزًا ، لِأَنَّهُ لَوْ زَهَدَ فِيهَا مَا حَسَدَ عَلَيْهَا
وَقَالَ الْبَحْتَرِيُّ :

مُسْتَرِيحُ الْأَحْسَادِ مِنْ كُلِّ ضَغْنٍ بَارِدُ الصَّدْرِ مِنْ غَلِيلِ الْحُسُودِ

وقيل لسفيان بن معاوية : ما أسرع حسدَ الناس إلى قومِكَ ! فقال :
إنَّ العرانيين تلقاها مُحَسَّدَةً ولا ترى للناس حُسَاداً^(١)

وقال آخر :

وترى اللبيب مُحَسَّدًا لم يجترِمْ شَتَمَ الرجال وعِزُّهُ مَشْتَوْمُ
حسدوا الفقى إذ لم ينالوا سعيه فالقومُ أعداءُ له وخصومُ
كضرائر الحسناء قُلن لوجهها حسدا وظلماً : إنه لديمُ

وقال آخر :

إن تحسدوني فإني لا ألومكم

قَبِلِي مِنَ النَّاسِ أَهْلُ الْفَضْلِ قَدْ حَسَدُوا

فدام لى ولهم مابى وما بهم ومات أكثرنا غيظا بما يحسدُ
أنا الذى تجِدُونى فى حلوقكمُ لا أرتقى صَدْرًا عنها ولا أريدُ^(٢)

وخطب الحجاج يوماً برُسْتَقْبَاز بقولِ سُوَيْدِ بْنِ أَبِي كَاهِل — شاعر

جاهلى إسلامى — :

كيف يرجون سقاطى بعد ما جَلَّلَ الرَّأْسَ بِيَاضٍ وَصَلَعُ
رُبِّ مَنْ أَنْصَجَتْ غِيظًا صَدْرُهُ قَدْ تَمَنَّى لى مَوْتًا لَمْ يُطْعُ
ويرانى كالشَّجَا فى حَلْقِهِ عِيسَاءَ تَخْرُجُهُ مَا يُنْسَزَعُ
مُزِيدًا يَخْطُرُ مَا لَمْ يَرْنى فَإِذَا أَسْمَعْتُهُ صَوْتِي أَنْقَمْعُ

(١) عرانيين القوم : سادتهم وأشرافهم . وأصل العرنيين الانف حيث يكون فيه

الشم يقال : هم شم العرانيين

(٢) لا أرتقى صدرًا ولا أريد : أى فأنا كالشجى الدائم الذى لا منجاة لأعدائى منه

لم يَضُرَّنِي غيرَ أَنْ يَحْسُدَنِي

فَهُوَ يَزُقُّوْهُ مِثْلَ مَا يَزُقُّوْهُ الضُّوْعُ ^(١)

وَيُحْيِيْنِي إِذَا لَا قِيَمَتَهُ وَإِذَا يَخْلُوْهُ لَهُ لِحْيٌ رَّتَعُ

قَدْ كَفَانِي اللهُ مَا فِي نَفْسِهِ وَإِذَا مَا يَكْفِيْ شَيْئًا لَا يُضَعُ

وقال ابن الرومي لصاعد بن مخلد :

وَصِدِّ لَكُمْ لَا زَالَ يَسْفُلُ جَدُّهُ وَلَا بَرَحَتْ أَنْفَاسُهُ تَتَصَعَّدُ ^(٢)

يَرَى زَبْرِجَ الدُّنْيَا يُزِفُ إِلَيْكُمْ

وَيُغْضِيْ عَنْ اسْتِحْقَاقِكُمْ فَهُوَ يُفَادُ ^(٣)

وَلَوْ قَاسَ بِاسْتِحْقَاقِكُمْ مَا مُنِحْتُمْ لِأَطْفَاءِ نَارٍ فِي الْحَشَا تَتَوَقَّدُ

وَأَنْتَ مِنْ عِقْدِ الْعَقِيلَةِ جِيْدَهَا وَأَحْسَنُ مِنْ سِرْبَالِهَا الْمُتَجَرَّدُ ^(٤)

وقال الأصمعي : رأيت أعرابياً قد أتت له مائة وعشرون سنة ،

فقلت له : ما طَوَّلَ عُمرُكَ ؟ فقال تركتُ الحسدَ فبقيتُ . وكانوا يقولون :

سِتَّةٌ لَا يَخْلُونُ مِنَ الْكَاتِبَةِ : رَجُلٌ افْتَمَرَ بَعْدَ غَيٍّ ، وَغَيٌّ يُخَافُ عَلَى مَا إِيَّاهُ النَّوَى

— الهلاك والضياح — وحقودٌ ، وحسودٌ ، وطالبٌ مرتبسةٌ لا يبلُغُها قَدْرُهُ

وُخْاطُ الْأَدْبَاءِ بِغَيْرِ أَدَبٍ .

ومن ألفاظهم في وصف الحسد : قَدْ دَبَّتْ عَقَارِبُ الْحُسْدِ ، وَكُمُنَتْ

(١) زقا الديك والطائر ونحوهما : صاح ، وكذلك الصبي إذا اشتد بكأوه ، والضوع

طائر من طير الليل إذا أحس بالصباح صدح

(٢) جدّه : حظّه

(٣) يفاد : يحرق فؤاده

(٤) يقول : إن جيد العقيلة أجمل من العقد الذي يظن أنه يزينه ، والمتجرد -

أي الجسم العريان - أجمل من السربال ، وهو القميص

أَفَاعِيهِمْ بِكُلِّ مَرَصَدٍ : فَلَانٌ قَدْ وَكَلَّ بِي لِحْظًا يَنْتَظِلُ بِأَسْهُمِ الْحَسَدِ ...



ومن وصاياهم في باب الحذر من الأعداء الحسد قول أعرابي يعظ رجلاً : وَيَحْتَكُ ، إِنْ فَلَانًا وَإِنْ ضَحِكَ إِلَيْكَ ، فَإِنَّهُ يَضْحَكُ مِنْكَ ، وَإِنْ أَظْهَرَ الشَّفَقَةَ عَلَيْكَ ، إِنْ عَقَّارَبَهُ لَتَسْرِىَ إِلَيْكَ ، فَإِنْ لَمْ تَتَّخِذْهُ عَدُوًّا فِي عَلَانِيَتِكَ فَلَا تَجْعَلْهُ صَدِيقًا فِي سِرِّيَتِكَ ...

وحذر بعض الحكماء صديقاً له صحبته رجل ، فقال : احذر فلاناً ، فإنه كثير المسألة ، حسن البحث ، لطيف الاستدراج يحفظ أول كلامك على آخره ، ويعتبر ما أخرت بما قدّمت ، فلا تُظهِرَنَّ له المخافة فيرى أنك قد تحرّرت . واعلم أن من يقطّعة الفطنة لإظهار الغفلة مع شدة الحذر . فبأنه مباتة الآمن ، وتحفظ منه تحفظ الخائف . فإن البحث يُظهر الخفي الباطن ، ويُبدي المستكن الكامن .

هذا ، وقد عقد الإمام الغزالي للحسد باباً زاخراً في كتابه الإحياء حال فيه على طريقته هذا الداء - داء الحسد - وبين أسبابه وأعراضه وعلاجه ولماذا كان شائعاً بين الأقران والإخوة والأقارب فارجع إليه إذا أردت التوسع في هذا الباب ، ولنختار منه هذه الحكاية الطريفة ، قال : كان رجل يغشى بعض الملوك ، فيقوم بحذاء الملك فيقول : أَحْسِنْ إِلَى الْحَسَنِ بِإِحْسَانِهِ ، فَإِنَّ الْمُسَىءَ سَيَكْفِيكَ إِسَاءَتَهُ ، فَحَسَدَهُ رَجُلٌ عَلَى هَذَا الْمَقَامِ ، وَذَلِكَ الْكَلَامُ ، فَسَعَى بِهِ إِلَى الْمَلِكِ فَقَالَ : إِنْ هَذَا الَّذِي يَقُومُ بِحِذَائِكَ وَيَقُولُ مَا يَقُولُ ، زَعَمَ أَنَّ الْمَلِكَ أَبْخَرُ ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ : وَكَيْفَ يَصُحُّ ذَلِكَ عِنْدِي ؟ قَالَ تَدْعُوهُ إِلَيْكَ ، فَإِنَّهُ إِذَا دَنَا مِنْكَ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى أَنْفِهِ لِكَلَّا يَشُمَّ رِيحَ الْبَخَرِ ، فَقَالَ لَهُ :

انصرف حتى أنظر ، فخرج من عند الملك ، فدعا الرجل إلى منزله فأطعمه طعاماً فيه ثوم ، فخرج الرجل من عنده ، وقام بجذاء الملك على عادته ، فقال : أَحْسِنُ إِلَى الْمُحْسِنِ بِإِحْسَانِهِ فَإِنَّ الْمُسِيءَ سَيَكْفِيكَ إِسَاءَتَهُ ، فقال له الملك : آذُنُ مَنِي ، فدنا منه ووضع يده على فيه ، مخافة أن يَشَمَّ الملك منه رائحة الثوم فقال الملك في نفسه : ما أرى فلاناً إلا قد صدق ، وكان الملك لا يكتب بخطه إلا بجائزة أو صلة ، فكتب له كتاباً بخطه إلى عامل من عماله : إذا أتاك حامل كتابي هذا فاذبحه واسلخه وأحش جلدته تبنا وأبعث به إلى ، فأخذ الكتاب وخرج ، فلقى الرجل الذي سعى به فقال : ما هذا الكتاب ؟ قال : خط الملك لي بصلة ، فقال : هب لي ، فقال : هوك ، فأخذه ومضى إلى العامل ، فقال العامل : في كتابك : أن أذبحك واسلخك ، قال : إن الكتاب ليس هو لي ، فالله الله في أمرى حتى تراجع الملك ، فقال : ليس لكتاب الملك مراجعة فذبحه وسلخه وحشا جلدته تبنا وبعث به ، ثم عاد الرجل إلى الملك كعادته ، وقال مثل قوله ، فعجب الملك وقال : ما فعل الكتاب ؟ فقال : لقيني فلان فاستوهبه مني ، فوهبته له ، قال الملك : إنه ذكر لي أنك تزعم أني أبخر ، قال : ما قلت ذلك ، قال : فلم وضعت يدك على فيك ؟ قال : لأنه أطعمني طعاماً فيه ثوم ، فكرهت أن تشمه ، قال : صدقت ، ارجع إلى مكانك فقه . كُفِيَ المسيءُ إِسَاءَتَهُ ... ومثل هذه الحكايات كثير ويصح أن توضع في باب السعاية والمكر ، وعاقبة الماكرين .

« وبعد » فإن ما نورد ههنا من عبقرياتهم في الحسد والحقد وما إليهما إنما هو قليل من كثير تراه في باب الطبائع وإنما نورد ما نورد من هذه العبقریات لنستوفي باب العداوات ..

المزاح

ولأن المزاح في الكثير الأعم الأغلب مدرجة البغضاء رأينا أن نورد هنا صدرا من عبقرياتهم فيه .

قال الزيدى شارح القاموس : المزاح : المباشطة إلى الغير على جهة التلطف والاستعطاف دون أذية ، حتى يخرج الاستهزاء والسخرية . قال : وقد قال الأئمة : الإكثار منه والخروج عن الحدّ يحلّ بالمروءة والوقار ، والتنزه عنه والتقبض يحلّ بالسنة .

ويقال : مزاح يمزح مَزَاحًا ومزاحًا ومزاحًا ومزاحة ، وقد مازحه مُمَازَحَةً ومزاحا ، والاسم المزاح بالضم والمزاحة أيضا :

نهيهم عن المزاح

جاء في الأثر : إياك والمزاح فإنه يذهب بهائم المؤمنين ويسقط مروءته ويحترق غضبه .

وقالوا : المزاح مجلبة للبغضاء . مثلبة للبهائم ^(١) : فطعة للإخاء .

وقالوا : المزاح أوله فرح وآخره ترح ، وهو نقائص السفهاء مثل نقائص الشعراء ^(٢) .

وقالوا : لا تمارح صغيرا فيتجترئ عليك ، ولا كبيرا فيحقد عليك

(١) مثلبة : منقصة ومسبة

(٢) القبيضة في الشعر : ما ينقض به والجمع النقائص ومن ثم قالوا : نقائص جرير والفرزدق ، وأصل النقض : إفساد ما أبرمت من عقد أو بناء ومنه المماقضة في القول وهو أن ينقض الآخر ما قاله الأول

وقال مُسَعَّرُ بْنُ كَذَامٍ لَابْنِهِ :

وَلَقَدْ حَبَبْتُكَ يَا كِدَامُ نَصِيحَتِي فَاسْتَمِعْ لِقَوْلِ أَبِي عَلِيكَ شَفِيقِ
أَمَّا الْمَزَاحَةُ وَالْمِرَاءُ فَدَعُهُمَا خُلُقَانِ لَا أَرْضَاهُمَا إِصْدِيقِ^(١)
وَلَقَدْ بَلَوْتُهُمَا فَلَمْ أَحْمَدُهُمَا لِمُحَاوِرِ تَجَارٍ وَلَا لِرَفِيقِ
وَقَالُوا: الْمَزَاحُ سِبَابُ النَّوْكِ^(٢)

وقال عُمرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: لَا يَكُونُ الْمَزَاحُ إِلَّا مِنْ سَخَفٍ أَوْ بَطَرٍ.
وَقَالُوا: الْغَالِبُ فِيهِ وَارِثٌ. وَالْمَغْلُوبُ نَائِرٌ. وَقَالَ ابْنُ نَوَاسٍ:

رُبَّمَا اسْتَفْتَحَ بِالْمَزْحِ مَغَالِيقَ الْحِمَامِ

حمدهم القصد في المزح ومُزَاحُ الْأُمَثَلِ

جاء في الْأَثَرِ: إِنِّي لَا مَزْحُ وَلَا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا...

وَمِنْ مُزَاحِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ مَا رَوَى: أَنَّ عَجُوزًا مِنَ الْأَنْصَارِ أَتَتْهُ فَقَالَتْ:
يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ لِي بِالْمَغْفِرَةِ، فَقَالَ: أَمَّا عَلِمْتُ أَنَّ الْجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا
الْعَبَّائِرُ؟ فَصَرَخَتْ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ وَقَالَ: أَمَّا قَرَأْتَ الْفَرَّانَ؟ «إِنَّا
أَنْشَأْنَاهُنَّ لِإِنْشَاءٍ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا عُرُبًا أَتْرَابًا»^(٣)

وَأَتَتْهُ أُخْرَى فِي حَاجَةٍ لَزَوْجِهَا فَقَالَ لَهَا: وَمَنْ زَوْجُكَ؟ فَقَالَتْ:
فُلَانٌ، فَقَالَ لَهَا: الَّذِي فِي عَيْنِهِ بَيَاضٌ؟ فَقَالَتْ: لَا، فَقَالَ: بَلَى، فَانْصَرَفَتْ
تَجَحَّى إِلَى زَوْجِهَا، وَجَعَلَتْ تَتَأَمَّلُ عَيْنَيْهِ، فَقَالَ لَهَا: مَا شَأْنُكَ؟ فَقَالَتْ:

(١) المراء: الجدال وترى عبقرياتهم في المراء في كتاب العلم والآداب

(٢) الحق (٣) عرب جمع عروب وهي: المرأة الحسنة المتحبة إلى زوجها

المطبعة له، أو العاشقة، أو المغتيلة، أو الغنجة. والأترب: الأمثال

أخبرني رسول الله أن في عينيك بياضا ، فقال : أما ترين بياض عيني
أكثر من سوادهما !

وقال صلوات الله عليه لبني كان لأبي طلحة الأنصاري ، وكان له
نفر^(١) فأت : ما فعل النغير يا أبا عمير ؟
وقالوا : الناس في سجن ما لم يمتازحوا .

وقال رجل لأبي عبيدة . المزاح سبة ، فقال : بل سنة لمن يحسنه .

يا ساعتي في مجوني قد طببت فيك وطبت

إني إذا ضاق صدري قطعت بالشخف وقي

وقال سعيد بن العاص لابنه : أقتصد في مزاحك فالإفراط فيه يذهب
البهاء ويَجَرِّي عليك السفهاء ، وتركه يقبض الموارسين ويوحش المخالطين

نهيهم عن الغضب في المزاح

قال ابن سيرين : ليس من حسن الخلق الغضب من المزاح

الممدوح بأن فيه الجِدَّ والهزل

قال شاعر :

أخو الجِدِّ إن جاددت أرضاك جِدَّهُ

ودُو باطل إن شئت أهلك باطله

وقال أبو تمام :

الجِدُّ شيمته وفيه فُكاهةٌ سَجَّح ولا جد لمن لم يَلْمَبِ^(٢)

(١) النفر : الببل (٢) السجج : اللين السهل

عذر من يضحك وهو محزون

❖ وقد يَضْحَكُ الْمُوتُورُ وَهُوَ حَزِينٌ ❖

وقال آخر :

وَرُبَّمَا ضَحِكَ الْمَكْرُوبُ مِنْ عَجَبِ السُّنِّ أَضْحَكَ وَالْأَحْشَاءُ تَضْطَرُّمُ

نهيهم عن كثرة الضحك

في الآثار : إِيَّاكَ وَكَثْرَةُ الضَّحِكِ فَإِنَّهَا تُمِيتُ الْقَلْبَ وَتُورِثُ الدَّسِيَانَ .
وفيه أيضاً : وَبِئْسَ الَّذِي يُحَدِّثُ فَيَكْذِبُ لِيُضْحِكَ بِهِ الْقَوْمَ ،
وَبِئْسَ لَهُ ، وَبِئْسَ لَهُ .

وقال عمرُ بن الخطاب : مَنْ كَثُرَ ضَحِكُهُ قَلَّتْ هَيْبَتُهُ

وقال علي : إِذَا ضَحِكَ الْعَالَمُ ضَحَكَةً مَجَّ مِنَ الْعِلْمِ نَجَّةٌ .

وقالوا : كَثْرَةُ الضَّحِكِ تُورِثُ الرُّعُونَةَ .

وقيل لأبي العيَّان : فَلَانُ يَضْحَكُ مِنْكَ ! فَقَالَ : إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا

كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ . وَهَذَا مِنَ الْأَجُوبَةِ الْمُسَكَّنَةِ ، وَكَانَ

أَبُو الْعِيَّانِ ذَا نَوَازِرٍ .

إيراد جد في مسلك هزل

قال خالد بن صفوان : رَمَانِي بِأَصْلَبَ مِنَ الْجَنْدَلِ ، وَتَشَقَّقْنِي بِأَحَرَّ مِنَ

الْحُرْدَلِ ، ثُمَّ قَالَ إِنِّي أُمَازُحُكَ !

لِي صَاحِبٌ لَيْسَ يَخْلُو لِسَانَهُ مِنْ جِرَاحِي

يُجِدُّ تَمْزِيقَ عِرْضِي عَلَى سَيْلِ الْمَزَاحِ

صدر من عبقرياتهم في الغيبة والنميمة

ولأن الغيبة والنميمة مدرجتان غالباً للعداء بادرنا بإيراد صدر من عبقرياتهم في هاتين الخلّتين الذمّيتين .

حقيقة الغيبة والنميمة

الغَيْبَةُ الاسم من الاغتيال وهو : أن يتكلم خلفَ إنسانٍ مَسْتُورٍ بِسُوءٍ أو بما يَفُهمُ لوسمته وإن كان فيه ، فإن كان صدقاً فهو غَيْبَةٌ وإن كان كذباً فهو البَهْتُ والبُهتان . كذلك جاء عن سيدنا رسول الله صلوات الله عليه . وقال بعضُ الفقهاء : الغَيْبَةُ : أن تذكرَ الإنسانَ بما فيه من العيب من غير أن تُخَوِّجَ إلى ذلك ، وفي هذا احترازٌ مما يقوله الشاهد عند الحاكم . والنميمة : نقلُ الحديث من قوم إلى قوم على جهة الإفساد والشر ، ونَمَّ الحديثُ يَنْمُو وَيَنْمُو نَمًّا : نقله ، والاسم النميمة ؛ والنَّمْتُ : تمام ، ويقال للنمّام : القتات يقال : قَتَّ : إذا مشى بالنميمة ، ويقال له : قَسَّاسٌ ودرّاجٌ وغمّازٌ وهمازٌ ومائسٌ وممّاسٌ .

ذم الغيبة والنميمة

قال الله جل شأنه : وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا ، يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ نَيْمًا فَكَرِهْتُمُوهُ . « قوله سبحانه : يُحِبُّ أَحَدُكُمْ ... الآية : تمثيلٌ وتصور لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أنظع وجه وأخفش ، قال الإمام الزمخشري : وفيه مبالغات شتى : منها الاستفهام الذي معناه التقرير ، ومنها جعلُ ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالحبة ، ومنها إسنادُ الفعل إلى

أجدم والإشعار بأن أحداً من الآخدين لا يحب ذلك ، ومنها أنه لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان حتى جعل الإنسان أخا ، وحتى جعل الأخ ميتاً . قال قتادة : كما تكره إن وجدت جيفة مدودة أن تأكل منها فأكره لحم أخيك وهو حي .

وفي الحديث : « إن الغيبة أشد من الزنا » قيل : كيف ذلك ؟ قال : لأن الرجل يزني فيتوب ، فيتوب الله عليه ، وصاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه ، وفي الحديث المرفوع : أن امرأتين صامتا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وجعلتا تغتابان الناس فأخبر النبي بذلك فقال : صامتا عما أحلّ لهما وأفطرتا على ما حرم الله عليهما . واغتاب رجل رجلاً عند قتيبة بن مسلم فقال قتيبة : أمسك أيها الرجل ، فوالله لقد تلبّظت بمضغة طالما لفظها الكرام .

وقال علي بن الحسين رضي الله عنه : إياك والغيبة فإنها إدام كلاب النار وهذا تمثيل جميل ، وقال الشاعر :

لَا تَهْتِكُنْ مِنْ مَسَاوِي النَّاسِ مَا سَتَرُوا فَيَهْتِكَ اللَّهُ سِتْرَهُ مِنْ مَسَاوِيكَ
وَإِذَا كُرُتَ تَحَاسِنَ مَا فِيهِمْ إِذَا ذُكِرُوا وَلَا تَعِبْ أَحَدًا مِنْهُمْ بِمَا فِيكَ
وقالوا : الغيبة مرعى اللثام وجهد العاجز .

وقال تعالى « هَمَزَ مَشَاءِ بَنِيهِمْ »

وقال سيدنا رسول الله : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يرَفَقَنَّ إلينا عورة أخيه المؤمن ... وقال صلى الله عليه وسلم : لا يَرَا حَ الْقَتَاتِ رَاحَةَ الْجَنَّةِ . والفتات : النمام ،

من سمحت نفسه بأن يكون في حلٍّ

ومن لا تسمح نفسه

كان أبو الدرداء رضى الله عنه إذا خرج يقول : اللهم إني قد تصدّقتُ
بِعِرْضِي عَلَى عِبَادِكَ .
وقال كُثَيْرُ عَزَّة :

هَيْئَتَا مَرِيئًا غَيْرَ دَاءٍ مُخَايِرٍ لِعَزَّةٍ مِنْ أَعْرَاضِنَا مَا اسْتَحَلَّتْ
وَ خَايَرَهُ الدَّاءُ : خَالِطَ جَوْفَهُ ،

وقيل لرجل : فلانُ شَتَمَكَ واغتابَكَ ، فقال : هو في حلٍّ . فقيل : أتَحِلُّ
مِنْ اغْتَابِكَ وَبِهِ يَثْقُلُ مِيزَانُكَ ؟ فقال : لَا أَحِبُّ أَنْ أَثْقَلَ مِيزَانِي
بِأَوْزَارِ إِخْوَانِي .

وقال رجلٌ لابن سيرين : قد رَأَيْتُ دَنَكًا فَاجْعَلْنِي فِي حِلٍّ ، فقال : لَا أَحِلُّ
مَاحَرَمَ اللَّهِ عَلَيْكَ . أَمَا مَا كَانَ إِلَى فَهَوِّ لَكَ .

من قلت مبالاته بمن اغتابه

قيل لحكيم : فلانٌ يَشْتِمُكَ بِالْغَيْبِ ، فقال : لو ضَرَبَنِي بِالسَّيَاطِ فِي
الْغَيْبِ لَمْ أَبَالِ بِهِ .

وقال شاعر قديم وأنشد هذا الشعر لسيدنا رسول الله العلاء بن الحضرمي :
حَتَّى ذَوَى الْأَضْغَانِ تَسْبِ قُلُوبُهُمْ تَحِيَّتَكَ الْقُرْبَى فَقَدْ تُرْفَعُ النَّعْلُ
وإن دَحَسُوا بِالْشَّرِّ فَاعْفُ تَسْكَرَمَا وإن خَلَسُوا عَنْكَ الْحَدِيثَ فَلَا تَسْلُ
فَابِ الذِّى يُؤْذِيكَ مِنْهُ سَمَاعُهُ وإن الذِّى قَالُوا وَرَأَاكَ لَمْ يُقْلُ

«دحس بين القوم : أفسد بينهم ، وخدسوا : أخفوا ، يريد : إن فعلوا الشر من حيث لا تعلمه ، وقد تقدمت هذه الآيات .
وقال المتوكلُ الخليفة العباسي لأبي العيناء : ما بقي أحدٌ إلا آغتابك !
فقال :

إِذَا رَضِيتَ عَنِّي كِرَامُ عَشِيرَتِي فَلَا زَالَ غَضَبَانَا عَلَى لُئَامِهَا
وقيل لرجل : فلانٌ يغتابك : فقال : دَعْنِي يَسْتَرْفَعْنِي اللَّهُ بِذَلِكَ ، فَمَنْ
أَكْثَرَتِ النَّاسُ فِيهِ الْوَقِيعَةَ رَفَعَهُ اللَّهُ ، وَإِنْ بَنَى أُمَّيَّةً مَازَالُوا يَشْتُمُونَ عَلَيَّ
ابْنُ أَبِي طَالِبٍ سِتِّينَ سَنَةً فَلَمْ يَزِدْهُ اللَّهُ إِلَّا رِفْعَةً . وَقِيلَ لآخر ذلك فقال :
* وَلَمْ يَمَحُ مِنْ نُورِ النَّبِيِّ أَبُو جَهْل *
وقيل لآخر مثله فقال : لا ضير ، إنه أراد أن يتمحن وُدِّي ...

ذم ناقص يغتاب فاضلا

قال المتنبي :

وَإِذَا أَتَكَ مَذْمُومٌ مِنْ نَاقِصٍ فَهِيَ الشَّهَادَةُ لِي بِأَنِّي كَامِلٌ
وقبله يقول أبو تمام :
لَقَدْ آسَفَ الْأَعْدَاءُ فَضْلُ ابْنِ يُوسُفَ
وَذُو النَّقْصِ فِي الدُّنْيَا بِذِي الْفَضْلِ مُوَلَّعُ
وقبل أبي تمام يقول مروان بن أبي حفصة :
مَا ضَرَّنِي حَسَدُ اللَّئَامِ وَلَمْ يَزَلْ ذُو الْفَضْلِ يَحْسُدُهُ ذُرُو النَّقْصِيرِ
وأصل هذا المعنى من قول الطرماح بن حكيم :
لَقَدْ زَادَنِي حُبًّا لِنَفْسِي أَنِّي بَغِيضٌ إِلَى كُلِّ امْرِئٍ غَيْرِ طَائِلِ

وَأَنْتَى شَقِيٌّ بِاللَّثَامِ وَلَا تَرَى شَقِيًّا بِهِمْ إِلَّا كَرِيمَ السَّمَائِلِ
وقد تقدم .

وقالوا : كفى بالمرء شرًّا أن لا يكون صالحاً وهو يقع في الصالحين .
وبلغ الأحنف بن قيس أن رجلاً يغتابه فقال : «عَيْثُهُ تَقْرِضُ جِلْدًا
أَمْلَسَا ...» عَيْثُهُ تصغير عَيْثٍ وهي دُوبِيَّةٌ تلحس الثياب والصوف وأكثر
ما تكون في الصوف ، وهذا مثل قد يضرب للرجل يجتهد أن يُؤَثَّرَ في
الشيء فلا يقدرُ عليه »

وما يتصل بهذا قولهم :

❖ وما زالت الأشرافُ تُهَجَّى وتُمدَحُ ❖
❖ إِنَّمَا الْغِيَةُ تَلْقِيحُ الشَّرَفِ ❖ وقولهم :

من رمى غيره بعيه

من هذا قولهم : رَمَتْنِي بِدَائِيهَا وَأَنْسَلْتُ ^(١)

وقولهم : عَيْرٌ بُجَيْرٌ بُجْرَةٌ وَنِسَى بُجَيْرٌ خَبَرَهُ . ، قال المُفَضَّلُ الصَّبِي :
بُجَيْرٌ وَبُجْرَةٌ كانا أخوين في الدهر القديم ولهما قصة ذكرها ، وقال الأزهري
بُجَيْرٌ تصغير الأبحر وهو النَّاتِي الشُّرَّة والمصدر : البُجر فالمعنى : أن ذا
بُجَيْرَةٍ في سُرَّتِهِ عَيْرٌ غيره بما فيه « وقولُ السيد المسيح ما معناه : أُبْصِرُ
الْقَذَاةَ فِي عَيْنِ أَخِيكَ وَتَدَعِ الْجِدْعَ الْمُعْتَرِضَ فِي خَلْقِكَ »

اغتياب المرء غيره يدل على عيبه

قولوا : مَنْ وَجَدْتُمُوهُ عَيَابًا وَجَدْتُمُوهُ مَعِيًّا ، لِأَنَّهُ يَعْيبُ النَّاسَ

(١) إذا أردت الوقوف على أصل هذا المثل فإلى أمثال الميداني

بِفَضْلِ عَيْبِهِ . وفي هذا المعنى يقول الشاعر :
وَيَأْخُذُ عَيْبَ النَّاسِ مِنْ عَيْبِ نَفْسِهِ مُرَادُ لَعْمَرَى مَا أَرَادَ قَرِيبُ
وَقَالُوا : أَعَرَفَ النَّاسَ بِعَوَارِ النَّاسِ الْمُعَوَّرِ . « الْعَوَارُ : الْعَيْبُ ،
وَالْمُعَوَّرُ : ذُو الْعَيْبِ الْقَبِيحِ السَّرِيرَةِ »

وَاغْتَابَ رَجُلٌ آخَرُ عِنْدَ بَعْضِ الْأَشْرَافِ ، فَقَالَ لَهُ : يَا هَذَا ، أَوْحَشْتَنَا
مِنْ نَفْسِكَ ، وَأَيَّاسْتَنَا مِنْ مَوَدَّتِكَ ؛ وَدَلَّلْتَنَا عَلَى كَثْرَةِ عُيُوبِكَ بِمَا تَذَكَّرُ مِنْ
عُيُوبِ النَّاسِ ، لِأَنَّ الطَّالِبَ لِلْعُيُوبِ إِنَّمَا يَطْلُبُهَا بِقَدْرِ مَا فِيهِ مِنْهَا
وَقَالَ شَاعِرٌ :

وَأَجْرًا مِنْ رَأَيْتُ بَظْهَرَ عَيْبٍ عَلَى عَيْبِ الرِّجَالِ ذُؤُوعُ الْعُيُوبِ
يَقُولُ : أَجْرًا النَّاسَ عَلَى عَيْبِ النَّاسِ بَظْهَرَ الْعَيْبِ هُمْ ذُؤُوعُ الْعُيُوبِ ،
وَالظَّهْرُ : مَا غَابَ عَنْكَ ،

وَمَا يَذْكُرُ هُنَا قَوْلُ بَعْضِ الْحُكَمَاءِ : الْأَشْرَارُ يَتَتَبَعُونَ مَسَاوِي النَّاسِ
وَيَتَرَكُونَ مَحَاسِنَهُمْ ، كَالذُّبَابِ يَتَتَبَعُ الْمَوَاضِعَ الْفَاسِدَةَ مِنَ الْجَسَدِ وَيَتْرَكُ
الصَّحِيحَةَ .

تشهى الغيبة واستطابتها

قَالُوا فِي ذَلِكَ : الْغِيْبَةُ فَاكِهَةُ النَّسَاكِ وَالْقُرَاءِ ...
وَقَصَدَ رَجُلٌ إِلَى ابْنِ عَمِّهِ مُسْتَرْفِدًا ، فَأَحْسَنَ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا رَجَعَ سُئِلَ ،
فَقَالَ : مَنَعَنِي التَّلَذُّذُ بِالْغِيْبَةِ وَالشُّكُوى .

وَقَالَ رَجُلٌ لِإِبْنِهِ : إِذَا اجْتَمَعْتُمْ فَعَلَيْكُمْ حَدِيثُ أَنْفُسِكُمْ وَدَعُوا
الْإِغْيَابَ ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ : نَحْنُ نَحْتَاجُ فِي هَذِهِ السَّنَةِ إِلَى كَذَا وَكَذَا ، وَنَفْعُلُ
وَنُصْنَعُ كَذَا وَكَذَا ، فَقَدْ فَرَعْنَا مِنْ حَدِيثِنَا ، فِيمَاذَا نَشْتَغِلُ !

من اغتاب فاغتاب

قيل : مَنْ رَمَى النَّاسَ بِمَا فِيهِمْ رَمَوْهُ بِمَا لَيْسَ فِيهِ
 وقيل : بَحْثُكَ عَنْ عِيُوبِ النَّاسِ يَدْعُو إِلَى بَحْثِهِمْ عَنْ عِيُوبِكَ .
 وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى ذَمِّهِ ذُتُّوهُ بِالْحَقِّ وَبِالْبَاطِلِ
 وقال شاعر ظريف :

تَحَلَّكَتْ بِالسَّبِّ لَمَّا رَأَيْتَ أَدِيمَكَ صَحَّ وَمَنْ سَبَّ سُبَّ
 فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِيكَ مِنْ مَغَمَرٍ سَلَكْنَا إِلَيْكَ طَرِيقَ الْكَذِبِ

نهيهم عن الإصغاء إلى المغتاب

قالوا : إِذَا رَأَيْتَ مَنْ يَغْتَابُ النَّاسَ فَاجْهَدْ جُهِدَكَ أَنْ لَا يَمُرَّ فَكَ ، فَأَشَقَّ
 النَّاسَ بِهِ مَعَارِفَهُ .

وقال عمرو بن عُيَيْدٍ لرجل يَسْتَمِعُ إِلَى آخِرِ يَغْتَابُ : وَيَلَّكَ ، نَزَّهُ أَذْنُكَ
 عَنْ اسْتِمَاعِ الْخَنَا كَمَا نَزَّهُ لِسَانُكَ عَنِ التُّنْقِ بِهِ .

وقالوا : * وَالسَّامِعُ الدَّامِ شَرِيكَ لَهُ *

وقال بعض الْمُتَصَوِّفَةِ : الرَّجُلُ يَقُولُ : سُبْحَانَ اللَّهِ ، وَأَخْشَى عَلَيْهِ بِذَلِكَ
 النَّارَ ، وَهُوَ الَّذِي يَسْتَمِئِدُ بِذَلِكَ الْغِيْبَةَ إِذَا سَمِعَهَا ...

الممدوح بصيانة مجلسه عن الغيبة

مَدَحَ بَعْضُهُمْ رَجُلًا فَقَالَ : يَنْزُهُ حِجَابَهُ عَنِ الْغِيْبَةِ وَمَسَامَحَهُ عَنِ النِّيمَةِ .

وقال الشاعر :

إِذَا مَا تَرَاهُ الرِّجَالُ تَحْفَظُوا فَلَمْ تُتَنَقَّ الْعَوْرَاءُ وَهُوَ قَرِيبُ

« العوراء : الكلمة الفيحة »

حشهم على الثبث فيما يسمع من السعاية

وُشِيَ بِرَجُلٍ إِلَى بِلَالِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ ، فَلَمَّا أَتَى بِهِ قَالَ : قَدْ أَتَاكَ كِتَابٌ
 مِنْ اللَّهِ فِي أَمْرِنَا ، فَاعْمَلْ بِهِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا
 أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ » ، فَقَالَ : صَدَقَتْ .
 وَأُبْلَغَ أَحَدُ الْمُلُوكَ عَنْ رَجُلٍ مِنْكَرًا ، فَأَمَرَ بِقَتْلِهِ ، فَقَالَ : إِنْ قَتَلْتَنِي
 وَمَنْ سَعَى بِي كَاذِبٍ يَعْظُمُ وِزْرُكَ ، وَإِنْ تَرَكْتَنِي وَهُوَ صَادِقٌ قَلَّ وِزْرُكَ
 وَأَنْتَ مِنْ وَرَاءِ مَا تَرِيدُ ، وَالْعَجَلَةُ مُوَكَّلٌ بِهَا الزَّلَلُ ، فَأَمَرَ بِإِبْقَائِهِ .
 وَقَالَ كَثِيرٌ عَزَّةَ :

وإن جاءك الواشون عني بكذبة فروها ولم يأتوا لها بحويل^(١)
 فلا تعجلي يا عَزَّ أَنْ تَنْفَهَمِي بِنُصْحِ أَنْى الْوَاشُونَ أَمْ بِحُبُولِ^(٢)

وقال عبدة بن الطيب من أبيات يعظ فيها بنيه :

وَاعْصُوا الَّذِي يُزْجِي النَّمَائِمَ بَيْنَكُمْ مُنْصَحًا وَهُوَ السَّهَامُ الْمُنْفَعُ^(٣)
 يُزْجِي عَقَارَبَهُ لِيَبْعَثَ بَيْنَكُمْ حَرْبًا كَمَا بَعَثَ الْعُرُوقَ الْأَخْدَعُ^(٤)
 حَرَانٌ لَا يَشْفِي غَلِيلَ فُؤَادِهِ عَسَلٌ بِمَاءٍ فِي الْإِنَاءِ مُشْعَشِعُ^(٥)

(١) فروها من الفرية ، والحويل : المحاولة

(٢) الحبول : الدواهي

(٣) يزجي : يسوق ، والسهام : السم ، والمنفع : المربي

(٤) الأخدع : عرق في العنق في موضع الحجابة

(٥) مشعشع : ممزوج

لَا تَأْمَنُوا قَوْمًا يَشَبُّ صَدِيقُهُمْ بَيْنَ الْقَبَائِلِ بِالْعَدَاوَةِ يُنْشَعُ^(١)
 إِنَّ الَّذِينَ تَرَوْنَهُمْ إِخْوَانَكُمْ يَشْفِي غَلِيلَ صُدُورِهِمْ أَنْ تُصَدَّعُوا^(٢)
 فَضَلَّتْ عَدَاوَتُهُمْ عَلَى أَحْلَامِهِمْ وَأَبَتْ ضَبَابُ صُدُورِهِمْ لَا تُنْزَعُ^(٣)
 قَوْمٌ إِذَا دَمَسَ الظُّلَامُ عَلَيْهِمْ هَدَجُوا قَنَافِدَ بِالْغَنِيمَةِ تَمْزَعُ^(٤)
 وَسَعَى رَجُلٌ بِالْإِمَامِ اللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ إِلَى وَالِي مِصْرَ ، فَأَحْضَرَهُ ، فَقَالَ
 الْإِمَامُ : إِنَّ رَأَيْتَ أَنْ تَسْأَلَهُ : أَسِرَّ آتَمَّتْنَاهُ عَلَيْهِ خَفَانَهُ ، أَمْ كَذَبُ افْتَرَاهُ ؟
 وَالْخَائِنُ وَالْكَاذِبُ لَا يُقْبَلُ قَوْلُهُمَا ...

وَوَثَّى وَاشَّ إِلَى بَعْضِ الْأَمْرَاءِ وَقَالَ : إِنَّ فَلَانًا هَجَاكَ ، فَأَحْضَرَهُ
 وَأَعْلَمَهُ ، فَقَالَ الرَّجُلُ : كَلَّا ، فَقَالَ : أَخْبَرَنِي بِذَلِكَ الثَّقَةُ ، فَقَالَ : الثَّقَةُ
 لَا يَكُونُ نَمَامًا .

وَكَانَ الْفَضْلُ بْنُ سَهْلٍ الْوَزِيرُ يُبَغِّضُ السُّعَاةَ ، فَإِذَا أَتَاهُ سَاعٍ يَقُولُ :
 إِنْ كُنْتَ صَادِقًا لَمْ يَنْفَعَكَ ذَلِكَ عِنْدَنَا ، وَإِنْ كُنْتَ كَاذِبًا عَاقِبْنَاكَ ، وَإِنْ
 شِئْتَ أَقْلَنَّاكَ .

(١) يَنْشَعُ مَنْ نَشَعَ فَلَانٌ بِكَذَا : أَوْلَعَ بِهِ

(٢) هَذَا الْبَيْتُ مِنْ شَوَاهِدِ الْمُسْتَدِّ إِلَيْهِ فِي عِلْمِ الْمَعَانِي وَالشَّاهِدِ فِيهِ تَنْبِيهُ الْمَخَاطَبِ
 عَلَى الْخَطَا فِي ظَنِّهِ ، إِذْ فِي قَوْلِهِ : إِنَّ الَّذِينَ مِنْ التَّنْبِيهِ عَلَى الْخَطَا مَا لَيْسَ فِي قَوْلِكَ
 إِنَّ الْقَوْمَ الْفَلَائِينَ ، وَتَرَوْنَهُمْ : تَظُنُّوهُمْ

(٣) الضَّبَابُ جَمْعُ ضَبٍّ ، وَالْمُرَادُ بِهِ : الْغُلُ الْمَمْعُونُ فِي الصَّدْرِ لِامْعَانِ الضَّبِّ
 فِي جِوَرِهِ

(٤) دَمَسَ الظُّلَامُ : اشْتَدَّتْ ظِلْمَتُهُ ، وَهَدَجُوا : هَشُوا مَشْيَةَ الشُّيُوخِ الرَّاجِفَةِ
 الْمُنْتَقِرَةِ الْخَطَى ، وَهُوَ الْهَدَجَانُ وَرَوَايَةُ الْمَفْضَلِيَّاتِ : هَدَجُوا أَقَالَ شَارِحَهَا هَدَجُوا :
 رَحَلُوا : أَرَادَ : أَنَّهُمْ يَسْهَرُونَ بِالْغَنِيمَةِ وَالْإِحْتِيَالِ فِي الشَّرِّ كَمَا يَسْهَرُ الْقَنْفَذُ لِأَنَّهُ يَسِيرُ
 وَلَا يَنَامُ لَيْلَهُ أَجْمَعُ ، وَتَمْزَعُ ، تَسْرِعُ

وسأل رجل عبد الملك بن مروان الخَلْوَةَ ؛ فقال لأصحابه : إذا شتمت^(١)
فلماً تهبأ الرجل للكلام قال له : إياك وأن تمدحني ، فإنّي أعرفُ بنفسى منك
أو تكذّبني فإنّه لا رأى لِكَذُوب ، أو تَسْعَى بأخيدٍ إلى ، وإن شئتَ
أن أقيلك أَقْلُكَ ، قال : أقلني :

وَوَشَى إلى عبد الملك وإس في أحد الكُتَاب ، فَوَقَعَ :
أَقْلُوا عَلَيْهِمَ لَا أَبَا لَا يَسِيكُم

مِنَ اللَّوْمِ أَوْسُدُوا الْمَكَانَ الَّذِي سَدُّوا^(٢)

وقال الواثق لأحمد بن أبي دواد القاضي : مازال القوم في ثُلُوك إلى
الساعة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لكلِّ امرئٍ منهم ما اكتسب من الإثم ،
والله وليُّ جزائه ، وعقابك من ورائه ، فما الذي قلتَ لهم ؟ قال :
قلت :

وَسَعَى إلى بَصْرُمَ عَزَّةَ نِسْوَةٌ جَمَلُ الْمَلِكِ تُحْدِوْهُنَّ نَعَالَهَا^(٣)

صعوبة التخلص من اغتياب الناس

سأل بعض الأنبياء ربّه عز وجل أن يدفع عنه ألسنة الناس فلا
يغتابوه ، فقال عز وجل : هذه خَصْلَةٌ لم أجعلها لنفسى فكيف
أجعلها لك !

وقالوا : ليس إلى السلامة من ألسنة الناس سبيل . فانظر إلى ما فيه
صلاحك فالزَمُهُ .

(١) تلك كانت عادته إذا أراد انصراف أصحابه يقول : إذا شتمت

(٢) للحطبة

(٣) لكنير عزة

وقال شاعر :

إذا كنت مَلْجِئًا مَسِيئًا وَمُحْسِنًا فَعِشْيَانُ مَا تَهْوَى مِنَ الْأَمْرِ أَكْيَسُ
« ملجئًا : ملوئًا ، ومسئًا ومحسنًا : حالان ،

ذم ناقلِ الغيبة

قالوا : من بلغك فقد شتمك . وفي هذا المعنى يقول شاعر :
لَعْمُكَ مَا سَبَّ الْأَمِيرَ عَدُوَّهُ وَلَكِنَّمَا سَبَّ الْأَمِيرَ الْمُبْلَغُ
وقيل لحكيم : فلان عابك بكذا ، فقال : لقد رأيتك تَفَحَّحْتَنِي بِمَا
اسْتَحَى الرَّجُلُ مِنْ اسْتِقْبَالِي بِهِ .

الموصوف بالنيمة

قال سبحانه : (وَلَا تَطْعُمْ كُلَّ حَلَافٍ مَهِينٍ مَهْمَا زَمَّ شَاءَ بَنِيمٍ)
وقال بعضهم لآخر : فلان نمت بك ، فقال : إن فلانًا لو كان بينك
وبين الله واسطة لَسَعَى بِكَ إِلَيْهِ .

وقال السري الرفاء :

أُنِمَّ بِمَا اسْتَوْدَعْتُهُ مِنْ زُجَاجَةٍ تَرَى الشَّيْءَ فِيهَا ظَاهِرًا وَهُوَ بَاطِنُ
وقال العباس بن الأحنف :

أَنَسُ أَمِنَّا فَنَمُوا حَدِيثَنَا فَلَمَّا كَتَمْنَا السِّرَ عَنْهُمْ تَقَوَّلُوا

من اغتاب غيره فرآه

اغتاب أعرابي رجلا ، فالتفت فرآه ، فقال لو كان خيرا ما حضرته .

من لا يحرم اغتيابه

قال الحسن البصري : لا غيبة في ثلاثة : فاسقٍ مجاهر ، وإمامٍ جائر ،
وصاحب بدعة .

حشهم على التحرز

بما يقتضى الغيبة

قال الحسن البصري : من دخل مداخلَ التُّهْمَةِ لم يكن له أجرُ الغيبة .
وقالوا : من عَرَّضَ نفسه للتُّهْمَةِ فلا يلومنَّ مَنْ أساءَ به الظنُّ
واغتابه .

الباب السادس

في التواضع والكبر

وما إليهما

ولما كان التواضعُ مجلبةً للدودة ، والكبرُ مَذْرَجَةً للعداء ، حتى قال بعضهم — وقد قيل له : ما التواضع ؟ فقال : اكتساب المودة ، فقيل : ما الكبر ؟ فقال : اكتساب البغض — لما كان ذلك كذلك ألْحَقْنَا عبقرياتهم فيهما بباب الحلم وما إليه .

حدّ التواضع والكبر

التواضع فضيلة بين الضّعة والكبر ، قال الراغب : التواضع مُشْتَقٌّ من الضّعة وهو : رضا الإنسان بمنزلةٍ دون ما يستحقّه فَضْلُهُ ومنزِلَتُهُ ، وهو فضيلة لا تكاد تظهر في أفتاء الناس ، لانحطاط درجاتهم ، وإنما يتَّبَعَيْنُ ذلك في الملوك وأجلاء الناس وعلماهم . وهو من باب التفضّل ، لانه يتركُ بعض حقّه ، قال : وهو بين الكبر والضّعة : فالضّعة : وضعُ الإنسان نفسه بمحلٍّ يُزَيَّرُ به ، والكبر : وضعُ نفسه فوق قدره ، أو هو : ظَنُّ الإنسان أنه أكبر من غيره ، والتكبر : إظهار ذلك . وهذه صفةٌ لا يستحقّها إلا الله عز وجل ، ومن ادعاها من المخلوقين فهو فيها كاذب ، وكذلك صارَ مدحاً في البارئ تعالى ، وذمّاً في البشر ، وإنما شرف المخلوق في إظهار العبودية كما قال تعالى : لَنْ يُسْتَنَكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ

ولا الملائكة المقربون ، تنبيها على أن ذلك لهم رفعة لا ضعة : قال : والتكبر يتولد من الإعجاب ، والإعجاب من الجهل بحقيقة المحاسن ، والجهل رأس الانسلاخ من الإنسانية ، ومن الكبر الامتناع عن قبول الحق ، وأقبح كبر ما كان معه بُخل ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : **تَخَصَّاتَانِ لَا يَجْتَمِعَانِ فِي مُؤْمِنٍ : الْكِبَرُ وَالْبُخْلُ** ، واستحسن قول الشاعر :

جَمَعَتْ أَمْرَيْنِ ضَاعَ الْحَزْمُ بَيْنَهُمَا نَفْسُ الْمُلُوكِ وَأَخْلَاقُ الْمَمَالِكِ

ومن تكبر لرياسة نالها دل على دناءة عُصْرِهِ ، ومن تكبر لفنيته جهل أن ذلك ظل زائل وعارية مُسْتَرْدَّةٌ ، ومن تفكّر في ذاته فعرف مبدأه ومُنْتَهَاهُ وأواسطه عرف نفسه وروض كِبَرِهِ ، وقد نبّه الله على ذلك بقوله : (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ، خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ يُخْرَجُ مِنْ بَيْنِ الثَّلَاجِ وَالتَّرَائِبِ) ^(١) ، وقال : (قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ، مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ) ، وقال : (إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ) ^(٢) ، ثم قال : **وَأَمَّا الْعِزَّةُ فَهِيَ : التَّرَفُّعُ بِالنَّفْسِ عَمَّا يَاجِبُهُ مِنْهُ غَضَاضَةٌ ، وَالْعِزَّةُ مَنْزِلَةٌ شَرِيفَةٌ ، وَهِيَ نَتِجَةُ مَعْرِفَةِ الْإِنْسَانِ بِقَدْرِ نَفْسِهِ وَإِكْرَامِهَا عَنِ الضَّرَاعَةِ لِلْأَعْرَاضِ الدُّنْيَوِيَّةِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ) ، وَفِي الْحَدِيثِ : « لَا يَفْبَغِي الْمُؤْمِنُ أَنْ يُذَلَّ نَفْسُهُ »** ولذا قالوا : **التكبر على الأغنياء تواضع ، تنبيها على أن هذا التكبر عزّة**

(١) الترائب موضع القلادة من الصدر ، وقيل : الترائب : أربع أضلاع من يمنة الصدر وأربع من يسره وقال الفراء : يعني صلب الرجل - العظم من لدن الكاهل إلى العجب - وترائب المرأة

(٢) الأمشاج : الأخلط : ماء الرجل وماء المرأة أو النطفة

نفسٍ ، وقال ابن مسعود : من خضع لغنى فوضع نفسه عنده طمعاً فيه ذهب ثلثا دينه وشطرُ مِرْوَةٍ . أقول ولهذا باب سيمر عليك .

حُثُّهم على التواضع

قال سيدنا رسول الله : « طُوبَى لِمَن تَوَاضَعَ فِي غَيْرِ مُنْقَصَةٍ ، وَذَلَّ فِي نَفْسِهِ فِي غَيْرِ مَسْكَنَةٍ . » (في غير منقصة : بأن لا يضع نفسه بمكان يُزرى به ، ويُؤدى إلى تضييع حقِّ الحق — الله سبحانه — أو الخلق ، فإن القصد بالتواضع خفضُ الجناح للثومين مع بقاء عزة الدين . روى أن رجلاً مر على عمر وقد تَخَشَّعَ وَتَذَلَّلَ وَبَالَغَ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ عُمَرُ : أَلَسْتَ مُسْلِمًا ؟ قَالَ بَلَى ، قَالَ : فَارْفَعْ رَأْسَكَ وَامْدُدْ عُنُقَكَ فَإِنَّ الْإِسْلَامَ عَزِيزٌ مَنِيعٌ ؛ أَمَا كَلِمَةُ طُوبَى فَلِلْعُلَمَاءِ فِيهَا كَلَامٌ كَثِيرٌ فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ : طُوبَى : اسْمُ الْجَنَّةِ بِالْهِنْدِيَّةِ ، قَالَ الصَّافِي : فَعَلَى هَذَا يَكُونُ أَصْلُهَا تَوْبَى ، بِالتَّاءِ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ طَاءٌ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : طُوبَى كَلِمَةٌ عَرَبِيَّةٌ تَقُولُ الْعَرَبُ : طُوبَى لَكَ إِنْ فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا ؛ قَالُوا : وَمَعْنَى طُوبَى لِفُلَانٍ : الْحَسَنَى وَالْخَيْرُ لَهُ . وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَثَلًا أَعْلَى لِلتَّوَاضُعِ ، قَالَ أَبُو أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى عَصَا ، فَقَمْنَا لَهُ ، فَقَالَ : لَا تَقْرُمُوا كَمَا تَقْرُمُ الْإِعَاجِمُ يُعَظَّمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَقَالَ : إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ وَاجْلِسْ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ ^(١) وَكَانَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَرْكَبُ الْحِمَارَ وَيُرِدُّ خَلْفَهُ ،

(١) اختلف العلماء في القيام للتنظيم المعناد ، فقيل : مكروه استدلالاً بهذا الحديث ونظائره ، وذهب بعضهم إلى حرمة وقال بعض الأئمة : إنه مستحب لأهل العلم والصلاح

ويعود المساكين ، ويجالس الفقراء ، ويجيب دعوة العبد ، ويجلس بين أصحابه مختلطاً بهم ، حيثما انتهى به المجلسُ جلس... ومن حديث عمر عنه صلى الله عليه وسلم : لا تُطْرُونِي كما أَطَرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ ^(١) ، إنما أنا عبدٌ ، فقولوا : عبدُ الله ورسوله .

وعن عائشة رضى الله عنها : أنه صلوات الله عليه كان في مَهْنَةٍ أهله — خدَمَتِهِمْ — يَفْلِي ثوبه ، وَيَحْلِبُ شاته ، وَيَرْقَعُ ثوبه ، وَيَخْصِفُ نعلَه ؛ وَيُقِمُّ البيت — يَكْنُسُه وَيَزِيلُ قِمامته — وَيَخْدُمُ نفسه ، ويعقل البعير — يربطه من رجله بالعقال — ويملف ناضجه — الجمل الذى يُسْتَقَى عليه الماء — ويأكل مع الخادم ، وَيَعِجُنُ معها ، ويحمل بضاعته في السوق . وأخبره في تواضعه صلوات الله عليه كثيرة متوافرة تراها في كتب الشئائل والحديث .

وفي المثل : تواضعُ الرُّجُلِ في مرتبته ذَبٌّ للشَّيْطَانَةِ عند سَقَطَتِهِ .
وقال عروة بن الزبير : التواضع أحد مصايد الشرف ، وفي لفظ :
« سَلَّمَ الشرف »

وقال عبد الله بن المعتز : مُتَوَاضِعُ الْعُلَمَاءِ أَكْثَرُهمُ عِلْماً ، كما أن المَلِكَانَ المُنْخَفِضُ أَكْثَرُ الأَمَاكِنِ مَاءً .

وللحكام العدول ، بل قد يجب إذا خشي من تركه ضرر كجسارة الملوك ، ويستحب لمن قدم من سفر ولذوى الأرحام تكريماً لهم وبراً بهم ، والمنهى عنه إنما هو ما كان على سبيل الرياء والتكبر ، وإنما نهام صلوات الله عليه لثلاث يظنوه سنة

(١) الاطراء : مجاوزة الحد في المدح والكذب فيه وبذلك فسره الحديث وفي

معنى الحديث قال الأبوصيرى :

دَعْ مَا دَعَّتهُ النَّصَارَى فِي نَبِيِّهِمْ وَأَحْكُمْ بِمَا شِدتْ مَدَحَافِهِ وَاحْتِكِمْ

وقالوا: من وضع نفسه دون قدره رفعه الناس فوق قدره، ومن رفعها عن حده وضعه الناس دون قدره.

وقال جعفر بن محمد: رأس الخير التواضع، فقليل له: وما التواضع؟ فقال أن ترضى من المجلس بدون شرفك، وأن تُسَلِّمَ على من لقيت، وأن تترك المِرَاءَ وإن كنت مُحِقًّا، وأن تكره الرياء والسُّمعة.

وقالوا: التَّوَّاضَعُ نِعْمَةٌ لَا يَفْطِنُ لَهَا الْحَايِدُ.

وقالوا: التَّوَّاضَعُ كَالْوَهْدَةِ يَجْتَمِعُ فِيهَا قَطْرُهَا وَقَطْرُ غَيْرِهَا.

وقال عمر: أريدُ رجلاً إذا كان في القوم وهو أميرُهم كان كـبعضهم، فإذا لم يكن أميراً فكان أنه أميرهم.

وقال رضى الله عنه حين نظر إلى بض السَّراةِ مُبْتَدِلاً لأصحابه: هذا رَجُلٌ يَفِرُّ مِنَ الشَّرَفِ وَالشَّرَفُ يَتَّبِعُهُ.

وقد مدح الشعراء المتواضعين فن ذلك قول أبي تمام:

مُتَبَدِّلٌ فِي الْقَوْمِ وَهُوَ مُبَجَّلٌ مُتَوَاضِعٌ فِي الْحَيِّ وَهُوَ مُعْظَمٌ

وقال آخر:

مُتَوَاضِعٌ وَالنُّبْلُ يَحْرُسُ قَدْرَهُ وَأَخُو النَّبَادَةِ بِالنَّبَاهَةِ يَنْبُلُ

وقال البحتري:

دَنَوْتَ تَوَاضِعًا وَعَلَوْتَ بَجْدًا فَسَأْنَاكَ انْحِدَارًا وَارْتِفَاعًا

كَذَاكَ الشَّمْسُ تَبْعُدُ أَنْ تُسَامَى وَيَدْنُو الضَّوُّ مِنْهَا وَالشُّعَاعُ

وقال أبو محمد التيمي:

تَوَاضَعَ لِمَا زَادَهُ اللَّهُ رِفْعَةً وَكُلُّ رَفِيعٍ قَدْرُهُ مُتَوَاضِعٌ

وقال أبو بكر الخوارزمي :
عَجِبْتُ لَهُ لَمْ يَلْبَسِ الْكِبَرُ حُلَّةً وَفِينَا إِذَا جُرْنَا عَلَى بَابِهِ كِبَرُ

ذَمُّهُمُ التَّكْبَرُ

قال الله تعالى : إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ . وقال سبحانه : كَذَلِكَ نَطْعُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ . وقال : فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فِئْتَسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ . وقال : سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ .

ودخل الفضلُ بن يحيى ذاتَ يومٍ على أبيه وهو يتَبَخَّرُ في مِشْيَتِهِ ، فقال له يَحْيَى : يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ، إِنَّ الْبُخْلَ وَالْجَهْلَ مع التَّوَاضُّعِ ، أَزِينُ بِالرَّجُلِ مِنَ الْكِبَرِ مع السَّخَاءِ وَالْعِلْمِ ، فَيَالِهَا مِنْ حَسَنَةِ غَطَّتْ عَلَى عَيْنَيْنِ عَظِيمَيْنِ ، وَيَالِهَا مِنْ سَيِّئَةِ غَطَّتْ عَلَى حَسَنَتَيْنِ كَبِيرَتَيْنِ ، ثُمَّ أَوْماً إِلَيْهِ بِالْجُلُوسِ وَقَالَ : احْفَظْهُ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ فَإِنَّهُ أَدَبٌ كَبِيرٌ أَخَذَنَاهُ عَنِ الْعُلَمَاءِ ...

وهذا كما قال حكيم : وَجَدْنَا التَّوَاضُّعَ مع السَّخَاةِ وَالْبُخْلَ أُتِّمِدَ عِنْدَ الْعُقَلَاءِ مِنَ الْكِبَرِ مع الْإِدَبِ وَالسَّخَاءِ ، فَأَنْبَلُ بِحَسَنَةِ غَطَّتْ سَيِّئَتَيْنِ ، وَأَقْبَحُ بِسَيِّئَةِ غَطَّتْ عَلَى حَسَنَتَيْنِ !

وقال علي بن أبي طالب : عَجِبْتُ لِلتَّكْبَرِ الَّذِي كَانَ بِالْأَمْسِ نَظْفَةً وَهُوَ غَدًا جِيفَةً . وقال بعض الشعراء :

يَا مُظْهَرَ الْكِبَرِ إِعْجَاباً بِصُورَتِهِ انْظُرْ خَلَاءَكَ إِنَّ النَّتْنَ تَشْرِيبُ
لَوْ فَكَّرَ النَّاسُ فِيمَا فِي بُطُونِهِمْ مَا اسْتَشْعَرَ الْكِبَرُ شُبَّانًا وَلَا شَيْبُ
هَلْ فِي ابْنِ آدَمَ غَيْرَ الرَّأْسِ مَكْرَمَةٌ وَهُوَ بِخُمْسٍ مِنَ الْأَنْفِ تَنْدَرُوبُ

أَنْفٌ يَسِيلُ وَأُذُنٌ رِيحُهَا سَهْلٌ وَالْعَيْنُ مُرْمَصَةٌ وَالْفَخْرُ مَلْعُوبٌ
يَابِنُ الثَّرَابِ وَمَا كُولُ الثَّرَابِ غَدًا أَقْصَرُ فَإِنَّكَ مَا كُولٌ وَمَشْرُوبٌ
وَقَالُوا : دَعِ التَّكْبَرَ ، فَتَى كُنْتَ مِنْ أَهْلِ النَّبْلِ لَمْ يَضُرْكَ التَّبَذُّلُ ، وَمَتَى
لَمْ تَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ لَمْ يَنْفَعَكَ النَّبْلُ .

بعض دواعي التكبر

قال المأمون : مَا تَكْبَرُ أَحَدٌ إِلَّا لِنَقْصٍ وَجَدَهُ فِي نَفْسِهِ .
وقال حكيم : مَا تَعَاظَمَ أَحَدٌ عَلَى مَنْ دُونَهُ إِلَّا تَصَاغَرَ لِمَنْ فَوْقَهُ
وَقَالُوا : مَا تَأْتِ إِلَّا وَضِيعٌ ، وَلَا فَاخِرَ إِلَّا سَقِيطٌ ، وَلَا تَعَظَمَ إِلَّا
لَقِيطٌ . « السقيط : اللاحق النافس العقل ، واللقيط : الطفل الذي يُوجَدُ
مَرْمِيًّا عَلَى الطَّرْقِ لَا يُعْرِفُ أَبُوهُ وَلَا أُمُّهُ ،
وقال يحيى بن خالد بن برمك : كُنْتُ تَرَى أَحَدًا تَكْبَرُ فِي إِمَارَتِهِ
إِلَّا وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ الَّذِي نَالَ هُوَ فَوْقَ قَدْرِهِ ، وَلَسْتُ تَرَى أَحَدًا يَضَعُ
نَفْسَهُ فِي إِمَارَةٍ إِلَّا وَهُوَ فِي نَفْسِهِ أَكْثَرُ مِمَّا نَالَ .
وقيل لبعضهم : فَلَانٌ غَيَّرَتْهُ الْإِمَارَةُ فَقَالَ : إِذَا وَلِيَ الرَّجُلُ
وَلَايَةً فَرَأَاهَا أَكْثَرَ مِنْهُ تَغْيِيرًا ، وَإِذَا وَلِيَ وَلَايَةً يَرَى أَنَّهُ أَكْثَرُ مِنْهَا
لَمْ يَتَغَيَّرْ .

وقالوا : مَنْ نَالَ مَنْزِلَةً فَأَبْطَرَتْهُ دَلَّ عَلَى رِدَاةٍ أَصْلِهِ وَغُضْبِهِ .
وقال بعض المتصوفة : اللثام إِذَا تَمَوَّلُوا اسْتَطَالُوا ، وَإِذَا افْتَقَرُوا تَوَاضَعُوا
وَالْكَرَامَ إِذَا تَمَوَّلُوا تَوَاضَعُوا ، وَإِذَا افْتَقَرُوا اسْتَطَالُوا .
وقال الجاحظ من كلمة له : والكبر في الأجناس الذليلة أرسخ ، ولكن

الْقِلَّةَ وَالذِّلَّةَ مَانِعَتَانِ مِنْ ظُهُورِ كِبَرِهِمْ ، وَمَنْ قَدَرَ مِنَ الْوَضْعَاءِ أَدْنَى قُدْرَةٍ
ظَهَرَ مِنْ كِبَرِهِ مَا لَا خِفَاءَ بِهِ ، وَلَمْ أَرَ ذَا كِبَرٍ قَطُّ عِلَا مِنْ دُونِهِ إِلَّا وَهُوَ
يَبْدُلُ لِمَنْ فَوْقَهُ بِمَقْدَارِ ذَلِكَ وَوزَنِهِ ...

متكبر دنيء أو فقير

قالوا : أَبْغَضُ النَّاسِ ذُو عُسْرٍ يَخْطُرُ فِي رِءَاءِ كِبَرٍ .
وَمِنْ قَوْلِهِمْ فِي ذَلِكَ : أَنْفٌ فِي السَّمَاءِ وَأَنْتُ فِي الْمَاءِ

مدحهم معرفة الرجل قدر نفسه

وذمهم الصلف

وبعض نوادر المزهوين

قال علي بن أبي طالب : لَنْ يَهْلِكَ امْرُؤٌ عَرَفَ قُدْرَهُ .
وقال المتنبي :

وَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسُهُ قُدْرَهُ رَأَى غَيْرَهُ مِنْهُ مَا لَا يَرَى
وقال سيدنا رسول الله : ثَلَاثٌ مَهْلَكَاتٌ : شُحٌّ مُطَاعٌ ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ ،
وإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ .

وقالوا : عَجِبُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ أَحَدُ حُسَادِ عَقْلِهِ .

وقال أعرابي لرجل معجب بنفسه : يُسَرُّنِي أَنْ أَكُونَ عِنْدَ النَّاسِ مِثْلَكَ
فِي نَفْسِكَ ، وَعِنْدَ نَفْسِي مِثْلَكَ عِنْدَ النَّاسِ ...

وكان رجل يسمى أبا ثَوَابَةَ أَقْبَحَ النَّاسِ كِبَرًا ، مَعْنًى فِي الصَّلَافِ ،
رَوَى أَنَّهُ قَالَ لِعِصْمَتِهِ : آسِقْنِي مَاءً ، فَقَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : إِنَّمَا يَقُولُ « نَعَمْ » ،

من يقدر على أن يقول «لا»، وأمر بضربه ... ودعا أكاراً فكلمه ، فلما فرغ دعا بماء وتمضمض ، استقذاراً لمخاطبته ...

ومن المعجبين بأنفسهم المغالين في العزة وإن كان إلى ذلك من الشخصيات الضخمة الكريمة النبيلة المحترمة عمار بن حمزة^(١)، روى : أنه دخل على المهدي الخليفة العباسي ، فلما استقر به الجلوس ، قام رجلٌ كان المهدي قد أعد له لتهيئتهم به ، فقال : مظلومٌ يا أمير المؤمنين قال : من ظلمك ؟ قال : عُمارة غَصَبَتِي ضَيْعَتِي ، وذكر ضيعةً من أحسن ضياع عُمارة وأكثرها خَرَّاجًا ، فقال المهدي لعُمارة : قُمْ فَاجْلِسْ مع خَصْمِكَ ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ما هو لي بخَصْمٍ ، إن كانت الضيعةُ له ، فليستُ أنازعُه فيها ، وإن كانت لي فقد وهبتها له ، ولا أقوم من مجلسٍ شرفني به أمير المؤمنين ، فلما انصرف المجلس سأل عُمارة عن صِفَةِ الرجل ، وما كان لبأسه ، وأين كان موضعُ جلوسه ... وكان من تيهه أنه إذا أخطأ يمر على خطئه ، تكبراً عن الرجوع ويقول : نقض وإبرام في ساعة واحدة ! الخطأ أهون من ذلك ...

ومن المفرطين في التكبر رجل يسمى عبيد الله بن زياد بن ظبيان ، قال له رجل من قومه وقد رأى منه ما أعجبه : كَثُرَ اللهُ فِينَا مِثْلَكَ ، فقال : لقد كَلَفْتُمُ الله شَطَطًا ...

وهناك من نوادر المتكبرين المستطرفة ما لا يتسع له معجمنا هذا .

(١) ترجم له ياقوت في معجم الادباء ترجمة وافية

معتذر لعجبه وعزته

قيل لإياس بن معاوية ^(١) : ما فيك عيب غير أنك مُعَجَّبٌ ، فقال :
 « يُعْجِبُكُمْ مَا أَقُولُ ؟ » قالوا : نعم ، فقال : فأنا أحتق أن أُعْجَبَ به ...
 وقال بعض المعجبين :

يقولون : ذو كِبَرٍ ولو خُصَّ بعضهم ببعضِ خِصَالِي ما استفاق من الكبر
 وقال رجل لبعض المزهوين : ما أعظمك في نفسك ! فقال : لست
 بعظيم ؛ ولكني عزيز ، لقوله تعالى : والله العزةُ ولرسوله وللؤمنين . وفي
 هذا المعنى يقول بعضهم :

وما أنا مَزْهُوٌّ ولكني فتى أَبَتْ لِي نَفْسٌ حُرَّةٌ أَنْ أُذِيلَهَا
 « أذيلها : أهينا » وهذا من قبيل قول القائل :
 وأكْرِمُ نَفْسِي أَنِّي إِنْ أَهْنَيْتَهَا وَحَقَّقْتُ لَمْ تَكْرُمَ عَلَى أَحَدٍ بَعْدِي
 ولمثل هذا المعنى باب سنستوعب عقرياتهم فيه .

التكبر على ذوى الكبر

سئل الحسن البصري عن التواضع ، فقال : هو التكبر على الاغنياء
 « يريد : الترفع وعدم التذلل لهم طمعاً في ما لهم أو جاههم »
 وأنشد المبرد :

إِذَا تَاهَ الصَّدِيقُ عَلَيْكَ كِبَرًا فَتَنَّهُ كِبَرًا عَلَى ذَاكَ الصَّدِيقِ

(١) الذي يضرب به المثل في الذكاء والفتنة ، ولأه عمر بن عبد العزيز قضاء
 البصرة ، ترجم له ابن خلكان .

فإنجابُ الحقوق إغير راعٍ حُقُوقَكَ رأسُ تضييعِ الحقوقِ
وقال الأصمعي : قال رجل : ما رأيت ذا كبر قط إلا تحول داؤه
في . « يريد : أنى أتكبر عليه » ، وقال آخر : ماتاه أحدٌ قط على مرتين
« يريد : أنه إذا تاه مرة لم أعاوده وتركته وأعرضت عنه »
وقال عدى بن أرطاة وهو أمير لو كيع بن الأسود : سَوَّ عَلَى ثِيَابِي ،
فَقَالَ : * ذَكَّرْتَنِي الطَّعْنَ وَكُنْتُ نَاسِيَا * ^(١) فِي خَفِي ضَيْقِي فَلْيَمِدَّهُ الْأَمِيرُ حَتَّى
أَنْزِعَهُ ، فَقَالَ لَهُ عَدَى : إِنْ الْجَلِيسَ كَلَيْلِي مِنْ جَلِيسِهِ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا ، فَقَالَ
يَا عَدَى ، إِذَا عُرِلَتْ عَنَا فَكَلَّفْنَا أَكْثَرَ مِنْ هَذَا ، أَمَّا وَأَنْتَ تَرَى لَكَ عَلَيْنَا
بَسْطَةً فَلَا ...

ذمهم الإفراط في التواضع

قالوا : مِنَ التَّوَاضُّعِ مَا يَضَعُ .
وقال عبد الله بن المقفع : الإفراط في التواضع يوجب المذلة ، والإفراط في
المؤانسة يوجب المهانة .

حمد تعظيم الكبار

قَدِمَ قَيْسُ بْنُ عَاصِمٍ الْمِنْقَرِيَّ سَيِّدَ أَهْلِ الْوَبَرِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

(١) قال الميداني - وأورده في أمثاله - : أصله أن رجلا حمل على رجل ليقتله ،
وكان في يد المحمول عليه رمح ؛ فأنساه الدهش والجزع ما في يده ، فقال له الحامل :
ألقى الرمح ، فقال الآخر . وأن معنى رمحا لا أشعر به ؛ ذكرتني الطعن ... المثل وحمل
على صاحبه فطعنه حتى قتله . يضرب في تذكّر الشيء بغيره .

وسلم ، فبسط له رداءه ، ثم قال : إذا أناكم كريم قوم فأكرموه .
 ورؤي أن مجوسياً دخل على رسول الله . فأخرج صلوات الله عليه
 من تحته وسادة حشوها ليف ، وطرحها له ، وأقبل عليه يحدثه ، فلما نهض
 قال عمر : إنه مجوسى ! فقال عليه الصلاة والسلام : قد علمت ، ولكن
 جبريل يأمرنى أن أكرم كل كريم قوم إذا أتى ، وهذا سيد قومه .
 وركب زيد بن ثابت رضى الله عنه ^(١) ، فدنا منه عبد الله بن عباس
 بأخذ بركابه ، فقال : ما تفعل يا ابن عم رسول الله ؟ فقال . هكذا أمرنا
 أن نفعل بأمرائنا ^(٢) ، فقال زيد : أرنى يدك ، فأخذها وقبلها ، وقال : هكذا
 ررنا أن نفعل بأهل بيت نبينا .

(١) هو الصحابي العالم الجليل ، كاتب الوحي ، وجامع القرآن في عهد أبي بكر
 وقال فيه أبو بكر : إنك شاب عاقل لا تهتك ، وكان أحد فقهاء الصحابة الجلة
 الفراض — علماء المواريث — مات في عهد مروان بن الحكم
 (٢) ورد أن النبي صلوات الله عليه ، سلم زيد بن ثابت الراية في إحدى الغزوات
 وأمره على الجيش فيها

الباب السابع

في الشجاعة وعبقرياتهم فيها

وفي الصبر في القتال

وسائر ما يتصل بالحرب

ودونك ما وقع عليه الاختيارُ من عبقرياتهم في الشجاعة والصبر في الحروب، وسائر ما ينعطف على هذه المعاني وينشعب به القول فيما وأنت فقد علمت مما أسلفنا عليك في باب الصبر أن الشجاعة لون من ألوانه . ومن ثم أردفنا القول على الأبواب السابقة — وهي جميعاً من ألوان الصبر — بالقول على الشجاعة وما إليها .

حقيقة الشجاعة

قالوا : الشجاعة : فضيلةٌ بين التهور والجبن .

وفي الأثر : الشجاعة غريزة يضعها الله فيمن يشاء من عباده .

وسُئِلَ بعضهم عن الشجاعة فقال : جِيلةٌ نفسٍ أبيّة .

وقيل لبعضهم : ما الشجاعة ؟ فقال : صبر ساعة .

وقال بعض المجريين : الرجال ثلاثة : فارس ، وشجاع ، وبطل ؛ فالفارس

الذي يَشُدُّ إذا شَدُّوا ، والشجاع : الداعي إلى البرّاز والمُجيب داعيّه ،

والبطل : الحامى يُظهور القوم إذا ولّوا ...

ويروى أن زياد بن أبيه كتب إلى ابن عباس : أن صِف لي الشجاعة والجبين والجود والبخل ، فكتب إليه : كتبت تسألني عن طبائع رُكبت في الإنسان تركيب الجوارح ، اعلم أن الشجاع يقاتلُ عمن لا يعرفه ، والجبان يفرُّ عن عرسه — زوجه — وأن الجواد يُعطى من لا يلزمه وأن البخیل يُمسك عن نفسه .

الأسباب المشجعة

قال الجاحظ : الأسباب المشجعة قد تكون عن الغضب ، والشراب ^(١) والهوج ^(٢) ، والغيرة ، والحمية ، وقد تكون مرقوة النفج ^(٣) وحبّ الأحدثوة ؛ وربما كان طبعاً ، كطبع الرحيم ، والسخي ، والبخیل ، والجزوع والصبور ؛ وربما كان للدين ، ولكن لا يباغ الرجل للدين ما لم يشيعه بعض ما تقدم ، لأن الدين يُجَلَبُ مُكْتَسَبٌ ، ولا يكاد يباغ الطبيعة . وقالوا : لا يصدق القتال إلا ثلاثة : مُتَدِينٌ ، وغَيْرَان ، ومُتَعِضٌ من ذل .

(١) المراد : الخمر

(٢) الهوج : الطيش والحق والتسرع

(٣) النفج : افتخار المرء بما ليس فيه .

حثهم على الثبات والإقدام

ونهيهم عن الإحجام والفكر في العواقب

قال الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتمُ الذين كفروا زَحْفًا
فلا تُؤاؤمهم الأدبار) ... « زحفاً حال من الذين كفروا ، والزحف :
الجيش الكثير الذي يُرى لِكَثْرَتِهِ كأنه يزحف ، : أى يدبُ ديباً ،
من زحف الصبي : إذا دب على آسته قليلاً قليلاً ؛ سُمي بالمصدر ، والجمع :
زُحُوف ، والمعنى : إذا لقيتموهم للقتال وهم كثير متوافرون وأتم قليل
فلا تفرُّوا ، فضلاً أن تُدَّأِوهم في العدد ، أو تُساوُوهم » ... وقال سبحانه :
(يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتمُ فئةً فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلمكم ،
تفاجحون ، وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم
واصبروا إن الله مع الصابرين) ... « إذا لقيتمُ فئة : إذا حاربتهم جماعة ،
فاثبتوا : لا تفرُّوا ، واذكروا الله كثيراً : اذكروه سبحانه في مواطن
الحرب ، مُسْتَظْهِرين بِذِكْرِهِ مُتَرَقِّبين لِنَصْرِهِ ، وفي هذا إشعارٌ بأن على
الإنسان أن لا يفتر عن ذكر ربه أشغل ما يكون قلباً وأكثر ما يكون
هماً ، وأن تكون نفسه مُجْتَمِعَةً لذلك وإن كانت مُتَوَزَّعة عن غيره ، وفشل
يفشل : ضَعُفَ وَجَبُنَ وَذَهَبَتْ قُوَاهُ ؛ يقول سبحانه : إذا اختلفتم
ضعُفتم وإذا اتفقتُم كتمت أقبواه ، والريح : الدولة ، شُبِّهَتْ في نفوذ أمرها
وتمشييه بالريح وهبوبها ، ومن ذا يقال : هبَّتْ ريح فلان : إذا دالت له
الدولة ونفذ أمره »

وقال أبو بكر الصديق لخالد بن الوليد حين وجهه لقتال أهل الردة :

أَحْرِصْ عَلَى الْمَوْتِ تَوَهَّبْ لَكَ الْحَيَاةَ .

وقالوا : من فَكَّرَ فِي الْعَوَاقِبِ لَمْ يَشْجَعْ .

وقالوا : السَّلَامَةُ فِي الْإِقْدَامِ ، وَالْحَمَامُ فِي الْإِحْجَامِ .

وتقول الدرب : الشَّجَاعُ مُؤَمِّ . دَأَى تَنْهَيْبُهُ الْأَقْرَانَ فَيَتَحَامَوْنَهُ

فَيَكُونُ ذَلِكَ وَفَايَةً لَهُ «

وَأَسْتَشِيرُ أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ فِي حَرْبٍ أَرَادَوْهَا فَقَالَ : أَقِلُّوا الْخِلَافَ

لَا مَرَاتِنَكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ كَثْرَةَ الصَّيَاحِ مِنَ الْفُشْلِ ، وَالْمَرءُ يَعِجُزُ لِاحْوَالِهِ ^(١)
وَأَدْرِعُوا اللَّيْلَ فَإِنَّهُ أَخْفَى لِلرَّيْلِ .

وقال هانئ بن مسعود الشيباني يرمي ذي قار يُحَذِّرُ قَوْمَهُ : إِنْ الْحَذَرَ

لَا يُنْجِي مِنَ الْقَدَرِ ، وَالصَّبْرُ مِنْ أَسْبَابِ الظُّفْرِ ، وَالْمَنِيَّةُ وَالْأَدْنِيَّةُ ، وَاسْتِقْبَالُ
الْمَوْتِ خَيْرٌ مِنْ اسْتِدْبَارِهِ ، وَالطَّعْنُ فِي ثَغْرِ النُّحُورِ أَكْرَمُ مِنْهُ فِي الْأَعْجَازِ
وَالظُّهُورِ ، وَهَالِكٌ مُعَذَّورٌ خَيْرٌ مِنْ نَاجٍ فَرُورٌ ...

وقال أبو مسلم الخراساني لبعض قواده : إِذَا عَرَضَ لَكَ أَمْرٌ نَازِعٌ

فِيهِ مَنَازِعَانِ ، أَحَدُهُمَا يَبْعَثُ عَلَى الْإِقْدَامِ وَالْآخَرُ عَلَى الْإِحْجَامِ ، فَاقْدُمْ ،
فَإِنَّهُ أَدْرَكَُ النَّارَ ، وَأَنْفَى لِلْعَارِ .

وقالت الخنساء :

نُهِنَ النَّفُوسَ وَهَوُنُ النَّفْوِ سِيسَ يَوْمَ الْكَرْبَةِ أَوْقَى لَهَا

وقيل للمهلب بن أبي صفرة : إِنَّكَ كَتَلْتَنِي نَفْسَكَ فِي الْمَهَالِكِ ، قَالَ :

إِنْ لَمْ آتِ الْمَوْتَ مُسْتَرِيلاً ، أَتَانِي مُسْتَعِجِلاً ، إِنِّي لَسْتُ آتِيَ الْمَوْتَ مِنْ

(١) مثل معناه : لَا تَضِيقُ الْحَيْلَ وَمَخَارِجَ الْأُمُورِ إِلَّا عَلَى الْعَاجِزِ ، وَالْحَالَةِ :

حُبِّهِ وَإِنَّمَا آتَيْهِ مِنْ بُغْضِهِ ، ثُمَّ تَمَثَّلَ بِقَوْلِ الْحَصِينِ بْنِ الْحَمَامِ الْمُرِّي^(١) :
تَأَخَّرْتُ أَسْتَبْقِيَ الْحَيَاةَ فَلَمْ أَجِدْ لِنَفْسِي حَيَاةً مِثْلَ أَنْ أَتَقَدَّمَ
« وَهِيَ آيَاتٌ مَشْهُورَةٌ يَقُولُ فِيهَا :

فَلَسْنَا عَلَى الْأَعْقَابِ تَدْنَى كُلُّوْنَا وَلَكِنْ عَلَى أَقْدَامِنَا تَقْطُرُ الدَّمَ
تُفْلَقُ هَامًا مِنْ رِجَالٍ أَعَزَّةٍ عَلَيْنَا وَهُمْ كَانُوا أَعَقَى وَأَظْلَمًا
« وَمَعْنَى تَأَخَّرْتُ ... أَلْبَيْتُ : لَمَّا تَأَخَّرْتُ طَمَعْتُ فِي الْعَدُوِّ ، وَظَنَنْتِي
جَبَانًا فَاجْتَرَأْتُ عَلَى ، لِأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَطْمَعُ فِي الْجَبَانِ ، وَمَنْ ثُمَّ كَانَ الْقَتْلُ
إِلَى الْجَبَانِ أَسْرَعَ ، فَتَقَدَّمْتُ ، فَكَانَ التَّقَدُّمُ أَنْجَى لِي ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ
الْمَعْنَى : أَحْبَبْتُ مُسْتَبْقِيًا لِحَيَاتِي ، فَلَمْ أَجِدْ لِنَفْسِي حَيَاةً كَمَا يَكُونُ فِي الْإِقْدَامِ
وَذَلِكَ أَنَّ الْأُحْدُوَّةَ الْجَمِيلَةَ إِنَّمَا تَكُونُ بِالتَّقَدُّمِ لَا بِالتَّأَخُّرِ . وَمَعْنَى فَلَسْنَا
عَلَى الْأَعْقَابِ ... أَلْبَيْتُ : نَحْنُ لَا نُؤَلِّي فَنُجَرِّحَ فِي ظَهْرِنَا فَتَقْطُرَ دِمَاؤُنَا
عَلَى أَعْقَابِنَا ، وَلَسَكُنَّا نَسْتَقْبِلُ السِّيفَ بِوُجُوهِنَا ، فَإِنْ أَصَابَتْنَا جَرَّاحٌ
تَقَطَّرَتْ دِمَاؤُنَا عَلَى أَقْدَامِنَا ، وَقَوْلُهُ تَفْلَقَ هَامًا ... أَلْبَيْتُ فَالْهَامُ جَمْعُ هَامَةٍ ،
وَهِيَ : الرَّأْسُ يَقُولُ : تُشَقُّ هَامَاتٌ مِنْ رِجَالٍ يَكْرُمُونَ عَلَيْنَا ، لِأَنَّهُمْ مِنَّا
وَهُمْ كَانُوا أَسْبَقَ إِلَى الْعُقُوقِ : وَيُقَالُ : عَقَّ الرَّحِمُ كَمَا يُقَالُ : قَطَعَهَا .
وَقَالَ الْكَلْبَجَةُ الْيَرْبُوعِي — شَاعِرٌ جَاهِلِي — :

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَغْشَ الْكَرْبَةَ أَوْشَكَتْ جِبَالُ الْهُوَينِ بِالْفَتَى أَنْ تَقَطَّعًا
« الْغَشْيَانُ : الْإِتْيَانُ ، وَالْكَرْبَةُ : الْحَرْبُ ، وَقِيلَ : شَدَّهَا ، وَقِيلَ
الْنازِلَةُ ١ وَأَوْشَكَتْ : قَارَبَتْ وَدَنَتْ ، وَالْجِبَالُ جَمْعُ جَبَلٍ ، بِمَعْنَى : السَّبَبُ ،
اسْتَعْبِيرَ لِكُلِّ شَيْءٍ يُتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى أَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ ، وَالْهُوَينِ : الْخَفْضُ وَالرَّاحَةُ

(١) شاعر فارس جاهلي كان يقال له : مانع الضميم

والباء في بالفتى : للمصاحبة فيكون حالا ، أو بمعنى عن فيتعلمن بها بعدما
 وجاز لأنه ظرف ، وتقطعا بحذف إحدى التاءين والفاعل ضمير حبال ،
 وقوله : بالفتى فقد كان يجب أن يقول بدل الفتى : به ، أو : بالمرء واسكنه
 عدل عن المضمر والمظهر إلى انظر آخر لأنه أشبه المضمر ، وقال ابن
 رشيقي : قوله بالفتى حشو وكان الواجب أن يقول : به لأن ذكر المرء قد
 تقدم ، إلا أن يريد بالفتى معنى الزاوية والأطنوزة — السخرية — فإنه
 محتمل . وهذا تخيل دقيق من ابن رشيقي ،

المبادر إلى الحرب غير مبال بها

قال البُخْتَرِيُّ :

تسرّع حتى قال مَنْ شَهِدَ الْوَعْيَ لِقَاءَ أَعَادٍ أَمْ لِقَاءَ حَبَائِبٍ
 وقالوا : أَشْجَعُ بَيْتٍ قَالَتْهُ الْعَرَبُ قَوْلَ الْعَبَّاسِ بْنِ مِرْدَاسٍ :
 أَشْدُّ عَلَى السَّكَنِيَّةِ لَا أُبَالِي أَحْتَفِي كَانَ فِيهَا أَمْ سِوَاهَا
 ووصف أعرابي قوماً فقال : ما سألوا قط كم القوم ؟ وإنما يسألون :
 أين هم ؟

وسأل رجلٌ يزيدَ بنَ المهَلَّبِ فقال : صف لي نفسك ، فقال : ما بارزت
 أحداً إلا ظننتُ أن رُوحَهُ في يدي ...

ولما بلغ قَتَيْبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ حدود الصين قيل له : قد أوغلت في بلاد
 الترك ، والحوادثُ بين أجنحة الدهر تُقبِلُ وتُدِيرُ ، فقال : بِشَقَّتِي بِنُصْرِ
 اللَّهِ تَوَغَّلْتُ ، وإذا انقضت المدة لم تنفع العدة ، فقال الرجل : أَسُوكَ حَيْثُ
 شَدْتَ ، فهذا عزمٌ لَا يَفْلُهُ إِلَّا اللَّهُ ...

حث من دعى إلى المبارزة على الإجابة

قال علي بن أبي طالب لبعض بنيهِ : لَا تَدْعُونَ أَحَدًا إِلَى الْمُبَارَزَةِ ،
وَلَا يُدْعَوَنَّكَ أَحَدٌ إِلَّا أَجَبْتَهُ ، فَالدَّاعِيَ بَاغٌ ، وَالْبَاغِي مَصْرُوعٌ .

وقال طَرَفَةُ بْنُ الْعَبْدِ :

إِذَا الْقَوْمُ قَالُوا : مَنْ قَتَى ؟ خِلْتُ أَنَّنِي

عُنَيْتُ فَلَمْ أَكْسَلْ وَلَمْ أَتَبَلَّدْ ^(١)

وقال بَشَّامَةُ بْنُ حَزْنِ النَّهْشَلِيِّ - شاعر إسلامي - :

إِنَّا لَكِنْ مَعْشَرٍ أَقْنَى أَوَائِلَهُمْ قَوْلُ السَّكَاةِ : أَلَا ابْنَ الْمُحَامُونَا ؟
لَوْ كَانَ فِي الْأَلْفِ مِنَّا وَاحِدٌ فَدَعَا مَنْ فَارِسُ خَالِهِمْ إِيَّاهُ يَعْنُونَا

المنازل وقت المنازلة

قال زهير بن أبي سُلي من قصيدة يمدح هَرِمًا :

لَيْتَ بِشَرِّ يَصْطَادُ اللَّيْثَ إِذَا

مَا اللَّيْثُ كَذَّبَ عَنْ أَقْرَانِهِ صَدَقًا

يَطْفَنُّهُمْ مَا ارْتَمَوْا حَتَّى إِذَا آطَمَسُوا

ضَارَبَ حَتَّى إِذَا مَا ضَارَبُوا أَعْتَقًا

« عَثَرَ : » وضع بالين ، وقيل : مأسدة بناحية تبالّة . وقوله : كَذَّبَ

أَي لَمْ يَصْدُقَ الْحِمْلَةَ ، يُقَالُ : كَذَّبَ الرَّجُلُ عَنْ كُنَا : إِذَا رَجَعَ عَنْهُ ،

(١) من تعلّقته ، يقول : إِذَا الْقَوْمُ قَالُوا : مَنْ قَتَى يَكْفِي مَهْمَا أُوْدِفَعَ شَرًّا ؟ خِلْتُ

أَنَّنِي الْمُرَادُ بِقَوْلِهِمْ ، فَلَمْ أَكْسَلْ فِي كِفَايَةِ الْمَهْمِ وَدَفَعُ الشَّرِّ ، وَلَمْ أَتَبَلَّدْ فِيهِمَا

يقول : إذا رجع الشجاع عن قرنه ولم يَصْدُقِ الحلة عليه فهذا الممدوح يَصْدُقُهَا . واعتق : التزم قرنه ، يقول : إذ ارتمى الناس في الحرب بالنبل دَخَلَ هو تحت الرمي فجعل يطاعنهم ، فإذا تطاعنوا ضارب بالسيف ، فإذا تضاربوا بالسيوف اعتق قرنه والتزمه ، أى أنه يزيد عليهم في كل حال من أحوال الحرب »

صدر من عبقرياتهم في الصبر

من أحسن ما قيل في الصبر يوم اللقاء قول نهمشل بن حرى بن ضمرة (١) :

ويوم كأن المصطلين بحره - وإن لم تكن نار - قيام على الجمر
صبرنا له حتى يوخ وإنما نفرج أيام الكربة بالصبر
« باخت الحرب والنار تبوخ بوخا وبوخا وبوخا : سكنت وقبرت
وكذلك الحر والغضب والحوى »
وقال من لا أذكر اسمه :

بكى صاحبي لما رأى الموت فوقنا مُطلاً كإطلال السحاب إذا اكفهر
فقلت له : لا تبك عينك إنما يكون غداً حسنُ الشاء لمن صبر
فا آخر الإحجام يوماً مُجَلاً ولا عجل الإقدام ما آخر القدر

(١) شاعر شريف مشهور من المخضرمين بقى إلى أيام معاوية وكان مع على في حروبه ، وأبوه شاعر شريف وجده ضمرة ضخم الشرف وكان من خير بني دارم ، دخل على النعمان بن المنذر فقال له : من أنت ؟ قال : أنا حمزة ، قال النعمان : تسمع بالمعدي لا أن تراها فقال : أبيت اللعن ، إنما المرء بأصغريه : قلبه ولسانه ، إن نطق نطق ببيان وإن قاتل قاتل بجهنم الخ .

فَأَسَى عَلَى حَالٍ يَقِلُّ بِهَا الْأَمَى وَقَاتَلَ حَتَّى اسْتَبْهَمَ الْوَرْدُ وَالصَّدْرُ
وَكَرَّ حِفَاطًا خَشِيَةً الْعَارَ بَعْدَمَا رَأَى الْمَوْتَ مَعْرُوضًا عَلَى مَنَهِجِ الْمَسْكَرِ
وَقَالَ قَطْرِيُّ بْنُ الْفُجَاءَةِ : (١)

أَقُولُ لَهَا وَقَدْ طَارَتْ شِعَاعًا مِنْ الْأَبْطَالِ : وَيَحْكُ لَنْ تُرَاعَى
فَإِنَّكَ لَوْ سَأَلْتَ بَقَاءَ يَوْمٍ عَلَى الْأَجْلِ الدِّي لَكَ لَنْ تُطَاعَى
فَصَبْرًا فِي مَجَالِ الْمَوْتِ صَبْرًا فَمَا نِيلُ الْخُلُودِ بِمُسْتَطَاعِ
وَلَا ثَوْبُ الْبَقَاءِ بِثَوْبِ عِزٍّ فَيُطَوَّى عَنْ أَخِي الْخَنَعِ الْبِرَاعِ
سَبِيلُ الْمَوْتِ غَايَةُ كُلِّ حَيٍّ فِدَاعِيهِ لِأَهْلِ الْأَرْضِ دَاعِي
وَمَنْ لَا يُعْتَبِطُ بِسَأْمٍ وَيَهْرَمُ وَتُسْلِمُهُ الْمَنُونُ إِلَى انْقِطَاعِ
وَمَا لِلْمَرءِ خَيْرٌ فِي حَيَاةٍ إِذَا مَا عُدَّ مِنْ سَقَطِ الْمَتَاعِ

« أقول لها ، أى للنفس ، والشعاع : المتفرق ، وهذا مثل ، ومعناه المبالغة في الفزع ، ولن تراعى من الروح ، وهو : الفزع . يَذْكُرُ تشجيعه نفسه وتعريفه إياها — بعد ما استشعرت الفزع — أن الأجل مُقَدَّرٌ وأن الزيادة لا تلحقه كما بين ذلك في البيت التالي . وأخو الخنع : الذليل ، والخنوع : الذلة ، ولا يكاد الخنوع يُسْتَعْمَلُ إِلَّا فِي ذِلَّةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا ، والبراع : القصة التي لا جوف لها ، والرجل الجبان لا قلب له ؛ فكأنه لا جوف له ، فوضع البراع مكان الجبان ، لأنه بمعناه . والاعتباط : الموت من غير علة يقول : مَنْ لَمْ يَمُتْ شَابًّا مَاتَ هَرَمًا ، وبسأم : أى يسأم ما يعتريه من تكاليف

(١) فارس شاعر مشهور ، وشخصية ضخمة في الإسلام ، كان رأساً من رؤس الخوارج ، وسلم عليه بالخلافة ثلاث عشرة سنة .

الحياة ولا بُدَّ أَنْ تُسَلِّمَهُ الْمَوْتُ يَوْمًا إِلَى الْإِنْقِطَاعِ ، أَيْ لَا بَدَّ فِي النِّهَايَةِ
مِنَ الْمَوْتِ ،

وَقَالَ عَمْرُو بْنُ الْإِطَنْابَةِ - شَاعِرُ جَاهِلِيٍّ ، وَالْإِطَنْابَةُ : أُمُّهُ - :

أَبَتْ لِي عِفَّتِي وَأَبَى بِلَانِي وَأَخَذَنِي الْحَمْدَ بِالشَّمَنِ الرِّيحِ (١)

وَأَقْدَامِي عَلَى الْمَكْرُوهِ نَفْسِي وَضَرَبَنِي هَامَةُ الْبَاطِلِ الْمُشِيحِ (٢)

وَقَوْلِي كُلَّمَا جَشَّاتُ وَجَاشْتُ مَكَانَكَ تُحَمِّدِي أَوْ تُسْتَرِيحِي (٣)

لِأَذْفَعٍ عَنْ مَآزٍ صَالِحَاتٍ وَأَحْيَى بَعْدُ عَنْ عَرِضٍ صَحِيحٍ -

يُرْوَى أَنَّ مَعَاوِيَةَ قَالَ : اجْمَعُوا الشُّعْرَ أَكْبَرَ قَهْمِكُمْ وَأَكْثَرَ آدَابِكُمْ فَإِنْ

فِيهِ مَآزٍ أَسْلَافِكُمْ وَمَوَاضِعَ إِرْشَادِكُمْ ، فَلَقَدْ رَأَيْتُنِي لَيْلَةَ الْهَرِيرِ وَقَدْ عَزَمْتُ

عَلَى الْفِرَارِ فَأَرَدْتُ إِلَّا قَوْلَ ابْنِ الْإِطَنْابَةِ ، وَأَتَمَدُّ الْآيَاتِ .

وَقِيلَ لِبَعْضِ بَنِي الْمُهَلَّبِ : بِمَ نَلْتُمُ مَا نَلْتُمُ ؟ قَالَ : بِصَبْرِ سَاعَةٍ

(١) بِلَانِي : بِأَسَى فِي الْحُرُوبِ ، وَاسْتِعَارَ الثَّمَنَ لِمَا يَبْذُلُهُ فِي الْمَكَارِمِ عَلَى طَرِيقِ

التَّصْرِيحِ ، وَالرِّيحُ الزَّائِدُ مِنْهُ

(٢) وَأَقْدَامِي يُرْوَى : وَاجْشَامِي ، وَيُرْوَى بِدَلِّ هَذَا السَّطَرِ

• وَإِعْطَانِي عَلَى الْإِعْدَامِ مَالِي •

وَالْهَامَةُ : الرَّأْسُ ، وَالْمُشِيحُ : الْمُبَادِرُ الْمُنْكَشِ الْجَادُّ فِي الْقِتَالِ ،

(٣) وَقَوْلِي كُلَّمَا جَشَّاتُ وَجَاشْتُ يُرْوَى • وَقَوْلِي كُلَّمَا جَشَّاتُ لِنَفْسِي •

وَهِيَ رَوَايَةٌ جَيِّدَةٌ وَمَعْنَى : جَشَّاتُ وَجَاشْتُ : كُلَّمَا تَطَلَّعْتُ وَنَهَضْتُ جَزْعًا وَفَزَعًا وَعَنْ

بَعْضِهِمْ : جَاشَتْ نَفْسُهُ : غَشَتْ أَوْ دَارَتْ لِلْغَيَانِ : فَإِنْ أَرَدْتُ أَنَّهَا ارْتَفَعَتْ مِنْ حُزْنٍ

أَوْ فَزَعٍ قُلْتُ جَشَّاتُ . وَمَكَانَكَ اسْمُ فِعْلٍ أَيْ : الزَّمَى يَنْفُسَ مَكَانَكَ يَحْمَدُكَ النَّاسُ

أَنْ ظَفَرَتْ أَوْ تُسْتَرِيحِي إِنْ مِتْ

الخُدعة والحيلة والتحرز في الحرب

قال سيدنا رسول الله : (الحرب خدعة) « خُدْعَةٌ وَخُدْعَةٌ ، والفَتْحُ أَفْصَحُ ، وَخُدْعَةٌ مِثْلُ هُمَزَةٍ ، قَالَ عَلِيقُونا : وَرُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : خُدْعَةٌ ، وَمَعْنَاهَا : مَنْ خُدِعَ فِيهَا خُدْعَةٌ فَزَلَّتْ قَدَمُهُ وَعَطِبَ فُلَيْسُ لَهَا إِقَالَةٌ ؛ قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ : وَخُدْعَةٌ . أَفْصَحُ الرِّوَايَاتُ وَأَصَحُّهَا ، وَمَنْ قَالَ خُدْعَةٌ أَرَادَ . هِيَ تُخْدَعُ ، كَمَا يَقَالُ : رَجُلٌ لَعْنَةٌ : يُلْعَنُ كَثِيرًا ، وَإِذَا خُدِعَ أَحَدُ الْفَرِيقَيْنِ صَاحِبُهُ فِي الْحَرْبِ فَكُنَّا نَخْدَعُ : وَمَنْ قَالَ : خُدْعَةٌ أَرَادَ أَنَّهَا تُخْدَعُ أَهْلُهَا ، كَمَا قَالَ عَمْرُو بْنُ مَعْدِيكَرِبٍ ^(١)

الْحَرْبُ أَوَّلَ مَا تَكُونُ فَنِيَّةٌ تَسْعَى بِزِيادَتِهَا لِكُلِّ جَهُولٍ حَتَّى إِذَا اسْتَعْرَتْ وَشَبَّ ضَرَامُهَا

عَادَتْ عَجُوزًا غَيْرَ ذَاتِ خَلِيلٍ

شَمَطَاءَ جَزَّتْ رَأْسُهَا وَتَنَكَّرَتْ مَكْرُومَةً لِلشَّمِّ وَالتَّقْيِيلِ

وَقَالُوا : إِذَا لَمْ تَغْلِبْ فَاخْلُبْ « أَيْ إِذَا أُعْيَاكَ الْأَمْرُ يُغَالِبُهُ فَاطْلُبْهُ نُخَادَعَةٌ » .

وَقَالَ بَعْضُهُمْ : كُنْ بِحِيلَتِكَ أَوْثَقَ مِنْكَ بِشِدَّتِكَ ، وَبِحَذْرِكَ أَفْرَحَ مِنْكَ بِنَجْدَتِكَ ، فَإِنَّ الْحَرْبَ حَرْبٌ لِلْمُتَهَوِّرِ وَغَنِيمةٌ لِلْمُتَحَذِّرِ
وَقَالُوا : حَازِمٌ فِي الْحَرْبِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ فَارِسٍ ، لِأَنَّ الْفَارِسَ يَقْتُلُ عَشْرَةَ وَعِشْرِينَ ، وَالْحَازِمَ قَدْ يَقْتُلُ جَيْشًا بِخَيْرِهِ وَتَدْبِيرِهِ .

(١) هو الفارس المشهور صاحب الغارات والوفائع في الجاهلية والإسلام وهو صحاب: رضى الله عنه .

وقالوا : القائد العظيم ينبغي أن تكون فيه خصال من أخلاق الحيوان :
شجاعة الديك ، وتحنن الدجاجة ، وقلب الأسد ، وحملة الخنزير ، وروغان
الثعلب ، وختل الذئب ، وجمع الذرة ، وبكور الغراب .

وقال المهلب بن أبي صفرة لبنيه : عليكم في الحرب بالمكيدة فإنها
أبلغ من النجدة ... وسئل بعض أهل التمرس بالحروب : أى المكاييد
فيها أحزم ؟ فقال : إذكاء العيون ، — بث الجواسيس — وإفشاء الغلبة
واستطلاع الاخبار ، وإظهار السرور ، وإماتة الفرق — الخوف —
والاحتراس من البطانة ، من غير إقصاء المستنصح ولا استنصاح
لمستغش ، وإشغال الناس عما هم فيه من الحروب بغيره .

وكان مالك بن عبد الله الحنعمي وهو على الصافية — الجماعة تُقام
وتُصف للحرب — يقوم في الناس — إذا أراد أن يرحل — فيحمد الله
ويثنى عليه ، ثم يقول : لئن دأرت بالغداة درب كذا ؛ فيفرق الجواسيس
عنه بذلك ، فإذا أصبح سلك بالناس طريقاً غيرها ، فكانت الروم تُسميه :
الثعلب ...

وقال حكيم : اللطف في الحيلة ، أجدى للوسيلة .

وقالوا : من لم يتأمل الامر بعين عقله لم يقع سيف حياته إلا على مقاتله
والثبث يُسهل طريق الرأي إلى الإصابة ، والعجلة تضمن العثرة .

«وبعد» فإن هذا الباب متسع جداً ، ومن أحب التوسع فيه والوقوف
على أخبارهم في المكاييد ، وأساليبهم العجيبة فيها فعلية بالموسوعات — مثل
نهاية الأرب للنويري ، وعيون الأخبار لابن قتيبة ، وبكتب التاريخ ،
فذلك مجالاتها .

ما ينبغي أن يتصف به

أمرأء الجيوش

من أجود ما قيل فيما ينبغي أن يتصف به أمرأء الجيوش قول لقيط
ابن يعمر الإيادي - وهو شاعر جاهلي قديم مُقِلٌّ - كان كاتباً في ديوان
كسرى سابور بن هرمز الملقب بذي الأكتاف - وكانت إياد غلبوا على
سواد العراق ، وقتلوا من كان به من الفرس ، فلما بلغ خبرهم سابور أجمع
على غزو إياد فكتب إليهم لقيط قصيدة ينذر قومه غزو سابور إياهم ،
فوقع الكتاب بيد كسرى فقطع لسان لقيط وغزا إيادا وهي قصيدة جيدة
جداً يقول فيها :

أُبْلِغُ إِيَادًا وَخَلَلٌ فِي سَرَائِهِمْ إِنِّي أَرَى الرَّأْيَ إِنْ لَمْ أُعْصَ قَدْ نَصَعًا^(١)
يَا لَهْفَ نَفْسِي إِنْ كَانَتْ أُمُورُكُمْ شَتَّى وَأُحْكِمَ أَمْرُ النَّاسِ فَاجْتَمَعَا
إِنِّي أَرَاكُمْ وَأَرْضًا تُعْجَبُونَ بِهَا مِثْلَ السَّفِينَةِ تَغْشَى الْوَعْثَ وَالطَّيْبَةَ^(٢)
أَلَا تَخَافُونَ قَوْمًا لَا أَبَاكُمْ أَمْسُوا إِلَيْكُمْ كَأَمْثَالِ الدَّبَا سِرْعًا^(٣)

(١) خلل في سرائهم : خصص يقال : خلل في دعائه ، أي خصص ، قال :

كَأَنَّكَ لَمْ تَسْمَعْ وَلَمْ تَكْ شَاهِدًا غَدَاةَ دَعَى الدَّاعِي فَعَمَّ وَخَلَلَا
وَالسَّرَاةَ جَمَعَ سَرَى ، وَقِيلَ : اسْمُ جَمْعٍ وَالْجَمْعُ سُرُوءٌ وَأَسْرِيَاءٌ . وَهِيَ الْأَشْرَافُ أُولُو
الْمُرُوءَةِ ، وَنَصَعًا : وَضَعَ مِنْ نَصَعَ اللَّوْنُ نَصُوعًا وَنَصَاعَةً : اشْتَدَّ بَيَاضُهُ

(٢) الوعث من الرمل : ما غابت فيه قوائم الدواب . والطبع في الأصل : ما يغشى
السيف من الصدا ، استعاره لما يعلو الماء من الغشاء والزبد ، شبه سرورهم وهم
بأرضهم غير مفكرين فيما يحوطها وفيما يحفظها من العدو بالسفينة تغشى - وهي سائرة -
ما يمنع حركتها ويصد جريتها

(٣) الدبى : الجراد قبل أن يطير : وسرعا : مصدر سماعي لسرع سراعاً وسرعة :

أبناء قوم تآيؤكم على حنق لا يشعرون أضل الله أم نفعا^(١)
أحرار فارس أبناء الملوك لهم من الجوع جموع تزدهي القلعا^(٢)
إلى أن يقول :

خزر عيونهم كأن لاحظهم^(٣) حريق غاب ترى منه السنأ قطعاً^(٤)
لا الحرث يشغلهم بل لا يرون لهم من دون يفضتكم رياء ولا شبعاً^(٥)
وأنتم تحرثون الأرض عن سفه في كل معتمل تبغون مزرعا^(٦)
وتلبسون ثياب الأمن ضاحية لا تفزعون وهذا الليث قد جمعا^(٧)

إذا عجل ، يريد : أمسوا مسرعين

(١) تآيؤكم : تعمدوكم وقصدوكم ، يقال : تآيته بوزن تفاعلته ، وتآيته - بالتشديد - إذا تعمدت آيته ، وآيته : شخصه .

(٢) تزدهي : تستخف ، وقد زهاه زهواً وازدهاه : استخفه وتهاون به . والقلع جمع قلعة - بالتحريك - : صخرة عظيمة صعبة المرتقى تتقلع عن الجبل

(٣) خزر عيونهم من الخزر - بالتحريك - وهو : ضيق الجفون لتحديد النظر ، والغاب جمع غابة وهي . أجمة القصب أو ذات الشجر المتكاثف ، سميت بذلك لأنها تغيب من فيها ، والسنأ : ضوء النار ولمعان البرق

(٤) يفضتكم : مجتمعكم وموضع عزمكم ، على المثل بيضة الدجاجة إذا سلمت سلم ما فيها من طعم أو فرخ ، وفي الحديث : ولا تسلط عليهم عدواً فيستريح يفضتهم ، يريد : موضع سلطانهم ومستقر عزمهم ، واستباحتها : استنصاها

(٥) معتمل : موضع اعتمال ، وهو أن يعمل الرجل لنفسه كاختدم إذا خدم نفسه وأنشدوا :

إن الكريم وأبيك يعتمل إن لم يجد يوماً على من يتكل
أراد من يتكل عليه لحذف عليه هذه وزاد على متقدمة أي أنه يعتمل إن لم يجد من يتكل عليه

(٦) ضاحية : علانية

مالى أراكم نيناءاً فى بلهنية وقد ترون شهاب الحرب قد سطمأ^(١)
 فاشفوا غليلى برأى منكم حصيد يصيح نوادى له ريان قد نقعا^(٢)
 ولا تكونوا كنن قد بات مكتنعا إذا يقال له : افرج غنة كنعنا^(٣)
 يسعى ويحسب أن المال نخلة إذا استفاد طريقاً زاده طمعاً^(٤)
 فاقنوا جبادكم واحموا ذماركم

واستشعروا الصبر لا تستشعروا الجزعا^(٥)

إلى أن قال :

لأنهكم إبل لست لكم إبل إن العدو بعظم منكم قرعا^(٦)
 لا تثيروا المال الأعداء منهم إن يظهرُوا يَحْتَوُواكم والبلاد معا

(١) بلهنية : رخاء وسعة عيش وغفلة من حوادث الدهر

(٢) الغليل فى الأصل : شدة العطش وحرارته ، أراد : شدة الحزن وحرارته
 وحصد - بكسر الصاد - : محكم ، من الحصد - بالتحريك - وهو فى الأصل : اشتداد
 قتل الحبال واستحكام الصناعة فى الأوتار والدروع ، وكذلك رأى حصيدو مستحصد ،
 ونفع الماء العطش : أذهب وسكنه ، منحهم على توحيد الرأى لا تختلف بهم الأهواء
 (٣) مكتنعا : منقبضاً مجتمعا ، وكنع الرجل : قبض واجتمع ، وقال ابن الأثير :
 جبن وهرب .

(٤) الطريف من المال : ما استطرفته واستحدثته كالأطراف ، خلاف التليد
 والتلاد والتالد ، وهو : ما ورثته عن الآباء قديما

(٥) فاقنوا جبادكم : الزمواها ، والذمار : ما يلزم حفظه وحمايته من مال وأهل
 وعسيرة ، واستشعروا الصبر : مستعار من استشعر الثوب : لبسه على شعر جسده ،
 وهو الشعار دون الدثار ، يقول : وطنوا أنفسكم على الصبر ولا تضمروا الجزع
 فى أنفسكم

(٦) إن العدو الخ يريد : إن قرع العدو عظمكم ، والقرع : الضرب ، كنى
 بذلك عن إذلالهم وإهانتهم

والله ما انفكت الأموال منذ أبدٍ لأهلها إن أُصيبوا مرةً تبعا
يا قوم إن لكم من إرث أولكم مجداً قد آشفقت أن يفنى وينقطعاً
ماذا يرث عليكم عز أولكم إن ضاع آخره أو ذل واتسعا
يا قوم لا تأمنوا إن كنتم غيراً على نسائكم كسرى وما جمعا^(١)
يا قوم بيضتكم لا تفجعن بها إني أخاف عليها الازلم الجذعا^(٢)
هو الجلاء الذي يجتث أصلكم فمن رأى مثل ذا رايًا ومن سمعا^(٣)
قوموا قياماً على أمشاط أرجلكم ثم افزعوا قد ينال الأمن من فزعا^(٤)

ثم قال يصف أمير الجيش — وهو شاهدنا — :

وَقَلْدُوا أَمْرَكُمْ لِلَّهِ دَرُّكُمْ رَحَبَ الذَّرَاعِ بِأَمْرِ الْحَرْبِ مُضْطَلَعًا^(٥)

(١) غير - بضمين - جمع غيور ، من الغيرة وهي : الحمية والآنفة
(٢) تقدم معنى البيضة آنفاً ، والازلم الجذع في الأصل : الوعل ، وهو تيس
الجليل ، وذلك أن له زلتين . وهما هتان معلقتان في حلقة ، وهو مادام حياً جذع
لا تسقط له سن . استعير ذلك للدهر الشديد ، وذلك أن البلايا منوطة به تابعة له
وأنه باق على حاله لا يتغير على طول إناه كأنه قى لم تسقط له سن ، ومن كلامهم :
أودى به الازلم الجذع يريدون : أهلكه الدهر

(٣) يجتث أصلكم : يقتله ويستأصله ، ومعنى اجتث في اللغة : أخذت جثته
(٤) أمشاط جمع مشط - بضم الميم - وهي : سلاميات ظهر القدم ، وهي
العظام الرقاق المفترشة فوق القدم دون الأصابع ، وقوله : ثم افزعوا يريد : هبوا
وانتهبوا كما يفزع النائم ، وكأنه من الفرع - الخوف - لأن الذي يهب وينتبه لا يخلو
من فزع ما

(٥) رحب الذراع كناية عن إطاقته وسعة قوته ، ومضطلع مفتعل من الضلاعة
وهي قوة الاضلاع ، وقد اضطلع بحمله : قوى عليه ونهض به

لا مُتْرَفًا إِنْ رَخَاءُ الْعَيْشِ سَاعَدَهُ وَلَا إِذَا عَضَّ مَكْرُوهٌ بِهِ خَشَعَا ^(١)
 لَا يَطْعَمُ النَّوْمَ إِلَّا رَيْثَ يَبْعَثُهُ هَمٌّْ يَكَادُ شَبَاهُ يَفْصِمُ الضَّلْعَا ^(٢)
 مُسَهِّدُ النَّوْمِ تَغْنِيهِ أُمُورُكُمْ يَرُومُ مِنْهَا إِلَى الْأَعْدَاءِ مُطْلَعَا
 مَا زَالَ يَجْلِبُ هَذَا الدَّهْرُ أَشْطَرُهُ يَكُونُ مُتَّبِعًا طَوْرًا وَمُتَّبِعَا ^(٣)
 حَتَّى اسْتَمَرَّتْ عَلَى شَرْزٍ مَرِيرَتُهُ مُسْتَحْكِمُ الرَّأْيِ لَا قَحْمًا وَلَا ضَرَعَا ^(٤)
 وَلَيْسَ يَشْغَلُهُ مَالٌ يُشْمَرُهُ عَنْكُمْ وَلَا وَلَدٌ يَبْغِي لَهُ الرِّفْعَا
 إِلَى أَنْ قَالَ :

(١) المترف : المتنعم المتوسع في ملاذ شهواته

(٢) ريث يبعثه : مقدار ما يبعثه ، يقول : لا يطعم النوم إلا يسيراً حتى يبعثه
 الهم الماضي ، والشبا جمع شباة وهى حد كل شئ. وطرفه كحد السيف والسنان ، تخيل
 أن لهما حداً ، ويفصم من الفصم - بالفاء - وهو أن ينصدع الشئ من غير أن يبين
 خلاف الفصم - بالقاف - وهو كسر الشئ الشديد حتى يبين ، والضلع والضلع لغتان
 وهى : بحنية الجنب

(٣) يجلب هذا الدهر أشطره يريد : خبر ضروبه ، يعنى أنه مر به خيره وشره
 وشده ورخاؤه : تشبيهاً يجلب جميع أخلاف الناقة ما كان فيها حفلاً وغير حفل وداراً
 وغير دار ، وأصله من أشطر الناقة ، ولها خلفان قادمان وآخران كأنه حلب القادمين
 وهما الخير والآخرين وهما الشر ، وكل خلفين شطر ، وجعل الأشطر موضع - الشطرين
 كما تجعل الحواجب موضع الحاجبين ، وقوله : يكون متبعاً طوراً ومتبعاً ، أى قد
 اتبع الناس فعلم ما يصلح به أمر الناس ، واتبع فعلم ما يصلح الرئيس ، كما قال عمر بن
 الخطاب رضى الله عنه : قد ألنا وإبل علينا ، أى : سسنا وسيس علينا فأصلحنا أمور
 الناس وأصلحت أمورنا ، وكل ذلك كناية عن جودة الرأى وإحكام الأمر

(٤) المريرة من الحبل : ماطال واشتد قتله واجمع المرائر ، واستمرت : استحكمت
 والشزر : الفتل ، ضرب ذلك مثلاً لاستجماع قوته واستحكام عزيمته ، والقحم : الكبير
 المنسن ، والضرع هنا : الصغير السن الضعيف

لقد بَدَلْتُ لَكُمْ نُصِيحِي بِلا دَخَلٍ فَاسْتَيْقِظُوا إِن خَيْرَ الْعِلْمِ مَا نَفَعَا
 هَذَا كِتَابِي إِلَيْكُمْ وَالنَّذِيرُ لَكُمْ لِمَنْ رَأَى رَأْيَهُ مِنْكُمْ وَبَنَ سَمِيعًا
 وَلَمَّا أَوْفَدَ الْمُهَلَّبُ بْنُ أَبِي صُفْرَةَ كَعْبَ بْنَ مَعْدَانَ الْأَشْقَرِيَّ حِينَ
 هَزَمَ عَبْدَ رَبِّهِ الْأَصْغَرَ وَأُجْلِيَ قَطْرِيَّ بْنَ الْفُجَاءَةِ حَتَّى أَخْرَجَهُ مِنْ كَرِمَانَ
 نَحْوِ أَرْضِ خِرَاسَانَ إِلَى الْحِجَاكِ بْنِ يَوْسَفَ ، قَالَ لَهُ الْحِجَاكِ : كَيْفَ كَانَتْ
 مُحَارَبَةُ الْمُهَلَّبِ لِلْقَوْمِ ؟ قَالَ : كَانَ إِذَا وَجَدَ الْفُرْصَةَ سَارَ كَمَا يُسُورُ اللَّيْثُ ، ^(١)
 وَإِذَا دَهَمَتْهُ الطَّخْمَةُ ^(٢) رَاغَ كَمَا يَرُوحُ الثَّلَبُ ، وَإِذَا مَادَّهُ الْقَوْمُ صَبَرَ صَبْرَ
 الدَّهْرِ . قَالَ : وَكَيْفَ كَانَ فِيكُمْ ؟ قَالَ : كَانَ لَنَا مِنْهُ إِشْفَاقُ الْوَالِدِ الْحَرِيبِ
 وَلَهُ مِنَّا طَاعَةُ الْوَلَدِ الْبَرِّ . قَالَ : وَكَيْفَ أَفْلَتَكُمْ قَطْرِي ؟ قَالَ : كَادَنَا يَبْعُضُ
 مَا كَدَنَاهُ بِهِ ، وَالْأَجَلَ أَحْصَنُ جُنَّةً وَأَنْفَذَ عُدَّةً . قَالَ : فَكَيْفَ اتَّبَعْتُمْ
 عَبْدَ رَبِّهِ وَتَرَكْتُمُوهُ ؟ قَالَ آتَرْنَا الْحَدَّ عَلَى الْفَلِّ ^(٣) ، وَكَانَتْ سَلَامَةُ الْجُنْدِ
 أَحَبَّ إِلَيْنَا مِنْ شَجَبِ الْعَدُوِّ ^(٤) . فَقَالَ لَهُ الْحِجَاكِ : أَكُنْتُ أَعْدَدْتُ هَذَا
 الْجَوَابَ قَبْلَ لِقَائِي ؟ قَالَ : لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ...

حُثُّهُمْ عَلَى التَّفَكِيرِ قَبْلَ التَّقَدُّمِ

قَالُوا : مَنْ قَاتَلَ بِغَيْرِ نَجْدَةٍ ، وَخَاصَمَ بِغَيْرِ حُجَّةٍ ، وَصَارَعَ بِغَيْرِ قُوَّةٍ
 فَقَدْ أَعْظَمَ الْخَطَرَ ، وَأَكْبَرَ الْغَرَرَ ... الْغَرَرُ : الْخَطَرُ ،

(١) سار : وثب وثار

(٢) الطخمة : جماعة الناس ، يربد جند العدو

(٣) الفل : القوم المنهزمون

(٤) الشجب : الهلاك

وقالوا :

إذا ما أردت الأمر فاذرعه كله وقسسه قِياس الثوبِ قبل التَّقْدِمِ
لعلك تنجو سالماً من نَدَامَةٍ فلا تخير في أمرٍ أتى بالتندّمِ

من يؤثر الموت في العز على الحياة في الذل

قال المتنبى :

عش عزيزاً أومت وأنت كريمٌ بين طعنِ الفنا وخفقِ البنودِ
فروُسُ الرّماحِ أذهبٌ للغيةِ يظ وأشقى لِغِلٍّ صدرِ الحَقودِ
لا كما قد حيت غير حميدٍ وإذا مُتَّ مُتٌ غير فقيدٍ
فاطلبِ العِزَّ في لظى وذِرِ الذلَّ لَّ ولو كان في جنانِ الخلودِ

وقال أبو تمام :

يَرَى العَلَمُ المَادُومَ بِالْعِزِّ أَرِيَّةً يَمَانِيَّةً وَالْأَرِيَّ بِالضِّيمِ عُلْقَمًا^(١)
ونظر عبد الله بن علي العباسي إلى قتي عليه أبهة الشرف وهو يقاتل
مُسْتَبْسِلًا^(٢) ، فناداهُ : يا قتي ، لك الأمانُ ولو كنتَ مَرُوانَ بن محمد - آخر
الدولة الأموية - فقال : إلا أكنه ، فليستُ بِدُونِهِ ، قال : فَلكَ الأمانُ
مَنْ كنتَ ؛ فأطرقَ ثم قال :

(١) المَادُوم : المخلوط ، والأَرِيَّة : واحد الأري ، وهو : العسل ، وقلبا تستعمل
واحدة ، ووصفها باليمانية لأن النحل تعسل في جبال الشراة وهي باليمن
(٢) المستبسِل الذي يطرح نفسه في الحرب : يريد أن يقتل أو يقتل لا محالة

أُذِلَّ الحَيَاةُ وَكُرِهَ المَمَاتِ وَكُلًّا أَرَاهُ طَعَامًا وَبَيْلًا
فَإِنْ لَمْ يَكُنْ غَيْرُ إِحْدَاهُمَا فَسِيرًا إِلَى المَوْتِ سِيرًا جَمِيلًا
ثُمَّ قَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ : قَالَ : فَإِذَا هُوَ ابْنُ أَمْسَلَكَةَ بْنِ عَبْدِ المَلِكِ بْنِ
مِرْوَانَ .

نهيهم عن مخافة القتل

وحثهم على تصور الموت

وتمدحهم بذلك

قيل لعلي بن أبي طالب : اُتْقَاتِلْ أَهْلَ الشَّامِ بِالْغَدَاةِ وَتَظْهَرُ بِالْعِشْيِ
فِي ثَوْبٍ وَرَدَاءٍ ؟ فَقَالَ : أَبَا المَوْتِ أَخْشَوْفُ وَاللَّهِ ، مَا أَبَالِي أَسْقَطْتُ عَلَى
المَوْتِ أَمْ سَقَطَ المَوْتُ عَلَى ؟ وَكَثِيرًا مَا كَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَتَمَثَّلُ :
أَيُّ يَوْمِي مِنَ المَوْتِ أَفْرُ يَوْمَ لَمْ يُقَدَّرْ أَمْ يَوْمَ قُدِّرَ ^(١)

(١) هذا البيت من أبيات نسبها السيوطي في شواهد المغني لشاعر اسمه الحارث
ابن منذر الجرمي ونسبها ابن سيده - اللسان مادة عفر - لشاعر آخر اسمه ضباب بن
واقد الطهوي وقد أورد السيوطي بعده هذه الأبيات :

إِنْ أَخَوَالِي جَمِيعًا مِنْ شَقِيرٍ كَبِسُوا لِي عَمَسًا جِلْدَ النَّمِرِ
تَحْتُوا أُنَلْتَنَا بَغِيًّا وَلَمْ يَرْهَبُوا غِبَّ الوَبَالِ المُسْتَعِرِ
فَلَيْتَ طَأْطَأْتُ فِي قَتْلِهِمْ لَتَهَاضَنَ عِظَامِي عَنْ عَفْرِ
وَلَيْتَ غَادَرْتُهُمْ فِي وَرْطَةٍ لِأَصِيرَ نَهْرَةَ الذَّنْبِ التَّقِيرِ
وَلَيْتَ أَعْرَضْتُ عَنْهُمْ بَعْدَمَا أَوْهَنْتَنِي لِتُصِيبَنِي بِقُرِ

يُورَدُ ابْنُ هِشَامٍ وَغَيْرُهُ هَذَا الْبَيْتَ هَكَذَا :

يَوْمَ لَمْ يُقَدَّرَ لَا أَرْهَبُهُ وَمِنَ الْمَقْدُورِ لَا يُنْجِي الْخَذَرُ
وقال المتنبي :

إِذَا غَامَرْتَ فِي شَرَفٍ مَرُومٍ فَلَا تَقْنَعْ بِمَا دُونَ النُّجُومِ
فَطَعْمُ الْمَوْتِ فِي أَمْرٍ صَغِيرٍ كَطَعْمِ الْمَوْتِ فِي أَمْرٍ عَظِيمٍ
« يقول : إذا حاولت الشرف وخاطرت بنفسك في سبيل الحصول
عليه فلا تقنع بما دون أعلاه ، ولا ترضَ باليسير منه ، فإن طعم
الموت في الأمر الهين كطعمه في الأمر الصعب ، وإذن فلا سبيل للغامر
إلا أن يقصِدَ إلى أسمى الأمور »
وقال :

يَرَى الْجُبْنَاءُ أَنَّ الْعَجْزَ عَقْلٌ وَتِلْكَ خَدِيعَةُ الطَّبَعِ اللَّئِيمِ

في أي يومى من الموت أفر أَيَوْمَ لَمْ يُقَدَّرَ أَمْ يَوْمَ قُدِرَ
بفتح راء يقدر شاهد اعلی أن لم قد ينصب بها المضارع في لغة وأورد ابن هشام كلاماً لأئمة
النحاة في تخريج البيت على نصب يقدر « راجعه في المغنى في الكلام على لم ، وفي اللسان
مادة قدر ، والآلن لنشرح هذه الايات الجميلة فنقول : قوله : لبسوا الى عمساً جلد
النمر ، فالعمس : الشدة يقول : أبطنوا الى العداوة ، وأثله كل شيء : أصله ، ويقال :
فلان ينحت أثلتنا : إذا قال في حربه قبيحاً ، وطأطأ في قتلهم : أسرع واشتد ، وقوله
* لتهاضن عطامى عن عفر *

أى : عن بعد من أخوالى لانهم وإن كانوا أقرباء فليسوا في القرب مثل الاعمام ، والورطة
الامر تقع فيه من هلكه وغيرها أو هى الهلكه ، ونهزة : أى صيد وفي الاصل :
اسم للشئ الذى هو لك معرض كالغنيمة ، والفرصة تجدها من صاحبك ويقال :
نهزة المختلس أى : هو صيد لكل أحد ، والذئب الفقير : المنسوب الى الفقر - المفازة
لانبات بها ولا ماء - وقوله : لتصيبني بقر فإنه يقال للشدة إذا نزلت : صارت بقر
أى : صارت الشدة في قرارها ، وقال أبو عبيد : إنما هو مثل ، وربما قالوا : وقعت
بقر . وقال ثعلب معناه : وقعت في الموضع الذى ينبغي

وقال : مِنْ قِطْعَةٍ جَيِّدَةٍ نَوْرُهَا كُفَّهَا لِبِرَاعَتِهَا :

صَحِبَ النَّاسُ قَبْلَنَا ذَا الزَّمانِ وَعَنَّاهُمْ مِنْ شَأْنِهِ مَا عَنَّا
وَتَوَلَّوْا بِغُصَّةٍ كُلُّهُمْ مِنْهُ وَإِنْ سَرَّ بَعْضُهُمْ أَحْيَانًا
رَبِّمًا تُحَسِّنُ الصَّنِيعَ لِيَالِيهِ وَلَكِنْ تُكَدِّرُ الْإِحْسَانَا
وَكَاثِمًا لَمْ يَرْضَ فَيَنْابِرِيبُ الدَّهْرُ رَحَى أَعَانِهِ مِنْ أَعَانَا ^(١)
كَلِمًا أَنْبَتَ الزَّمَانُ قَنَاءً رَكَّبَ الْمَرْءُ فِي الْقَنَاءِ سِنَانَا ^(٢)
وَمُرَادُ النَّفْوِيسِ أَصْغَرُ مِنْ أَنْ تَتَعَادَى فِيهِ وَأَنْ نَتَفَانَا
غَيْرَ أَنْ الْفَتَى يَلَاقِي الْمَنِيَا كَالْحَاتٍ وَلَا يُلَاقِي الْهُوَانَا ^(٣)
وَلَوْ أَنَّ الْحَيَاةَ تَبْقَى لِحَيٍّ لَعَدَدْنَا أَضْلَانَا الشُّجْعَانَا ^(٤)
وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَوْتِ بُدٌّ فَتَنْ الْعَجْزُ أَنْ تَكُونَ جَبَانَا ^(٥)

(١) في «دِيرِض» ضمير هو فاعل يريض بفسره «من أعانا» وأضرمه قبل الذكر على شريطة التفسير ، أو تقول : إن «من أعانا» فاعل يريض وأعانه على التنازع ، يقول : هذا الذي أعان على الدهر كأنه لم يريض بما يصيبني من محنة حتى أعانه على كما قال الآخر :

أَعَانَ عَلَى الدَّهْرِ إِذْ حَكَ بَرَكُهُ كَفَى الدَّهْرُ لَوْ وَكَلَّمْتُهُ بِي كَافِيَا

«البرك» : لكل البعير و صدره الذي يدوك به الشيء تحته ،

(٢) القنأة : عودالريح ، والسنان : زجه الذي يطعن به يقول : إذا انتدب الزمان للإسامة بما جبل عليه صارت عداوة المعادي مدداً لقصدته نحوك ، فجعل القنأة مثلاً لما في طبع الزمان وجعل السنان مثلاً للعداوة
(٣) كالحات : عابسات .

(٤) (وه) يقول : لو كانت الحياة باقية لكان الشجاع الذي يتعرض للقتل أضل الناس ، يعني أن الحياة فانية وإن جبن الإنسان ولزم عقر داره وحرص على البقاء ثم أكد هذا بالبيت التالي يقول : إذا كان الموت لا يحيص عنه ولا ينجو منه شجاع ولا جبان فإن الجبن يكون من ضعف الهمة وعجزها .

كُلُّ مَالٍ يَكُنْ مِنَ الصَّعْبِ فِي الْآنُ

س سهلٌ فيها إذا هو كانا ^(١)

وبعثتُ بنو حنيفةً بِالْفَنْدِ الزَّمَانِي ^(٢) حين طلبت بكرُ بنُ وائلٍ إليهم
يَسْتَنْصِرُونَهُمْ ، وقالوا - بنو حنيفة - : قد بعثنا إليكم ألف فارس - وكان
يقال له : عديد الألف - فلما ورد قالوا له : أين الألف ؟ قال : أنا ، فلما
كان الغدُ وبرزوا حمل على ألف فارس مُرَدِّفٍ فانتَظَمَهُمْ ...

(١) كل : مبتدأ ومن الصعب خبرها وسهل خبره ثان ويكن تامة وكذا وكانا ،
يقول : إنما يصعب الأمر على النفس قبل وقوعه فإذا وقع سهل وهان كما قال
البحرئ :

لَعَمْرُكَ مَا الْمَكْرُوهُ إِلَّا ارْتِقَابُهُ وَأَبْرَحُ مِمَّا حَلَّ مَا يُتَوَقَّعُ
(٢) الفند الزمانى - واسمه شهل بن شيبان بن ربيعة ... بن بكر بن وائل - شاعر
جاهلى قديم ، وفارس من فرسان ربيعة المشهورين المعدودين ، شهد حرب بكر وتغلب
وهو صاحب هذه الأبيات الحماسية المشهورة ، قالها فى حرب البسوس وأنا لنوردها
هنا على شهرتها :

صَفَحْنَا عَنْ بَنِي ذُهْلٍ	وَقَلْنَا : الْقَوْمُ إِخْوَانُ
عَسَى الْآيَامُ أَنْ يَرْجِعَ	مِنْ قَوْمًا كَالَّذِي كَانُوا
فَلَمَّا صَرَخَ الشَّرُّ	فَأَمْسَى وَهُوَ عُرْيَانُ
وَلَمْ يَبْقَ سِوَى الْعُدْوَا	بِذَنَابِهِمْ كَمَا دَانُوا
مَشْيَتَا مِشْيَةَ اللَّيْثِ	غَدَا وَاللَّيْثُ غَضْبَانُ
بِضَرْبٍ فِيهِ تَوْهِينُ	وَتَخْضِيعُ وَإِقْرَانُ
وَطَعْنٍ كَقَمِّ الزَّقِّ	غَدَا وَالزَّقُّ مَلَانُ
وَبَعْضُ الْجِلْمِ عِنْدَ الْجَهْ	لِ لِلذَّلَّةِ إِذْ عَانَ

... ..

وفي الشر نجاةٌ ح بين لا يُنجيك إحسانُ

و الصفع : العفو ، ويقال : أعرضت عن هذا الأمر صفحا : إذا تركته ، ويقال : أصفحت عنه كما يقال : أضربت عنه ، ويقال : أبدى لي صفحته : إذا أمكنك من نفسه يقول : صفحتنا عنهم فلم نؤاخذهم بما كان منهم لأنهم إخواننا عطفنا عليهم الرحم . ويرجعن : يرددن ، يقال رجع فلان ورجعت فلانا يقول : صفحتنا عنهم للرحم فعسى أن تردم الأيام إلى ما كانوا عليه من قبل من التوآد . وصرح الشر : انكشف ويقال صرح الشيء : إذا كشفه وصرح هو ، كما تقول : بين الشيء وبين هو : أى تبين وقيل : صرح : خلص ، شبه باللبن الصريح وهو الذى قد ذهب رغوته وإذا ذهب الرغوة فاللبن عريان ، وقوله : فأمسى وهو عريان : أى منكشف لاستردونه ، ويروى : فأضحى ، بدل فأمسى ، وهو أحسن وإن كان أصبح وأمسى وأضحى وظل يراد بها فى مثل هذا الموضع معنى صار . وقوله : دناهم كما دانوا : جواب لما فى قوله : فلما صرح الشر : أى فعلنا بهم مثل فعلهم بنا . يقول : صفحتنا عنهم وقعدنا عن ضربهم وذكرنا الرحم والقراة بيننا وظننا أن حالهم ترجع إلى الحسنى فلما أبوا إلا الشر ركبناه معهم وقوله : مشينا مشية الليث يروى :

• شددنا شدة الليث • وعلى هذه الرواية يكون عدا بدل غدا وتوهين تفعيل من الوهن وهو الضعف ، ونخضيع تفعليل من الخضوع وهو الذل والاقران : اللين والاسترخاء ، والباء فى بضرب تتعلق بمشينا أى مشينا بضرب فى ذلك الضرب تضعيف للضروب وتذليل ، قال بعض النقاد . والاجود أن يقول ما معناه : بضرب يفلق الهام ويتر العظم مثلا فأما أن يقول : ضرب يوهى ويرخى فإن أدنى الضرب يوجب هذا ، وإذن فمن الجائز أن يكون المعنى : فيه توهين وصوت فى القطع وكسر العظام ويكون معنى إقران : غلبة أو مواصلة لا فتور فيها ويكون تخضيع من الخضة وهو اختلاط الصوت فى الحرب ، ويروى البيت :

بِضَرْبٍ فِيهِ تَفْجِيعٌ وَتَأْيِيمٌ وَإِرْنَانٌ

أى يفتح الأخ بالأخ والولد بالوالد ، والتأيم قتل الأزواج ، والإرنان : من الرنين وهو رفع الصوت بالبكاء . وغذا بالذال المعجمة : سال وصف الطعن بالسعة وذكر أن الدم يسيل من موضع الطعنة كما يسيل الماء من فم القربة .

الجود بالنفس

وحب الموت في الوغى
وأنفَتَهُمُ من الموت على الفراش

قال أبو تمام :

يَسْتَعِذُّونَ مِنِّيَا نَهْمُ كَانَهُمْ لَا يَأْسُونَ مِنَ الدُّنْيَا إِذَا قَتِلُوا

وقال :

وَحَنٌّ لِلْمَوْتِ حَتَّى ظَنَّ مُبِصَّرُهُ كَأَنَّهُ حَنْ مُشْتَاقًا إِلَى وَطَنِ
لَوْ لَمْ يَمُتْ تَحْتَ أَسْيَافِ الْعِدَا كَرَمًا
لَمَاتَ إِذْ لَمْ يَمُتْ مِنْ شِدَّةِ الْحَزَنِ

وقال :

قَوْمٌ إِذَا لَبَسُوا الْحَدِيدَ حَسِبْتَهُمْ لَمْ يَحْسِبُوا أَنَّ الْمَنِيَّةَ تُخَاقُ
انْظُرْ بِحَيْثُ تَرَى السِّيفَ لَوَامِعًا أَبَدًا وَفَوْقَ رُؤُسِهِمْ تَتَأَقُّ
وَقَالَ بِشَامَةُ بْنُ حَزْنٍ النَّهْشَلِيُّ :

إِنَّا لَنُرْخِصُ يَوْمَ الرُّوحِ أَنْفُسَنَا وَلَوْ نُسَامُ بِهَا فِي الْأَمَنِ أَغْلِيْنَا (١)

(١) يقول : إذا كان يوم الروح تقدمنا للقاء ، فإن ذهبنا أنفسنا ذهب رخيصة
لأننا بذلناها بالاندام ولم نمنعها بالإحجام ، وإكها يوم الأمن غالية ، والألف في
وأغلينا : للإطلاق ، والون ضمير النفس ، ومعنى أغلين وجدت غالية وليس يريد أنهم
مع الغلاء يمكنون منها بل المراد قطع المقدرة عنها كما قال القائل :

تُعَرِّضُ لِلسِّيفِ إِذَا اتَّقَيْنَا نَفُوسًا لَا تُعَرِّضُ لِلسَّبَابِ
وكما قال الأجدع والدمسروق للفتية .

وقال عبد الله بن محمد بن أبي عُيينة بن المهلب بن أبي صفرة :
 وإني من قوم كأن أنفسهم بها أتف أن تسكن اللحم والدم
 وقال عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي — شاعر إسلامي — :^(١)
 ومامات منا سيد حنف أنفه ولا ظل يوماً حيث كان قتيل^(٢)

لقد عَليَت نسوانُ همدانَ أُنْ
 لهنَّ غداةُ الرُّوعِ غيرُ بَدُولِ
 وأبذلُّ في الهيجاءِ وجهي وإني له في سوى الهيجاءِ غيرُ بَدُولِ
 (١) تروى هذه الآيات للسموأل بن عادي اليهودي الجاهلي ، قال الخطيب
 التبريزي : وإذا كانت هذه الآيات جاهلية - أي للسموأل - فتروى :
 • ومامات منا سيد في فراشه •
 أي بدل • ومامات منا سيد حنف أنفه • أي لأن النبي صلى الله عليه
 وسلم هو أول من قال : مات حنف أنفه
 (٢) قلنا : إن أول من قال : حنف أنفه هو سيدنا رسول الله ، قال ابن الأثير :
 هو أن يموت على فراشه ، كأنه سقط لانه ثبات ، والحنف : الهلاك ، قال : كانوا
 يتخيلون أن روح المريض تخرج من أنفه ، فإن جرح خرجت من جراحته ؛ وعبارة
 غير ابن الأثير كما في اللسان : إنما قيل للذي يموت على فراشه : مات حنف أنفه
 — ويقال : مات حنف أنفه — لأن نفسه تخرج بنفسه من فيه وأنفه ، قال : ويقال
 أيضاً : مات حنف فيه ، ومن قال : حنف أنفه أراد سمي أنفه وهما : منخراه ، ويحتمل
 أن يراد : أنفه وفمه ، فغلب أحد الاسمين على الآخر ، وعبارة الخطيب التبريزي :
 والمعنى : كان حنفة - أي هلاكه - بأنفه ، أي بالانفاس التي خرجت من أنفه عند
 نزوع الروح ، لا دفعة واحدة ، قال : ويقال : خص الانف بذلك لأنه من جهته
 يتقضى الرمق وقوله :

• ولا ظل يوماً حيث كان قتيل •

فانه يقال : ظل دمه : إذا بطل ولم يطلب به يقول : لا يبطل دم قتيل منا وحاصل

تَسِيلُ عَلَى حَدِّ الظُّبَاتِ نَفُوسُنَا وَلَيْسَتْ عَلَى غَيْرِ الظُّبَاتِ تَسِيلُ^(١)
وقال عنترة :

بَكَرْتُ تُتَخَوَّفُنِي الْحُتُوفُ كَأَنِّي أَصْبَحْتُ عَنْ عَرَضِ الْحُتُوفِ بِمَعَزِلٍ
فَأَجِبْتُهَا : إِنَّ الْمَنِيَّةَ مَنَهْلٌ لَا بُدَّ أَنْ أَسْقَى بِكَأْسِ الْمَنَهْلِ
فَأَقْتَنِي حَيَاءُكَ لَا أَبَالِكَ وَأَعْلَمِي أَنِّي أَمْرُؤُ سَامُوتٍ إِنْ لَمْ أُقْتَلِ
إِنَّ الْمَنِيَّةَ لَوْ تُمَثَّلُ مُثَلَّتٌ مِثْلِي إِذَا نَزَلُوا بِضْنِكَ الْمَنْزِلِ
« الحُتُوفُ : المكاره والمثالف ، و « عَنْ عَرَضٍ » أى مَا يَمْرِضُ مِنْهَا
وَبِمَعَزِلٍ ، أى فِي نَاحِيَةٍ مَنَعَزَلَةٍ عَنْ ذَلِكَ ، وَ : مَنَهْلٌ : مُورِدٌ ، وَقَوْلُهُ :
فَأَقْتَنِي حَيَاءُكَ ، أى أَحْفَظْهُ وَلَا تُضْيِعْهُ ، وَالضَّنْكَ : الضِّيقُ يَقُولُ : إِنْ
الْمَنِيَّةُ لَوْ حُلِقَتْ مِثْلًا لَكَانَتْ فِي مِثْلِ صَوْرَتِي ...



وقال خالد بن الوليد وهو فى مرض الموت : لَقَدْ لَقِيتُ كَذَا وَكَذَا
زَحْفًا ، وَمَا فِي جَسَدِي مَوْضِعُ شِبْرِ إِلَّا وَفِيهِ طَائِمَةٌ أَوْ ضَرْبَةٌ أَوْ رَمِيَّةٌ ،
نَمْ دَا أَنَا ذَا أَمُوتَ عَلَى فَرَأْشِي حَتْفَ أَنَنِي ! فَلَا نَامَتْ أَعْيُنُ الْجُبْنَاءِ ...
« وَقَدْ تَقَدَّمَ ذَلِكَ »

وقال الْمُفَضَّلُ بْنُ الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صُفْرَةَ :

معنى البيت : نحن لأموت ولكن نقتل ، ودم القتل ملنا لا يبطل
(١) نفوسنا : أرواحنا أو دماؤنا ، والظبات جمع ظبة : وهى حد السيف وفى
إضافة الحد إلى الظبات إما أن يكون المراد بالظبات السيوف كلها ثم أضاف الحد
إليها وأما أن تكون إضافة الحد إلى الظبات من إضافة البعض إلى الكل ويكون
التقدير : يسيل على الحد من الظبات وتكون الظبات مضارب السيوف ، والمصراع
الأول يدل على الشجاعة والثانى على العز والمنعة

هل الجود إلا أن تجودَ بأنفسِ على كل ماضى الشفرَينِ قِصِبِ
ومن هَرَّ أطرافَ القناخِشَةِ الرَدَى فليس يَلْجِدِ صالِحٍ بِكُسُوبِ
وماهى إلا رَقْدَةُ تُورِثُ العُلَى لِرَهْطِكَ ما حَنَّتْ رِوَاثُ نِيبِ
« هر أطراف القنا يقال : هر الشيء يهر - بالكسر والضم - هرا
وهريراً : كرهه يقال : هر فلان الكأس والحرب هريراً : أى كرهاها قال
عنبرة :

حَلَفْنَا لَهُمُ وَالْخَيْلُ تُرْدِي بِنَامِعًا نُزَايِلُكُمْ حَتَّى تَهْرُوا الْعَوَالِيَا ^(١)
عَوَالِي زُرْفًا مِنْ رِيحِ رُدْبَنَةٍ هَرِيرِ الْكِلابِ يَتَقَيْنَ الْأَفَاعِيَا
وقوله : وماهى إلا رقدة ... أليت قال المبرد : مأخوذ من قول
أخيه يزيد بن المهلب ، وذلك أنه قال فى يوم العقر ، وهو اليوم الذى
قُتل فيه - : قاتل الله ابن الأشعث - عبد الرحمن بن الأشعث -
ما كان عليه لو غَمَضَ عينيه ساعةً للوْتِ ولم يكن قَتيل نفسه ... وذلك
أن ابن الأشعث قام فى الليل وهو فى سَطْحٍ للَبُولِ ، فزعموا أنه رَدَى
نَفْسَهُ ، وغيرُ أَهْلِ هذا القول يقولون : بَلْ سَقَطَ مِنْهُ بِسَنَةِ النُّومِ . وقوله
تُورِثُ العُلَى لِرَهْطِكَ ، فالمعنى : تورث العلى رهطك ؛ ومثله قوله تعالى :
(إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْبَا تَعْبُرُونَ) والذئب جمع ناب وهى : المُسْتَنَّة من الإبل
سَمَّوْهَا بِذَلِكَ حِينَ طَالَ نَابُهَا وَعَظُمَ ، والرواثم : العاطفات على أولادها »

(١) الرديان : ضرب من السير وهو أن يرحم الفرس الأرض رجماً بحوافره
من شدة العدو ، وقوله : نزايلكم دو جواب القسم أى لانزايلكم خذف لا على
حد قولهم نالته أبرح قاعداً : أى لا أبرح ، ونزايلكم : نبارحكم يقال : ما ذيلته : أى
ما بارحته ، والموالى جمع عالة : الرمح وهى مادون السنان بقدر ذراع

من يخوض الحرب لا بد أن يُوطن نفسه على الموت

قالت الخنساء :

ومن ظَنَّ مَنْ يُلاقى الحروب بأن لا يصابَ فقد ظَنَّ عجزاً
وقالوا : * إن الشجاعة مقرون بها القَطْبُ * ^(١)

وقال تأبط شراً من أبيات اختارها أبو تمام في حماسه :

ومن يُغزِرْ بالأعداءِ لا بُدَّ أنَّهُ سَيَلْقَى بِهِمْ مِنْ مَضْرَعِ الموتِ مَضْرَعاً

في القتل حياة

قال المهلب بن أبي صفرة : ليس شيء أنتمى من سيف ! ولقد صدق
فما نال السيف أنتمى عدداً وأكرم ولداً من ولد المهلب ... وقال الحجاج
لامرأة من الخوارج : والله لا حصدناكم حصداً ، فقالت : أنت تحصد
والله يزرع ، فانظر أين قُدرةُ المخلوق مع قدرة الخالق !

ومما يصح أن يورد هنا وإن كان من وادٍ آخر قوله تعالى : « ولكم

(١) من أبيات لشاعر جبان يكنى أبا الغمر :

أضحت تُشجِّعُنِي هِنْدٌ وقد علمت أن الشجاعة مقرون بها القَطْبُ
لا والذي مَنَعَ الأبصارَ رُؤْيَاهُ ما يَشْتَهِي الموت عندى من له أَرْبُ
لِلْحَرْبِ قَوْمٌ أَضَلَّ اللهُ سَعْيَهُمْ إِذَا دَعَاهُمْ إِلَى نيرانها وثبوا
ولستُ مِنْهُمْ ولا أبغى فِعالَهُمْ لا القتلُ يُعْجِبُنِي منها ولا السلبُ

في الفِصَاحِ حَيَاةٌ يَا أُولَى الْأَلْبَابِ « (١)

تأثير الخوف والخوف منه

والموفى على الجماعة

قيل لعلي بن أبي طالب : بَمَ غَلَبْتَ الْإِقْرَانِ ؟ قال : بَتَمَكُّنِ هَيْبَتِي فِي قُلُوبِهِمْ ... وبعث أميراً في طلب قومٍ رَجُلًا ، فما لبث أن جاءه برجل أطولَ ما يكون ، فقال : كيف تمكنت منه ؟ فقال : وقع في قلبي أن آخذه ، ووقع في قلبي أنه مأخوذ ، فنصرني عليه خوْفُهُ وَجُرْأَتِي ... ونظر رجل إلى علي بن أبي طالب وقد شَتَّى العسكر ، فقال : قد عَلِمْتُ أن ملكَ الموتِ في الجانبِ الذي فيه عليّ .

ومن المأثور عن المصطفى صلوات الله عليه قوله : « نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ » ... قال ابن الأثير : كان أعداءُ النبي صلى الله عليه وسلم قد أَرْفَعَ اللهُ فِي قُلُوبِهِمُ الْخَوْفَ مِنْهُ ، فَإِذَا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ مَسِيرَةُ شَهْرٍ هَابُوهُ وَفَزَعُوا مِنْهُ .

(١) قال الزمخشري : كلام فصيح لما فيه من الغرابة ، وهو أن القصاص قتل وتقويت للحياة وقد جعل مكانا وظرفا للحياة ، ومن إصابة محز البلاغة بتعريف القصاص وتسكير الحياة لأن المعنى : ولكم في هذا الجنس من الحكم الذي هو القصاص حياة عظيمة ، وذلك أنهم كانوا يقتلون بالواحد الجماعة ، وكم قتل مهلهل بأخيه كليب حتى كاد يفنى بكر بن وائل وكن يقتل بالمقتول غير قاتله فتشور الفتنة ويقع بينهم التناحر ، فلما جاء الإسلام شرع القصاص كانت فيه حياة أى حياة ، أو نوع من الحياة وهى الحياة الحاصلة بالارتداع عن القتل لوقوع العلم بالاقتصاص من القاتل ، لأنه إذا هم بالقتل فعلم أنه يقتص منه فارتدع سلم صاحبه من القتل وسلم هو من القود فكان القصاص سبب حياة نفسه ...

وقال المتنبي : * وَيُسْتَعْظُمُونَ الْمَوْتَ وَالْمَوْتُ خَادِمُهُ *

وقال سلم الخاسر : * كَأَنَّ الْمَنَايَا جَارِيَاتُ بَأْمَرِهِ *

وقال الفرزدق :

تَمَلَّظَ السَّيْفُ مِنْ شَوْقٍ إِلَى أَنْسٍ

فَالْمَوْتُ يَلْحَظُ وَالْإِقْدَارُ تَلْتَظُرُ

أَظْلَهُ مِنْكَ حَتْفٌ قَدْ تَجَلَّاهُ حَتَّى يُؤَامِرَ فِيهِ رَأْيُكَ الْقَدْرُ ^(١)

وقيل الأسكندر : إن في عسكر دارا ألف مقاتل ، فقال : إن القصاب

الحاذق وإن كان واحداً لا يهوله كثرة الغنم ... وقال شاعر :

فَوَاحِدُهُمْ كَأَلْفٍ بِأَسَا وَنَجْدَةٌ وَالْفُهُمُ لِلْعُجْمِ وَالْعُرْبِ قَاهِرُ

وقال أبو تمام يمدح أبا سعيد الطائي ويذكر ما صنع بالخرميّة :

لَقِيْتَهُمُ وَالْمَنَايَا غَيْرُ دَافِعَةٍ لَمَّا أَمَرْتَ بِهِ وَالْمُلْتَقَى كَبَدُ ^(٢)

فِي مَوْقِفٍ وَقَفَ الْمَوْتُ الزَّوَامُ بِهِ

فالمجدد يوجد والأرواح تفتقد ^(٣)

مُسْتَضْجِبَانِيَّةٌ قَدْ طَالَمَا ضَمِنَتْ لَكَ الْخُطُوبَ فَأَوْقَتْ بِالذِي تَعُدُّ

وَرُحْبَ صَدْرِ لَوْ أَنَّ الْأَرْضَ وَاسِعَةٌ

كَوُسْعِهِ لَمْ يَضُقْ عَنْ أَهْلِهِ بَلَدُ ^(٤)

صَدَعَتْ جَرَبَتُهُمْ فِي عُصْبَةِ قُلُلٍ

قَدْ صَرَحَ الْمَاءُ عَنْهَا وَأَنْجَلَى الزُّبْدُ

(١) يؤامره : يشاوره فيأتمر وينفذ رأيه ويروى بدل رأيك : ربه

(٢) الكبد : الشدة والمشقة

(٣) الزوام : الكرية أو السريع

(٤) رحب صدر : سعة صدر

مِنْ كُلِّ أَرْوَغٍ تَرْتَمِعُ الْمَنُونُ لَهُ

إذا تجرد، لا ينكس ولا يجحد^(١)

يكاد حين يلاقى القرن من حنق

قبل السنان على حوائبه يرد^(٢)

قلوا ولكنهم طابوا فأنجدهم

جيش من الصبر لا يحصى له عدد

المتبرم بالحرب والسخرية منه

قال سعد بن مالك أحد سادات بكر بن وائل في الجاهلية وفرسانها^(٣)

يأبؤس للحرب التي وضعت أرايط فاستراحوا

وهو من آيات جيدة اختارها أبو تمام في حماسه وبعده :

(١) النكس : الضعيف ، والجحد : القليل الخير

(٢) الحوباء : النفس والجمع حوباوات

(٣) قال سعد هذه الآيات في حرب البسوس حين هاجت الحرب بين بكر وتغلب لقتل كليب واعتزل الحارث بن عباد وقال هذا أمر لاناقة لي فيه ولا جل فعرض سعد في هذا الشعر بعود الحارث . وهذا الحارث بن عباد كان من حكام ربيعة وفرسانها المعدودين ، وكان قد اعتزل حرب ابني وائل ثم حدثت أمور أفضت به إلى خوضه هذه الحرب ، وهو القائل من آيات :

قرباً مربط النعماء مني لقيحت حرب وائل عن حيال

لم أكن من جناتها علم الله ولاني يحرها اليوم صالي

ولما فعل ما فعل قال لسعد بن مالك : أتراني من وضعته ا - يشير إلى قول

سعد : التي وضعت أرايط - قال سعد : لا ، ولكن لا خبأ لعطر بعد عروس ، ومعناه : إن لم تنصر قومك الآن فلن تدخر نصرك ...

والحربُ لا يَبْقَى لِحِمَا جَمِيعِهَا التَّخْيِيلُ والمِرَاحُ
إِلَّا الْفَتَى الصَّبَّارُ فِي النَّجْدَاتِ وَالْفَرَسُ الْوَقَّاحُ
مَنْ صَدَّ عَنْ نِيرَانِهَا فَأَنَا ابْنُ قَيْسٍ لَا بَرَّاحُ
الْمَوْتُ غَايَتُنَا فَلَا تَقْصُرْ وَلَا عَنْهُ جَمَّاحُ
وَكَاثِمًا وَرَدُّ الْمَنِيِّ لَنَا عِنْدَنَا مَاءٌ وَرَاحُ

« قوله يا بُؤْسَ للحرب ، أصله : يا بُؤْسَ الحرب ، فَأُفْحِمَتِ اللام
بين المتضايفين ، يدعو على الحرب وَيَذْمُ نكباتها سخرية ؛ ومعنى وضعت
أراهمط : حَطَّطَهُمْ وَأَسَقَطَهُمْ فلم يكن لهم ذكر ولا شرف في هذه الحرب
فاستراحوا من مكابذتها كاللساء ، قال بعض الأعراب لرجل : إنه قد وضع
المكارم فاستراح ، وقال رجل للأحنف : لا أبالي أَهْجِيتُ أُمَّ مُدِحَتِ ،
فقال : استرحتَ من حيث تَعَبَ الكرام ، وأراهمط إما جمع أُرهمط جمع
رهمط وإما جمع ردهط على خلاف القياس ، والردط : النفر من ثلاثة إلى
عشرة ، والجاحم : المكان الشديد الحر ، من جَمَحَتِ النار فهي جاحمة :
إذا اضطربت ، ومنه الجحيم ، والتخييل : التكبر ، من الخيلاء . يقول :
إنها لا تُبْقَى على نَخْوَةِ الْمُتَخَوِّ ، وذلك أن أولِي الغَنَاءِ يَتَكَبَّرُونَ عَنْ
الْخَيْلَاءِ . ويختال المغرور فإذا جُرِّبَ فلم يُحَمَّدَ أَفْتَضَحَ وسقط ، أو تقول
مَنْ كَانَ ذَا خَيْلَاءٍ ومرح ثم بُلِيَ بالحرب شَغَلَتْهُ عَنْ خَيْلَائِهِ ومرحه .
والمراح بكسر الميم : النشاط ، أى أنها تكفُّ حِدَّةَ الْبَطَرِ النَشِيطِ ، وهذا
تعريض بالحارث بن عباد بأنه صاحب خيلاء ومرح . والصَّبَّارُ مبالغة صابر
والنجدة : الشدة والبأس في الحرب ، والوقَّاح : الفَرَسُ الذى حافره صُلْبٌ
شديد ، ومنه الوقاحة .

وقوله : فأنا ابنُ قيس لا براح ، أى : أنا المشهور فى النجدة كما سمعت
وأضاف نفسه إلى جدّه الأعلى لشهرته به ، وجملة لا براح حال مؤكدة
لقوله : أنا ابن قيس كأنه قال : أنا ابن قيس ثابتاً فى الحرب ، والبراح
مصدر يَرح الشيء بَراحاً : إذا زال من مكانه . وقوله : فلا أَصْرُ هناك
ولا جماح فالقصر . الحبس ، والجماح مصدر جَمَحَ : إذا انفلت وهرب يريد :
لا يمكن حَبْسُ نفس عن الموت ولا مهرب عنه . والورد : الوردود وهو دخول
الماء ، وقيل : حُضُوره وإن لم تَدْخُلْه .

وقال شاعر :

ما ذاقَ همًّا كالشَّجَاعِ ولا خَلا بِمَسْرَةٍ كالعَاجِزِ الْمُتَوَانِي

الممدوح بقوة نفسه دون جسمه

قال أبو تمام :

وَالصَّبْرُ بِالْأَرْوَاحِ يُعْرَفُ أَفْضَلُهُ صَبْرُ الْمُلُوكِ وَليسَ بِالْأَجْسَامِ

وقال شاعر :

وَإِنِّ لِلْقَوَى عَلَى الْمَعَالَى وما أنا بالقوى على الصِّراعِ

وقال معاوية رضى الله عنه : ما كان فى الشَّبانِ شيء إلا وكان فى منه

مُسْتَمْتَعٌ ، إلا أنى لم أكن نُكْحَةً ولا صُرْعَةً . « رَجُلٌ نُكْحَةٌ : كثير

النَّكاح — الوطء — ورجلُ صُرْعَةٍ : يصرع الناس ،

وأورد أبو تمام فى حماسه لبعض الشعراء :

لَا قُوَّتِي قُوَّةُ الرَّاعِي فَلَا تُصَهُ يَاوِي فَيَاوِي إِلَيْهِ الْكَلْبُ وَالرُّبْعُ

مِنَّا الْإِنَانَةُ وَبعضُ القوم يحسبنا أننا بطاء وفى إبطائنا سرع

« يقول : ليس غَنَانِي فِي الْمُهَيَّمَاتِ غَنَاءَ الرِّعَاءِ الَّذِينَ سَعِيَهُمْ مَقْصُورٌ عَلَى ضَمِّ الْقَلَاصِ وَحِفْظِهَا فِي مَرَاعِيهَا فَإِذَا أَوَى إِلَى مَوْضِعٍ أَوَى إِلَيْهِ كَلْبُهُ الَّذِي يَحْرُسُهُ وَرُبْعُهُ ، وَهُوَ مَا تُنْتِجُ فِي الرَّبِيعِ ، وَالسَّرْعُ : السَّرْعَةُ »

القصص إلى العدى مجاهرة

قال السَّريُّ الرَّفَاءُ : مِنْ أَيْتَاتِ يَمْدَحِهَا سَيْفُ الدَّوْلَةِ بْنُ حَمْدَانَ :
وَيَجْعَلُ بَشْرَهُ نُذْرَ الْأَعَادِي قَبِيْعُهُ جَنْوَبًا أَوْ شِمَالًا
وَلَمْ يُنْذِرْهُمْ مِقَّةً وَلَكِنْ تَرَفَّعَ أَنْ يُصِيبَهُمْ اغْتِيَالًا ^(١)
وَأَشَارَ عَلَى الْإِسْكَانْدَرِ الْمُقَدُونِيِّ أَصْحَابَهُ أَنْ يُبَيِّتَ الْفُرسَ ^(٢) ، فَقَالَ :
لَيْسَ مِنَ الْإِنْصَافِ أَنْ أَجْعَلَ غَلْبَتِي سِرَّةً ...

المقاتل عن حريمه

لَيْمَ الْإِسْكَانْدَرُ عَلَى مُبَاشَرَتِهِ الْحُرُوبِ بِنَفْسِهِ ، فَقَالَ : لَيْسَ مِنَ الْإِنْصَافِ
أَنْ يَقْتُلَ قَوْمِي عَنِّي وَأَتْرَكَ الْقِتَالَ عَنْهُمْ وَعَنْ أَهْلِي وَنَفْسِي ...
وَقِيلَ لِلْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ : يَا أَبَا سَعِيدٍ ، إِنْ أَنْكَرْنَا فِي هَذِهِ الْبَعُوثِ
وَالسَّرَايَا فَتُصِيبُ الْمَرْأَةَ مِنَ الْعَدُوِّ ، وَهِيَ ذَاتُ زَوْجٍ ، أَفَتَحِلُّ لَنَا مِنْ قَبْلِ
أَنْ يُطَلَّقَهَا زَوْجُهَا ؟ وَكَانَ الْفَرَزْدَقُ حَاضِرًا ، فَقَالَ الْفَرَزْدَقُ : قَدْ قُلْتَ أَنَا

(١) المقة : المحبة

(٢) تبَيَّتَ الْعَدُوَّ : أَنْ يَقْصِدَ فِي اللَّيْلِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْلَمَ فَيُؤْخَذُ بَغْتَةً ، وَالْإِسْمُ :
الْيَاتِ ، وَأَمَّا قَوْلُهُمْ : بَيْتُ الْأَمْرِ فَمَعْنَاهُ : دَبْرُهُ بَلِيلٌ قَالَ تَعَالَى : إِذْ يَبْتَئِنُّونَ مَا لَا يَرْضَى
مِنَ الْقَوْلِ ، قَالَ الزَّوْجَاجُ : كُلُّ مَا فَكَّرَ فِيهِ أَوْ خِيضَ فِيهِ بَلِيلٌ فَقَدْ بَيْتَ ، يُقَالُ : هَذَا
أَمْرٌ دَبْرُ بَلِيلٍ وَبَيْتُ بَلِيلٍ ، بِمَعْنَى وَاحِدٍ .

في مثل هذا شعراً ، وأنشد :

وَذَاتِ حَلِيلٍ أَنْكَحَتْهَا رِمَاحُنَا حَلَالًا لِمَنْ يَبْنِي بِهَا وَلَمْ تُطْلَقِ ^(١)
 فقال الحسن : أَصَبْتَ ، كُنْتُ أَرَى أَنَّكَ أَشْعَرُ مِنِّي فَإِذَا أَنْتَ أَفْقَهُ
 قال ابن رشيقي في العمدة : وما أَطْنُ الفِرْزَدَقُ إِلَّا أَرَادَ مَذْهَبَ الْجَاهِلِيَّةِ فِي
 السَّبَايَا ...

وقال زياد الأعمى من كلبته التي يرثي بها المغيرة بن المهلب بن
 أبي صفرة :

صَفْنَانِ مُخْتَلِفَانِ حِينَ تَلْقَا أَبَا بُوْجِهٍ مُطْلَقِي أَوْ نَكِيحِ

المستنكف من السلب

قال أبو تمام من بانيته المشهورة التي يبنى فيها المعتصم بفتح عَمُورِيَّةَ :
 إِنَّ الْأُسُودَ أُسُودَ الْغَابِ مِمَّتُهَا يَوْمَ الْكُرْبَةِ فِي الْمَسْلُوبِ لَا السَّلْبِ
 وَقَتَلَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَجُلًا فَأَرَادَ قَبْرُ أَنْ يَأْخُذَ سَلْبَهُ ،
 فقال : يَا غَلَامَ ، لَا تَعَرَّ فِرَائِي ... وقال عنتره في معلقته :

هَلَّا سَأَلْتَ الْحَيْلَ يَا ابْنَةَ مَالِكٍ إِنَّ كُنْتَ جَاهِلَةً بِمَا لَمْ تَعْلَمِي ^(٢)
 يُخْبِرُكَ مِنْ شَهْدِ الْوَقِيعَةِ أَنِّي أَغْشَى الْوَعْيَ وَأَعْفَى الْعَنَمِ

هـ جهاراً بأيدينا ولما تطلق

(١) يروى المعجز هكذا :

(٢) الحيل يريد : الفرسان

الشبان والكهول في الحرب

قال رجلٌ لآخر : لَاغْزُونَكَ بِمُرْدٍ عَلَى جُرْدٍ^(١) ، فقال له : لَا لَقَيْنَكَ
بكهول على خُحول .

وقال المتنبي :

سَأَطْلُبُ حَقِّي بِالقَنَا وَمَشَايِخِ كَأَنَّهُمْ مِنْ طُولِ مَا النَّشْمُوا مُرْدٌ^(٢)

يُفَالٍ إِذَا لَا قَوْأَ خِفَافٍ إِذَا دُعُوا

كَثِيرٍ إِذَا شَدُّوا قَلِيلٍ إِذَا عُدُّوا^(٣)

وَطَئِنٍ كَانَ الطَّعْنُ لَا طَئِنَ عِنْدَهُ

وَضَرْبٍ كَانَ النَّارُ مِنْ حَرِّهِ يَرْدُ^(٤)

(١) الجرد جمع أجرد والاجرد من الخيل : السابق .

(٢) يقول : سأطلب حقي بالرماح وبصحب لي لا يفارقون الحروب فلا يفارقهم اللثام ولا ترى لحام فكأنهم مرد ، واللثام في الحرب عادة العرب لئلا تسقط عمامتهم وقال الواحدى : كنى بالقنا عن نفسه وبالمشايع عن أصحابه يعنى : أنه يطلب حقه بنفسه وبغيره ، وأراد : أنهم محسكون مجربون ولذلك جعلهم مشايخ

(٣) مراده بكونهم ثقالا : شدة وطأتهم على العدو أو ثباتهم لدى اللقاء ، وكنى بالحقفة عن سرعة الإجابة إذا دعوا للنجدة ، وبالكثرة عن سد الواحد مسد الجماعة أى أنهم على قاتهم في العدد يغنون غناء السواد الأعظم

(٤) وطعن : عطف على القنا والضمير في عنده يعود إلى الطعن الاول يقول : وأطلب حقي بطعن شديد كأن كل طعن غيره بالقياس إليه لا شيء ، وبضرب حاز كأن حر النار بالإضافة إليه برد

إِذَا شِئْتُ حَفَّتْ بِي عَلَى كُلِّ سَاحِجٍ

رجالاً كَانَتِ الْمَوْتَ فِي فَمِهَا شَهِدُ^(١)

وهم يفضلون الثُّبَاتَ عَلَى السُّكُوهِ فِي الْحُرُوبِ ، وَقَدْ أوردَ الرَّاعِبُ فِي مَحَاضِرَاتِهِ أَيْبَاتًا عَزَاهَا إِلَى طَاهِرِ بْنِ الْحُسَيْنِ ، فِي هَذَا الْمَعْنَى^(٢) ، وَالْأَيْبَاتُ وَإِنْ كَانَتْ فِي مَعْنَاهَا قَدْ أَصَابَتْ مَقْطَعِ الْحَقِّ وَالسَّادِدِ بَيِّنَةٌ أَنَّ مَعْنَاهَا لَيْسَ مِنَ الْجَمَالِ فِي شَيْءٍ وَمِنْ ثَمِّ اسْتَحْسَنَّا أَنْ نُنْشِئَهَا وَنُورِدَهَا عَلَيْكَ مَشُورَةً بِالْفَاطِنَةِ مَعَ الْحَافِظَةِ عَلَى الْمَعْنَى ، وَهَآكِهَذَا : مِنْ صَائِبِ الرَّأْيِ أَنَّ تَسْتَظْهِرَ فِي تَدْيِيرِ حَرْبِكَ بِالشُّيُوخِ الْمُحَنِّكِينَ الَّذِي تَمَرَّسُوا بِالْأَيَّامِ حُلُولِهَا وَمُرَّهَا ، وَالَّذِينَ تُغْنِي آرَاؤُهُمْ غَنَاءَ الْعَمَلِ ، وَإِيَّاكَ أَنْ تُغْشَى الْوَعْيُ إِلَّا بِحَدِيثِ السَّنِّ مُقْتَبِلِ الشَّبَابِ ، فَإِنَّ السُّكُوهَ الَّذِي تَنْفَسُ بِهِمُ الْعُمَرُ وَاقْتَرَبُوا مِنْ مَنَهِلِ الْمَوْتِ تَرَاهُمْ يَتَمَثَّلُونَ الْمَوْتَ أَبَدًا بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ خَوْفًا وَجَزَعًا ، وَمِنْ جَرَّاءِ ذَلِكَ يَجْهِنُونَ ، أَمَا حَدِيثُ السَّنِّ فَإِنَّ لَهُ شَأْرًا بَعِيدًا يُرِيدُهُ ، وَأَمَّا لَا عِرَاضًا يَحَاوِلُ تَحْقِيقَهَا ، وَمِنْ هُنَا كَانَ جَرِيئًا طَمُوحًا بَعِيدًا مُرْتَقَى الْهَمَةِ فَهُوَ لَا يَبَالِي أَسْقَطَ عَلَى الْمَوْتِ أَمْ سَقَطَ الْمَوْتُ عَلَيْهِ ، لِأَنَّ الْمَوْتَ لَيْسَ مِنْهُ عَلَى بَالٍ ...

(١) فِي فَمِهَا أَرَادَ : فِي أَفْوَاهِهَا فَأَرْقَعَ الْوَاحِدَ مَوْقِعَ الْجَمَاعَةِ ، وَالسَّاحِجُ : الْفَرَسُ

السَّرِيعُ الْجَرَى كَأَنَّهُ يَسْبِغُ

(٢) هُوَ وَالِدُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ ، وَكَانَ مِنْ أَكْبَرِ أَعْوَانِ الْمَأْمُونِ وَهُوَ الَّذِي

تَوَلَّى مَحَارِبَ الْأَمِينِ حَتَّى قَتَلَهُ وَهُوَ وَإِنْ كَانَ أَدِيبًا يَحِبُّ الشُّعْرَ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَرِدْ لَهُ شُعْرٌ

فَلَعَلَّ هُنَاكَ تَحْرِيفًا فِي الْمَحَاضِرَاتِ وَلَعَلَّ الْأَيْبَاتُ لَا بَنَتْهُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ الَّذِي كَانَ لَهُ

شُعْرٌ مَلِيحٌ .

العاجز أعاديه عن إصلاح ما أفسده وعكس ذلك

قال علي بن جبلة المعروف بالعكوك من أبيات يمدح بها أبا غانم حميد بن عبد الحميد الطوسي :

يَرْتُقُ مَا يَفْتُقُ أَعْدَاؤُهُ وليس بأسو فتنقه آسى^(١)
فالناس جسمٌ وإمام الهدى رأسٌ وأنت العينُ في الرايس
وقال السكيت :

لا يَهْدِمُ النَّاسُ مَا تَبْنِي أَكْثُهُمْ مِنَ الْفَعَالِ وَلَا يَبْنُونَ مَا هَدَمُوا^(٢)
وقال أشجع السلمي من قصيدة يمدح بها جعفر بن يحيى البرمكي وزبر الرشيد :

وَلَا يَرْفَعُ النَّاسُ مَنْ حَطَّهُ وَلَا يَضُمُونَ الَّذِي يَرْفَعُ
وبعده :

تَزِيدُ الْمُلُوكَ مَدَى جَعْفَرٍ وَلَا يَضَعُونَ كَمَا بَضَعُ
وليس بأوسعهم في الغنى وليكن معروفه أوسع
وهذا البيت الثالث من قول ابن زياد الأعرابي :

وَلَمْ يَكْ أَكْثَرُ الْفَتَيَانِ مَالًا وَلَسْكَنَ كَانَ أَرْحَبَهُمْ ذِرَاعًا

(١) ارتق ضد الفتق وهو : لام الفتق وإصلاحه ، وبأسو فتنقه مجاز من أسا الجرح بأسوه : داواه . والآسى : الطبيب المداوى
(٢) الفعال : الفعل الحسن

وقال المتنبي :

لا يَجْبُرُ النَّاسَ عَظْمًا أَنْتَ كَاسِرُهُ ولا يَهَيِّضُونَ عَظْمًا أَنْتَ جَابِرُهُ^(١)

من تصحبه الطيور والسباع في القتال

أول من وَصَفَ المحاربَ تَصَحَّبَهُ الطيورُ والسباعُ رِقَّةً بانتصاره ،
وبالشَّعْبِ من فرائسه : النابغة الذبياني إذ يقول في قصيدة له يمدح بها عمرو
ابن الحارث الأصغر من ملوك غَسَّان بالشام :

إذا ما غَزَوْا بالجَيْشِ حَلَقَ فَوْقَهُمْ	عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَائِبِ
يَصَاحِبِنَهُمْ حَتَّى يُغْرَنَ مَغَارَهُمْ	مِنَ الضَّارِيَاتِ بِالدِّمَاءِ الدَّوَارِبِ
تَرَاهُنَّ خَلْفَ الْقَوْمِ خُزْرًا عِيُونَهَا	جُلُوسَ الشُّيُوخِ فِي ثِيَابِ المَرَانِبِ
جَوَانِحَ قَدْ أَيْقَنَ أَنَّ قَبِيلَهُ	إِذَا مَا التَّقَى الْجَمْعَانِ أَوَّلُ غَالِبِ
لَهُنَّ عَلَيْهِمْ عَادَةٌ قَدْ عَرَفْنَهَا	إِذَا عَرَّضَ الحُطَّى فَوْقَ المَكْوَائِبِ

« العصائب : الجماعات . وقوله : يصاحبنهم يقول : تسير جماعاتُ
الطير معهم كأنما تغير ياغارتهم على الأعداء ، وهذه الطيور من المتدربات
الضاريات المولعات بدماء القتلى . والخُزْر جمع أخزر وخزراء أى : ضيقة
العيون خلقة ؛ أو أنها تتخازر ، أى تقبض أجفانها ، لتحدّد النظر ، وقوله
جلوس الشيوخ ، أى أنها لدى اشتداد القتال تقعّ على أعالي الأرض والهضاب
كأنها فى ريشها ووقوفها وتحديد النظر ترقّب القتلى جالسة جلوس
الشيوخ إذا التفوا بأكسيّة المراتب يحدّدون النظر إلى شيء بعيد ، والمراتب

(١) هاض العظم : كسره بعد الجبور

جمع مَرَبَّاتَانِي ، وهو الثوب المبطن بفراء الارانب . وجوانح : مائلات
للقوع . والخطي : أى القنا المنسوبة إلى الخط - بلد بالبحرين - والكواثب
— بالشاء المثانة — جمع كاثبة ، وهى من جسم الفرس ماتحت الكاهل إلى
الظهر بحيث إذا نُصِبَ عليه السرجُ كانت أمام القَرَبُوسِ يضع الفارس
عليها رُفْحَهُ مُسْتَعْرِضًا ، يقول : اعتادت الطير أن الرماح إذا عُرِضت على
الكواثب كان ذلك لِرِزْقٍ بُساق إليها .
وقال أبو تمام :

وقَدْ ظَلَلَتْ عِقْبَانُ أَعْلَامِهِ ضَحَى بِعِقْبَانِ طَيْرٍ فِي الدِّمَاءِ نَوَاهِلِ^(١)
أَقَامَتْ مَعَ الرَايَاتِ حَتَّى كَانَهَا مِنْ الْجَيْشِ إِلَّا أَنَّهُمْ تَفَارَتِلِ
وَقَالَتْ جَنْوَبُ آخَتُ عَمْرِو ذِي الْكَلْبِ تَرِيهِ :

تَمْشِي الدُّورُ إِلَيْهِ وَهِيَ لَاهِيَةٌ مَشَى الْعَذَارَى عَلَيْهِنَ الْجَلَابِبُ
« الجلاببُ : ثوبٌ أَوْسَعُ مِنَ الْخِثَارِ دُونَ الرِّدَاءِ تُغَطِّي بِهِ الْمَرْأَةُ رَأْسَهَا
وَقِيلَ : الْمَلَأَةُ الَّتِي تَشْتَمِلُ بِهَا ، وَمَعْنَى قَوْلِهِ وَهِيَ لَاهِيَةٌ : أَنَّ النُّسُورَ
آمَنَةٌ مِنْهُ لَا تَفَرِّقُهُ لِكَوْنِهِ مَيْتًا فَهِيَ تَمْشِي إِلَيْهِ مَشَى الْعَذَارَى ، وَأَوَّلُ هَذِهِ
الْمَرْيَةِ :

كُلُّ امْرِئٍ بِطَوَالِ الْعَيْشِ مَكْدُوبُ
وَكُلُّ مَنْ غَالَبَ الْإِيَامَ مَغْلُوبُ

وقال المتنبي :

(١) العقبان الأولى جمع عقاب : الراية الضخمة ، والثانية جمع عقاب أيضاً :
سباع الطير .

تَرَكْتَ جَمَاعَهُمْ فِي النَّقَا وَمَا يَتَخَلَّصَنَّ لِلنَّاحِلِ ^(١)
فَأَنْبَتَ مِنْهُمْ رَيْعَ السَّبَّاحِ فَأَنْتَ يَا حَسَانَكَ الشَّامِلِ

وقال :

سَحَابٌ مِنَ الْعِقْبَانِ يَزْحَفُ تَحْتَهَا سَحَابٌ إِذَا اسْتَسْقَتْ سَقَتَهَا صَوَارِمُهُ
وقال في صفة جيش وقد أُلِمَّ بهذا المعنى :

وَذِي لَجَبٍ لَا ذُو الْجَنَاحِ أَمَامَهُ بَنَاجٍ وَلَا الْوَحْشُ الْمُثَارُ بِسَالِمِ ^(٢)
تَمَرُّ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَهِيَ ضَعِيفَةٌ تَطَالَعُهُ مِنْ بَيْنِ رَيْشِ الْقَشَاعِمِ ^(٣)
إِذَا ضَوْؤُهَا لَا قِيَّ مِنَ الطَّيْرِ فُرْجَةٌ

تَدَوَّرَ فَوْقَ الْبَيْضِ مِثْلَ الدَّرَاهِمِ ^(٤)

وقال :

يُطْمَعُ الطَّيْرَ فِيهِمْ طُولُ أَكْلِهِمْ حَتَّى تَكَادَ عَلَى أَحْيَائِهِمْ نَقْعُ

(١) النقا : الكتيب من الرمل يقول : دست رؤسهم بحوافر الخيل فطحنها وامتزجت بالرمل حتى لو نخل الرمل لم يتخلص من رؤسهم شيء ، ثم قال في البيت التالي : تركنهم جزراً للسباع فأخصبت بكثرة القتلى فكانت أنبت لها ربيعاً فلو قدرت السباع لأنبت عليك بما شملتها من إحسانك

(٢) اللجب : اختلاط الأصوات ، والمثار : الذي أثاره الخوف من مكنته يقول إذا طار ذو الجناح وسأيره فليس بناج لكثرة الرماة في الجيش ، وإن ثار وحش أخذ

(٣) القشاعم : النور يقول : تمر الشمس على هذا الجيش وهي ضعيفة من كثرة عقبانها التي تخيم عليه وتبعه ولا ينفذ ضوءها إليه إلا في خلال النور كما ذكر في البيت التالي

(٤) البيض جمع بيضة وهي : الخوذة ، شبه ما يتساقط من الضوء في فرج أجنحة الطير فوقه بالدراهم يقول لكثرة اشتباك الطير لا يصل إليه ضوء الشمس إلا من منافذ ضيقة فيقع مستديراً

وقال أبو نواس :

تَأْيَا الطَّيْرُ عُذْرَتَهُ ثِقَةً بِالشَّبْعِ مِنْ تَجَرُّرِهِ
« تَأْيَا الشَّيْءُ : قصد آيَتِهِ ، أى شخصته . والجزر : قَطَعَ اللحم »

عذر من يلبس الدروع

ونحوها فى الحرب والمستغنى بشجاعته وبقينه عنها

قال أبو تمام فى المستغنى بجلادته عن الدروع :

إِذَا رَأَوْا لِلنَّيَايَا عَارِضًا لَبَسُوا مِنْ الْيَقِينِ دُرُوعًا مَالَهَا زَرَدُ
وَسُئِلَ بَعْضُ الْأَبْطَالِ : فِى أَى الْجُنَيْنِ يُحِبُّ أَنْ تَلْقَى عَدُوَّكَ ؟
قَالَ : فِى أَجَلٍ مُسْتَأْخِرٍ ... وَقِيلَ لِآخِرٍ : لَوْ احْتَرَسْتَ أَفَقَالَ : كَفَى
بِالْأَجَلِ حَارِسًا ...

ومما يؤثر فى كثرة لبس الدروع والاستعداد للحرب أبداً قول مسلم بن
الوليد من قصيدته التى يمدح بها يزيد بن يزيد الشيبانى وهو ابن أخى معن
ابن زائدة :

تَرَاهُ فِى الْأَمْنِ فِى دِرْعٍ مُضَاعَفَةٍ
لَا يَأْمَنُ الدَّهْرَ أَنْ يُدْعَى عَلَى عَجَلٍ

وبعده :

لَا يَنْبَغُ الطَّيْبُ حُدَيْدٍ وَفَرَقَهُ وَلَا يُسَحُّ عَيْلِيهِ مِنَ الْكَحْلِ
يُرَوِّى أَنْ تَعْمَهُ مَعَنَ بْنِ زَائِدَةَ كَانَ يُقَدِّمُهُ عَلَى أَوْلَادِهِ فَعَاتَبَتْهُ امْرَأَتُهُ
فِى ذَلِكَ ، فَقَالَ لَهَا : فَأَرِيكَ مَا تَبْسُطِينَ بِهِ عَذْرَى ، يَا غَلَامَ ، إِذْ هَبْ فَادْعُ
حَسَّاسًا وَزَائِدَةَ وَعَبْدَ اللَّهِ وَفُلَانًا وَفُلَانًا حَتَّى أَتَى عَلَى جَمِيعِ أَوْلَادِهِ لَمْ تَسْأَلْهُ

أن جاؤا في الغلائل المُطَيِّية والنَّعال السَّنْدِيَّة ، وذلك بعد هُدأةٍ من الليل ، فسَلَّوْا وجلسوا ، ثم قال مَعْن ، يا غلام ، ادع يزيدَ ، فلم يلبث أن دخلَ عَجِلًا وعليه سلاحه ، فوضع رُحْمَه بِيابِ المجلس ، ثم دخلَ ، فقال مَعْنُ له : ما هذه الهيئة يا أبا الزبير ، فقال : جاءني رسولُ الأمير فسبق وَهَمِي إلى أنه يُريدني لِمَهُمْ فَلَبِسْتُ سلاحِي وقلت : إن كان الأمر كذلك مَضَيْتُ ولم أُعْرَجْ وإن كان غيرُ ذلك فَنَزَعُ هذه الآلة عني من أيسر الأشياء ، فقال مَعْن : انصرفوا في حفظ الله ، فلما خَرَجوا قالت زوجته قد تَبَيَّنَ لي عُذْرُكَ ، فَأَنشُدُ مَثَمَلًا :

نَفْسُ عِصَامٍ سَوَدَتْ عِصَامًا وَعَلَمَتُهُ الْكَرُّ وَالْإِقْدَامَا
وَصَيَّرَتْهُ مَلِكًا هُمَامَا

وإلى ذلك أشار مسلم بالبيتين المذكورين : ويُروى : أن مُسْلِمًا لما انتهى في إنشاد هذه القصيدة إلى البيت الأول قال له يزيد المددوح : هَلَا قُلْتَ كَمَا قَالَ أَغَشَى بَكْرُ بْنُ وَائِلٍ فِي مَدْحِهِ قَيْسَ بْنِ مَعْدِيكَرَبٍ ^(١) وَإِذَا تَجَيَّءُ كَتِيبَةٌ مَلُومَةٌ شَهَبَاءُ تَجْتَلِبُ الْكَمَاءُ نِزَالَهَا ^(٢) كُنْتُ الْمَقْدَمَ غَيْرَ لَا بِيْسُ جُنَّةٍ بِالسِّيفِ أَضْرِبُ مُعَلِّمًا أَبْطَالَهَا ^(٣)

(١) هذا قيس هو والد الأشعث بن قيس الكندي الصحابي

(٢) الكتيبة : القطعة العظيمة من الجيش ، وكتيبة ملومة : مجتمعة مضموم بعضها إلى بعض ، وشهباء : لما فيها من يياض السلاح والحديد في حال السواد ، والكماء : الأبطال مدججين بالسلاح

(٣) رحل معلم : يعلم مكانه في الحرب بعلامة جعلها لنفسه وهو شأن الشجعان وأبطالها مفعول تضرب .

فقال مسلم : قولي أحسن من قوله لأنه وَصَفَهُ بِالْحُرْقِ وَأَنَا وَصَفْتُهُ
بِالْحَزْمِ . وَيُرْوَى مِثْلَ هَذَا لِعَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ مَعَ كَثِيرٍ عَزَّةً ...

تحريم الملاهي على المحارب

قال معاوية رضى الله عنه : مَاؤُذْتُ أَيَّامَ صِفِّينَ ^(١) لِمَاءٍ وَلَا حَلَوَاءٍ
بَلْ أَقْتَصَرْتُ عَلَى الْخُبْزِ حَتَّى فَرَعْتُ .

وَكَتَبَ عَامِلُ الْيَمَنِ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ فِي وَقْتِ مُحَارَبَتِهِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ
ابْنَ الْأَشْعَثِ : إِنِّي قَدْ وَجَّهْتُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِجَارِيَةٍ اشْتَرَيْتُهَا بِمَالٍ عَظِيمٍ ،
وَلَمْ يُرَ مِثْلُهَا قَطُّ ، فَلَمَّا دُخِلَ بِهَا عَلَيْهِ رَأَى وَجْهَهَا جَمِيلًا وَخَلْقًا نَبِيلًا ،
فَأَتَّقَى إِلَيْهَا قَضِييَا كَانَ فِي يَدِهِ فَتَنَكَّسْتُ لَتَأْخُذَهُ ، فَرَأَى جِسْمًا قَدْ بَهَرَهُ ،
فَلَمَّا هَمَّ بِهَا أَعْلَمَهُ الْأَذِنُ أَنَّ رَسُولَ الْحِجَابِ بِالْبَابِ فَأَذِنَ لَهُ ، وَنَحَى
الْجَارِيَةَ ، فَأَعْطَاهُ كِتَابًا مِنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَبْدُ الْمَلِكِ كِتَابًا ، ثُمَّ
بَاتَ يُقَلِّبُ كَفَّ الْحَارِيَةِ وَيَقُولُ : مَاؤُذْتُ فَائِدَةً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْكَ ، فَتَقُولُ :
فَمَا بِأَلْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا يَمْنَعُكَ ؟ فَقَالَ : يَمْنَعُنِي مَا قَالَهُ الْأَخْطَلُ ، لِأَنِّي
إِنْ خَرَجْتُ مِنْهُ كُنْتُ الْأَمَّ الْقَرَبَ :

قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا شَدُّوا مَا زَرَّهُمْ دُونَ النَّسَاءِ وَلَوْ بَاتَتْ بِأَطْهَارٍ
فَمَا إِلَيْكَ سَبِيلٌ أَوْ يَحْكُمُ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَ عَدُوِّ الرَّحْمَنِ بْنِ الْأَشْعَثِ ،
فَلَمْ يَقْرَبْهَا حَتَّى قَتَلَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ قَوْلَ الْأَخْطَلِ وَلَوْ بَاتَتْ بِأَطْهَارٍ ،

(١) صِفِّينَ : مَوْضِعٌ بِقَرْبِ الرِّقَّةِ عَلَى شَاطِئِ الْفُرَاتِ مِنَ الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ وَأَيَّامُ
صِفِّينَ : أَيَّامُ الْحَرْبِ بَيْنَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَبَيْنَ مُعَاوِيَةَ وَكَانَتْ مَدَّتُهَا مِائَةٌ يَوْمٍ وَعِشْرَةٌ
أَيَّامًا وَكَانَتْ وَقَاتُهَا تِسْعِينَ وَقْعَةً وَكَانَتْ فِي سَنَةِ ٣٧ هـ .

يعنى : أنه يجتلبها في طهرها وهو الوقت الذى يستقيم له غشائها فيه
وفي هذا المعنى يقول الأعشى من كلمة له يمدح بها هودّة بن على الحنفي :
وفي كلِّ عامٍ أنتَ جاشمٌ غزوةٌ تشدُّ لأقصاها عِزيمَ عزائِكَ
مورثةً مالا وفي الحى رِفعةً لِماضاعٍ فيها من قُروءِ نساءِنا
« جاشم اسم فاعل جَشِمَ الأمر - بالكسر - تكلفه على مَشَقَّة ،
والعزيم كالعزيمة مصدر عَزَمَ على الأمر : جدَّ في عمَلِه ، والعزاء : الصبر
يقول الأعشى : أنت في كل عام تُكَلِّفُ نَفْسَكَ الغزوَ واقتحام مكارِهه
تشدُّ وتوثِّقُ عزيمة صبرك لأقصاها ، أى أبْعِدَها وأَعْلَاهَا ، أو غايتها
ومُنتَهاها ، وهذه الغزوات تُورِثُكَ مالا كثيرا بقاءها ، ورفعة لك في
الحى . والقروء جمع قرء وهو : الطهر هنا ، وقوله تعالى : والمطلقات
يتربصن بأنفسهنَّ ثلاثة قُروء اختلف العلماء فقال الحجازيون القروء :
الأطهار ، وقال أهل العراق الحيض ، أما في قول الأعشى فالقروء : الأطهار
لا الحيض لأن النساء إنما يُؤْتَيْنَ في أطهارهنَّ لافي حيضهنَّ فإنما ضاع
بفزوه وغلبته عنهن أطهارهنَّ . هذا واللام في قوله : لما ضاع فيها لام
العاقبة مثلها مثل اللام في قوله تعالى : وما خَلَقْتُ الجنَّ والإنسَ إلا
لِيَعْبُدُون ، وقوله تعالى : ليكون لهم عدواً وحزنا . هذا وقوله تعالى ثلاثة
قروء قال الأصمى : جاء هذا على غير القياس والقياس : ثلاثة أقراء ولا
يجوز أن يقال : ثلاثة فلوس ، إنما يقال : ثلاثة أُنُس فإذا أكَثرت فهي
الفلوس ، ولا يقال : ثلاثة رجال إنما هي ثلاثة رَجُلَةٍ ، ولا يقال ثلاثة
كلاب إنما هي ثلاثة أكلَبُ . وقال النحويون : في قواه تعالى : ثلاثة قروء
أراد : ثلاثة من القُروء ،

طائفة من عبقرياتهم في الصلح

والتحذير من الحرب

قال عز وجل : « وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا . » السِّلْمُ : الصِّلح ، بفتح السين وكسرها ، وتذكّر وتوث ، وقال : « وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . » نزلت هذه الآية الكريمة في قتال حَدَثَ بَيْنَ الْأَوْبُسِ وَالْخَزَرَجِ في عهده عليه الصلاة والسلام بالسَّعَفِ وَالنَّعَالِ ، والجمع في اقتتلوا باعتبار المعنى فإن كل طائفة جمع ، وبغت : تعدت ، وتفيء : ترجع ، وأقسطوا : أعدلوا ،

ومن كلامهم : الحربُ صَغْبَةٌ مُرَّةٌ ، والصلحُ أَمْنٌ وَمَسْرَةٌ ومنه : إياك والمعادة ، فإنك لنْ تعدَمَ مَكْرَ حليم ، أو مُفاجأة لثيم . ومنه : لَا تَسْتَثِيرُوا السَّبَاعَ مِنْ مَرَايِضِهَا فَتَنْدُمُوا ، ودارُوا النَّاسَ في جميع الأحوال

ومنه : الفِتنة نائمةٌ ، فن أيقظها فهو طعامُها « الفتنة هنا : ما يقع بين الناس من القتال والحروب . »

وقال زهير بن أبي سلمى في معلقته :

وما الحرب إلا ما عِلِسْتُمْ وَذُقْتُمْ وما هو عنها بالحديث المرَّجَمُ
مَتَى تَبْعَثُوهَا تَبْعَثُوهَا ذَمِيمَةً وَتَضَرُّ إِذَا ضَرَّيْتُمُوهَا فَتَضَرُّمُ
فَتَفْعُرُكُمْ عَرَكُ الرَّحَى بِفَنَائِهَا وَتَلْأَنَحُ كِشَافًا ثُمَّ تُنْتَجُ فَتُسَيِّمُ

فَتَنْتَجِ لَكُمْ غِلْمَانٌ أَشْأَمَ كُلُّهُمْ كَأَنَّهُمْ عَادَ ، ثُمَّ تُرْضِعُ فَتَقْطَعُ .
فَتُغْلِلُ لَكُمْ مَا لَا تُغِلُّ لِأَهْلِهَا قُرَى بِالْعِرَاقِ مِنْ قَفِيزٍ وَدِرْهَمٍ .

إِنْ أَنْ قَالَ :

وَمَنْ يَعِصْ أَطْرَافَ الرَّحَاجِ فَإِنَّهُ يُطِيعُ الْعَوَالِي رُكِبَتْ كُلُّ لَهْذَمٍ
« المرجع من الحديث : المَقُولُ بطريق الظَّنِّ لَا عَنْ تَحْقِيقٍ ، يقول :
وما حديثي عن الحرب وتخويفكم أهوالها بالحديث المُفْتَرَى ، وإنما أنتم قد
علمتم وبلات الحرب وذقتموها فلا تقرّبوها ؛ وَضَرِي يَضْرِي : اشتد حرصه
والنضرية : الحمل على الضراوة . وَضَرِمَتِ النَّارُ تَضْرَمُ : التَّهَبَتْ يقول :
مَتَى تَهْجُوا الحرب تهيجوها مَذْمُومَةٌ ، أَيْ تُذَمُّونَ عَلَى إِثَارَتِهَا ، وَيَشْتَدُّ
حَرَصُهَا إِذَا حَمَلَتْهَا عَلَى شِدَّةِ الْحَرَصِ فَيَشْتَدُّ حَرُّهَا وَتَلْتَهَبُ نَارُهَا ، يُحْتَنَمُ
عَلَى النَّمْسِكِ بِالْأَصْلَحِ وَيَنْذَرُهُمْ بِسُوءِ عَاقِبَةِ إِيقَادِ نَارِ الْحَرْبِ . وَقَوْلُهُ : فَتَعْرَكُكُمْ
الْبَيْتُ ، فَالْعَرَكُ : الدَّلْكُ ، وَالثَّقَالُ : الْجِلْدُ أَوْ الْحِرْقَةُ تَوْضَعُ تَحْتَ الرَّحَى
لِيَقَعَ عَلَيْهَا الطَّحِينَ ، وَالْبَاءُ فِي « بِفَالِهَا » بِمَعْنَى مَعَ ، وَاللَّقَاحُ : حَمْلُ الْوَلَدِ
يَقَالُ : لَقِحتِ النَّاقَةُ تَلْقَحُ : إِذَا حَمَلَتْ ، وَتَلْقَحُ كِشَافًا : أَيْ تَلْقَحُ لِقَاحًا
كِشَافًا ، بَأَن تَحْمِلَ فِي عَامَيْنِ مُتَوَالِيَيْنِ ، وَتُنْتِشِمُ : أَيْ تَأْتِي فِي كُلِّ مَرَّةٍ
بِتَوْنَيْنِ ، يَقُولُ : إِذَا هَجَمَ الْحَرْبُ طَخَنَتْكُمْ طَحْنُ الرَّحَى الْحَبُّ مَعَ ثِقَالِهَا
وَتَطُولُ شِدَّتُهَا وَوَيَلَاتُهَا وَتَتَوَلَّدُ مِنْ جَرَائِمِهَا صَنُوفٌ وَضُرُوبٌ مِنَ الْأَهْوَالِ
وَالشُّرُورِ ، وَمِثْلُهَا فِي ذَلِكَ مِثْلُ النَّاقَةِ تَحْمِلُ حَمْلَيْنِ فِي عَامَيْنِ مُتَوَالِيَيْنِ ثُمَّ
لَا تَلِدُ إِلَّا تَوْنَيْنِ ، جَعَلَ إِفْنَاءَ الْحَرْبِ إِيَّاهُمْ بِمَنْزِلَةِ طَحْنِ الرَّحَى الْحَبُّ
وَجَعَلَ صَنُوفَ الشَّرِّ تَتَوَلَّدُ مِنَ الْحَرْبِ بِمَنْزِلَةِ الْوِلَادِ النَّاشِئَةِ مِنَ الْأَمْهَاتِ
وَبَالِغٍ فِي وَصْفِهَا بِاسْتِبْعَابِ الشَّرِّ شَيْئَيْنِ : أَحَدُهُمَا جَعَلَهُ إِيَّاهَا لَاقِحَةً كِشَافًا ،

والآخر إنآمها . وأشأم مصدر من الشؤم ، على وزن أفعل ، أو صفة
 لمخزوف ، واحمر عاد : لقب لعافر ناقة صالح عليه السلام نبي ثمود وأسمه
 قِدَار ، وكان عقره لهذه الناقة إشؤماً على قومه ، ويريد بعاد ثمود إما توثمها
 وخطأ وإما لأن ثمود من عاد ، يقول : إن هذه الحرب تطول وبلاتها
 وشُرورها وتنتج لكم غلبان شؤم أو غلبان أب أشأم شؤم قidar
 عافر الناقة ، ثم تعيش هذه الغلبان فتترضعهم الحرب وتقطمهم ، وكل
 ذلك كناية عن طول ويلات الحرب وطول شرورها . وقوله : فتغلل
 لكم ... أليت يقول : فتغلل لكم هذه الحرب ضررباً من الغلات ليست
 كغلات قري العراق من الحب الذي يكال بالقفيز ، أو من ثمن الغلة وهي
 الدراهم ، يعنى : أن المضار المتولدة من هذه الحرب تُربى على المنافع المتولدة
 من هذه القري ، وكل هذا حث منه لهم على الاعتصام بعري الصلح وزجر
 عن إيقاد نار الحرب التي تلك أفاعيلها وأموالها . وقوله : ومن يعص ...
 أليت فالزجاج جمع زجاج وهو الحديد المركب في أسفل الرمح ، واللهزم : السنان
 الطويل يقول : من يعص أطراف الزجاج أطاع عوالي الرماح التي ركبت فيها
 الأسنة الطوال الحادة والمعنى : من أبى الصلح ذلته الحرب وليقته ، وكانت
 العرب إذا التقت فقتل منهم سددت كل طائفة منهما نحو صاحبها زجاج
 الرماح وسعى الساعون في الصلح ، فإن أبنا إلا التماذى في القتال قلبت كل
 واحدة منهما الرماح واقتلتا بالأسنة . ، وقال كثير :

رَمَيْتَ بِأَطْرَافِ الزَّجَاجِ فَلَمْ يُفَقْ مِنْ الْجَهْلِ حَتَّى كَلَّمْتَهُ نِصَالَهَا
 وَخَطَبَ بَعْضُهُمْ خُطْبَةً طَوِيلَةً لِصُلْحِ أُمَّةٍ ، إِنْ قَالَ لَهُ رَجُلٌ : أَنْتَ مُدَّ
 الْيَوْمَ تَرَعَى فِي غَيْرِ مَرَعَاكَ ... أَفَلَا أَدُلُّكَ عَلَى الْمَقَالِ ؟ فَقَالَ : نَعَمْ ، فَقَالَ :

«أما بعد» فإن الصالح بقاء الآجال، وحفظ الأموال، والسلام. فلما سمع القوم ذلك تعانقوا وتواهبوا الديات.

وكتب سَلَمُ بْنُ قَتَيْبَةَ بن مسلم إلى سعيد المَهَلَبِيِّ لما تحاربا بالبصرة:

خُذُوا حَظَّكُمْ مِنْ سِلِّينَا إِنْ حَزَبْنَا

إِذَا زَبَلَتْهُ الْحَرْبُ : نَارُ تَسَعَّرُ (١)

وإني وإياكم على ما يسوءكم لِمِثْلَانِ أَوْ أَنْتُمْ إِلَى الصِّلَحِ أَفْقَرُ

وقال حكيم : دارفِعْ بِالْحَرْبِ مَا أَمْكَنَ ، فَإِنَّ النَّفَقَةَ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْأَمْوَالِ ، إِلَّا الْحَرْبَ ، فَإِنَّ النَّفَقَةَ فِيهَا مِنَ الْأَرْوَاحِ ، عِلَاوَةً عَلَى الْأَمْوَالِ .

وقال النابغة الجعدي :

وَتَسْتَلِبُ الْمَالَ الَّذِي كَانَ رِثْيَا ضَلِيلًا بِهِ وَالْحَرْبُ فِيهَا الْحِرَابُ
وقد تبعه أبو تمام فقال :

❖ وَالْحَرْبُ مُشْتَقَّةٌ الْمَعْنَى مِنَ الْحَرْبِ ❖

« الْحَرْبُ : أَنْ يُسَلَبَ الرَّجُلُ مَا لَهُ »

وقال شاعر يُسَمَّى حَلْحَلَةَ بن قيس الكِنَانِي (٢)

دَعَانِي أَشْبُ الْحَرْبَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَقُلْتُ : لَا ، بَلْ هَلُمَّ إِلَى السِّلْمِ
ومَهْلًا عَنِ الْحَرْبِ الَّتِي لَا أَدِيمُهَا صَحِيحٌ وَمَا تَنْفَكُ نَأَى عَلَى سُقْمِ
فَإِنْ يَظْفَرِ الْحِزْبُ الَّذِي أَنْتَ مِنْهُمْ وَأَبُوا بِدُهُمْ مِنْ سِبَاءٍ وَمِنْ غُغْمِ

(١) زنبته : دفعته وصدمته ، وحرب زبون : شديدة يدفع بعضها بعضاً من الكثرة . (٢) هذه الايات تراها كاملة في حماسة البحترى

فلا بُدَّ من قَتْلَى لَعَلَّكَ فِيهِمْ وإلا فَجَرَحُ لَيْسَ يَكْنَى عَنِ الْعَظْمِ^(١)
 فلما أبى أَرْسَلْتُ فَضْلَةَ ثَوْبِهِ إليه فلم يَرْجِعْ بعزم ولا حزم
 فلما رَمَانِهَا رَمَيْتُ سَوَادَهُ ولا بُدَّ أَنْ تَرِمِي سَوَادَ الَّذِي يَرِمِي
 فَمِتْنَا عَلَى لَحْمٍ مِنَ الْقَوْمِ غَوِذَرَتْ أَسْتَنْدْنَا فِيهِ وَبَاتُوا عَلَى لَحْمٍ
 وَكَانَ صَرِيحَ الْجَهْلِ أَوَّلَ وَهْلَةٍ فَبُعْدًا لَهُ مَخْتَارَ جَهْلِ عَلَى عِلْمٍ

الحرب تصيب جانبيها وغير جانبيها

العرب تقول : الحرب غَشُومٌ ، لأنها قد تنال غير جانبيها .
 وتقول : * وليس يَفْضَلِي بِنَارِ الحربِ جانبيها *
 * وَأَصْبَحَ مَنْ لَمْ يَجْنِ فِيهَا كَذَى الذَّنْبِ * .

وقال الحارث بن عَبَّاد :

قَرَّبَا مَرْبِطَ النَّعَامَةِ مِنِّي لَقِيتُ حَرْبَ وَائِلٍ عَنِ حِيَالِ
 لَمْ أَكُنْ مِنْ جُنَاتِهَا عَظِيمَ اللَّهِ وَإِنِّي بِحَرْبِهَا الْيَوْمَ صَالِ
 قَرَّبَاها بَأَنَّ كَفِّي رَفْدُنْ أَرْتَزُولُ الْجِبَالَ قَبْلَ الرِّجَالِ
 « النعامة : فرسه ، وَلَقِيتُ : حَمَلْتُ ، وَحَرْبُ لَانِجٌ : مَثَلٌ بِالْأَثَى الْحَامِلِ ،
 وَعَنْ حِيَالٍ : بَعْدَ حِيَالٍ ، أَيْ بَعْدَ أَنْ لَمْ تَحْمِلْ ، وَصَلَى بِالنَّارِ : قَاتَنِي حَرْبُهَا
 أَوْ احْتَرَقَ بِهَا »

وقال ابن الرومي :

رَأَيْتُ جُنَاةَ الْحَرْبِ غَيْرَ كُفَاتِهَا إِذَا اخْتَلَفَتْ فِيهَا الرِّمَاحُ الشَّوَاكِجُ

(١) ليس يكنى عن العظم لعله يريد : إن جروح الحرب ليست من الجروح المعروفة ولكنها جروح تصمى وتقتل

كذلك زناد النار عنها بنجوة ولكنما يصلي صلاحها المساعر
 المساعر : جمع مسعر ، وهو : ما تحرك به النار من خشب ونحوه ، ومسعر
 الحرب : وقدها ،

الممتنع من الصلح

قال أبو زيد الطائي — شاعر مخضرم ، كان في الجاهلية مقبياً في أخواله
 بنى تغلب بالجزيرة ، وفي الإسلام منقطعاً إلى الوليد بن عقبة بن أبي معيط
 في ولاية الجزيرة وولاية الكوفة ، ولم يزل به الوليد حتى أسلم ، وقد كان
 نصرانياً ، والأكثر على أنه مات على نصرانيته — :

بعثوا حربنا إليهم وكانوا في مقام لو أبصروا ورخاء
 ثم لما تشذرت وأنافت وتصلوا منها كرية الصلاء
 طلبوا صلحنا ولات أوان فأتبنا أن ليس حين بقاء
 فلحنا الله طالب الصلح منا ما أطاف الميس بالدماء

« لو أبصروا فلزوا للتمنى ، ورخاء : عطف على مقام ، وتشذرت يقال :
 تشذر فلان إذا تهيأ للقتال ، وتشذر القوم في الحرب : أى تطاولوا
 واشربوا ، وأنافت : زادت ، وتصلوا : من صلى النار صلاً ، من باب
 تعب : قاسى حرها ، والصلاء ككتاب : حر النار ، وطلبوا صلحنا :
 جواب لما ، وقوله : ولات أوان فللنحويين في تخريجها كلام كثير
 وأوجهها أن أصلها : ولات أوان صلح ، لحذفت الجملة وبين أوان
 على الكسر ، وليس حين بقاء : أى ليس الحين حين بقاء ، والبقاء :
 اسم من قولهم أقيت على فلان إبقاء : إذا رحيته وتلطفت به ، والمشهور

أن الاسم منه ؛ البقياء والبقوى ، ولما الله : أى قبَّحَ الله ، وما أطاف :
 فما مضدرية ظرفية ، وأطاف وطاف : بمعنى دارَ على الشيء ، والمُبْسُ
 حادى الإبل ، وهو فى الأصل اسم فاعل من أبْسَسْتُ الإبل : إذا زَجَرْتَهَا
 والدهناء : موضع فى بلاد بنى تميم »

وقال الزُّبرقان :

فَلَنْ أَصَالِحُهُمْ مَا دُمْتُ ذَا فَرْسٍ واشتدَّ قبضاً على الأسيافِ إبهامٍ

ضارع يطلب الصلح

قال المتنبي :

من أطاق التماسَ شيءٍ غلاباً واغتصاباً لم يَلْتَمِسْهُ سؤالا

التحذير من صغير يفضى إلى كبير

قال الفرزدق :

تَصَرَّمْ عَنِّي وَدُّ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ وما كَادَ عَنِّي وَدُّهُمْ يَتَصَرَّمُ
 قَوَارِصُ تَأْتِينِي وَتُخْتَقِرُونَهَا وقد يَمْلَأُ الْقَطْرُ الْإِنَاءَ فَيَفْعَمُ

« يفعم : يمتلئ ، والقوارص جمع قارصة : الكلمة المؤذية »

وقال آخر :

ذروا الأمرَ الصغيرَ وزمِّلوه فتَلْقِيحُ الْجَلِيلِ مِنَ الدَّقِيقِ

« زمِّلوه : أخفوه »

وقال آخر :

قد يَحْقِرُ الْمَرْءُ مَا يَهْوَى فَيَرُكِبُهُ حتى يَكُونُ إِلَى تَوْرِيظِهِ سَبِيها

وقال آخر:

إِنَّ الْأُمُورَ دَقِيقُهَا بِمَا يَهِيْجُ بِهِ الْعَظِيمُ

ومن كلامهم: مَنْ الْحَبِيَّةُ تَنْبَتُ الشَّجَرَةَ الدَّيْمِيَّةُ؛ ومن الجرة تَكُونُ
النَّارَ الْعَظِيمَةَ. وَالتَّمْرَةُ إِلَى التَّمْرَةِ تَمْرٌ، وَالذُّودُ إِلَى الذُّودِ إِبِلٌ.

و * أَوَّلُ الْغَيْثِ قَطْرٌ ثُمَّ يَنْسَكِبُ *

و * كَمْ بِذِي الْأَثَلِ دَوْحَةٌ مِنْ قَضِيبٍ *

طائفة من عبقرياتهم في التهديد والوعيد

قلة غناء الوعيد

من أمثالهم: الصَّدَقُ يُبَيِّئُ عَنْكَ لَا الْوَعْدُ، أَيْ: إِنْما يُذَيِّئُ عَدُوَّكَ
عَنْكَ أَنْ تَصْدُقَهُ فِي الْفِتَالِ، لَا أَنْ تُوعِدَهُ وَلَا تُنْفِذَ مَا تُوعِدُهُ بِهِ «

وقالوا: من علامات العاقل ترك التهديد قبل إمكان الفُرْصِ، وعند
إمكانها الوُثُوبُ مع الثِّقَّةِ بِالظَّفَرِ.

وقالوا: * إِنْ أُوْعِدَ سِلَاحُ الْعَاجِزِ الْحَمِي *.

« الْحَقُّ: الْأَحَقُّ »

وقالوا: * إِنْ الْكُتَائِبُ لَا يُهْزَمَنَّ بِالْكِتَبِ *.

من يتهدد بظهر الغيب ولا يغني غناءً

قال عنتره في معلقته:

وَلَقَدْ خَشِيتُ أَنْ أَمُوتَ وَلَمْ تَكُنْ

لِلْحَرْبِ دَائِرَةٌ عَلَى ابْنِي ضَمَمَ

الشامتى عَرَضِي ولم أَشْتِهُمَا والناذِرِينَ إِذَا لَمْ أَلْقَهُمَا دُمِ
« الدائرة : اسم للحادثة ، سميت بها لأنها تدور من خير إلى شر ومن
شر إلى خير ، ثم استعملت في المكروهة دون المحبوبة ، والدائرة : الهزيمة
والشوء يقال : عليهم دائرة الشوء ، وفي الحديث : فيجعل الدائرة عليهم ،
أى الدولة بالغلبة والنصر ، وقوله سبحانه : ويتربص بكم الدوائر . قيل :
الموت أو القتل ، وقوله : والناذرين يقول : والموجبان على أنفسهما سفك
دمى إذا لم ألقهما ، يريد : أنهما يتوعدانه حال غيبته أما في حال حضوره
فلا يتجاسران على ذلك »

وقال القَرْمَطِيُّ :

تَتَمَنَّانِي إِذَا لَمْ تَرَنِي فَإِذَا جِئْتُ قَطَعْتَ الْقَنْطَرَةَ
يَا بَنِي الْعَبَّاسِ مَنْ يَنْصُرُكُمْ أَصْبَى أَمْ خَصِيٌّ أَمْ مَرَّةٌ
وقال آخر :

كَأَنَّ صَدَى يُسْمَعُ مِنْهُ صَوْتُهُ فَإِذَا طَالَبْتَهُ لَمْ يَسْتَجِبْ
« الصدا : ما يُجِيبُكَ مِنْ صَوْتِ الْجَبَلِ وَنَحْوِهِ بِمِثْلِ صَوْتِكَ »

من لا يبالى بتهديده

قال جرير :

زَعِمَ الْفَرَزْدَقُ أَنَّ سَيَقْتُلُ مَرْبَعًا

أَبْشِرْ بِطُولِ سَلَامَةٍ بِأَمْرِ بَعِ

وقال مُقَاتِلُ بْنُ مِسْمَعٍ لِعَبَّادِ بْنِ الْحَصِينِ : لَوْلَا شَيْءٌ لَأَخَذْتُ رَأْسَكَ

فقال : أَجَلُ ، ذَلِكَ الشَّيْءُ سَنِيْفِي ...

وقال ابن أبي عُيَيْنَةَ :

فَدَعَ الوَعِيدَ فَمَا وَعَيْدُكَ ضَارِي أَطْيَيْنُ أَجْنَحَةَ الذَّبَابِ يَصِيرُ

وقال الفرزدق :

مَا ضَرَّ تَغْلِبَ وَائِلَ أَهْجَوْتَهَا أَمْ بُلْتَ حَيْثُ تَنَاطَحَ الْبَحْرَانِ

وَأَبْرَقَ رَجُلٌ لآخر وَأَرْعَدَ فَلَمَّا زَادَ أَنْشَدَ :

قَدْ هَبَّتِ الرِّيحُ طَوْلَ الدَّهْرِ وَاخْتَلَفَتْ عَلَى الْجِبَالِ فَمَا نَالَتْ رِوَاسِهَا

طائفة من عبقرياتهم

في الهزيمة والخوف وأن الفرار لا يبقى من الموت

قال جل شأنه : قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَنْ لَا تُمَتِّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا . « يقول سبحانه : لن ينفع الناس الفرار فإنه لا بد لكل شخص من ختف أنف أو قتل في وقت معين سبق به القضاء وجرى عليه القلم ، ثم قال جل شأنه : وَإِنْ نَفَعَكُمْ الْفِرَارُ مِثْلًا فَمَتَّعْتُمْ بِالتَّأخير لم يكن ذلك التمتع إلا تمتعاً وزماناً قليلاً . وقال سبحانه : أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ . « البروج : الحصون ، والمشيّدة المرتفعة » .

وقال عليُّ يوم الجمل : إن الموت طالِبٌ حَثِيثٌ ، لَا يُعْجِزُهُ الْمُقِيمُ وَلَا يَفْوُتُهُ الْهَارِبُ ، وَإِنْ لَمْ تُقَتِّلُوا تَمُوتُوا ، وَإِنْ أَثَرَفَ الْمَوْتُ الْقَتْلُ . ومن أمثال العرب : فلانٌ أجراً من فارس خِصَافٍ . وخِصَافٍ كَقَطَايمِ قَرَسٍ قال الدّسابون : كان مالكُ بن عمرو الغَسَّاسِيُّ يقال له : فارس خِصَافٍ ، وكان من أجبنِ الناسِ ، فغزا يوماً ، فأقبلَ سَهْمٌ حَتَّى وَقَعَ

عند حافرِ فرسه فانغرزَ في الأرض وجعل يَهْتَزُّ حيناً فقال : إن لهذا السَّهم سبباً يَنْجُئُهُ — يُحَرِّكُهُ — فاخفى عنه ، فإذا هو قد وقع على نفق يَرْبُوع فأصاب رأسه ، فتحرك اليربوع ساعةً ثم مات ، فقال : هذا في جوفِ جُحْرٍ جاءه سَهْمٌ فَقَتَلَهُ ، وأنا ظاهرٌ على فرسٍ ! ما المرءُ في شيء ولا اليربوعُ ، ولا أُقْتَلُ إلا بأجلي ، ثم شدَّ عليهم فأَنكى في القوم ، فكان بعد ذلك من أشجعِ الناس ... وكان معاوية يتمثل بهذين البيتين كثيراً :

أكانَ الجبانُ يرى أنه سَيُقْتَلُ قبلَ انقضاءِ الأجلِ
فقد تُدْرِكُ الحادثاتُ الجبانَ وَيَسْلَمُ منها الشجاعُ البَطْلُ

تفضيل القتل على الهرب

قال سُقراط لرجل هَرَبَ من الحرب : الهرب من الحرب فضيحة ! فقال الرجل : شر من الفضيحة الموت ، فقال سُقراط : الحياة إذا كانت صالحة فمُسَلِّمٌ ، وإذا كانت رَدِيئةً فالموت أفضلُ منها .

ولما قتل الاسكندرُ المقدونيُّ ملكَ الهند قال لحُكَماءه : لِمَ مَنَعْتُمُ الملكَ من الطاعة ؟ قالوا : ليموتَ كريماً ولا يعيشَ تحت الذُلِّ .

الممتنع من الفرار

قالت امرأة من عبد القيس :

أَبَوْا أَنْ يَفِرُّوا والقنا في نُحُورِهِمْ ولم يَبْتَغُوا من خَشْيَةِ الموتِ سُلْماً
ولو أَنَّهُمْ فَرُّوا لكانوا أَعَزَّةً ولكن رَأَوْا صَبْرًا على الموتِ أَكْرَمًا

« ولم يَبْتَغُوا يروى : ولم يرتقوا ،

المعير بانهمزاه

من كلام الحجاج : وَلَيْسْتُ كَالْإِبِلِ الشَّوَارِدِ إِلَى أوطانها ، النوازغ إلى أعطانها ، لا يَلْوِي الشَّيْخُ على بنيه ، ولا يسأل المرء عن أخيه ... وقال أبو تمام من قصيدته البائية التي يمدح بها المعتصم ويذكر فتح عمورية :
وانهمزام ملك الروم :

وَلَى وَقَدْ أَلْجَمَ الْخَطِيئَةَ مَنَظِقَهُ بِسَكْنَةِ تَحْتَهَا الْأَحْشَاءُ فِي صَخَبٍ ^(١)
أَحْذَى قَرَابَتَهُ صَرْفَ الرَّدَى وَمَضَى يَحْتَثُّ أَنْجَى مَطَايَاهُ مِنَ الْهَرَبِ ^(٢)
مَوْكَلًا بِيَفْسَاعِ الْأَرْضِ يُشْرِفُهُ مِنْ خِفَّةِ الْخَرْفِ لَا مِنْ خِفَّةِ الطَّرَبِ ^(٣)
وقال البحترى من أبيات يمدح بها أحمد بن طولون :

تَحْطَى حُزُونَ الْأَرْضِ رَاكِبَ وَجْهِهِ لِيَمْنَعَ مِنْهُ الْبُعْدُ مَا يَبْذُلُ الْقُرْبُ
وَلَوْ كَانَ حُرًّا النَّفْسِ وَالْعَيْشُ مُدِيرٌ لِمَاتِ وَطْأَمُ الْمَوْتِ فِي فَوْهِ عَذْبُ
وقال أبو جعفر المنصور لبعض الخوارج : عَرَفْنِي : مَنْ أَشَدُّ أَصْحَابِي
إِقْدَامًا ؟ فقال : لا أعرفهم بوجوههم ، فإني لم أرَ إلا ألقاءهم ...

وقال ابن الرومي في سليمان بن عبد الله بن طاهر :

قَرْنُ سُلَيْمَانَ قَدْ أَضْرَّ بِهِ شَوْقُ إِلَى وَجْهِهِ سَيُسْذِرُهُ
لَا يَعْرِفُ الْقَرْنَ وَجْهَهُ وَيَرَى قَفَاهُ مِنْ فَرَسِهِ فَيَغْفِرُهُ
وقال المتنبي لما أوقع سيف الدولة بيني عقيل وفشير وبني العجلان

(١) ولَى : أى ملك الروم ، وألجم الخطى منطقة : أخرسه السيف

(٢) أَحْذَى : أعطى ، وقرايته : المقربون له جمع قربان وهو جليس الملك الخاص يقول : أن ملك الروم قدم المقربين إليه هدية للبوت وفر على أحسن مطاياها وأنجها .
(٣) اليفاع ما ارتفع من الأرض ، ويشرفه : يعلوه .

وبنى كلاب ويذكر إجفأهم من بين يديه :

فَلَزَهُمُ الطَّرَادُ إِلَى قِتَالٍ أَحَدُ سِلَاحِهِمْ فِيهِ الْفِرَارُ
مَضَوْا مُتَسَابِقِ الْأَعْضَاءِ فِيهِ لَأَرْؤُسِهِمْ بَأَرْجُلِهِمْ عِشَارُ

• لَزَهُ إِلَى الشَّيْءِ : أَلْجَأَهُ إِلَيْهِ وَأَدْنَاهُ مِنْهُ يَقُولُ : أَحْوَجُهُمْ طَرَادُكَ
إِيَّاهُمْ إِلَى قِتَالٍ شَدِيدٍ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ سِلَاحٌ يَدْفَعُهُ عَنْهُمْ غَيْرَ الْفِرَارِ ، ثُمَّ قَالَ
فِي الْبَيْتِ الثَّانِي : لِإِسْرَاعِهِمْ فِي الْهَرَبِ وَالْهَزِيمَةِ خَوْفًا مِنَ الْقَتْلِ كَانَتْ
أَعْضَاؤُهُمْ كَأَنَّمَا يَسَابِقُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، الْأَرْجُلُ تَسَابِقُ الرُّؤُسَ وَالرُّؤُسُ
تَسَابِقُ الْأَرْجُلَ ، وَكَأَنَّ الرُّؤُسَ تَتَعَثَّرُ بِالْأَرْجُلِ حِينَ تَرِيدُ الرُّؤُسُ
الْإِسْرَاعَ فَتَقْتَمِعُهَا الْأَرْجُلُ .

وقال زيد بن علي بن الحسين حين خرج من عند هشام مُغَضَّبًا :
مَا أَحَبَّ أَحَدُ الْحَيَاةِ إِلَّا ذَلَّ ، وَتَمَثَّلَ :

شَرَّدَهُ الْخَوْفُ فَأَزْرَى بِهِ كَذَاكَ مَنْ يَكْرَهُ حَرَ الْجِلَادِ
قَدْ كَانَ فِي الْمَوْتِ لَهُ رَاحَةٌ وَالْمَوْتُ حَتَمٌ فِي رِقَابِ الْعِبَادِ

• شَرَّدَهُ : جَعَلَهُ شَرِيدًا طَرِيدًا وَيُقَالُ : شَرَّدَبَهُ : إِذَا سَمِعَ بِهِ ، وَأَزْرَى بِهِ :
قَصَّرَبَهُ وَحَقَّرَهُ وَهَوَّنَهُ ، وَحَرَ الْجِلَادَ : شَدَّتَهُ ، وَالْجِلَادُ : الْقِتَالُ بِالسَّيْفِ ،

ترك اتباع المنهزم

قيل لعلي بن أبي طالب : أَنْتَ رَجُلٌ مُحَرَّبٌ وَتَرَكَبُ بَغْلَةً ، فَلَوْ اتَّخَذْتَ
الْحَيْلَ فَقَالَ : أَنَا لَا أُفِرُّ مِنْ كَرٍّ وَلَا أَكْبُرُ عَلَى مَنْ فَرَّ . • مُحَرَّبٌ
شَدِيدُ الْحَرْبِ مُشْجَاعٌ ، وَكَرَّ عَلَى الْعَدُوِّ يَكْرُ : عَظَفَ ،
وَأَوْصَى الْإِسْكَندَرُ صَاحِبَ جَيْشٍ لَهُ فَقَالَ : حَبِّبْ إِلَى أَعْدَائِكَ الْهَرَبَ .

قال : كيف أصنع ؟ قال : إذا ثَبَّتُوا جِدًّا في قَتَالِهِمْ وإذا انْهَزَمُوا لا تَتَّبِعْهُمْ .
وعَاتَبَ الحِجَابُ المَهْلَبَ بنَ أَبِي صُفْرَةَ في تَرْكِهِ اتِّبَاعَ الخَوَارِجِ لما
انْهَزَمُوا ، فمَكْتُبٌ إِلَيْهِ : أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الكَلْبَ إذا أَجْحَرَ عَقَرَ ...
« أَجْحَرَ : دخل الجحر » ،

الْفَارُّ وقت الفرار والثابت وقت الثبات

قالوا : الهربُ في وقته خير من الصبر في غير وقته .
وقالوا : من هرب من معركة فعرف مصيره إلى مستقره فهو شجاع .
وقال معاوية يوماً : لقد عَلِمَ النَّاسُ أَنَّ الخَيْلَ لا تَجْرِي بِمَثَلِي ، فكيف
قال النجاشي : (١)

وَنَجَّى ابْنَ حَرْبٍ سَابِقُ ذُو عُلَّالَةٍ أَجَشُّ هَزِيمٌ وَالرَّمَاحُ دَوَانِي (٢)
فقال عمرو بن العاص له : لقد أَعْيَانِي أَنْ أَعْلَمَ أَجْبَانُ أَنْتَ أَمْ
شجاع ؟ فقال :

شجاعٌ إذا مَا امْتَكَنَتْنِي فُرْصَةٌ وإلا تَكُنْ لي فُرْصَةٌ لِحَبَانٍ
وقال المهلب بن أبي صفرة : الإقدامُ على الهَلَكَةِ أَضْيَعُ ، كما أَنَّ

(١) هو قيس بن عمرو بن مالك ... أحد بني الحارث بن كعب ، نسب إلى أمه
وكانت من الحبشة ، وكان من أشراف العرب ، إلا أنه كان فاسقاً ، وهو الذي أتى
به على الله عنه وهو سكران في شهر رمضان ، فضربه ثمانين وزاد عشرين ،
فقال : ماهذه العلالة يا أبا حسن ؟ قال : لجرأتك على الله وشربك في رمضان ، ولأن
ولدانا صيام وأنت مفطر . وبنيته هذا من آيات تراها في مجموعة المعاني طبع الجوانب
(٢) يقال لأول جرى الفرس : بدايته وللذي يسكون بعده : علالته وفرس
أجش : غليظ صهيل وهو مما يحمّد في الخيل ، والمهزيم من الخيل : الشديد الصوت

الإحجام عن الفرصة عجز .

وقال المتوكل الخليفة العباسي لأبي العيناء : إني لَأَفَرِّقُ من أسائك !
فقال : يا أمير المؤمنين ، السكريم ذو فَرَقٍ وإحجام ، واللثيم ذو وقاحة وإقدم .
وقال الشاعر :

أَقَاتِلْ حَتَّى لَا أَرَى لِي مُقَاتِلًا وَأَنْجُو إِذَا غَمَّ الْجَبَانُ مِنَ السَّكْرَبِ

المتفادى من حضور الحرب

والمحتج لانزاعه بالخوف من القتل

قيل لأعرابي : أَلَا تَغْزُو فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَنْذَرَكَ ؟ فقال : والله إني لأبغض
الموتَ على فراشي فكيف أُنْضِي إليه رَكْضًا !

ورأى المعتصم الخليفة العباسي في بعض مُتَنَزِّهَاتِهِ أسدًا ، فنظر إلى
رجل أعجبه زِينُهُ وقُوَامُهُ وسِلَاحُهُ فقال له : أفيك خيرٌ ؟ فعلم الرجل
مُرَادَهُ ، فقال : لا ، فقال : لَا قَبَّحَ اللَّهُ سِوَاكَ .

واجتازَ كِسْرَى في بعض حُرُوبِهِ بِرَجُلٍ قَدْ اسْتَظَلَ بِشَجَرَةٍ وَأَلْقَى
سِلَاحَهُ وَرَبَطَ دَابَّتَهُ فقال له : يَأْنِذُلْ ، نحن في الحرب وأنت بهذه الحالة !
فقال : أَيُّهَا الْمَلِكُ ، إِنَّمَا بَلَغْتَ هَذِهِ السَّنَّ بِالتَّوَقُّي ، فقال : زِهْ ،
رَأْعُظَاهُ مَا لَا ...

وقيل لرجل : إِنَّكَ انْزَمْتَ أَقَالَ : فَخَضِبُ الْأَمِيرِ عَلِيٍّ وَأَنَا حَيٌّ خَيْرٌ مِنْ
أَنْ يَرْضَى وَأَنَا مَيِّتٌ .
وقال أبو دلامة :

قَالُوا : تَقْدَمُ قِلْتُ : لَسْتُ بِفَاعِلٍ أَخَافُ عَلَى فَخَّارَتِي أَنْ تَحْطَأَ

فلو كان لي رأسان أتلفتُ واحداً ولكنه رأسٌ إذا زال أعقما
ولو كان مُبتاعاً لدى السوق مثله فقلتُ ولم أخفِ أن أتقدماً
وفال :

يقول لي الأميرُ بغير نُفجٍ : تقدّم حين جدّ بنا المراسُ
ومالي إن أظعنك من حياةٍ ومالي بعد هذا الراس رأسُ
وقيل لجبان : لم لا تُقاتل ؟ فقال : عند النّطاح يُغلبُ الكبشُ الأجمُ
« الأجمُ : الذي لا قرَن له ، وهذا مثلُ يُضرب لمن غلبه صاحبه بما أعدَّ له »
وقالوا : الشُّجاع مُلقًى والجبانُ مُوقًى ، وقال البديع الهمداني :
ماذا قَهما كالشُّجاع ولا خلا بمسرةٍ كالعاجِزِ المتواني
وهرب سليمان بن عبد الملك من الطاعون ف قيل له : قُلْ لَنْ ينفَعَكُم
الفرارُ إن فررتم من الموت أو القتلِ وإذا لا تُتمتعون إلا قليلاً . فقال
ذلك القليلُ تُريد .

هارب يعتذر عن هربه

بأنه نبوة أو قدر

قال زُفر بن الحارث وقد فرَّ يوم مَرَج راهط عن رفيقه :
أينذهبُ يومٌ واحدٌ إن أسأتهُ بصالحِ أيتامى وحُسينِ بِلانِيا
فلمْ تُرَ مني زَلَّةٌ قبلَ هذه فرارى وترمى صاحبيَّ ورأيا
وقديماً قال عمرو بنُ معديكرب — وكان قد فرّ من بني عَبَس :
وليس يُعابُ المرءُ من جُبْنِ يومه إذا عرِفَتْ منه الشجاعة بالأمس
وقد تقدّم قول الشاعر الجبان :

قَامَتْ تُشَجِّعُنِي هِنْدُ فَقُلْتُ لَهَا : إِنَّ الشَّجَاعَةَ مَقْرُونٌ بِهَا الْعَطْبُ
 لَا وَالَّذِي مَنَعَ الْأَبْصَارَ رُؤْيَاهُ مَا يَشْتَهِي الْمَوْتُ عِنْدِي مَنْ لَهُ أَرْبُ
 لِلْحَرْبِ قَوْمٌ أَضَلَّ اللَّهُ سَبِيلَهُمْ إِذَا دَعَتْهُمْ إِلَى نِيرَانِهَا وَتَبَّوْا
 وَلَسْتُ مِنْهُمْ وَلَا أَهْوَى فِعَالَهُمْ لَا الْقَتْلُ يُعْجِبُنِي مِنْهَا وَلَا السَّلْبُ
 وَجَاءَ فِي كَلِيلَةِ دِمْنَةٍ : إِنْ الْحَازِمَ يَكْرَهُ الْقِتَالَ مَا وَجَدَ بُدًّا مِنْهُ ،
 لِأَنَّ النَّفَقَةَ فِيهِ مِنَ الْإِنْفُسِ وَالنَّفَقَةَ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْمَالِ . وَفِي هَذَا الْمَعْنَى
 يَقُولُ أَبُو تَمَّامٍ :

كَمْ بَيْنَ قَوْمٍ إِنَّمَا نَفَقَاتُهُمْ مَالٌ وَقَوْمٍ يُنْفِقُونَ أَنْفُسَهُمْ

المتخلف عن قومه

قَالُوا : الشُّجَاعُ يُقَاتِلُ مَنْ لَا يَعْرِفُهُ ، وَالْجَبَانُ يَفِرُّ مِنْ عَرِسِهِ ، وَالْجَوَادُ
 يُعْطَى مَنْ لَا يَسْأَلُهُ ، وَالْبَخِيلُ يَمْنَعُ مِنْ نَفْسِهِ . وَقَالَ الشَّاعِرُ :
 يَفِرُّ جَبَانُ الْقَوْمِ عَنْ أُمَّ نَفْسِهِ وَيَحْمِي شُجَاعُ الْقَوْمِ مَنْ لَا يُنَاسِبُهُ
 وَيُرْزَقُ مَعْرُوفُ الْجَوَادِ عَدُوَّهُ وَيُجْرَمُ مَعْرُوفُ الْبَخِيلِ أَقَارِبُهُ
 وَقَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُعْصِرُ الْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ حِينَ
 فَرَّ يَوْمَ بَدْرٍ :

إِنْ كُنْتُ كَاذِبَةً الَّذِي حَدَّثَنِي فَنَجَوْتُ مَنْجَى الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ
 تَرَكْتُ الْأَرْحَبَةَ أَنْ يُقَاتِلَ دُونَهُمْ وَنَجَا بِرَأْسِ طَيْرَةٍ وَلِجَامٍ
 مَلَأَتْ بِهِ الْفَرَجَيْنِ فَأَرَمَدَتْ بِهِ وَثَوَى أَرْحَبُهُ بِشَرِّ مَقَامٍ
 « الطَّمْرَةُ : الْفَرَسُ الْكَثِيرُ الْجَرَى ، وَالْفَرَجَانِ : مَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَرِجْلَيْهَا
 وَمَلَأْنَاهُمَا : مَلَأْتُهُمَا جَرِيًّا . وَارَمَدَتْ : أَسْرَعَتْ ، وَثَوَى : أَقَامَ »

وقال أبو تمام من قصيدة يمدح بها المعتصم ويذكر هزيمة بابك
الخرمى :

ونجا ابنُ خاتنة البعولة لو نجا بمهففهف الكشحن والآطال
ترك الاحبة سالياً لا ناسياً عذرُ النسيّ خلافُ عذر السالى
« خاتنة البعولة : كناية عن الزانية ، والكشحن : جانب البطان من
ظاهر وباطن ، والمهففهف : الضامر الدقيق ، والآطال جمع إطّل وإطّل كإبل
ولأبل : الحاصرة ، والنسيّ : الناسي ،

من نجا وقد استولى عليه الخوف

قال أبو تمام من قصيدة يمدح بها أبا دؤف ويذكر هزيمة بابك
الخرمى كذلك :

ظَلَّ القَا يَسْتَقِي من صَفِّهِ مُهَجَّجًا إِمَّا تِمَادًا وإِمَّا ثَرَّةً خُسُفًا
مِنْ مُشْرِقِ دَمِهِ فِي وَجْهِهِ بَطْلٌ وواهِلٍ دَمُهُ لِلرَّعْبِ قَدْ نَزَفَا
فَذاكَ قَدْ سَقَيْتَ مِنْهُ القَنَا جُرْعًا وَذاكَ قَدْ سَقَيْتَ مِنْهُ القَنَا نُظْفَا
« من صَفِّهِ : من صف بابك ، والمهج جمع هجة : دم القلب ، والتماد :
الماء القليل ، والثرة : من قولهم : عينٌ ثرة : كثيرة الماء ، والخُف
جمع خَسِيف وخسوف : البئر لا ينقطع ماؤها ، والواهل : الخائف جداً ،
ونزف : ذهب دمه ، وبطل إمّا قرأته بالرفع على أن دمه مبتدأ وبطل خبر
ولك أن تقرأه بالخفض على أنه مردود إلى مُشرق ويكون دمه فاعل مُشرق
وقوله : فذاكَ ... أليت أراد أبو تمام أن يقول : البطل الذى دمه فى
وجهه سَقَيْتَ الرماح منه جُرْعًا ، أى كثيراً ، والجبان الذى طار دمه من

الفرع سقيت منه نطفاً أى قليلاً، وقد يدير عن الكثير بالنطفة فيكون :
الاولُ مراداً به الجبان والثاني مراداً به البطل ،

وقيل لرجل تعرض له الأسد فأفلت منه : كيف حالك ؟ قال
سَلَيْتُ غير أن الأسد خراً في سراويلي ...
وقالت امرأة من بنى المهلب :

فإن ثَبُتُوا فَعُمُرُهُمْ قَصِيرٌ وإن هَرَبُوا فَوَيْلُهُمْ طَوِيلٌ

تسليّة المنهزم

قال المتنبي يعتذر عن سيف الدولة في هزيمة وقعت لجماعة من جيشه
قُلْ لِلدُّمُسْتَقِ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ لَكُمْ خَانُوا الْأَمِيرَ فْجَازَاهُمْ بِمَا صَنَعُوا
وَجَدْتُمُوهُمْ نِيَامًا فِي دِمَائِكُمْ كَأَن تَتْلَاكُمْ إِيَّاهُمْ فَتَجَمَعُوا
لَا تَحْسَبُوا مَن أَسْرُتُمْ كَانَ ذَا رَمَقٍ

فليس يأكل إلا الميت الضبُعُ

وإنما عرض الله الجُودَ بِكُمْ لَكِنِّي يَكُونُوا بِلَا قَسَلٍ إِذَا رَجَعُوا
فَكُلُّ غَزْوٍ إِلَيْكُمْ بَعْدَ ذَا فَلَهُ وَكُلُّ غَازٍ لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ التَّبَعُ

و الدمستق : قائد جيش الروم ؛ و : المسلمون — بفتح السلام — :

الذين أسلَهُم سيف الدولة للعدو لتخاذلهم عنه ، وقوله : وجدتموهم ... ألبيت
هو بيان لما صنعوا ، وقوله : في دمائكم : أى في دماء قتلاكم وذلك أنهم
تخلَّلوا قتلى الروم فلتطخوا بدمائهم ، وألقوا أنفسهم بينهم تشبها بهم خوفاً
من الروم ، ثم قال : كأنهم كانوا مفجوعين بقتلاكم فهم فيما بينهم يتوجعون
لهم . وقوله : لا تحسبوا من أسرتهم ... ألبيت ، يقول : ليس لكم أن تفخروا

بهؤلاء الذين أسرتهم ولا تظنّوهم كان فيهم رَمَقٌ — بقيّة حياة — وإنما هم أموات، من الجبن والخوف، وأنتم إِيخْسَيْتُمْ ودناءة نفوسكم لا تقدرون إلا على أمثالهم، كما أن الضبُع لا تفترس إلا الجثث الميتة. وقوله: وإنما عَرَّضَ الله... ألبت يقول: إنما خذل الله هؤلاء الجنود وجعلهم لكم عرضة ليظهر الله عسكر سيف الدولة من أمثالهم فيعود إليكم بجنود أبطال ليس فيهم فسلٌ ولا نذل. وقوله: فكل غزو إليكم... ألبت يقول فكل غزوة إليكم بعد اليوم تكون له لا عليه لأن الأدنياء من جنوده قد أسروا ولم يبق إلا المختارون من الأخيار، وكل غاز تبع له لأنه سيّد الغزاة..

ولما انهزم بعض القوَاد دخلَ عليه بعض الأفاضل فقال: الحمد لله الذي نظر لنا عليك ولم ينظر لك علينا، فقد تقدّمت للشهادة بجَهْدِكَ ولكن عَلمَ الله حاجتنا إليك فأبقاك لنا.

صدر من عبقرياتهم في الجبن

قال سبحانه وتعالى: يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوّ... وقالت عائشة رضي الله عنها: إن الله خلقاً قلوبهم كقلوب الطير، كلما خَفَقَتِ الرِّيحُ خَفَقَتْ معها، فأق للجبناء، أق للجبناء. وما قيل في الجبن من الشعر القديم قول القائل: ولو أنها عصفورة لحسبتّها مُسَوِّمةً تدعو عبيداً وأرثما يقول لورأيت عصفورة لحسبتّها من جُبْنِكَ خيلاً مُسَوِّمةً؛ وعبيد وأرثم: قبيلتان،

ومثله قول عروة بن الورد :

وَأَشْجَعُ قَدْ أَدْرَكْتُهُمْ فَوَجَدْتُهُمْ يخافونَ خُطْفَ الطير من كلِّ جانبٍ

وقال الآخر :

مَلَزْتُ تَحَسُّبَ كُلِّ شَيْءٍ بَعْدَهُمْ خَيْلاً تَتَكَبَّرُ عَلَيْهِمْ وَرِجَالاً

وقال ابن الرومي :

وَفَارِسُ أَجْبَنَ مِنْ صِفْرِدٍ يَحُولُ أَوْ يَغُورُ مِنْ صَفْرَةٍ

لَوْ صَاحَ فِي اللَّيْلِ بِهَ صَاحٌ لَكَانَتِ الْأَرْضُ لَهُ طَافِرَةً

بِرَحْمَةِ الرَّحْمَنِ مِنْ جُبَيْنِهِ فَيَرْزُقُ الْجُنْدَ بِهِ النُّصْرَةَ

« الصَّفْرِدُ : طائر جبان يقال له : أبو المليح ،

وقال أبو تمام :

حَيْرَانٌ يَحْسَبُ يَحْفَ النَّقْعَ مِنْ دَهْشِ

طَوْدًا يُحَاذِرُ أَنْ يَنْقُضَ أَوْ جُرْفًا

« السجف : الستر ، والنقع : غبار الحرب ، والطود : الجبل ، والجرف :

جانب الجبل الأملس ،

وقال دِعْبَل :

كَأَنَّ نَفْسَهُ مِنْ طُولِ حَيْرَتِهَا مِنْهَا عَلَى نَفْسِهِ يَوْمَ الْوَعَى رَصْدُ

وَأَتَى الْحِجَاجُ بِرَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ ابْنِ الْأَشْعَثِ ، فَقَالَ لِلْحِجَاجِ : أَسْأَلُكَ

أَنْ تَقْتُلَنِي وَتُخَلِّصَنِي ، فَقَالَ لَهُ الْحِجَاجُ : لِمَ ؟ فَقَالَ : إِنِّي أَرَى كُلَّ لَيْلَةٍ

فِي الْمَنَامِ أَنَّكَ تَقْتُلَنِي ، وَتَقْتُلُهُ وَاحِدَةً خَيْرٌ ، فَضَحِكَ وَخَلَّى سَبِيلَهُ .

من يظهر الشجاعة خارج الحرب

ويجبن فيها

قالوا : فلان يتشعلب في الهيجاء ويتنمر في الرخاء .

وقال دِغبل :

أسود إذا ما كان يوم كرهية ولكنهم يوم اللقاء ثعالب

وقال :

عير رأى أسد العرين فراعهُ حتى إذا ولي تولى ينهئ

وقل آخر :

يفر بحيث تختلف العوالى وإن يأمن فذر كبروتيه

عقريات شتى

في الشجاعة والحرب

قالوا : أحسن ما قيل في وصف الحرب والمتحاربين قول الأول :

كان الأفق محفوف بنارٍ وتحت النار أسادٌ زبر^(١)

ومما يتصل بذلك ما قيل في ليالى صفين :

الليل داج والكباش تنشطح نطاح أسد ما أراها تضطلح

فمن يقا تل في وغاها مانجا ومن نجا برأسه فقد ربح^(٢)

(١) تصيح غضباً. وأصله مهموز من زار الأسد يزير وبزار : صاح وغضب

(٢) في أمثال الميداني : قال أبو عبيد : وهذا الشعر أراه قيل في ليالى صفين ثم

وكان يزيد بن عمر بن هبيرة والى العراقين من قبل بنى أمية لا يمد نصر بن سيار والى خراسان من قبله بالرجال ، ولا يرفع ما يرد عليه من أخبار خراسان إلى مروان بن محمد آخر الدولة الأموية ، فلما كثر ذلك على نصر كتب إليه كتاباً وفيه هذه الآيات :

أرى خَلَالَ الرَّمَادِ وميضَ جَمْرٍ ويوشكُ أن يكونَ له ضِرامٌ ^(١)
فإنَّ النَّارَ بالعودينِ تُذَكِّي وإنَّ الحربَ أولها الكلامُ ^(٢)
فإن لم يُطفئها عِقلُاءُ قومٍ يكونَ وفودُها جُبثٌ وهامٌ
فقلتُ مِنَ التَّعْجِيبِ لَيْتَ شِعْرِي أأيقاظُ أُمِّيَّةٌ أَمْ نِيَامٌ
• قوله : وإنَّ الحربَ أولها الكلامُ نحوه قول بعضهم : إنَّ الفِتْنَةَ تُلقَحُ
بالنَّجْوَى وتُنتِجُ بالشَّكْوَى ...

وعما قيل في كثرة الجيش من قديم الشعر قول الأَخْلَسِ بن شهاب التَّغْلِبِيِّ وهو عن حضر حرب البسوس :

يَجْأَوَاءُ يَنْفِي وَرُدُّهَا سَرَعَانَهَا كأنَّ وميضَ البرقِ فيها كواكِبُ
« الجأواء : الكتيبة يضرب لونها إلى السُّكُفَةِ — اللونُ السُّكُورُ —
وذلك من صدأ الحديد ، والسَّرعان : الأوائِلُ ، يقول : إن الميأة لا تسهم
والأماكن تضيق بهم فكلما نزلت فرقة منهم راحل من تقدَّهم ،
وقولُ أُوَيْسِ بن حجر :

قال : وقوله « ومن نجا برأسه فقد ربح »
هو مثل يضرب في إبطاء الحاجة وتعذرها حتى يرضى صاحبها بالسلامة منها .

(١) خلل الرماد : خلاله

(٢) تذكي : تلهب وتضرم

ترى الأرض منا بالفضاء مريضة

معضلة منا بجمع عزم

« عضلت الأرض بأهلها : إذا ضاقت بهم لكثرتهم ، وعضلت المرأة بولدها تعضلا : إذا تشب الولد بفرج بعضه ولم يخرج بعضه فبقى معترضا ، وقال أبو نواس :

أمام تخمس أذجوان كأنه قميص يحوك من قنأ وجياد
« الأذجوان : الأسود ، واشتقاقه من الذجي ، ويروى : أرجوان ، وهو : الأحمر .

وقال ابن الرومي :

فلو حسبتهم بالفضاء سخابة لظل عليهم حصبها يتدحرج
وهو من قول قيس بن الخطيم :

لو أنك تلقى حنظلا فوق يبيضا تدحرج عن ذى سامه المتقارب

« البيض جمع بيضة : الخوذة ، سميت بذلك لأنها على شكل بيضة النعام ، والحنظل ثمر يشبه البطيخ لكنه أصغر منه جداً ويضرب المثل بمرارته ، وقوله : عن ذى سامه ، أى على ذى سامه ، فمن فيه بمعنى على والهاء فى سامه يرجع إلى البيض الممّوه به ، أى البيض الممّوه بالسام ، والسام : عروق الذهب والنضة ، وهو هنا الطرائق المذهبة فى البيض ، قال الإمام ثعلب : معناه : أنهم تراشوا فى الحرب حتى لو وقع حنظل على رؤسهم على إملاسه واستواء أجزائه لم ينزل إلى الأرض ،

وقال أبو عمرو بن الملاء : أحسن ما قيل فى صفة الجيش قول النابغة :
إني لأخشى عليكم أن يكون لكم من أجل بفضائكم يوم كأيام

أَوْ تَزْجُرُوا مُكْفِهِراً لَا كِفَاءَ لَهُ كَاللَّيْلِ يَخْلُطُ أَصْرَاماً بِأَصْرَامٍ
تَبْدُو كَوَاكِبُهُ وَالشَّمْسُ طَالِمَةٌ نُوراً بِنُورٍ وَإِظْلَاماً بِإِظْلَامٍ
« أَوْ تَزْجُرُوا عَظَفَ عَلَى مَا قَبْلَهُ ، وَالْمُكْفِهِرُ : الْجَيْشُ الْعَظِيمُ ، وَلَا
كِفَاءَ لَهُ : لَا نَظِيرَ لَهُ ، وَيَخْلُطُ أَصْرَاماً بِأَصْرَامٍ إِمَّا جَعَلَتْهُ صِفَةُ اللَّيْلِ وَالْأَصْرَامُ
جَمْعُ صَرِيمٍ وَهُوَ اللَّيْلُ الْمَظْلَمُ فَيَكُونُ الْمَعْنَى يَخْلُطُ مُظْلَمًا بِمُظْلِمٍ ، وَإِمَّا جَعَلَتْهُ
صِفَةُ لِلْجَيْشِ قِيَمُ الْكَوْنِ الْمَدْنَى : يَخْلُطُ كُلَّ حَتَّى بِقَبِيئَتِهِ خَوْفاً مِنَ الْإِغَارَةِ عَلَيْهِ ،
وَقَوْلُهُ : تَبْدُو كَوَاكِبُهُ ... الْبَيْتُ يَرِيدُ : شِدَّةَ الْهَوْلِ وَالْكَرْبِ ، وَهَذَا كَمَا
تَقُولُ الْعَامَّةُ : أَرَيْتَهُ النُّجُومَ وَسُطَّ النَّهَارَ .

قال الفرزدق : * أَرَيْكَ نَجُومَ اللَّيْلِ وَالشَّمْسَ حَيَّةً *
وقال طرفة : * وَتُرَيْكَ النُّجُومَ يَجْرِي بِالْأَظْهَرِ *
وفي هذا المعنى يقول جرير :

وَالشَّمْسُ طَالِمَةٌ لَيْسَتْ بِكَاسِفَةٍ تَبْكِي عَلَيْكَ نَجُومَ اللَّيْلِ وَالْقَمَرَا
يقول : إِنَّ الشَّمْسَ طَالِمَةٌ وَلَيْسَتْ بِكَاسِفَةٍ نَجُومَ اللَّيْلِ ، لَشِدَّةِ الْغَمِّ
وَالْكَرْبِ الَّذِي فِيهِ النَّاسُ ، فَتَجَرَّمُ مَفْعُولٌ كَاسِفَةٌ ،

قالوا : وَأَحْسَنُ مِنْ قَوْلِ النَّابِغَةِ قَوْلُ زَيْدِ الْخَيْلِ :

بَنِي عَامِرٍ دَلَّ تَعْرِفُونَ إِذَا غَدَا أَبُو مَكْنَفٍ قَدْ شَدَّ عَقْدَ الدَّوَابِرِ
بِحَيْشٍ تَضِلُّ الْبُلُقُ فِي حَجَرَاتِهِ تَرَى الْأُكُمَ مِنْهُ سُجُوداً لِلْجَوَابِرِ
وَجَمْعُ كُنْثِلِ اللَّيْلِ مُرْتَجِسُ الْوَعَى كَثِيرٍ تَوَالِيهِ سَرِيعُ الْبَوَابِرِ
« قَوْلُهُ : قَدْ شَدَّ عَقْدَ الدَّوَابِرِ أَرَادَ : شَدَّ دَوَابِرَ الْبَيْضَةِ — أَيْ
مَآخِيزَهَا — بِالذَّرْعِ لَثَلًا تَسْقُطُ إِذَا رَكَضَ الْفَارَسُ : وَقَوْلُهُ : تَضِلُّ الْبُلُقُ
فِي حَجَرَاتِهِ لُحْجَرَاتِهِ : نَوَاحِيهِ جَمْعُ حَجَرَةٍ يَقُولُ لِكَثْرَتِهِ لَا يُرَى بِهِ إِلَّا بَلَقٌ

والأبلى مشهور المنظر لاختلاف لونه — السواد والبياض — وكان رؤساء العرب لا يركبون البلق في الحرب لئلا تنيم عليهم فيقصدوا بشره، وقوله : ترى الآكم منه سجداً للحرافر يقول : لكثرة الجيش يطحن الآكم حتى يلبصقها بالارض : * يدع الآكام كأنهن صحارى * وقوله : كمثل الليل يريد : ظلمة يكاد سواده لكثرتيه يسد الأفق ، والوغى : الأصوات ، والارتجاس : صوت الشيء المختلط العظيم كالجيش والرعد ، والتوالى : اللواحق ،

ومن بارع ما قيل في الكيد في الحرب قول أبي تمام :
هَزَزْتُ لَهُ سَيْفًا مِنَ الْكَيْدِ إِنَّمَا تُجَدُّ بِهِ الْأَعْنَاقُ مَا لَمْ يُجَرِّدِ
يَسْرَ الَّذِي يَسْطُو بِهِ وَهُوَ مُغَمَّدٌ وَيَفْضُحُ مَنْ يَسْطُو بِهِ غَيْرَ مُغَمَّدٍ
« يقول : إن أخفيت الكيد ظفرت وسررت ، وإن أظهرته افتضحت وخبت ، وقال يصف أفاعيل رُمح الممدوح في أعدائه :

أَنْهَبْتَ أَرْوَاحَهُ الْأَرْوَاحَ إِذْ سَرِعَتْ فَمَا تُرَدُّ لَرَيْبِ الدَّهْرِ عَنْهُ يَدُ (١)
كَأَنَّهُا وَهَى فِي الْأَوْدَاجِ وَالْغَيْةُ وَفِي السُّكْلِ تَجِدُ الْغَيْظَ الَّذِي تَجِدُ
مِنْ كُلِّ أَرْزَقٍ نَظَارَ بِلَا نَظَرٍ إِلَى الْمَقَاتِلِ مَا فِي مَتْنِهِ أَوْدُ (٢)
كَأَنَّهُ كَانَ خِدْنُ الْحُبِّ مُذْ زَمَنِ فَلَيْسَ يُعْجِزُهُ فَلَبٌ وَلَا كَيْدُ

(١) أرواحه : أرواح بابك الخرمي ومن معه ، وقوله فما ترد الدهر عنه يد : إن الخرمي يعد هذه الواقعة وما نزل به من أفاعيلك ستؤلى عليه نوب الدهر فلا ترد يد لريب الدهر عنه (٢) أود : اعوجاج

ماغزى قوم قط فى عقر دارهم

إلا ذلّوا

ومن خطبة لعل بن أبى طالب رضى الله عنه وقد انتهى إليه : ^(١)
 أن خيلاً لمعاوية ^(٢) وردت الأنبار فقتلوا عاملاً له يُسمى حسان بن
 حسان ، فخرج مُغَضَّباً يُحَرِّثُ ثوبه حتى أتى الخيلة ^(٣) ، واتبعه الناس فرقى رُبارة من
 الأرض ^(٤) فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ثم
 قال : «أما بعد ، فإن الجها بابٌ من أبواب الجنة ، فمن تركه رَغْبَةً عنه أَلْبَسَهُ
 اللهُ الذِّلَّ ، ورَسِمَ الخَسْفَ ، ودُيِّثَ بالصَّغار ، وقد دعوتكم إلى حَرْبِ
 هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً وسراً وإعلاناً وقلتُ لكم : أغزَوْهم من قبل أن
 يغزَوْكم فوالذى نفسى بيده : ماغزَى قومٌ قَطُّ فى عَقْرِ دارهم إلا ذلّوا ، فتخاذلتم
 وتراكلتم ونقلَ عليكم قولى واتخذتموه وراءكم ظهيراً ، حتى شُدَّتْ عليكم
 الغارات ، هذا أخو غامد قد وردت خيلُه الأنبارَ وقتلوا حسان بن
 حسان ورجالا منهم كثيراً ونساءً ، والذى نفسى بيده : لقد بَلَغنى أنه كان
 يُدْخِلُ على المرأة المسلمة والمعاودة ^(٥) فتُنَزَّعُ أحجأهُما ورُعُهُما ثم أنصرفوا

(١) أنهماء إليه عاج من الأنبار ، وكان على يومئذ بالكوفة وقد تفرقت أصحابه
 عنه بعد حرب صفين وحكومة الحكيم (٢) بروى أنه وجه سفيان بن عوف
 ابن المغفل الغامدى فى ستة آلاف وأمره أن ينحدر إلى هيت ، ثم إلى الأنبار ،
 فيوقع بأهلها فقتل من أصحاب على حسان عامله عليها وثلاثين رجلاً واحتمل ما فيها
 من الأموال ؛ وهيت - بكسر الهاء - بلد على شاطئ الفرات ، والأنبار : مدينة
 بالعراق كذلك على شاطئ الفرات غربى بغداد بينهما عشرة فراسخ

(٣) اسم موضع خارج الكوفة (٤) اسم لكل مرتفع من الأرض كالربوة

(٥) المرأة الذمية ذات العهد

مؤثورين لم يُكَلِّمْ مِنْهُمْ أَحَدًا كَلَمًا ، فلو أَنَّ امْرَأً مُسْلِمًا مات من دون
هذا أَسْفًا مَا كَانَ فِيهِ مَلُومًا بَلْ كَانَ بِهِ عِنْدِي جَدِيرًا . يَعْجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ ،
عَجَبٌ يُبْسِتُ الْقَلْبَ وَيَشْغَلُ الْفَهْمَ وَيُكْثِرُ الْأَحْزَانَ ، مَنْ تَضَافَرِ هَؤُلَاءِ
الْقَوْمَ عَلَى بَاطِلِهِمْ وَفَسَلِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ حَتَّى صَبَحْتُمْ غَرَضًا تَرْثُونَ وَلَا تَرْمُونَ ،
وَبُغَارُ عَلَيْكُمْ وَلَا تُغَيِّرُونَ ، وَيُعَصِّى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيكُمْ وَلَا تَرْضَوْنَ ، إِذَا
قُلْتُ لَكُمْ : اغْزَوْهُمْ فِي الشِّتَاءِ قُلْتُمْ : هَذَا أَوْ أَوْ قُرُوصٍ ، وَإِنْ قُلْتُ لَكُمْ :
اغْزَوْهُمْ فِي الصَّيْفِ قُلْتُمْ : هَذِهِ سَمَارَةُ الْقَيْظِ أَنْظِرْنَا يَنْصَرِمُ الْحَرُّ عَنَا ،
فَإِذَا كُنْتُمْ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ تَفِرُّونَ فَأَنْتُمْ وَاللَّهُ مِنَ السَّيْفِ أَفْرُ : يَا أَشْبَاهَ
الرِّجَالِ وَلَا رِجَالٍ ، وَيَا طِفْءَ الْأَحْلَامِ ، وَيَا عُقُولَ رَبَاتِ الْحِجَالِ ، وَاللَّهُ
لَقَدْ أَفْسَدْتُمْ عَلَى رَأْيِي بِالْعِصْيَانِ ، وَلَقَدْ مَلَأْتُمْ جَوْفِي غَيْظًا ، حَتَّى قَالَتْ
قَرِيشُ : ابْنُ أَبِي طَالِبٍ رَجُلٌ شُجَاعٌ وَابْنُ لَارَأَى لَهُ فِي الْحَرْبِ اللَّهُ
دَرْتُهُمْ ، وَمَنْ ذَا يَكُونُ أَعْلَمَ بِهَا مِنِّي أَوْ أَشَدَّ لَهَا مِرَاسًا ! فَوَاللَّهِ لَقَدْ
نَهَضْتُ فِيهَا وَمَا بَلَغْتُ الْعِشْرِينَ : وَلَقَدْ نَيْفْتُ الْيَوْمَ عَلَى السَّيِّئِينَ وَلَكِنْ
لَارَأَى لِمَنْ لَا يُطَاعُ ... « وَإِلَيْكَ شَرَحَ بَعْضُ أَلْفَاظِ هَذِهِ الْخُطْبَةِ الْخَالِدَةِ ،
قَوْلُهُ : وَسَمِيَ الْخُسْفَ مَعْنَاهُ : كُفِّ وَأُلْزِمَ وَجُسِّمَ قَالَ تَعَالَى : يُسَوِّمُونَكُمْ
سُوءَ الْعَذَابِ . أَيْ يُجَسِّمُونَكُمْ أَشَدَّ الْعَذَابِ ، فَسَمِيَ : كُفِّ وَأُلْزِمَ ، وَالْخُسْفُ :
الذِّلُّ وَالْهُوَانُ ، وَأَصْلُهُ أَنْ تُحْبَسَ الدَّابَّةُ عَلَى غَيْرِ عِلْفٍ ثُمَّ اسْتَعِيرَ فَوْضَعُ
مَوْضِعِ الْهُوَانِ : وَدِيثٌ : ذُلٌّ . وَمِنْهُ اسْتِثْقَاكُ الدَّيُّوتِ وَهُوَ :
الرَّجُلُ الَّذِي لَا غَيْرَةَ لَهُ . وَقَوْلُهُ : فِي عُقْرِ دَارِهِمْ : أَيْ فِي أَصْلِ دَارِهِمْ ،
وَالْعُقْرُ : أَصْلُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَمِنْ ثَمَّ قِيلَ . لِفُلَانٍ عَقَارٌ : أَيْ أَصْلُ مَالٍ يَعْتَمِدُ
عَلَيْهِ مِنْ مَنْزِلٍ وَضَيْعَةٍ وَنَحِيلٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ . وَقَوْلُهُ : وَتَوَاكَلْتُمْ يَقَالُ : وَكَلَّتْ

الامر إليك ورَكَنته أنت إلى : أى لم يَقُولْهُ واحد منا دون صاحبه
ولكن أحال به كلُّ واحد منا على الآخر : وقوله : وانخذتموه وراءكم
ظَهْرِيًّا : أى رَمَيْتُمْ به وراء ظهوركم ، أى لم تلتفتُوا إليه ، ويقال فى المثل :
لا تَجْعَلْ حاجتي منك بِظَهْر : أى لا تَطْرَحْهَا غَيْرَ نَازِلٍ إِلَيْهَا ، وقوله : حتى
سُدَّتْ عَلَيْكُمُ الْغَارَاتُ : أى صُبَّتْ وَبُذَّتْ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ وَجْهِ . وقوله :
فَتَنْزِعُ أَحْبَابَهُمَا يَعْنِي : الْخَلَائِلَ وَاحِدَهُمَا حِجْل . وَالرُّعْثُ : جَمْعُ رَعَاثٍ
جَمْعُ رَعْنَةٍ وَالرَّعْنَةُ : الشَّنْفُ أَيْ الْقُرْطُ الَّذِي يَوْضَعُ فِي الْأُذُنِ ؛ وَقَوْلُهُ :
وَانصَرَفُوا مَوْفُورِينَ أَيْ : لَمْ يُرْزَوْا ، أَيْ لَمْ يُصَابُوا وَلَمْ يُنَلَّ أَحَدٌ مِنْهُمْ
فِي بَدَنِهِ وَلَا مَالِهِ . وَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَيْ لَمْ يُخَاطَبْ أَحَدٌ مِنْهُمْ خَدِشًا .
وَكُلُّ جُرْحٍ صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ فَهُوَ كَلَمٌ . وَقَوْلُهُ : مَاتَ مِنْ دُونِ هَذَا أَسْفًا يَرِيدُ :
تَحْسَرًا . وَقَوْلُهُ : مَنْ تَصَافَرُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ عَلَى بَاطِلِهِمْ أَيْ : مَنْ تَعَاوَنَهُمْ
وَتَظَاهَرَهُمْ . وَيُقَالُ : قَتَلَ فُلَانٌ عَنْ كَذَا : إِذَا هَابَهُ جُبْنًا وَفَزَعًا فَأَحْجَمَ
عَنْهُ وَامْتَنَعَ مِنَ الْمُضِيِّ فِيهِ . وَالْقَرَّ — بَضْمُ الْقَافِ — الْبَرْدُ أَمَّا الْقَرَّ
— بِالْفَتْحِ — فَهُوَ الْيَوْمُ الْبَارِدُ . وَالصَّرَّ — بِكسْرِ الصَّادِ — شِدَّةُ الْبَرْدِ
قَالَ تَعَالَى : كَذُلِّ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ . وَالْقَيْظُ : الصَّيْفُ ، وَحَمَارَتُهُ : اشْتِدَادُ حَرِّهِ
وَاحْتِدَامُهُ . وَالطَّغَامُ : مَنْ لَا عَقْلَ لَهُ وَلَا مَعْرِفَةَ عِنْدَهُ . وَقَوْلُهُ : وَيَاعَقُولُ
رَبَّاتِ الْحِجَالِ : فَالْحِجَالُ جَمْعُ الْحَجَلَةِ وَهِيَ كَالْقُبَّةِ وَيَدُوتُ لِلْعُرُوسِ يُزَيْنُ بِالثِّيَابِ
وَالشُّتُورِ ، يَنْسُبُهُنَّ إِلَى ضَعْفِ النِّسَاءِ ،



وَمِنْ رَائِعِ الشُّعْرِ الْقَدِيمِ فِي بَابِ الْحَثِّ عَلَى الْإِقْدَامِ وَالذَّوْدِ عَنِ الذَّمِّارِ
وَوَصْفِ الْإِبْطَالِ وَالْمُتَخَاذِلِينَ الْمُتَبَاطِلِينَ قَوْلُ شَاعِرٍ مِنْ بَنِي الْعَنْبَرِ اسْمُهُ

قُرَيْطُ بْنُ أُنَيْفٍ — شاعر إسلامي — وكان ناس من بني شيبان قد أغاروا عليه فأخذوا له ثلاثين بعيراً فاستنجد قومه فلم يُنجدوه فأتى مازن تميم فركب معه نفرٌ فأطردوا لبني شيبان مائة بعير فدفعوها إليه فقال هذه الآيات التي افتتح بها أبو تمام حماسه :

لو كنتُ من مازنٍ لم تستبجِ إِبِلِي	بنو الشَّقيقة من ذُهَلِ بنِ شيبانا
إذا لَقَامَ بَنَصْرِي مَعَشَرُ خُشْنٍ	عند الحَفِيطَةِ إِنْ ذُو لُوثَةٍ لَنَا
قَوْمٌ إِذَا الشَّرُّ أَبْدَى نَاجِدِيهِ لَهْمٌ	طَارُوا إِلَيْهِ زَرَافَاتٍ وَوَحْدَانَا
لَا يَسْأَلُونَ أَهَامَ حِينَ يَنْدُبُهُمْ	فِي النَّائِبَاتِ عَلَى مَا قَالَتْ بُرْهَانَا
لَكِنَّ قَوْمِي وَإِنْ كَانُوا ذَوِي عَدَدٍ	لِيسُوا مِنَ الشَّرِّ فِي شَيْءٍ وَإِنْ هَانَا
يَحْزُونَ مِنْ ظُلْمِ أَهْلِ الظُّلْمِ مَغْفَرَةً	وَمِنْ إِسَاءَةِ أَهْلِ السُّوءِ إِحْسَانَا
كَانَ رَبُّكَ لَمْ يَخْلُقْ لِحَشِيَّتِهِ	سِوَاهُمْ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ إِنْسَانَا
فَأَيَّتَ لِي بِهِمْ قَوْمًا إِذَا رَكِبُوا	شَنُّوا الْإِغَارَةَ فُرْسَانًا وَرُكْبَانَا

« بنو الشقيقة هي الرواية الصحيحة وإن كانت رواية شراح الحماسة : بنو اللقيطة ، والشقيقة : امرأة من بني ذهل بن شيبان ، وبنوها كانوا سيارة مَرَدَّةً ليس يأتون على شيء إلا أفسدوه ، وأما اللقيطة فهي امرأة من فزارة ، هكذا زعم أبو محمد الأعرابي . والاستباحة : في معنى الإباحة وهي شبه النهي ، استباحه : انتهبه حتى لكانه مباح لا تبعه عليه فيه ، وخشن جمع أخشن وهو من صفات الرجال مثل يُراد به امتناع الجانب وإباء الضم . ورجل ذو لؤثة : بطيء متمكث ذو ضعف واسترخاء ، يقول : لولم أكن من بني العنبر وكنت من بني مازن ثم نالني من بني الشقيقة مانالني من استباحتهم إيلي لكان لي منهم مَن يَنْصُرُنِي عليهم ويأخذ بحقي أفتساراً منهم »

إذا لَانَ ذُو الضَّعْفِ وَالْوَهْنِ فَلَمْ يَدْفَعْ ضِيًّا وَلَمْ يَحْمِ حَقِيقَةً ، وَمُرَادُ الشَّاعِرِ تَهْيِيجُ قَوْمِهِ عَلَى الْإِتْقَامِ لَهُ مِنْ أَعْدَائِهِ لِأَيِّ ذَمِّهِمْ ، وَالْحَفِيزَةُ : الْغَضَبُ وَالْحِمَاةُ وَالْمَنْعُ لِلشَّيْءِ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُحَافِظَ عَلَيْهِ . وَقَوْلُهُ : قَوْمٌ إِذَا الشَّرُّ أَبْدَى نَاجِذِيهِ لَهُمْ فَأَبْدَاءُ الشَّرِّ تَوَاجِذُهُ مِثْلُ لَشِدَّتِهِ وَصَوْلَتِهِ ، وَذَلِكَ أَنَّ السُّبْعَ إِذَا صَالَ أَوْ شَدَّ كَشَرَ عَنْ أَنْيَابِهِ ، فَشَبَّهَ الشَّرَّ بِهِ فِي حَالِ شِدَّتِهِ ، وَطَارَوْا إِلَيْهِ يَرِيدُ : أَسْرَعُوا إِلَيْهِ ، وَوُحْدَانَا جَمْعُ وَاحِدٍ كَرَكَبٍ وَرُكْبَانٍ ، وَالزَّرَافَاتُ : الْجَمَاعَاتُ ، يَقُولُ فِي هَذَا الْبَيْتِ . لَأَنَّهُمْ لِحَرْصِهِمْ عَلَى الْقِتَالِ وَحُبِّهِمْ إِيَّاهُ لَا يَلْتَمِظُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، لِأَنَّ كَلًّا مِنْهُمْ يَعْتَقِدُ أَنَّ الْإِجَابَةَ تَعَيَّنَتْ عَلَيْهِ ، فَإِذَا سَمِعُوا بِذِكْرِ الْحَرْبِ أَسْرَعُوا إِلَيْهَا مُجْتَمِعِينَ وَمُتَفَرِّقِينَ ؛ وَمِثْلُهُ قَوْلُ حُمَيْدِ بْنِ ثَوْرٍ الْهَلَالِيُّ الصَّحَابِيُّ :

قَوْمٌ إِذَا هَتَفَ الصَّرِيخُ رَأَيْتُهُمْ مَا بَيْنَ مُلْحِمٍ مُهْرَةٍ أَوْ سَافِعٍ^(١)
 وَقَوْلُهُ : لَا يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ... أَلَيْتَ يَقُولُ : إِذَا دُعُوا إِلَى الْحَرْبِ أَسْرَعُوا
 إِلَيْهَا غَيْرَ سَائِلِينَ مَن دَعَاهُمْ لَهَا ، وَلَا بَاحِثِينَ عَنْ سَبَبِهَا ، لِأَنَّ الْجَبَانَ رُبَّمَا
 تَعْلَلُ بِذَلِكَ فِتْبَاطًا عَنِ الْحَرْبِ . وَنَحْوُهُ قَوْلُ سَلَامَةَ بْنِ جَنْدَلٍ :
 إِنَّا إِذَا مَا أَتَانَا صَارِخٌ فَرِغَ كَانَ الصَّرَاخُ لَهُ قَرَعُ الظَّنَائِبِ
 « يَقُولُ سَلَامَةُ : إِذَا دَعَانَا إِلَى إِعَانَتِهِ أَجْبَنَاهُ إِلَيْهَا مُجِدِّينَ ، وَالظَّنُوبُ :
 عَظْمُ السَّاقِ ، يَقَالُ : قَرَعَ لِهَذَا الْأَمْرِ ظُنُوبُهُ : إِذَا جَدَّ فِيهِ »

(١) هتف : صاح وبرى نفع : أى ارتفع والصريح : الصباح أو بمعنى الصارخ وبرى
 إذا سمعوا الصريح . وسافع : أخذ بناصية فرسه ، من قوله تعالى : لنسفعا بالناصية ،
 يقول : هم قوم إذا ارتفع الصباح للحرب أسرعوا إليه فترام دائرين بين ملحم مهرة
 وقابض بناصية مهرة يجذبه إليه بسرعة .

وقوله : لَكِنَّ قَوْمِي وَإِنْ كَانُوا ذَرِيَّ عَدَد ... أَلَيْتَ وَصَفَ قَوْمَهُ
بأنهم يُؤْثِرُونَ السَّلامَةَ والتَّعَفُّوْا عَنِ الْجُنَاةِ ما وَجَدُوا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا ، وَلَوْ
أَرَادُوا الْإِنْتِقَامَ لَقَدَّرُوا بَعْدَهُمْ وَعُدَّوْهُمْ . هَذَا إِذَا كَانَ الشَّاعِرُ لَا يُرِيدُ كَمَا
قُلْنَا هِجَاءَ قَوْمِهِ وَإِنَّمَا يُرِيدُ حَشَمَهُمْ عَلَى الْإِنْتِقَامِ ، أَمَّا إِذَا كَانَ يُرِيدُ ذَمَّهُمْ
فَإِنَّهُ يَهْجُوهُمْ وَيُعَيِّرُهُمْ بِالْجُنْبِ فِي هَذَا الْبَيْتِ . وَقَوْلُهُ : كَأَنَّ رَبَّكَ ... الْبَيْتِ
تَهْكُمُ مِنْهُ وَسُخْرِيَّةٌ . وَمَعْنَى قَوْلِهِ : فُرْسَانًا وَرُكْبَانًا : أَنَّهُمْ كَانُوا يُقَاتِلُونَ
عَلَى الْخَيْلِ وَالْإِبِلِ ، وَمِنْ ذَا قَوْلِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ لِسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ
فِي حَرْبِ الْقَادِسِيَّةِ : أَخْبِرْنِي : أَيُّ فَارِسٍ كَانَ أَشْجَعًا ؟ وَأَيُّ رَاكِبٍ كَانَ
أَشَدَّ غَنَاءً ؟ وَأَيُّ رَاكِبٍ كَانَ أَصْبَرَ ؟ فَذَكَرَهُمْ لَهُ وَمَيَّزَهُمْ .



وَمِنْ طَرِيفِ آيَاتِ الْحَمَاسَةِ الَّتِي أَوْرَدَهَا أَبُو تَمَّامٍ فِي حِمَايَتِهِ وَالْمَبْرَدُ فِي
الْكَامِلِ آيَاتٌ قَالَ الْمَبْرَدُ : إِنَّمَا لِأَعْرَابِيٍّ مِنْ بَنِي سَعْدٍ ^(١) وَنَسَبَهَا أَبُو تَمَّامٍ
إِلَى الْهَذُلُولِ بْنِ كَعْبِ الْعَنْبَرِيِّ — وَكِلَاهُمَا شَاعِرٌ جَاهِلِيٌّ — وَكَانَ هَذَا
الْقَائِلُ مُنْمَاكًا — أَيُّ عَقِدَ لَهُ عَلَى امْرَأَةٍ وَلَمْ يَبْتَنِ بِهَا — فَزَلَّ بِهِ أَضْيَافٌ
فَقَامَ إِلَى الرَّحَى فَطَحَنَ لَهُمْ ، فَرَّتْ بِهِ زَوْجَتُهُ فِي إِسْرَافَةٍ ، فَقَالَتْ لَهُنَّ :
أَهَذَا بَعْلِي ؟ فَأُعْلِمَ بِذَلِكَ فَقَالَ :

تَقُولُ : وَصَكَّتْ نَحْرَهَا يَمِينِي : أَبَعْلِي هَذَا بِالرَّحَى الْمُتَقَاعِسُ ؟
فَقُلْتُ لَهَا : لَا تَعْجَلِي وَتَبَيَّنِي فَقَالِي إِذَا التَّمَّقْتُ عَلَى الْفَوَارِسِ
أَلَسْتُ أَرُدُّ الْقِرْنَ يَرْكَبُ رَدْعَهُ

وَفِيهِ سِنَانٌ ذُو غِرَارَيْنِ نَائِسٌ

(١) قَالَ ابْنُ بَرِيٍّ : هُوَ نَعِيمُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ يَزِيدِ السَّعْدِيِّ

وَأَحْتَمِلُ الْأَوْقَ الثَّقِيلَ وَأُمْتَرِي
 حُلُوفَ الْمَنَايا حِينَ فَرَ الْمُغَامِسُ
 وَأَقْرِى الْهُمُومَ الطَّارِقَاتِ حَزَامَةً
 إِذَا كُثِرَتْ لِلطَّارِقَاتِ الْوَسَاوِسُ
 إِذَا خَامَ أَقْوَامٌ تَقَحَّحْتُ غَمْرَةً
 يَهَابُ حُمَيَّاها الْأَكْثُ الْمُدَاعِسُ
 لَعَمْرُ أَيْكَ الْخَيْرِ إِنِّي لَخَادِمٌ
 لِضَيْفِي وَإِنِّي إِنْ رَكِبْتُ لِفَارِسٍ
 وَإِنِّي لِأَشْرِى الْحِمْدِ أَبْغَى رَبَّاحُهُ
 وَأَتْرُكُ قَرْنِي وَهُوَ خَزْيَانُ نَاعِسُ

« الْقَعَسُ : دخول الظهر وخروج الصدر ، وهو نقيض الحدب ،
 وقول المرأة : أبغى هذا ؟ إشارة تحقير ، تَعَجَّبُ مِمَّا رَأَتْ ، وقوله : بالرحى
 المتقاعس فإن « بالرحى » تبيينٌ ومعنى ذلك أن كلمة « المتقاعس » تدلُّ على
 أن هناك تقاعساً ولما قال بالرحى دلَّ ذلك على أن التقاعس حدث
 بالرحى ، ولم يُرد أن يُعْمَلَ الْمُتَقَاعِسَ في قوله بالرحى لأن ذلك على
 ما قال النحاة ممنوع ، لأن أَلْ في المتقاعس اسم موصول كالذى وبالرحى
 صلة ولا يجوز أن تنقدم الصلة على الموصول . وقوله : أَلَسْتُ أَرُدُّ الْقَرْنَ
 يركب رَدْعَهُ ، فالقرن : مَنْ يِقَاوَهُكَ فِي قِتَالٍ ، وقوله : يركب رَدْعَهُ ،
 قيل : الرَّدْعُ ههنا : الدم على سبيل التشبيه بِرَدْعِ الزعفران ، ومعنى ركوبه
 دَمَهُ : أَنَّهُ جُرِحَ فَسَالَ دَمُهُ فَسَقَطَ فَوْقَهُ مُتَشَجِّجاً بِهِ ، وقيل : الرَّدْعُ : الْعُقْ
 أَيْ سَقَطَ عَلَى رَأْسِهِ فَأَنْدَقَتْ عُقْنُهُ ، وقيل معناه : صُرِعَ مِنْكَوْساً رَأْسَهُ

أَسْفَلَهُ ، مِنْ ارْتَدَّعَ السَّهْمُ : إِذَا رَجَعَ النُّصْلُ مُتَأَخَّرًا فِي السَّنَخِ .
 وَذُو غِرَارَيْنِ : ذُو حَدَّيْنِ ، وَنَارِئُسُ : مُضْطَرَبٌ ، مِنْ نَاسٍ يَنُوسُ : إِذَا
 تَحَرَّكَ وَاضْطَرَبَ ، وَتُرْوَى : يَابَسُ وَمَعْنَاهُ : صُلْبٌ ذَكَرُ لَا تَأْنِيثَ فِيهِ .
 وَالْأَوَقُ : الثَّقَلُ وَقَدْ آقَى عَلَيْهِ يَوْقُ : مَالٌ بِثِقَلِهِ ، وَوصفه بِالثَقِيلِ مَبَالِغَةً .
 وَالْخُلُوفُ جَمْعُ خَلْفٍ — بِالْكَسْرِ — وَهُوَ فِي الْأَصْلِ : ضَرْعُ النَّاقَةِ ،
 وَأَمْتِرَاوَهُ : اسْتِخْرَاجُ مَا فِيهِ مِنَ اللَّبَنِ . يَرِيدُ : أَنَّهُ يَسْتَخْرِجُ خَبِيثَاتِ الْمَنِيَا
 بِأَفَاعِيلِهِ الْمُدْهِشَةِ وَقَدْ جَدَّ الْخُطْبُ وَاشْتَدَّتْ الْحَرْبُ ، وَالْمُغَامَسُ : الَّذِي
 يَنْغَمِسُ فِي لُجَّةِ الْحَرْبِ لَا يَبَالِي أَصَابَ أَمْ أُصِيبَ ، وَقَوْلُهُ : وَأَقْرَى الْهَمُومِ
 الطَّارِقَاتِ حَزَامَةً ... أَلَيْتَ يَقُولُ : أَحْزَمُ عِنْدَهَا إِذَا اشْتَدَّتْ وَكَثُرَتْ
 أَحَادِيثُ النَّفْسِ بِهَا . وَخَامٌ : جَبْنٌ وَنَكَصَ يَقَالُ : خَامَ عَنِ الْقِتَالِ يَنْخِمُ
 خَيْمًا وَخَيْمَانًا : جَبْنٌ . وَالحَيَا : صَدْمَةُ الشَّرِّ ، وَالْأَلْدُ فِي الْأَصْلِ : الشَّدِيدُ
 الْخُصُومَةُ الَّتِي يَحِيدُ عَنِ الْحَقِّ ، وَالْمَرَادُ هُنَا الَّذِي لَا يَنْشَى عَنِ الْحَرْبِ .
 وَالْمَدَاعِسُ : الْمَطَاعِنُ بِقَالَ : دَعَسَهُ بِالرَّحِ : إِذَا طَعَنَهُ . وَالرَّيَّاحُ مَصْدَرُ كَالرَّيْحِ
 وَقَوْلُهُ : وَأَتْرَكَ قِرْنِي الْخَ يَقُولُ : أَهْنَيْتُهُ فَأَكْسِرُهُ حَتَّى يَبْقَى مَطْرَقًا مُتَنَدِّمًا
 كَمَنْ غَلَبَهُ النَّعَاسُ ، وَقِيلَ مَعْنَى نَاعَسَ : مُشْرِفٌ عَلَى الْمَوْتِ يَقَالُ طَعَنْتُ
 صَاحِبِي فَأَنْتَمَتُهُ : أَيِ قَتَلْتُهُ .



وَقَالَتْ لَيْلَى الْأَخْيَلِيَّةُ وَهِيَ مِنْ أَيْيَاتِ الْحَمَاسَةِ :

لَا تَفْزُونَ الدَّهْرَ آلَ مُطَرِّفٍ لَا ظَالِمًا أَبَدًا وَلَا مَظْلُومًا
 قَوْمُ رِبَاطِ الْخَيْلِ وَسَطِ بِيوتِهِمْ وَأَسِنَّةُ زُرُقِ تُخَالِ نَجُومًا
 وَمُخَرَّقٌ عَنْهُ الْقَمِيصُ تَخَالَهُ وَسَطِ الْبُيُوتِ مِنَ الْحَيَاءِ سَقِيمًا

حتى إذا رُفِعَ اللّوَاءُ رَأَيْتُهُ تَحْتَ اللّوَاءِ عَلَى الْخَيْسِ زَعِيمًا
 « قَوْلُهَا : لَا تَغْزُونَ بِرُؤْي لَا تَقْرَبَنَّ وَقَوْلُهَا : لَا ظَالِمًا أَبَدًا وَلَا مَظْلُومًا
 تَرِيدُ : لَا بُتْدِيًا لَهُمْ بِالْحَرْبِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَحَارِبُوكَ وَلَا مُنْتَقِمًا مِنْهُمْ إِنْ
 حَارِبُوكَ ، لِأَنَّهُمْ أُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ لَا يَطْفُونَ عَلَى أُنْ حَالًا ، وَيُرْوَى :
 « لَا ظَالِمًا فِيهِمْ وَلَا مَظْلُومًا »

قال البكري شارح الأملالي : وهذه الرواية هي الحجة لوجهين أحدهما :
 أنها أفادت معنى حسنًا ، لأنه قد يكون ظالمًا أو مظلومًا من غيرهم فيستجير
 بهم لرد ظلامته ، أو لاستدفاع مكروه عقوبته فلا بد لهم من إجارته ،
 والوجه الثاني أن قوله : لَا تَقْرَبَنَّ الدهر قد أغنى عن قوله : أَبَدًا ، فصار
 حشواً لا يُفيد معنى ، وقولها : قومٌ رِبَاطُ الخيل ... ألبت تقول : إنهم
 أصحابُ خيل ورماح مستعدون أَبَدًا لِدَفْعِ الأعداء والذود عن حياضهم ،
 وأسنّة زُرُق : صافيةٌ لَامِعَةٌ كأنها نجوم في الصفاء واللّعان ، وقولها :
 وَخَرَّقَ عَنْهُ الْقَمِيصُ فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنْ ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى جَذْبِ
 الْعِفَاقِ لَهُ ، وَالثَانِي : أَنَّهُ يُؤَثِّرُ بِجِدِّ ثِيَابِهِ فَيَكْسُوهَا وَيَكْتَفِي بِمَعَاوِزِهَا
 — أَيْ الثِيَابِ الْبَالِيَةِ مِنْهَا لِأَنَّهَا ثِيَابُ الْمُعَوِّزِينَ — وَقَوْلُهَا : تَحَالَهُ مِنَ الْحَيَاءِ
 سَقِيمًا تَرِيدُ أَنَّهُ لِإِمْعَانِهِ فِي الْكِرَامِ وَالسَّخَاءِ تَظَنَّهُ سَقِيمًا مِنَ الْحَيَاءِ تَخْشِيَةً أَنْ
 لَا يَكُونَ قَدْ بَلَغَ مِنْ إِكْرَامِ الضَّيْفِ مَا يَنْبَغِي ، تَمْدَحُهُ بِالْجُودِ كَمَا تَمْدَحُهُ
 بِالشَّجَاعَةِ . وَالْخَيْسُ : الْجَيْشُ ، وَالزَّعِيمُ : الْكَفِيلُ وَالرَّئِيسُ .

وقال بعضُ بني مازن :

وَقَدْ عَلِمُوا بِأَنَّ الْحَرْبَ لَيْسَتْ لِأَصْحَابِ الْمَجَامِرِ وَالْخَلُوقِ
 ضَرْبَانَاكَ عَلَى الْإِسْلَامِ حَتَّى أَقْنَانَاكَ عَلَى وَضَحِ الطَّرِيقِ

« المجامر : المباخر ، أى التى توضع فيها النار والبُحُور لِيَتَبَخَّرَ بها
وَيُطَيَّبَ : والخلوق : طيبٌ معروف يُتخذ من ألوانِ شَتَّى من الطيب ،
وقيل : الزعفران »

وقال أبو تمام فى مرثيته المشهورة لمحمد بن حميد الطوسي التى أولها :
كذا فَلْيَجِلَّ الحَظْبُ وَلْيَفْدَحِ الأمرُ

فليس لِعَيْنٍ لم يَفِضْ مأوئها عُذر

قال :

وَمَاتَ بين الطعنِ والضربِ مِيتَةً

تقوم مقام النصرِ إذ فَانَهُ النَّصْرُ

وما مات حتى ماتَ مَضْرِبُ سَيْفِهِ

من الضربِ ، واعتَلَّتْ عليه القنا الشمرُ

وقد كان فوتُ الموتِ سهلاً فَرَدَهُ

إليه الحِفاظُ المرُ والخُلُقُ الوَعْرُ

ونفسٌ تَعَاuf العارَ حَتَّى كَأَنَّمَا

هُوَ الكُفْرُ يومَ الرُّوعِ أو دُونَهُ الكُفْرُ

فَأَنْبَتَ فى مُسْتَنْقَعِ الموتِ رِجْلَهُ

وقال لها : من تحت أَنْخِصِكَ الحشرُ

غدا غُدُوهُ والحمدُ نَسْجُ رِداءِهِ فلم يَنْصَرِفْ إلّا أوْ كَفَانَهُ الأجرُ

تَرَدَّى ثيابَ الموتِ حُرّاً فَاَدَّجَا لها الليلُ إلّا وهى من سُنْدُسٍ خَضِرُ

« قوله : تقوم مقام النصر : لأنه قُتلَ قِتْلَةً بطلِ شجاع ، إذ لم يُقْتَلْ

حَتَّى تَلَمَّ حَدُّ سَيْفِهِ مِنْ شِدَّةِ ما ضَرَبَ بِهِ وَحَتَّى أَنْقَصَتْ الرماحُ فى يديه

كما قال في البيت التالي ، قال نَقْدَةُ الشعر : إن أبا تمامَ نظر في هذا المعنى إلى قول عُروَةَ بن الرُّرد :

ومن بكِ مثلي ذا عيالٍ ومُقْتَرٍ من المالِ يطرَحُ نفسه كلَّ مَطْرَحِ
لِيَبْلُغَ عُذْرًا أو يَنَالَ رَغِيبةً ومُبْلِغُ نفسِ عُذْرَها مثلُ مُنْجِحِ

قالوا : إن عُروَةَ جعل اجتِهاده في طلب الرزق عُذْرًا يقوم مقام النجاح وأبو تمام جعل الموت في الحرب الذي هو أَفْصَى اجتِهَادِ المجتهد في إلقاء الأعداء قائمًا مقام النصر . هذا ، ومضربُ السيف : حُدُّه ، وقوله : واعتلت عليه القنا السُّمُرُ فعني اعتلال القنا أن العلة أصابها فلم تستطع العمل معه وتحقيق مطالبِ همته من الصُّمود للأعداء ، أو تقول : معنى اعتلالها : أنها تَجَمَّتْ عليه الذنوب واتخذت ذلك ذريعة إلى العصيان والخلاف عليه ، وما ذنبه عندها إلا كثرة تكاليفها الطعن لا يُريحها من ذلك ، والحفاظ : التَّحِيمة والغَضْبُ محافظة على الحُرمة وكلُّ ما يَجِبُ على المرء حمايته ، والخلق الوعر : الشديد الأنفة ، ولا يُمدح به إلا في العداوة . قال المازني :

تَعَاتَبْنِي فيما ترى من شراستي وشِدَّةِ نَفْسِي أُمُّ سَعْدٍ وما تدرى
فقلت لها : إن الكريمَ وإن حلا لِيُوجِدُ أحيانًا أَمْرًا من الصبر

« الروع هنا : الحربُ وفي الأصل : الخوف . وقوله : فأثبت في مُسْتَنْقِعِ الموتِ رجله ... ألبيت . جعلَ للبوتِ مُسْتَنْقِعًا كَمُسْتَنْقِعِ الماءِ ، وهو : مُجْتَمِعُهُ في بطن الوادي ، وأُخِصَّ القدم : مالا يُصِيبُ الأرض من باطنها يقول : إِنَّهُ لشجاعته قد صَمَدَ للبوت فلا نتحول رِجْلُهُ إلى أن يموتَ حتى كأن الحشر — يوم يُحْشَرُ الناس إلى ربهم يوم القيامة — من

تحت أنخصه . وقوله : غدا غدوة ... ألبيت يقول : إنه عاش محموداً مشكوراً ومات مشوباً مأجوراً . وقوله : تردى ثياب الموت ... ألبيت يقول : إنه ارتدى الثياب المأطخة بالدم فلم ينقض يوم قتله ولم يدخل في ليلته إلا وقد صارت الثياب حُضراً من سُندس الجنة . قال علماء البيان : في هذا البيت الطباق المسمى بالتدريح ، وهو أن يذكر الشاعر أو الناثر في معنى من المدح أو غيره ألواناً لقصد الكناية أو التورية ، ويسمى تدريح الكناية أيضاً ، فإنه هنا ذكر لون الحمر والخضرة والمراد من الأول الكناية عن القتل ومن الثاني الكناية عن دخول الجنة ،



وقال البُحْتُري :

مَعَشَرُهُ أَسَكَّتْ حُلُومُهُمُ الْأَرْضَ ضَ وَكَادَتْ لَوْلَاهُمْ أَنْ تَمِيدَا
فَإِذَا الْجَدْبُ جَاءَ كَانُوا غَيْرَتَا وَإِذَا التَّفْعُ نَارَ ثَارُوا أَسُودَا
وَكَانَ الْإِلَهِ قَالَ لَهُمْ فِي الْ حَرْبٍ كَرُونَا حِجَارَةً أَوْ حديدَا

وقال مُسلم بن الوليد :

لَوْ أَنَّ قَوْمًا يَخْلُقُونَ مَنِيَّةً مِنْ أَيْمِهِمْ كَانُوا بَنَى جَبْرِيلَا
قُورُ إِذَا حَمَى الْوَطِيسُ لَدَيْهِمْ جَعَلُوا الْجَاهِمَ لِلشَّيْءِ مَفِيلَا

وقيل للهلب بن أبي صفرة : إنك لتلقى نفسك في المهالك ا قتال :
إن لم آت الموت مُسترسلاً ، أمانى مُستعجلاً ، إني لست آتِي الموت من
حُبِّه ، وإنما آتِيه من بُغْضِهِ ، وتمثل بقول الحُصَيْن بن الحمام :

تَأَخَّرْتُ أَسْتَقْبِلُ الْحَيَاةَ فَلَمْ أَجِدْ لِنَفْسِي حَيَاةً مِثْلَ أَنْ أُنْقَدَمَا

وقد تقدم

وقال المتنبي :

شجاعٌ كَانَ الحربَ عَاشِقَةً لَهُ إِذَا زَارَهَا فَدَّتْهُ بِالْخَيْلِ وَالرَّجُلِ
« المراد بالخيـل : الفرسان ، والرجـل جمع راجـل يقول : هو شجاع يُقْتَل
ولا يُقْتَل فـكأن الحرب تعشقه فإذا زار الحرب استبقتـه وأفتت مَن سواه
من الفرسان والرجال ، فكأنما جعلتهم فداء له . »

وقال :

وكم رجالٌ بِلَا أَرْضٍ لِكثرتِهِمْ تَرَكْتَ جَمْعَهُمْ أَرْضاً بِلَا رَجُلٍ
ما زال طَرْفُكَ يَجْرِي فِي دِمَائِهِمْ حَتَّى مَشَى بِكَ مَشَى الشَّارِبِ الثَّمِيلِ
« قوله : وكم رجال ... ألبيت يقول : كم جمع الأعداء لك جموعاً
تَغِيبُ الأَرْضُ من كثرتهم وتخفى على الأبصار حتى كأنهم رجالٌ بِلَا أَرْضٍ
فقتلتهم وأنيتهم حتى خَلِيتَ أَرْضهم فبقيت ولا رجل فيها ، وفي هذا البيت
نظر من ناحية كثرة الجيش إلى قول أبي تمام في صفة جيش :
مَلَأَ الْمَلَأَ عَصَباً فَكَادَ أَنْ يُرَى لَا خَلْفَ فِيهِ وَلَا لَهُ قُدَامُ
وقوله : ما زال طرفك ... ألبيت ، فالطرف : الفرس الكريم ، والثميل
السكران ، يقول ما زلت تخوض دماءهم بفرسك حتى تعدثر بالقتلى وأمالته
دماؤهم عن سنن جريه وأزلقته حتى مشى بك مشى السكران ،
وقال الشاب الظريف من قصيدة له يمدح بها ابن عبد الظاهر :

وَمُعْشِرٍ لَمْ تَزَلْ لِلْحَرْبِ يَبْضُهُمْ

حُمَرُ الْخُدُودِ وَمَا مِنْ شَأْنِهَا الْحَجَلُ^(١)

(١) البيض : السيوف ، وجعلها حمر الخدود لما يسيل فوقها من دماء الأعداء.

إِذَا انْتَضَرُمَا بُرُوقًا صُيِّرَتْ سُحُبًا

يَسِيلُ مِنْ جَانِبَيْهَا عَارِضٌ قَطِلُ^(١)

يَثْنِي حَدِيثُ الرَّغَى أَعْطَاهُمْ طَرَبًا

كَأَنَّ ذِكْرَ الْمَنَابِإِ بَيْنَهُمْ غَزَلُ^(٢)

كَمْ نَارٍ حَرَبَ بِهِمْ شُبَّتَ وَهُمْ سُحْبُ

وَأَرْضُ قَوْمٍ بِهِمْ فَاضَتْ وَهُمْ شُعْلُ^(٣)

وقال الشاعر أبو الفرج البَغَاء شاعر اليتيمة :

يَسْعَى إِلَى الْمَوْتِ وَالْقَنَاءِ قَصْدُ وَخَيْلُهُ بِالرُّؤْسِ تَلْتَمِشُ

كَأَنَّهُ وَاقِعُ بَأْنٍ لَهُ عُمْرًا مُقِيمًا وَمَالُهُ أَجَلُ

« وَالْقَنَاءُ قَصْدُ : أَيْ قَطْعُ ، وَالْمَفْرَدُ : رَقْصَةٌ وَهِيَ : الْقَطْمَةُ مِنَ الشَّيْءِ »

إِذَا انْكَسَرَ ،

وقال آخر :

كَأَنَّ سَيُوفَهُ صِيغَتْ عَقُودًا تَجُولُ عَلَى التَّرَائِبِ وَالنُّحُورِ

وَسُمِّرَ رِمَاحُهُ جُعِلَتْ هُمُومًا فَمَا يَحْظَرْنَ إِلَّا فِي ضَمِيرِ

ومن كلام علي بن أبي طالب : رَبُّ حَيَاةٍ سَابِقُهَا التَّعَرُّضُ لِلْمَوْتِ ،

وَرَبُّ مَنِيَّةٍ سَابِقُهَا طَلِبُ الْحَيَاةِ .

« وَبِمَعْنَى : فَإِنَّ عِبْقَرِيَّاتِهِمْ فِي الشَّجَاعَةِ وَالتَّمَدُّحِ بِهَا لَا تَكْتَادُ تُنْصَحَى كَثْرَةً ،

وَإِنَّ النَّازِلَ فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ وَلَا سِيَّامَا الْمَنْظُومِ مِنْهُ يَتَحَقَّقُ مِنْ أَنَّ الشَّجَاعَةَ

(١) انتضى السيف : استله من غمده ، والعارض السحاب والمراد هنا الدماء .

(٢) الأعطاف جمع عطف وهو الجانب

(٣) وهم سحب أى فى الكرم ، وهم شعل أى كالنار فى استئصال أعدائهم .

والإشادة بها تكاد تكون أحدَ شَطْرَي ما يتمدحون به ويتوّهون بفضله ،
أما الشطر الآخر فهو الجود والكرم ، وبحبك بهاتين الخلتين ، وإنهما
دعامتا سائر الفضائل ، ولنجزئ بهذا المقدار وإن كان قطراً من بحر ،

صدر من عبقرياتهم

في وصف آلات الحرب

قال البُجُتري يَصِفُ السيف :

يَتَنَاوَلُ الرُّوحَ البَعِيدَ مَنَالُهُ عَفْوَاً ، وَيَفْتَحُ فِي الْقَضَاءِ الْمُقْفَلَ
مَاضٍ وَإِنْ لَمْ تُنْمِضْهُ يَدُ فَارِسٍ بَطْلٍ ، وَمَصْقُولٌ وَإِنْ لَمْ يُصْقَلْ
يَغْشَى الْوَعْيَ فَالْتَرُسُ لَيْسَ بِجُنَّةٍ مِنْ حَدِّهِ وَالْدَّرْعُ لَيْسَ بِمَعْقِلٍ
مُضْغٍ إِلَى حُكْمِ الرَّدَى ، فَإِذَا مَضَى

لَمْ يَلْتَفِتْ ، وَإِذَا قَضَى لَمْ يَغْدِلْ
مُتَأَلِّقٌ يَفْرِى بِأَوَّلِ ضَرْبَةٍ مَا أَذْرَكَتْ وَلَوْ أَنَّهُ فِي يَدِ بِلْ
وَإِذَا أَصَابَ فَكُلُّ شَيْءٍ مَقْتَلٌ وَإِذَا أُصِيبَ فَمَا لَهُ مِنْ مَقْتَلٍ
وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمَعْتِزِ يَصِفُهُ :

وَلِي صَارِمٌ فِيهِ الْمَنَایَا كَوَامِنٌ فَمَا يُنْتَضَى إِلَّا لِسَفْكَ دِمَاءِ
تَرَى فَوْقَ مَتْنِيهِ الْفِرْنْدَ كَأَنَّهُ بَقِيَّةُ غَيْمٍ رَقَّ دُونَ سَمَاءِ (١)
وَقَالَ ابْنُ الرُّومِي :

خَيْرُ مَا اسْتَعَصَمْتُ بِهِ السَّكْفُ عَضْبُ ذَكَرْتُ هَـزَهُ أُنَيْثُ الْعَهْزُ (٢)

(١) فرند الشيف : وشية

(٢) الذكر من السيوف : الشديد الجيد الصارم ، وهزه أنيث المهز يريد : أنه

لين منقاد مطواع مع شدته

مَا تَأَمَّلْتَهُ بَعِينِكَ إِلَّا أُرْعِدْتَ صَفْحَتَاهُ مِنْ غَيْرِ هَزٍّ
مِثْلُهُ أَفْزَعَ الشُّجَاعَ إِلَى الدَّرِّ عَ فَعَالَى بِهَا عَلَى كُلِّ بَرْزٍ ^(١)
مَأْيَالِي أَصَحَّمْتُ شَفَرَتَاهُ فِي مَحْزٍ أَمْ حَادَتَا عَنْ مَحْزٍ
وَلَمَّا صَارَ الصَّمْصَامَةُ سَيْفُ عَمْرِو بْنِ مَعْدِيكَرَبَ إِلَى مُوسَى الْهَادِي
أَذِنَ لِلشُّعْرَاءِ أَنْ يَصِفُوهُ ، فَبَدَأَهُمْ ابْنُ يَامِينَ فَقَالَ :

حَازَ صَمْصَامَةُ الزُّبَيْدِيُّ مِنْ دُونِ جَمِيعِ الْإِنَامِ مُوسَى الْآمِينَ
سَيْفُ عَمْرِو وَكَانَ فِيمَا سَمِعْنَا خَيْرَ مَا أُعْجِدْتَ عَلَيْهِ الْجُفُونَ
أَخْضَرَ الْمُنَى بَيْنَ حَدِيدِهِ نُورٌ مِنْ فِرْنِدٍ تَمْتَدُّ فِيهِ الْعُيُونُ
أَوْقَدَتْ فَوْقَهُ الصَّوَاعِقُ نَارًا ثُمَّ شَابَتْ بِهِ الذُّعَافُ الْقُيُونُ ^(٢)
فَإِذَا مَا سَلَلْتَهُ بَرَرَ الشَّمْسَ رِضَاءً فَلَمْ تَكُنْ تَسْتَبِينَ
يَسْتَطِيرُ الْأَبْصَارَ كَالْقَبَسِ الْمُشْعِلِ مَا تَسْتَقِرُّ فِيهِ الْعُيُونُ
وَكَانَ الْفِرْنِدُ وَالرَّوْنَقُ الْجَا رَى فِي صَفْحَتَيْهِ مَاءٌ مَعِينُ
وَكَانَ الْمُنَى نِيْطَتْ إِلَيْهِ فَهُوَ مِنْ كُلِّ جَانِبَيْهِ مَنُونُ
مَأْيَالِي مَنْ اتَّضَاءُ لَضَرْبٍ أَشْمَالُ سَطَتْ بِهِ أَمْ يَمِينُ
قَالَ أَبُو هَلَالٍ الْعَسْكَرِيُّ : وَقَدْ أَخَذَ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ تَشْدِيدَهُ
السَّيْفَ بِالشَّمْسِ ثُمَّ بِالْقَبَسِ ، لِأَنَّهُ قَدْ حَطَّهُ دَرَجَاتٍ ... ^(٣) ،

ولمناسبة عمرو بن معديكرب وصمصامته يروى أن عمر بن الخطاب
بعث إلى عمرو أن يبعث إليه بسيفه الصمصامة هذا ، فبعث إليه به ، فلما

(١) يقول : إن هذا السيف بلجج الشجاع إلى أن يتقيه بأجود الدروع ، والبرز :
السلاح يدخل فيه الدرع والمغفر والسيف (٢) الذعاف : السم الذي يقتل من
ساعته ، والقيون جمع قين وهو الحداد وكل صانع (٣) القبس : الجذوة من النار

ضَرَبَ به وجده دون ما بلغه عنه ، فكتب إليه في ذلك ، فأجابه يقول :
 إِنَّمَا بَعَثْتُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِالسَّيْفِ وَلَمْ أَبْعَثْ لَهُ بِالسَّاعِدِ الَّذِي يَضْرِبُ بِهِ .
 وسأله عمر يوماً عن السلاح فقال : ماتقول في الرُّحْمِ ؟ قال : أخوك
 ورُبَّمَا خَانَكَ فَأَنْقَضَ ؛ قال : فما تقول في السُّنْبُسُ ؟ قال : هو الحِجْنُ
 وعليه تدور الدَّوَارُ ، قال : فالنَّبَلُ ؟ قال : منبأ يُخْطِئُ وَتُصِيبُ ، قال :
 فما تقول في الدَّرْعِ ؟ قال : مَثْقَلَةٌ لِلرَّاجِلِ مَشْغَلَةٌ لِلرَّاكِبِ ، وإِنَّمَا لِحْصُنُ
 حَصِينٍ ؛ قال : فما تقول في السَّيْفِ ؟ قال : هُنَا لَكَ قَارَعَتُكَ أَمَّا عَنْ
 الثَّنَكِ^(١) ؛ قال : بَلْ أَمَّا أَقَالَ : بَلْ أَمَّا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! فَقَلَاهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
 بِالذَّرَّةِ ، وقيل : بَلْ قَالَ لَهُ — لَمَّا قَالَ عَمْرُ بَلْ أَمَّا — قال : أُمِّي
 يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ « الْحُمَّى أَضْرَعَتْكَ لَكَ » أراد : أَنْ الْإِسْلَامَ قَيْدَتْنِي ، وَلَوْ
 كُنْتُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَمْ تُكَلِّمْنِي بِهَذَا الْكَلَامِ ، وَهُوَ مَثَلٌ تَضَرَّبُهُ الْعَرَبُ إِذَا
 اضْطَرَّتْ لِلْخُضُوعِ .

ومثل ذلك قول الأغر النهشلي لابنه لما بعثه لحضور ما وقع بين
 قومه فقال : يَا بُنَيَّ ، كُنْ يَدًا لِأَصْحَابِكَ عَلَى مَنْ قَاتَلَهُمْ ، وَإِيَّاكَ وَالسَّيْفَ
 فَإِنَّهُ ظِلُّ الْمَوْتِ ، وَاتَّقِ الرُّحْمَ فَإِنَّهُ رِشَاءُ الْمَنِيَّةِ ، وَلَا تَقْرَبِ النَّهَامَ فَإِنَّهَا
 رُسُلُ تَعَصَى وَتُطِيعُ ، قال : فِيمَ أَقَاتِلُ ؟ قال : بِمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

جَلَامِيدُ أَمْلَاءُ الْأَكْمَفِ كَأَنَّهُا رُؤُوسُ رِجَالٍ حُلِقَتْ فِي الْمَوَاسِمِ

(١) الشكل : الفقد ، ولعله يريد : أَنْ يَصِفَ السَّيْفَ بِأَنَّهُ أَفْنَكُ أَنْوَاعِ الْأَسْلِحَةِ
 وَأَرْوَعُهَا فَلَاكَ إِلَى ذَلِكَ — بَيْلُ الْكَسَايَةِ فَعَبْرٌ بِجُمْلَةٍ لَازِمِهَا يَدُلُّ عَلَى مَا يَرِيدُ أَبْلَغَ دَلَالَةٍ
 إِذْ يَقُولُ : هُنَا لَكَ — أَيْ إِذَا ذَكَرَ السَّيْفَ أَوْ تَقَارَعَتِ السُّيُوفُ ، قَارَعَتْهُ أَمَّا وَدَافَعَتْهُ
 عَنْ الشَّكْلِ وَالْهَلَاكِ إِشْفَاقًا عَلَيْهِ ، فَإِنَّ الْإِشْفَاقَ أَعْظَمُ مَا يَكُونُ عَلَى الْمَنَازِلِ إِذَا كَانَ
 السَّالِحُ السَّيْفَ ، لِأَنَّ ضَرْبَاتِهِ صَائِبَةٌ قَاتِلَةٌ

فعليك بها وأصقها بالأعقاب والسوق . و قوله : جلاميد أملاء
الأكف ... البيت هو أحد أبيات أوردتها المبرد وهي :

تُغَطَّى تُنْمِرُ بالعمائم لَوْنُهَا وكيف يُغَطِّي اللَّوْمَ طَيُّ العمامم
فإنْ أَضْرَبُونَا بالسَّيَاطِ فإننا ضَرَبْنَاكُمْ بِالْمُرْهَفَاتِ الصَّوَارِمِ
وإنْ تَحْلِقُوا مِنَّا الرُّؤْسَ فإننا حَلَقْنَا رُؤْسًا بِاللَّهْمَا وَالْغَلَاصِمِ
وإنْ تَمْنَعُوا مِنَّا السِّلَاحَ فَعِنْدَنَا سِلَاحٌ لَنَا لَا يُشْتَرَى بِالْدَّرَاهِمِ
جَلَامِيدُ أَمْلَاءُ الْأَكْفِ كَأَنهَا رُؤْسُ رِجَالٍ حُلِقَتْ بِالْمَوَاسِمِ

و قوله : حلقنا رؤسا : يريد أزلناها بالسيوف ، واللها بفتح اللام
جمع لهاة وهي لحة مشرقة على عكدة اللسان ، والغلاصم جمع الغلصمة وهي
لحة بين الرأس والعنق ، والجلاميد جمع جلود وهو الحجر تأخذه بيدك
وهو بيان لقوله سلاح لنا لا يشتري بالدرهم ،

وقال المعري :

كَأَنَّ أَرَاقِمًا نَفَثَتْ سِمَامًا عَلَيْهِ فَعَادَ مُبَيِّضًا نَحِيلًا
وَمَنْ تَعَلَّقَ بِهِ حُمَةُ الْأَفَاعِي يَعِشُ — إِنَّ فَاتَهُ أَجَلٌ — عَلِيلًا
كَأَنَّ فِرْنْدَهُ وَالْيَوْمَ حَمَتْ أَفَاضَ بِصَفْحِهِ تَجِيلًا تَجِيلًا
تَرَدَّدَ مَآوُهُ عُلُوقًا وَسُفْلًا وَهَمَّ فَمَا تَمَكَّنَ أَنْ يَسِيلًا
يَسْكَادُ سَنَاهُ يُحْرِقُ مَنْ فَرَاهُ وَيُغْرِقُ مَنْ نَجَا مِنْهُ كُلُّوَلَا

و كأن أراقما ... البيت يقول : كأن الحيات نفخت السموم على هذا
السيف فصار أبيض ناعلا ، وذلك أن السم موصوف بالبياض ، ومن
نكزته الحية ونفثت فيه سمها تحل جسمه ، فجعل البياض في السيف لونا
للمم والنحافة فعله ، وقوله : ومن تعلق به : البيت لما وصف السيف

بالنحول لما نفثت الأراقم عليه سماءها حَقَّقَ وَجَهَ نَحْوَهُ ، وهو أن مَنْ خالطَهُ سُمُّ الْأَفَاعِي هلك في غَايِبِ الْأَمْرِ ، وإنْ فَاتَهُ الْهَلَاكُ عَاشَ عَلِيلاً ، والعليلُ نَحِيلُ الْجِسْمِ لَا مَحَالَةَ ؛ وقوله : كَانَ فِرْدَنْدَه ... الْبَيْتُ فَالْفِرْدَنْدُ : جَوْهَرُ السِّيفِ وَمَاؤُهُ ، وَيَوْمَ خَمْتُ : شَدِيدُ الْحَرِّ ، وَالسَّجَلُ : الدَّلْوُ ، إِذَا كَانَ فِيهَا مَاءٌ ، وَلَا يُقَالُ لَهَا وَهِيَ فَارِغَةٌ : سَجَلٌ وَلَا ذَنْوبٌ ، وَالسَّجِيلُ : الضَّخْمُ الْعَظِيمُ ، يَصْفُ بِبَاضِ السِّيفِ وَبَرِيقِهِ ، أَيْ كَانَ جَوْهَرِ السِّيفِ وَقَدْ صُتِبَ بِوَجْهِهِ دَلْوٌ مِنَ الْمَاءِ فِي يَوْمٍ شَدِيدِ الْحَرِّ ، فَهُوَ أَيْضٌ بِرَاقٍ كَأَنَّهُ مَاءٌ ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ شِدَّةَ الْحَرِّ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ الْيَوْمُ شَدِيدَ الْحَرِّ كَانَتْ الْحَاجَةُ إِلَى الْمَاءِ أَشَدَّ ، أَوْ لِأَنَ الْمَاءَ مَعَ إِشْرَاقِ الشَّمْسِ أَشَدُّ بَرِيقًا وَلَمَعَانًا . وقوله : تَرَدَّدَ مَاؤُهُ ... الْبَيْتُ لَمَّا شَبَّهَ فِرْدَنْدَ السِّيفِ بِالْمَاءِ وَصَفَهُ بِأَنَّ الْمَاءَ كَأَنَّهُ يَتَرَدَّدُ فِيهِ مِنْ أَعْلَاهُ إِلَى أَسْفَلِهِ وَمِنْ أَسْفَلِهِ إِلَى أَعْلَاهُ ، وَيَهُمُّ الْمَاءُ أَنْ يَسِيلَ مِنْ صَفْحَتِهِ فَلَا يَتِمَكَّنُ مِنَ السَّيْلَانِ ، لِأَنَّهُ مُحْصُورٌ فِي أَجْزَائِهِ ، وَقَوْلُهُ : يَكَادُ سَنَاهُ ... الْبَيْتُ فَالْسَّنَا : الضَّرْبُ ، وَقَرَّاهُ : قَطَعَهُ ، وَكَلَّ السِّيفِ وَالرَّحْ يَكِلُّ كَلُولًا : إِذَا تَبَا عَنْ الْعَمَلِ ، يَقُولُ : إِنْ هَذَا السِّيفُ جَمَعَ بَيْنَ النَّارِ وَالْمَاءِ فَهُوَ يُحْرَقُ مِنْ قَطْعِهِ وَيُغْرَقُ بِمِائِهِ مَنْ كَلَّ السِّيفُ عَنْهُ قَنَجَا مِنْهُ .

وقال إسحاق بن خَلَفَ :

أَلْقَى بِجَانِبِ خَصْرِهِ أَهْضَى مِنَ الْأَجْلِ الْمُنَاحِ
وَكَاثِمًا ذَرْتُ الْهَبَا عَلَيْهِ أَنْفَاسُ الرِّبَاحِ

وقال النابغة :

تَطِيرُ فِضَاضًا بَيْنَهُمْ كُلِّ قَوْنَسٍ وَيَتَّبِعُهَا مِنْهُمْ فَرَّاشُ الْحَوَاجِبِ

تَقْدُ السَّلُوقِيَّ الْمُضَاعَفَ نَسْجُهُ وَتُوْقِدُ بِالْصَّفَاحِ نَارَ الْحُبَابِ
 « بَضَضْتُ الشَّيْءَ أَفْضَهُ فُضًّا فَهُوَ مَفْضُوزٌ وَفِضِيضٌ : كَسَرْتُهُ وَفَرَّقْتُهُ ،
 وَفُضَاضُهُ وَفِضَاضُهُ : مَا تَكْسَّرُ مِنْهُ وَتَفْرُقُ ، وَالْقَوْنُسُ : مُقَدَّمُ الرَّأْسِ ،
 وَقَوْنُسُ الْبَيْضَةِ مِنَ السِّلَاحِ : أَعْلَاهَا ، وَالْفِرَاشُ : عَظْمُ الْحَاجِبِ ، أَوْ قِشْرَةُ
 تَكُونُ عَلَى الْعَظْمِ دُونَ اللَّحْمِ ، وَيُقَالُ : ضَرَبْتُ فِطَارَ فِرَاشِ رَأْسِهِ وَذَلِكَ
 إِذَا طَارَتِ الْعِظَامُ رِقَاقًا مِنْ رَأْسِهِ ، وَالسَّلُوقِيَّ : الدَّرْعَ الْمَنْسُوبَةَ إِلَى سَلُوقٍ ،
 وَهِيَ قَرِيبَةٌ بِالْيَمَنِ تُعْرَفُ بِسَاقِيَّةٍ وَإِلَيْهَا تَنْسَبُ أَيْضًا الْكَلَابُ السَّلُوقِيَّةُ ،
 وَالصَّفَاحُ جَمْعُ صَفَاحَةٍ وَهِيَ : كُلُّ عَرِيضٍ مِنَ الْحِجَارَةِ وَنَحْوِهَا ، وَالْحُبَابِ :
 الشَّرَرِ الَّذِي يَسْقُطُ مِنَ الزَّنَادِ يَقُولُ فِي الْبَيْتِ الثَّانِي : إِنَّ هَذِهِ السِّیُوفُ
 تَقْدُ — تَقْطَعُ — الدَّرْعَ الَّتِي ضَوْعُفَ نَسْجُهَا وَالْفَارَسَ وَالْفَرَسَ وَتَصِلُ
 إِلَى الْأَرْضِ فَتَقْدَحُ النَّارَ بِالصَّفَاحِ » .

وَقَالَ الْبُحْتَرِيُّ بِصَفِ الدَّرْعِ :

يَمْشُونَ فِي زَرْدٍ كَانَتْ مُتَوْنَاهَا فِي كُلِّ مُعْتَرَكٍ مُتُونٌ زَهَاءُ
 بَيْضٌ تَسِيلُ عَلَى السُّكَاةِ فُضُولُهَا سَيْلَ السَّرَابِ بِقَفْرَةٍ بَيِّدَاءُ
 وَإِذَا الْأَرِسَّةُ خَالَطَتْهَا خِلَتَهَا فِيهَا خِيَالٌ كَوَاكِبٍ فِي مَاءِ
 « زَهَاءُ جَمْعُ زَهَى ، وَالزَّهَى : الْغَدِيرُ »

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُعْتَزِّ :

كَمْ بَطَلٍ بَارَزَنِي فِي الْوَعْيِ عَلَيْهِ دِرْعٌ خِلَتَهَا تَطَرَّدُ
 كَأَنَّهَا مَاءٌ عَلَيْهِ جَرَى حَتَّى إِذَا مَاغَابَ فِيهِ جَمْدُ

وَقَالَ الْمُتَنَبِّي :

تَرُدُّ عَنْهُ قَنَا الْفُرْسَانِ سَابِقَةً صَوْبُ الْأَرِسَّةِ فِي أَثْنَانِهَا دِيمُ

تَحُطُّ فِيهَا الْعَوَالِي لَيْسَ تَنْفُذُهَا كَأَنَّ كُلَّ سِنَانٍ فَوْقَهَا قَلَمٌ
 « يقول في البيت الأول : تمنع الرياح من النفوذ في عدو الممدوح
 درع سابغة قد تلتطخت بالدماء التي تسيل من الاستة عليها ، أو أن وقع
 الاستة في هذه الدرع كديمة المطر تتابعا . ويقول في البيت الثاني : إن
 الرياح تؤثر في درعه ، أي نجرحها ، ولا تنفذها إلى جسمه ، حتى كأن
 أسننتها أقلام تحط في القراطيس ولا تخرقه » . وقال المعري :

إِذَا طُوِيَتْ فَالْقَعْبُ يَجْمَعُ شَمْلَهَا وَإِنْ نُثِلَتْ سَالَتْ مَسِيلَ رِمَادٍ
 وَمَا هِيَ إِلَّا رَوْضَةٌ سَدِكُهَا ذُبَابُ حُسَامٍ فِي السَّوَابِغِ شَادٍ
 عَلَى أَنَّهَا أُمُّ الْوَغَى وَابْنَةُ اللَّظَى وَأَخْتُ الظُّلَى فِي كُلِّ يَوْمٍ جِلَادٍ

« القعب : القدح الصغير ، ونثل الدرع ينثلها : إذا ألقاها على نفسه
 وصبها عليه ، والتماد جمع ثمد وهو : الماء القليل . يقول : إذا طويبت
 صغر حجمها بالطي حتى يسعها القعب . وإن لبست سالت على البدن
 كالماء . وقوله : وما هي إلا روضة ... البيت ، فسدك بالشئ : لزمه ، وشدا
 يشدو فهو شاد : إذا رفع صوته بالغناء ، شبه هذه الدرع بالروضة ،
 والذباب يجتمع في الرياض ويصوت فيها ، يقول : إن هذه الدرع روضة
 قد أولع بها ذباب السيف ، وهو : حذو الذي يتغنى في الدرع ، أي أنها
 درع لاتزال على بطل محارب تردها سيوف الأقران وتقارعها فيسمع
 صوت وقعها . وقوله : على أنها ... البيت فالجلاد : الضراب بالسيوف ،
 وجعل الدرع أم الوغى — أي الحرب — إذ أنها تجري تجري الأصل
 والملجأ الذي يلجأ إليه ، وجعلها ابنة اللظى — أي النار — لأنها إنما
 تمحلت بالنار ، وأخت الظبي — جمع ظبة وهي حذو السيف — إذ لاتزال

تردها ظلمات السيوف وتقارنُها ولا تؤثر فيها ، وصَفها بهذه الأسماء المنبثقة
عن القرابات مُريداً بها ما يناسبُها من المعنى .

ولأبي العلاء المعري في الدروع مقطوعات كثيرة ، لقد آتَن فيها افتناناً ،
وأبدعَ ما شاءت عبقريته تراها في سقط الزند .

وإذا أردت التوسع في وصف آلات القتال من السيوف والدروع
والرماح والقسيّ والنبال وما إلى ذلك فارجع إلى الموسوعات العربية ودواوين
الشعراء فسوف تَرى فيها الطمّ والرّم ، مما لعلّه ينفع عُلَمَكَ إن شاء الله .

تمّ الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث إن شاء الله



استدراكات وتصويبات أخرى

لما وقع في المجلد الأول من الأخطاء

جاء في صفحة ٤٢ من المجلد الأول من الذخائر هذا البيت هكذا :

إذا ظلم المولى فزعتَ لِظَلْمِهِ فحرك أحشائي وهزت كلابيا

وقد نهنا في تصويبات المجلد الأول : إلى أن فزعت صوابها فزعتُ
وهنا نحاول أن نشرح هذا البيت شرحا آخر علاوة على الذى أوردناه هناك في
شرحه فنقول : قال التبريزي : فحرك أحشائي يروى « وحرك أحشائي »
وهذا كما يقال : هذا أمرٌ قد حرك مِنِّي : إذا اضطربت له ، وقوله :
حرك أحشائي يجوز أن يكون تحركت أحشاؤه لوجيب قلبه وخفقانه ،
ونبت كلابه لتهيئته للانتقام وتدجيجه في السلاح وتجمع أصحابه ، والكلب
يُنْكِرُ أصحابه إذا رآهم بهذه الحال ، وأنشد الأصمعي في مثله :
أناس إذا ما أنكرَ الكلبُ أهله

حَمَوْا جَارَهُمْ مِنْ كُلِّ شَنْعَاءٍ مُظْلِمٍ
ووجه آخر ، وهو أن يكون تحركت أحشاؤه لإعداد ما يُعِدّه .
والمُتَسَرِّعُ يُلْحِقُهُ ذَلِكَ

* * *

وجاء في صفحة ٦٠ : ورأى عُمرُ بنُ الخطاب رجلاً يقول : أنا ابن
بطحاء مَكَّة ... الخ وصحة هذه الجملة كما جاء في الأغاني ج ٤ ص ٣١٨
طبعة دار الكتب هكذا : وسمع عُمرُ بنُ الخطاب رضى الله عنه رجلاً يقول
لآخر يفخرُ عليه : أنا ابنُ مُسْلَطِيحِ البَطَاحِ ، وابن كذا وكذا ، فقال له

عمر : إن كان لك عقل فلك أصلٌ ، وإن كان لك خُلُقٌ فلك شرفٌ ،
وإن كان لك تقوى فلك كرمٌ ، وإلا فذاك الحمار خيرٌ منك : أحَبُّكم إلينا
قبل أن نراكم أَحْسَنُكُمْ سَمَنًا ، فإذا تَكَلَّمْتُمْ فَأَبْيَسُكُمْ مَنَظَرًا . فإذا اخْتَبَرْنَاكُمْ
فَأَحْسَنُكُمْ فِعْلًا .

وجاء في صفحة ٧٩ من المجلد الأول : وقال حمادٌ عَجَرِدٌ في ذلك
من أبيات : بُثَّ النِّوَالُ وَلَا تَمْنَعَكَ قِلَّتُهُ الْحَ ، وصوابه هكذا : وقال بشار
ابن بُردٍ يهجو العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، وكان قد
سَمَّنَحَهُ فلم يَمْنَحَهُ :

ظَلَّ الْبِسَارِ عَلَى الْعَبَّاسِ مَمْدُودُ	وَقَلْبُهُ أَبَدًا فِي الْبُخْلِ مَمْقُودُ
إِنَّ السَّكْرِيَّ لَيُخْفِي عَنْكَ عُسْرَتَهُ	حَتَّى تَرَاهُ غَنِيًّا وَهُوَ بِجَهْدِ
وَلِلْبَخِيلِ عَلَى أُمُوَالِهِ عِلَلُ	زُرْقُ الْعَيُونِ عَلَيْهَا أَوْجَهُ سَوْدُ
إِذَا تَكَرَّهْتَ أَنْ تُعْطِيَ الْقَلِيلَ وَلَمْ	تَقْدِرْ عَلَى سَعَةٍ لَمْ يَظْهَرْ الْجُودُ
أَوْ رِقَ بِخَيْرٍ تُرْجَى لِلنِّوَالِ فَمَا	تُرْجَى الثَّمَارُ إِذَا لَمْ يُورِقِ الْعُودُ
بُثَّ النِّوَالُ وَلَا تَمْنَعَكَ قِلَّتُهُ	فَكُلُّ مَا سَدَّ فَقْرًا فَهُوَ مَحْمُودُ

وجاء في صفحة ١٢١ هذا البيت هكذا :

وما خُبْرُهُ إِلَّا كَعَنْقَاءٍ مُغْرِبٍ تَصَوَّرُ فِي بُسْطِ الْمُلُوكِ وَفِي الْمَثَلِ
وصوابه هكذا :

وما خُبْرُهُ إِلَّا كَعَنْقَاءٍ مُغْرِبٍ تَصَوَّرُ فِي بُسْطِ الْمُلُوكِ وَفِي الْمَثَلِ

وهو أحد أبيات لآبي نواس يهجو بها إسماعيل بن سهل وقيل هذا البيت :

على مُحَبِّزِ إسماعيلَ وافِئَةُ البُخْلِ فقد حَلَّ في دارِ الأمانِ من الأكلِ

وبعده :

يُحَدِّثُ عَنْهَا النَّاسُ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ سوى صُورَةٍ ما إِنْ تُمِرُّ وَلَا تُحَلِّي
إلى آخر الأبيات . والمُثَلُّ هُي المَثَلُّ جمع ، مِثَال وهو : ما يُقَسَّرُ من مفارَش
الصوف المُلَوَّنة ، وقوله : يُحَدِّثُ عَنْهَا النَّاسُ ... نضمير عنها لعنقاء مُغْرِب ،
وقوله : ما إِنْ تُمِرُّ وَلَا تُحَلِّي : قمر : تجلله مُرا وتحلى : تجعله حلوا والمعنى :
لا تأتي هذه الصورة بظائل إذ أنه لا حقيقة لعنقاء مغرب في الواقع وهذا
على حد قولهم : فلا أنت حُلُو ولا أنت مُر : أى لست هناك »

وجاء في صفحة ١٢٤ : فهى حق أريد بها باطل ، وصوابها : فهى حق أريد
به باطل .

وجاء في صفحة ١٥٩ : ولِى حُرُّ النِّعَم . وصوابها . ولِى حُرُّ النِّعَمِ

وجاء في صفحة ٣١٥ : لَمْ يَدْخُلْهُ يَأْذَنِي فَأُخْرِجُهُ يَأْذَنِي . وصوابها :
لَمْ يَدْخُلْهُ يَأْذَنِي فَأُخْرِجُهُ يَأْذَنِي .

وجاء في هذه الصفحة : قال ابن عباس رضى الله عنه ، وصوابها قال ابنُ
عبَّاس رضى الله عنه ، « وهذا ابن عياش هو أبو بكر بن عياش المُحَدِّث
المتروكى سنة ١٩٣ هجرية وقد ترجم له ياقوت في معجم الأدباء « ج ٧ ،

وقد وردت فيه حكايتنا هكذا : قال أبو بكر بن عياش : كنت إذ أنا شابُّ إذا أصابتنى مُصيبةٌ ، تَصَبَّرْتُ وَرَدَدْتُ البكاء ، فكان ذلك يَرِجُمُنِي وَيَزِيدُنِي ألمًا ، حتى رأيت بالكُناسة — محلة بالكوفة — أعرابياً واقفاً وقد اجتمع الناس حوله فأنشد :

خَلِيلِيَّ عَوْجًا مِنْ صَدُورِ الرُّوَاهِلِ بِجَهْوَرِ حُزُونِي وَأَبْكِيَا فِي الْمَنَازِلِ
لَعَلَّ انْحِدَارَ الدَّمْعِ يُعْقِبُ رَاحَةً مِنْ الْوَجْدِ أَوْ يَشْفِي نَجْمِي الْبَلَابِلِ
فَسَأَلْتُ عَنْهُ فَقِيلَ : ذُو الرُّمَّةِ ، قَالَ : فَأَصَابَتْنِي بَعْدَ ذَلِكَ صَائِبٌ فَكَنتُ أَبْكِي
فَأَجِدُ رَاحَةً ، فَقُلْتُ : فِي نَفْسِي : قَاتِلِ اللَّهُ الْأَعْرَابِيَّ ، مَا كَانَ أَبْصَرَهُ وَأَعْلَمَهُ !



أغلاط مطبعية

في هذا الجزء الثاني

صواب	خطأ	ص سطر
وفي باب العزم	وفي باب الغرم	١٢ ٧
فُصِيرَكَ	فُيْصِيرُكَ	٤٤ ١
حَسَنُ الكِدْنَةِ - بكسر الكاف	حَسَنُ الكِدْنَةِ	٤٦ ٤
وضمها - : أى السَّمَن		
فَكَأَنَهَا	فَكَأَنَهُ	٤٨ ٢٠
عَلَّتَهُ	عَلَتْهُ	٦٠ ٢٠
عُلُوُّ	عُلُوٌّ	١٠٠ ١٢
فَإِنْ يَكُ جُرْمٌ	فَإِنْ يَكُ حُرْمٌ	١٢١ ١٤
قال زُفَر بن الحارث	قال من لا أذكر اسمه	١٢٢ ١٥
١٦٢ ١٩ و ١٧ فصل بينهما	١٩ و ١٨ و ١٦٢ يلاحظ في هذه الأسطر أن السطرين ١٧ و ١٩ فصل بينهما	
سطر أجنبى عنهما		
الشاعر البَيْغَاء	الشاعر البَيْغَاء	١٦٨ ١٣
نهِيم عن الغضب من المرح	نهِيم عن الغضب في المرح	١٨٤ ١١
أَيَّ يَوْمَى	أَيَّ يَوْمَى	٢٢٩ ١٠
وَانْجَلَى الزَّبْدُ	وَانْجَلَى الزَّبْدُ	٢٤٠ ١٧
إِنَّ العَدُوَّ	إِنَّ العَدُوَّ	٢٤٤ ٨
بيد أن مبناهما	بيد أن معناها	٢٤٧ ٥
سحاب	سحاب	٢٥١ ٤

فهرس الجزء الثاني

من الذخائر والعقريات

عقريات شتى

تندرج في الابواب السابقة

سمر أخلاق الخلفاء الراشدين ٢ طلحة بن عبيد الله ٣ حادث تلاقى فيه الكرم بالشجاعة والمروءة
والحياء والتيل ٧ حلم وأدب وسمو خلق ٩ خير ما يرزقه العبد ١٠ لانزال العرب عربا ماحافظت
على زبها ١٠ توقير العالم والشريف والكبير ١١ عبرة ١٤ لاتشك إلى غير الله ١٥ نبالة
وسروة ١٥ دعوة الله ١٦ كلمات في السؤال ١٦ كوايرون أن الملوك لا يستحي من مسألتهم ١٦
مثل في الربا ١٨ المم نصف الحرم ١٩ مثل الدنيا وآفتها ١٩ عمرو بن العاص يصف حاله في
احتضاره ٢٠ ماذا قال عبد الله بن الزبير حين آتاه خبر مقتل أخيه المصعب ٢١ إذا ضيقت شيئا
ضاق جداً ٢٢ لاتلهن على ما فاتك ٢٢ ومن قولهم في الحث على التعزى ٢٣ لكل غد طعام ٢٤
الثام مولعون بايذاء الكرام ٢٥ آيات في الصبر والشجاعة والكرم ٢٦ آيات حكيمة ٢٧
آيات من لم يروها فلا مروءة له ٣٠ حكم ومواعظ ٣٢ في الموت ٣٥

طائفة من عقرياتهم في النعازى

التسليية بعد وقوع المخذور ٣٧ من دواعى التسلى قرب الاحق بالميت ٣٨ من تعازى الملوك
وتدليهم بأن الناس جميعاً مصابون ٣٨ التسلى بأنهم معزى لامعزى به ٣٩ التسلى عن مضى بمن بقى ٣٩
من تسلى بماله من الثواب وبعض تعازيهم ٤٠ من مات له كثير من أهله فصبر ٤١ ومن ادعيتهم
لذوى المصيبة ٤٢

عقرياتهم في الطب والمرض وعيادة المرضى

ممنى الطب ٤٢ وصف طبيب حاذق ٤٢ الطبيب الجامل ٤٣ مدح الحية وذمها ٤٣ شرب
الدواء ٤٤ سياسة الأبدان بما يصلحها من الطعام وغيره ٤٥ من تناول طعاما وتحقق تولدعة
منه ٤٧ الحى ٤٨ الرمد ٥٠ التفرس ٥١ عود إلى عقرياتهم في الشداوى والأدوية ٥١
شهوة المريض إلى الطعام ٥٢ شكوى العلة ٥٢ فضل الصحة والعافية ٥٣ نفع المرضى ٥٤
وصف العلة بأنها تنال الأمان ٥٤ وجوب عيادة المريض ٥٦ أدب عيادة المريض ٥٦ شكاية
من لا يعود إخوانه ٥٧ الاعتذار عن ترك العيادة ٥٧ من علاه مريض ٥٧ مريض عاد صحيحا ٥٨
حنهم العائد على تنفيط المريض ٥٨ حنهم على تخوفه ليتجنب المضار ٥٨ تغير اللون ٥٨ شهنة
من برأ من المرض ٥٩ نفدية المريض ٦٠

عقريات شتى ٦١ { في الطب والمرض والعبادة

الباب الرابع في كتمان السر وإفشائه

وعقرياتهم في ذلك وفيما يجري هذا المجرى

من الشورى والاستبداد بالرأى والنصح والإناة والعجلة

تمهيد ٦٤ حفظ اللسان ٦٥ منع إظهار السر قبل تمامه ٦٦ حثهم على حفظ السر ٦٦ من
بكره اطلاعه على السر ٦٧ المتعثر بحفظ السر ٦٨ المدح بحفظ السر ٦٨ صموبة حفظ
السر ٧٠ من لا يحفظ سره ويستهبط غيره ٧٠ الأحوال التي يفشو فيها السر ٧١ المسارة في
الحافل ٧١ المتجسس باظهار أسرار أصدقائه ٧٢ الرخصة في إفشاء السر إلى الصديق ١٢ عقريات
شتى في كتمان السر ٧٣ عقرياتهم في المشورة والاستبداد بالرأى ٧٦ مدح المشورة ٧٦ حثهم
على مشاورة الخازم اللبيب ٧٧ إفساد الكبار والصغار ومن يعتمد على مشورته ورويته ٧٨ من
يجب أن ينجب استشارته ٨١ وجوب نصيحة مستشيرك ٨١ الحث على قبول النصيحة وإن كان مرأ ٨٣
عتاب من لم يقبل النصيحة ٨٣ ضاع النصيحة لمن لا يقبله ٨٣ معاتبة من يستنصحن الناس ويستنصرون
الناس ٨٤ الناصح منهم ٨٥ وصف غاش في نصيحة ٨٦ الاستبداد وكره المشورة ٨٦
المتفادى من أن يستشار ٨٨ مدح الإناة والروية وذم العجلة ٨٨ مدح العجلة وانتهاز الفرص ٩٠
عقريات شتى في المشورة ٩١

عقرياتهم في الوعظ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

نهي من لم ينطق عن الوعظ ٩٥ حثهم على الوعظ بالفعال دون المقال ٩٥ التلطف واللين في
الوعظ ٩٦ الحث على الانعاط ٩٦ وعظ من لا يعظ ٩٦ حثهم على قبول وعظ من ليس
يعظ ٩٧ النهي عن الاقتداء بذي الزلات ٩٧ الحث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيها ٩٧

الباب الخامس

في الحلم وكظم الغيظ والعفو والغضب والانتقام وما إلى هذه المعاني

تمهيد ١٠٠ المدح بالحلم وتمدهم به ١٠٢ فضل كظم الغيظ ١٠٤ الغضب وألوانه وما يمكن
به ثوراته ١٠٥ من اجتهد في إغضابه فعلم ١٠٧ حثهم على ترك الغضب المؤدى إلى الاعتذار ١٠٩
حثهم على انتصام عن الفحيح وتمدهم بذلك ١١٠ حثهم على العفو مطلقاً ١١٠ التحمل عن الخدم ١١١
الرحمة ومدح ذريها ١١٢ ما يستحسن فيه الحلم من الكبار وما يستفح ١١٢ حثهم على در
الحدود ١١٣ حث القادر على العفو ١١٣ ذم المتشقي من الغيظ ١١٤ مدح من صفيح =

قدرة ١١٥ الحث على إقالة من سلم ظاهره ١١٥ العفو عن سلم باظه ١١٦ عتب من يحفظ الذنب
بعد تقادمه ١١٧ العفو عن المقر المعترف ١١٧ نحن العفو عن المص ١١٨ استعفاء من خلط
لإقرارا بانكار ١١٨ معذوم مع إنكار ١١٩ معذوم بتكذيب نفسه ١٢٠ استعفاء من زعم أن
ذنبه كان خطأ ١٢١ مستعفى سأل أن يقوم ويؤدب ١٢٢ مستعفى سأل العفو لفرط خوفه ١٢٢
مستعفى اتكل على سالف حرمته ١٢٢ الاستعفاء للذنب من قوم محنين ١٢٣ متوصل إلى العفو
بمراجعة أو حجة ١٢٣ مستعفى ذكر فرط خوفه من الوعيد ١٢٣ من استعفى واستوهب معاً ١٢٤
المتوصل إلى العفو بالتثبت إلى حين التبيين ١٢٥ نهي الثاني عن اتئيب ١٢٥ نهيهم عن الاعتذار
وصعوبته ١٢٦ تأسف من يعاتب بغير ذنب ١٢٧ التهي عن الحلم إذا كان يسبب ذلاً أو ضراً ١٢٨
دفع الجهل بالجهل ١٢٩ من نهي عن الاعتذار بحله ١٣٠ الحلم مغر وضار مذل ١٣٠ نهيهم
عن إكرام اللئام ١٣١ الاستعانة بالجهل لدى الحاجة إليه ١٣٢ حث القادر على العقاب قبل
فوته ١٣٢ التبيح بقسوة القلب وقلة الرحمة ١٣٣ أخذ البريء بذنب الجاني ١٣٤ عذر من
بدر منه سخط ١٣٨ الاحتراس من غرس العداوة ١٣٨ نهيهم عن الاعتذار بالود تسيطن معه
العداوة ١٣٩ نهيهم عن السكون إلى من تقدم منك إليه إساءة ١٤٢ نهيهم عن احتقار العدو ١٤٣
التبيح باظهار اللئام وإضمار العداوة ١٤٤ العدو يكاشرك إذا حضرك ١٤٥ من نظره نبى
عن عداوته ١٤٥ ثبات العداوة الذاتية ١٤٧ حمد المدحاة طلباً للفرصة ١٤٧ المسرة بوقوع
العداء بين أعدائك ١٤٨ ذنب يعاديك بلا سبب ١٤٨ تأسف من يعاديه لئيم أو ذنب ١٤٨
نهيهم على العداوة بالقول لا بالفعل ١٤٩

طائفة من عبقریاتهم

في الناس وما جبل عليه السواد الأعظم
من الحقد والحسد وسوء الظن والشماتة وما جرى هذا المجرى

الناس - لا يزال الناس بخير ما نبأوا ١٤٩ وجدت الناس أخيراً قلة ١٥١ الناس كابل مائة لا تجد
فيها راحلة ١٥١ لوتكاشفت ما تداقتم ١٥٢ تفريق في الناس والوهم ١٥٢ الفوغا ١٦١ قلة
الوفاء في الناس وشيوع الغدر والمكر في عامتهم ١٦٣ الاندال والثام ١٦٦ الظن ١٦٨
الشماتة ١٧٠ الحقد ١٧٠ ذم الحقد ومدحه ١٧١ الحسد ١٧٤ المزاح ١٨٢ نهيهم عن
المزاح ١٨٢ حدم القصد في المزج ومزاج الأمان ١٨٣ نهيهم عن الغضب من المزج ١٨٤ المدح
بأن فيه الجدة والمهول ١٨٤ عذر من يضحك وهو محزون ١٨٥ نهيهم عن كثرة الضحك ١٨٥
إيراد جد في سلك هول ١٨٥ صدر من عبقریاتهم في الفية والشماتة - حقيقة الفية ١٨٦ ذم الفية
والشماتة ١٨٦ من سمحت نفسه بأن يكون في حل ومن لا تسمع نفسه ١٨٨ من قلت مبالاته بمن
اغتابه ١٨٨ ذم ناقص بكتاب فاضلاً ١٨٩ من رمى غيره بعيه ١٩٠ اغتاب المرء غيره يدل على
عيه ١٩٠ تشبي الفية واستطابتها ١٩١ من اغتاب فاغتاب ١٩٢ نهيهم عن الاصفاء إلى
الغتاب ١٩٢ المدح بصيانة مجلسه عن الفية ١٩٢ منهم على التثبت فيما يسمع من السعاية ١٩٢
صعوبة التخلص من اغتياب الناس ١٩٥ ذم ناقل الفية ١٩٦ الموصوف بالفيه ١٩٦ من اغتاب
غيره فرآه ١٩٦ من لا يعم اغتيابه ١٩٧ حشم على التحرز عما يقتضى الفية ١٩٧

الباب السادس

في التواضع والكبر وما إليهما

حد التواضع والكبر ١٩٨ حثهم على التواضع ٢٠٠ ذمهم التكبر ٢٠٣ بهضدوا على التكبر ٢٠٤
متكبر ذن أو فقير ٢٠٥ مدحهم معرفة الرجل قدر نفسه وذمهم الصلف وبعض نوادر المزهوين ٢٠٥
معتذر لعجه وعزته ٢٠٧ التكبر على ذوى الكبر ٢٠٧ ذمهم الافراط في التواضع ٢٠٨ حد
تعظيم الكبار ٢٠٨

الباب السابع

في الشجاعة وعقوباتهم فيها

وفي الصبر في القتال وسائر ما يتصل بالحرب

حقيقة الشجاعة ٢١٠ الأسباب المندجة ٢١١ حثهم على الثبات والاقدام ونهيمهم عن الاحجام
والفكر في العواقب ٢١٢ البادر إلى الحرب غير مبال بها ٢١٥ حث من دعى إلى المبارزة على
الاجابة ٢١٦ المنازل وقت المنازلة ٢١٦ صدر من عقوباتهم في الصبر ٢١٧ الخدعة والحيلة
واتحز في الحرب ٢٢٠ ما ينبغي أن يتصف به أمراء الجيوش ٢٢٢ حثهم على التفكير قبل
اتقدم ٢٢٧ من يؤثر الموت في العز على الحياة في الذل ٢٢٨ نهيمهم عن مخافة القتل وحثهم على تصور
الموت وتمدحهم بذلك ٢٢٩ الجود بالنفس وحب الموت في الوغى وأنفتهم من الموت على الغرائس ٢٣٤
من يحوض الحرب لا بد أن يوطن نفسه على الموت ٢٣٨ في القتل حياة ٢٣٨ تأثير الخوف والخوف
منه والوفى على الجماعة ٢٣٩ المدوح بقوة نفسه دون جسمه ٢٤٣ اتقصد إلى العدى بمجاهرة ٢٤٤
المقاتل عن حربه ٢٤٤ المستنكف من السلب ٢٤٥ الشبان والكهول في الحرب ٢٤٦ العاجز
أعاده عن إصلاح ما أفسده وعكس ذلك ٢٤٨ من تصحبه العاير والسباع في القتال ٢٤٩ عذر من
يلبس الدروع ونحوها في الحرب والمستغنى بشجاعته وبثينه عنها ٢٥٢ تحريم للملاهي على المحارب ٢٥٤
طائفة من عقوباتهم في الصلح والتحذير من الحرب ٢٥٦ الحرب تصيب جانبها وغير جانبها ٢٦٠
المتنع من الصلح ٢٦١ ضارع يطلب الصلح ٢٦٢ المعير بانتهزاه ٢٦٧ ترك اتباع المنهزم ٢٦٨
القار وقت الفرار وثبات وقت الثبات ٢٦٩ المتفادى من حضور الحرب والاحتج لانتهزاه بالخوف من
القتل ٢٧٠ حارب يعتذر عن هربه ٢٧١ التخلف عن قومه ٢٧٢ من نجا وقد استولى عليه
الخوف ٢٧٣ تلبية المنهزم ٢٧٤ صدر من عقوباتهم في الجبن ٢٧٥ من يظهر الشجاعة خارج
الحرب ويحب فيها ٢٧٧ عقوبات شتى في الشجاعة والحرب ٢٧٧ ماغرى قوم قط في عقر دارهم
إلا ذلوا ٢٨٢ صدر من عقوباتهم في وصف آلات الحرب ٢٩٦ استدراكات أخطاء في الجزء الأول ٣٠٤
استدراكات أخطاء في الجزء الثاني ٣٠٧ الفهرس ٣٠٨